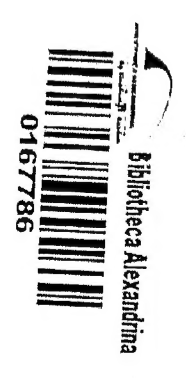
أمبرتو إيكو

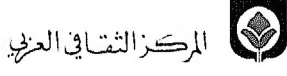
القارئ في الحكاية

التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية

ترجمة: أنطوان أبو زيد









القارئ في الحكاية

* القارىء في الحكاية
* تأليف: أمبرتو إيكو
* ترجمة: انطوان أبو زيد
* الطبعة الأولى، 1996.

* الناشر: المركز الثقافي العربي.

العنوان:
□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) * فاكس /305726/ * هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس * هاتف /271753 - 276838/ * ص.ب./4006/ درب سيدنا.

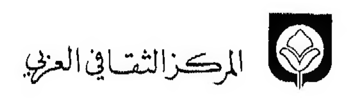
□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
* ص.ب/ 113-5158/ * هاتف/ 352826 - 343701/ * فاكس/ 00961-1-343701/.

أمبرتو إيكو

القارئ في الحكاية

التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية

ترجمة:
أنطوان أبو زيد



خمس سنوات مرت، منذ أن فكّرنا بترجمة عمل أو أكثر لأمبرتو إيكو، وكلما كنت أطرح الفكرة على أحد الأصدقاء، كان يأتيني جوابًا يثنيني عن عزمي، ومبرر ذلك دائماً، أنه يكتب للخاصة، وأن ترجمته صعبة جداً.

هل وفق انطوان أبو زيد في نقل هذا الكتاب إلى العربية؟ نترك لكم هذا الحكم. إنما من جهتي أشكر أبو زيد على صبره ومكابدته للمصاعب الكثيرة التي وقفت أمام هذه الترجمة، لأن أسلوب الكاتب الكبير أمبرتو إيكو صعب وغير عادي، ويستدعي معرفة بالمنطق والفلسفة وعلم الاجتماع وكل متفرعات علم الأدب.

هذا الكتاب الموجّه إلى قارىء يمتلك موسوعة غنيّة، حسب تعبير إيكو، كان بحاجة لموسوعة غنيّة جداً ومتنوعة لدى المترجم، للوصول إلى عمق المعنى وأبعاده، وهذا يتطلب جهداً في البحث عن التعبير واللفظ المناسبين، واستنباط معاني والمغامرة باستخدام مصطلحات واشتقاقات ليستطيع التعبير عما يريده عالم كأمبرتو إيكو. وقد اضطر أبو زيد أكثر من مرة لتغيير بعض المصطلحات والمفاهيم أثناء العمل على تنضيد الكتاب.

وها هو الكتاب بين أيديكم، ضمن الممكن، إذ لم نستطع أن نتكلّف على الكتاب أكثر مما فعلنا. لأسباب عديدة، أهمها أننا سنطبع من هذا الكتاب ألفي نسخة فقط، متخوفين ألاّ يجد هذا الكتاب الألفي قارىء من قرّاء العربيّة. وهذه مشكلة تؤثر على الترجمة إلى العربية وتجعلها أقل مما يفترض.

إننا نتوقع أن تصدر اعتراضات على استخدام المصطلحات أو على الترجمة عموماً، وقضية الترجمة هذه قضيّة صعبة في عالمنا العربي، إذ تستدعي تضافر جهود كثيرة لأنها تمسّ عملية تطوير وإنعاش اللغة العربيّة عبر رفدها بالكثير من المصطلحات والاشتقاقات لتواكب التحولات المعرفيّة التي يشهدها عالمنا على شتى الصُعد، كما تحتاج إلى حوار وصولاً إلى تحديد أصول العمل على الترجمة. ونحن أمام خيارين: إما أن ننشر ترجمات في ظل الوضع القائم وإما ألاّ ننشر. وقد اخترنا أن ننشر دون أن يعني ذلك أننا اخترنا الأفضل أو الأسوأ.

في هذا الكتاب، سنجد تعابير جديدة قد لا تعجبنا استخداماتها، ولكن لنتساءل ألا يبدأ الجديد دائماً، بإثارة زوبعة من الاعتراضات التي قد تنفيه أو تعدّله أو تؤكد صحته...

أظن أن هذه الاعتراضات، إذا أخذت بعين الاعتبار مصاعب التعبير عما في هذا النص، وأن هذا الاجتهاد اجتهاد شخصي له الحق في تصور المعنى طالما أنه يلتزم بالقواعد المفترضة للاشتقاقات اللغوية، وهو يحاول إطلاق المعنى نحو تجديد أو خرق أو توليد أو لحم أو... وإذا أخذت بعين الاعتبار أيضاً؛ ضعف المعاجم ومشكلة المصطلح، فإن الحكم سيكون لصالح هذا العمل. وهنا فإن الدكتور انطوان أبو زيد يستحق الشكر لترجمته هذا الكتاب ووضعه في متناول عدد كبير من قرّاء العربية الذين يسمعون كثيراً بأمبرتو إيكو ولم يقرأوا له بعد.

الناشر

ملاحظات للقراءة

١ - بسبب كثرة المصطلحات وتعدّدها وتنوّع موضوعاتها، لجأنا إلى ترك هامش في كل صفحات الكتاب وضعنا فيه الكلمة بلغتها الأصليّة. وقد ميّزنا هذه المصطلحات في النص بأن طبعناها بأحرف مسوّدة وبارزة. وهكذا فإن كل كلمة مسودة (أسود) في النص يقابلها الأصل الأجنبي في الهامش، مما يسهّل القراءة فلا تُثقل النص بكلمات أجنبيّة، ولا تُثقل على القارىء بكثرة الإحالات على الهوامش أو على مسرد المصطلحات، كما جرت العادة في صناعة الكتاب.

٢ - في حال وجود كلمتين مشدّدتين في سطر واحد، لجأنا لوضع الكلمة الأولى على مستوى السطر ثم الكلمة الثانية تحتها.

٣ - يوجد في الكتاب إحالات، جاءت في أصل الكتاب وهي مرقّمة بأرقام هوامش كما جرت العادة، ويتم الرجوع إليها في نهاية كل فصل.

مدخل

حين كنتُ منصرفاً ما بين عامَيْ ١٩٥٨ و١٩٦٢ إلى تأليف كتابي opera operta (والذي ترجم إلى الفرنسية عام ١٩٦٥ تحت عنوان L'Œuvre ouverte، العمل المفتوح)، كان يشغلني الإلمام بالكيفية التي يتسنى لعمل فنّي عبرَها أن يفترض تدخلاً تأويلياً حرّاً، من جهة، وأن يمثل، من جهة أخرى، خصائص بنيوية قابلة للوصف تحركُ نظام تأويلاته (النتاج) الممكنة وتسعى إلى ضبطه. والحال فقد أدركتُ متأخراً أنني طالما اشتغلتُ في التداولية، بلا معرفة، أقلّه في ما يدعونه **علم تداول** النص أو جمالية التلقي. وأزمعتُ على معالجة جانب **النشاط التعاضدي** الذي يعمل على حثّ المرسل إليه على أن يستمدّ من النص ما لا يقوله، بل ما يصادر عليه مسبقاً، وما يَعدُ به، ويتضمنه أو يضمره[1]، وذلك من أجل أن يملأ الأمداءَ الفارغة، ويربط ما بَيْنَ هذا النص وبقيّة **التناص** حيث يولَدُ وحيث يؤول إلى الذوبان.

Pragmatisme.

Activité coopérative

Intertextualité

ولئن كنت أفدتُ من مفاهيم دلالية مرتبطة بطرائق ظواهرية، وتأثرت بنظرية التأويل خاصة «لويجي باريسون»، فإن هذه الأدوات بدت لي غير كافية لتحليل استراتيجية نصّية كاملة. على هذا، فقد أنجزتُ أجزاءَ الكتاب (opera operta العمل المفتوح) الأول بين الخمسينات وبداية الستينات، ويمّمْتُ، من ثم، شطرَ أبحاث الشكلانيين الروس، واللسانية، وعلم الإناسة البنياني، وشطر اقتراحات جاكوبسون السيميائية وأعمال بارت.

L'Œuvre ouvert.

ولما صَدَر كتاب «**العمل المفتوح**» في ترجمته الفرنسية جاء يحمل في ثناياه طابع هذه المؤثرات. وفيما بعد، جاءت نظرية غريماس في علم الدلالة، لتثري أفكاري حولَ بنية النتاج؛ في حين أعانني اطلاعي على پيرس، على إيضاح حيوية التأويل.

بيد أنه إبَّانَ انطلاقة السيمياء البنيوية، عنيتُ بداية الستينات، كان الاعتقاد السائد أنَّ النص ينبغي أنْ يعالَج في صلب بنيته الموضوعية، كما تتبدَّى للناقِد في سطحها الدال. وبالمقابل، فقد أهملَت مداخلة المرسل إليه (المتلقي) التأويلية، وباتت في الظل، هذا إن لم تُلغَ كلياً، لاعتبارها لوثة منهجية. وحتّى لو لم يكفَّ جاكوبسون نفسه عن التذكير، ومن وجهة بنيوية أكيدة، بضرورة اعتبار الفئات، من مثل المرسِل والمرسَل إليه والسياق، لازمةً وضرورية في معالجة مسألة التواصل الجمالي.

وأنا، إذ أشيرُ إلى هذه النقاشات، إنما لأدلَّ على السبب الذي أبقى جهودي الأولى في علم التداول النصّي، والتي بذلتها لتطبيق هذا العلم على النصوص الفنّية، بعيدةً عن الاكتمال. وكنتُ قد انسَقْتُ إلى مغامرة الكشف عن حيوية التأويل (وسوء الفهم، أو التضليل في فك الرموز في ميدان الاتصالات العامة، حيث كانَ من البديهي ألاَّ يُصرف جُلّ الاهتمام على المواضيع النصية، إنَّما أنْ يُعنى باستخدام المجتمع إياها. إلى ذلك، فقد سعيتُ إلى التشديد على طبيعة **الأعراف** السيميائية، وعلى بنية الكودات، سواءً بسواء.

الأعراف: Conventions

ومن هذه الوجهة، ينبغي النظر إلى بعض أعمالي، شأن «**رؤيويات ومكمِّلات**» «Apocalittici e integrati» لعام ١٩٦٤ (والذي تُرجمت بعض أجزائه دون غيرها، إلى الفرنسية)، و«**البنية الغائبة**» Struttura assente، الصادر عام ١٩٦٨، وبعض الأعمال الأخرى، إلى أن بلغت كتاب «أطروحة في السيمياء العامة» (Trattato di semiotica generale) الصادر عام ١٩٧٥. على أنني عنيتُ في هذا الكتاب، بمعالجة مسألة نموذج دلالي يكون على شكل موسوعة، تأخذ في الاعتبار متطلبات التداولية، في إطار من علم الدلالة المعروف. وقد تابعتُ اشتغالي هذا في

أعمالي المتلاحقة، في كتابي الصادر ههنا، كما في أحدث كتبي، وعنيتُ به «Semiotics and philosophy of language»، أي «سيميائيات وفلسفة اللغة» الصادر عام ١٩٨٤.

ولئن كانت كل هذه الدراسات قد طاولت، بالإجمال، المسألة الجمالية بصورة عرضية، فإنها هدفَتْ إلى تحديد الأسس النظرية التي يجدر أن يقوم عليها اختبار «**الانفتاح**»، الذي كنت تكلمتُ عليه (دون أن أصوغ قواعد لَهُ) في كتاب «العمل المفتوح».

الانفتاح: أي قابلية التأويل التي يكون عليها نص، أو انفتاحه على التأوّل.

يتضح مما تقدم السبب الذي دَفَعني إلى إصدار هذا الكتاب بالإيطالية، عام ١٩٧٩[٢]، والحال أني جمعتُ فيه سلسلةً من الدراسات أجريتها ما بين عامَيْ ١٩٧٦ و١٩٧٨ حول آلية التعاضد التأويلي في النصوص الشفاهية، ولا سيما هذا النوع من النصوص التي ننحو إلى تحديدها حدسياً، بأنها «حكائية». لذا فإنَّ غاية هذا الكتاب هي أَنْ تعالج ظاهرة **الحكائية** المعبَّر عنها لفظياً باعتبارها موضع تأويل من قِبَل قارىء مُعاضِد. وينبغي أن يكون جلياً في نظر القرّاء إصراري على تعيين هذه الحدود. إذ لن أعالجَ في هذا الكتاب، شأنَ «العمل المفتوح»، كلَّ نماذج النصوص (الموسيقية، والبَصَريّة، إلخ..)؛ إنما أهدفُ به، حصراً، إلى دراسة النصوصِ اللفظية، وبالمقابل، لن يكون دأبي الاهتمامَ، بصورة بيِّنة، بنموذج التأويل هذا الذي قد يؤول إلى إحقاق الأثر الجمالي (أكانَ رغبةً في النص أو متعةً به). بل أحاولُ، في هذا الكتاب، أن أشرح «كيف» نفهم نصاً، وليس بالضرورة كيف نفهم عملاً فنياً. بيد أنني لا أنكر أن عدداً من الملاحظات التي أبديتُها، من شأنها أن تساهم في تنمية جمالية للتأويل والتلقّي. وما لا أرغَبُ فيه هو أن يرميني البعض، كما يحدث لي أحياناً، بتهمة مفادها أنني لم أفسر «سرَّ الفنّ». إذ لا يجوز أن يلوم الناسُ روّادَ الفضاء الذين بلغوا القمر وحطوا على سطحه، لكونهم لم يمضوا إلى المرّيخ. والحقُّ أنّ العكس صحيح: أفلا يعدّ هؤلاء عدتهم، بوصولهم إلى القمر، لكي يبلغوا المريخ ذات يوم؟ مَنْ يدري؟ أما أنا فبي أملٌ راسخ في أَن أبيِّن أنّ إوالية التعاضد النصِّية، التي أزمع على معالجتها ههنا، يسعها الانضواء في نظرية أعمّ تكون قادرةً على شرح ما يجده

Narrativité

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القارىء (الناقد) في نتاج أدبي، وتبيان السبب في المتعة المتحصلة من قراءته.

ثم أنني شئتُ التشديدَ على مظهر آخر لهذا الكتاب (مظهر يسوِّغه التأثير العميق الذي خلّفتْهُ سيميائية بيرس في أعمالي إبان السنوات العشر الأخيرة): وهو أن يُرى إلى النص الحكائي، مأخوذاً «من أسفل». وفي مقابلة ذلك، ثمة سيميائيات تعالج الحكائية (ولا سيّما سيمياء غريماس على سبيل المثال، وهي الأكثر إقناعاً بلا منازع) بأن تتناولُ النص من أعلى. ولئن كانت هذه الصورة لا تفي للإبانة، فإننا نقول إنها (أي السيميائيات) تتناول النص من أعمق جذوره **التكوينية** (في حين أسعى إلى مبادأتِه من على سطح فعل القراءة). إنه لمن الأهمية بمكان أن يدرس المرء كيف يُصنع النص، وكيف ينبغي أن تكون كلّ قراءة له إبانةً محضة عن مسار تكوين بنيته. وها أنا راسخ اليقين في ما أقول. على أنني أظنّ أن ما يوازي ذلك أهمية أن يدرس الناقد كيف يُقرأ النص (بعد أن يُصنع)، وكيف أنّ كل وصف لبنية النص ينبغي أن يكون وصفَ حركات القراءة التي تقتضيها، في آن معاً. على ما يبدو لي، فإنَّ هذين المظهرين يكمل واحدهما الآخر، لذا يتوجَّب على سيميائية النص أن تأخذهما، كليهما، في الاعتبار. إذاً، لقد اخترتُ سبيل الأسفل، إلاّ أن هذا لا ينفي تلاقي سبيل الأسفل بالأعلى، فيِ الخَطّ الذي رسمته بنفسي. إنما يتضح لي غايةً في الضرورة أن يتلاقى المساران (يعني ذلك أنه، في نهاية المطاف، ينبغي لهذين المسارَين أن يلمّا بالنص عينه، وبنشاطِ الإنتاج والتأويل النصيين نفسيهما).

Générative

ورأيتُ أن أخص الفصل الأخير من الكتاب بتأويل قصة للكاتب ألفونس ألّيه (Alphonse Allais) وهي بعنوان: «مأساة باريسية حقاً» (والمشار إليها في الملحق I). إلا أنه كان أحرى بي أن أحيل القرّاء، لدى كل فصولِ الكتاب، إلى هذه القصة، تيسيراً لاقتباس العيّنات منها وتحليلها. وها أنا أدعو القارىء أن يقرأ هذه القصة للحالِ، مرةً واحدة، وفي إيقاع قراءة عادية إذا أمكن، ثم أن يتركها جانباً ويقرأ كتابي. والواقع أنّ بي حاجة إلى قارىء يكون قد

تمثّل خبرات القراءة التي مررتُ بها عينها، أو يكاد.

أما لماذا اخترت أن أجعل محورَ كتابي يدور حول هذه الحكاية؟ فلا يقتصر الأمر بالنسبة لي، على اتخاذ نص أوحد يكون مرجعاً، أقيس به فرضياتي النظرية، خطوة خطوة، وأتبين صلتها **بمدوَّنة** متجانسة فحسب. Corpus كلا. ذلك أن كل خطابات هذا الكتاب إنما نشأت من الحيرة التي ساقتني إلى لججها، لسنوات خلت، هذه الحكايةُ يوم قرأتها للمرة الأولى. والحال أنَّ الحكايةُ المذكورة، كان سبقَ أن رواها لي أحدهم. ومن ثم اكتشفت اختلافات عجيبةً بين النص الأصلي وبين الملخص الذي كان صاغه آخرون لي عنه، وبين ملخص الملخص الذي صغته بنفسي حين قصدتُ إلى روايتها. هكذا، ألفيتني أزاءَ نص «يصعب تلخيصه»، ويحتمل أن يخرج نتائج تأويلية مخالفة.

آنئذٍ شرعتُ بمخالطة الحكاية مخالطة مديدة، آثرتُ أن أسجّل مراحلها ههنا، من أجل أن أفي بمؤونة مَنْ واكبني هذه المسيرة.

إنه سيرج كليمان ـ الذي يعرف نتاج «ألّيه» كله ظهراً عن قلب ـ من روَى لي الحكاية للمرة الأولى، ومن ثم ناقشتُ في شأنها «پاولو فابري»، الذي طالما أغناني بأفكاره، ووهبني منها أكثر مما بادلته. وفيما بعد، عام ١٩٧٥، تحدَّثت إلى «فْريد جايمسون»، في سان دياغو، عن الحكاية الآنفة، فانكشف لي، وبمحض الصدفة، أنه يملكُ نصَّها الأصلي (وقد سعى لاحقاً إلى ترجمته إلى الإنكليزية بغية الإفادة منه في أحد كتبي The role of the Reader، «دورُ القارىء»، الصادر عام ١٩٧٩، والذي يستعيد مضمون هذا الكتاب جزئياً). ولما كنت لا أزالُ في سان دياغو، فقد خصصت حكاية «مأساة باريسية حقاً» بسلسلة من الحلقات الدراسية، جمعتُ إليها جايسمون وألان كوهين. وقد تزامن ذلك مع صدور كتاب بعنوان «نحو نظرية عن النص جزئية» لمؤلفه ج.س. بيتوفي، والذي يقترح فيه تحليل النصوص الحكائية من حيث اعتبارها «عوالم ممكنة»: على هذا أمكنني أن أقاربَ في الشكل متاهة «ألّيه».

في السنة التالية، وفي كنف جامعة بولونيا هذه المرة، وقفتُ نصفَ مقرَّري على القصة الآنفة: في هذه الأثناء كتَبَ «إيتوريه پانيزون،

وريناتو جيوڤانّولي، ودانيال باربييري، بحثاً بعنوان «Come castrarsi col rasoio di occam» أي «كيف تُجرى الحذوفات بنصلِ أُوكّام»، والذي أَمدَّني بطائفة من الأفكار القيِّمة. وفي ختام العام ١٩٧٦، ولما كنتُ اشتغِل مع طلاَّب القسم الفرنسي والإيطالي في جامعة نيويورك أنجزتُ مقرراً كاملاً حول قصة «مأساة باريسية». وكانت بين الحاضرين، كريستين بروك ـ روز التي أَثْرَت النقاش إثراءً بالغاً لما قدمته من ملاحظات نيِّرة.

وهو كناية عن مبدإ فلسفي يقول: إنه ينبغي لنا أن لا نكثِّر الموجودات بغير مسوِّغ.

وأخيراً، جعلت أكرس كلَّ نتاج المنتدى المنعقد في تموز ١٩٧٧، في المركز الدُولي للسيميائية والألسنية في مدينة أوربينو للمراحل الأخيرة من بحثي، وقد أعانني في ذلك كل من پاولو فابري، وپيار ركاح وپيير آيج براندت. أما صياغة هذا البحث الأخيرةُ فتمَّتْ في خريف العام ١٩٧٧ في جامعة يال. وفي هذا السياق، لا بدَّ من التنويه بالنصائح المباشرة التي أسدتها لي لوسيا ڤاينا، وبدراساتها التي أفدتُ منها غاية الإفادة. ولئن كانت مقترحاتي النظرية مفارقة لطروحاتها، فإني شئت أن أزجيها شكري على العون الذي أسدته إليّ. وكانت بربارة سباكمان كتبت نقداً حول تأويلي قصة «مأساة باريسية حقاً»، التي لم أتوقف عن التعليق عليها خلال إلقائي لمحاضراتي؛ وقد حثتني بعضُ ملاحظاتها على إيضاح مفهوم القارىء النموذجي..

وهكذا على ما نرى فإن الأمر أدعى ما يكون إلى تأريخ هَوَس. وها أنا جاوزته (بحسب ظني) إذ أَنجزتُ هذا الكتاب. بيد أنني شئت، بإصداره أن أبلغه قرائي. أما وقد ظهر الكتاب، اليومَ، بالفرنسية (وفي بعض اللغات الأخرى)، فإن ذلك لمما يدل على أن مشروعي لا يخلو من بعض طاقة رسولية، وإن شابتهُ قدر من الفساد[٣].

تشرين الأول ـ ١٩٨٤.

ملحوظات

١ـ إمعاناً في التدقيق بالترجمة الفرنسية، دعوتُ المترجمة إلى أن تستخدم (غالباً عكس منازعها الفرنسية الأصيلة) تعابير «بربرية»، بعضَ الشيء، إلا أنها تعينُ على تمييز مفاهيم بذاتها باتت تُتَداول بعامة في علم المنطق وفي فلسفة اللغة ذات الأصول الأنكلو ـ ساكسونية. وهكذا وجدت أن كلمة: [implication] أو التضمين إنما تترجم عن كلمة implication بالإنكليزية، في حين أن كلمة [Implication] نفسها بالفرنسية تترجم عن كلمة [entailement] أو «اللزوم»، في حين أنَّ كلمة [implicature] أو الاقتضاء (وهي كلمة غاية في البشاعة) تترجم تماماً عن عبارة Conversational implicature (أو الاقتضاء التحادثي) التي كان اقترحها غرايس وجرى تداولها منه.

إلى ذلك، أشير إلى أننا سوف نعمد، في هذا الكتاب إلى وضع عارضات عمودية حولَ التعابير (الدالاّت) ومزدوجَيْن « » حولَ المضامين (المدلولات) الخاصة بها. إذ يقال العبارة [س س س س] تعني «ج ج ج ج».

٢ـ تعيدُ هذه الترجمة الفرنسية صياغة النص الإيطالي للعام ١٩٧٩، عدا بعض التصحيحات في الأسلوب، وبعض الانقطاعات حيث أرجع إلى كتابات ومسائل يتعرّف إليها الإيطالي وحده، إلى بعض الاختزالات في الاحتجاج. ولم أشأ السعي إلى وضع ثَبْتٍ بالمراجع والمصادر نهائيّ. ذلك أن الأبحاث في هذا المجال لا تني تمضي سراعاً، ومنَ الإنصاف بمكان أنْ يشيَ كتاب من العام ١٩٧٩ بعمره، وبتقادمِه، وبخالص التأدُّب (في صوغِه). إلا أنني استعنت بكتابتي لـ ج. ديليدال حول پيرس، وكانا صدرا بالفرنسية بينما كان هذا الكتاب قيد الطبع في إيطاليا، بالإضافة إلى عدد مجلة «لغات» Langages الذي خُصَّ بالكاتب نفسه في العام ١٩٨٠.

٣ـ في هذا الكتاب إحالات كثيرة إلى كتابي «Trattato di

«semiotica generale» «أطروحة في السيمياء العامة». ولا يعود لي سوى أن اقترح على قرّاء الفرنسية اليومَ، الذين لا يلمّون بالإيطالية، بخلافِ فرنسيّي عصرِ الانبعاث، أَن يرجعوا إلى طبعة الكتاب الإنكليزية «A theory of semiotics» أو «نظرية في السيميائيات»، الصادر عن دار إنديانا الجامعية للطباعة»، (في الولايات المتحدة الأميركية)، وعن دار مكميلان (في انكلترا).

١ ـ نص وموسوعة

١ـ ١ـ نظريات الجيل الأول والثاني:

لقد ارتسم، منذ البدء، منحيان في السيميائيات النصية، في مسار نموّها المطّرد. ولسوف نُحددهما باعتبارهما نظريتين تعودان إلى الجيل الأوّل والثاني، إلا أن تحديدنا هذا لن يكون تسلسلياً. فالجيل الأول، بحسبنا، هو الذي كان متطرفاً ومجادلاً عنيفاً ضد لسانية الجملة (بل أكثر، ضد **الأرموزة** بالذات)؛ أما الجيل الثاني، فهو الذي جهد، على العكس، في أن يصهر وجهتي النظر صهراً حاذقاً، وذلك حين راح يمدُّ جسوراً بين دراسة اللغة باعتبارها **سستاماً** مبنيًّا يتقدَّم **التفعيلات** الخطابية، وبين دراسة أنواع الخطابات أو النصوص باعتبارها نتاج لغة تم التكلم بها أو هي «قيد التكلم بها». على أي حال، ونحن، إذ نستخدم، في تعريفنا الثاني، مفهوم «الجيل الثاني» فلأننا ننظر إلى تعقيده السيميائي فنقدِّرهُ، ونبرز طاقته في أن يضع مختلف عوالم الاستقصاءِ السيميائي في علائق دالة، ونكشف عن محاولته في إقامة مقاربة موحَّدة. اليومَ، وقد سبقت دراساتُ الجيل الثاني دراساتِ الجيل الأول، فإن ذلك لا يُعدّ، بنظرنا، انتهاكاً للقوانين الوراثية، بكل ما للكلمة من معنى. على أي حال، فللنقاش أن يتخذ موقعاً (ولا يزالُ يتخذ هذا الموقع) بين (I) نظرية تنظم أمر الأُرموزات و**الكفاية الموسوعية** التي يتسنى عبرَها للُغةٍ (سيستام من أُرموزات مترابطة فيما بينها)، في مستوى تمأسسها المثالي، أن ترتئي كل تفعيلاتها الخطابية الممكنة، وكل الاستعمالات الممكنة في ظروف

الأرموزة: Code أو النظام الرمزي.
Système، آثرنا ترجمة الكلمة باعتمادها معرَّبةً، على غرار ما فعل د .مُوسى وهبه.
Actualisations

Compétence encyclopédique

وسياقات مخصوصة، وبين (II) نظرية في تكوين التفعيلات الخطابية وتأويلها.

والحق يقال إن النظريتين الأنفتين قد بيّنتا أن النص يمتلك خصائص[1] لا يمكن أن تَمُتَّ إلى الجملة بصلة؛ وهما، كلتاهما، تقرّان بأنّ تأويل أيّ نص، إنما يُعزى (وبشكل أساسي) إلى عوامل تداولية[2]. وبالتالي إن نصاً لا يمكن أن يُقبل عليه قارىء بادئاً بنَحوِ الجُملة الذي يقوم على قواعد محض تركيبية ودلالية. وبعامة، فإنَّ نظريات الجيل الأول تعتبر أَن **«التصوُّر الكاذب»** (القابل للتحقق) الذي تحوزهُ قواعد جملة إنّما يكمن في حدودها **المعجمانية**، بحيث أنّ أية نَظرية ذات توجه معجمانيّ لا يسعها أن تشرح دلالة جملة معطاة باعتبارها إلحاقاً محضاً أو توحيد مدلولات معجمية مُرمّزة مسبقاً وبصورة نهائية.

Protos pseudos

Limite lexicaliste

وكان مؤلفون، أمثال بويسّانس (١٩٤٣) وبرييتو (١٩٦٤) أو «دي مورو» (١٩٧١) قد حكموا على أنّ جملة مثل [أعطِ ـ ني ـ إياه] يستحيل أن يُرفع عنها الالتباس لمجرد أن يحتكم المرء إلى محض تحليل نحويّ يطاول كلاً من [أعطِ]، [ني]، [إياه]؛ والواقع أنّ هذه العبارة تكتسب مدلولات متفاوتة بتفاوتِ ظروفِ **تلفّظها** ـ على أنها تنطوي بطبيعة الحال على مساراتٍ **إشارية**، **وأفعال قصد**، **ومسلّماتٍ** مختلفة.

Enonciation

Deictiques

Réference

Présuppositions

يتضح مما تقدَّم أن السّعيَ، من هذه الوجهة، إلى إنشاء نظريّة معيّنة بالخطابِ ذات مكوِّنة تداولية خالصة، قد يُبطِلُ كُلَّ تحليل معجميّ يُجرى بناءً على مكوِّناتِه الأساسية، أكانَتْ **سيمات**، أم **سِمات** دلالية أو غيرها، مما يعتبر أعضاءً في مجموع محدّد مِنَ **السمات الكلية (لبناءات ما وراء اللسان)** أو من الوحدات اللسانية من أجل تعيين وحدات لسانية أخرى، كما هو الحال في علم دلالة (ذي توجُّه بيرسيٍّ) التعبيرات[3].

Sèmes

Marques

Universels

Constructions Méta-linguistiques

ويتبدَّى لنا أنَّ كل هذه الاعتراضات الموجّهة إلى نظريات الجيل الأوَّل إنما هي معقولة، إذ تنتقد محاولاتِ **التحليل التقطيعي** في شكل قاموس، وترفضُ أن تُدخل **الإعلام الموسوعي** في الإطار النظري (راجع، المناقشة في إيكو، ١٩٧٥، ٢ وإيكو ١٩٨٤). ولنأخذ، مثالاً لنا، نظرية

Componentielle

Information encyclopédique

دلاليةً تحت شكل قاموس ولنختبر قياسَها على الجملتين التاليتين:

(١) ينبغي لنا أن نعيد «فوفو» إلى حديقة الحيوانات.

و

(٢) ينبغي لنا أن نعيد الأسد إلى حديقة الحيوانات.

اللتين تبدوان أنهما تفترضان نوعاً من الكفاية **المعجمية ـ البرّانية**. Extra-lexicale ذلك أنه لا يحتمل أنْ يهب أي معجم الوسيلة لإقامة التمايز بين الجملتين، حتى غدا من الصعوبة بمكان أن نحسم في ما إذا كان يتوجّب على الأسد أن يفهم الجملة (٢) على أنها تهديد، أو إذا ما كان لفوفو أن يفهم الجملة (١) على أنها وعد بالمكافأة. وفي الحالين الآنفتين، فإنّ **إندراجاً نصياً مشتركاً** Insertion Co-textuelle كفيل وحده بأن يُعين المتلقّي على اتخاذ قراره التأويلي الأخير.

١ـ ٢ـ انتخابات سياقيّة وظرفيّة:

ولكن يبدو لنا من العبث التأكيد على أنّ متحدثاً من العامة قد يعجز عن رفع الالتباس عن هاتين الجملتين، في حال عُرِضَتا لَهُ خارجَ أيّ سياق. إلا أن جميع الناس يفهمون رأساً بالحدس، أن الجملة (١) من المفترض أن يكون قائلها زوجان ذوي مقاصد تربوية. في حين يحتمل أن يكون فريقٌ من المروِّضين قد نطق بالجملة (٢)، أو مستخدمون في الجيش، أو إطفائيون إذ أمسكوا بأسد هارب من قفصه. وبعبارات أخرى، فإن متكلماً سوياً قد يسعه أن يستخلص منَ العبارة المعزولة، سياقَها اللسانيَّ الممكن وظروف أدائها الممكنة. وعلى هذا فإنّ السياقَ والظروف لازمة لكي يتسنّى منح العبارة دلالتها الكاملة والمليئة، بيد أن العبارة تملك دلالة مقدَّرة (في حال الإمكان) تسمح للمتكلّم بأن يخمِّن سياقها.

إنه الحدسُ الآيف الذي طالما آلَ إلى تكوين النظريات النصّية خاصة الجيل الأوّل. والواقع أن هذه النظريات، إذ تتصدّى لفهم نَص، تقرُّ بوجوب إيجاد قواعد لا تُختزل بالضرورة إلى قواعد النحو التي تنتظم **اللفظَ** Enoncé إنّما هي قواعد تجمع إلى نفسها نتائج التحليل الدلالي الذي يُجرى

على العبارات المنفردة، على السواء.

وعلى العكس من ذلك فإنَّ نظريات الجيل الثاني جعلت تسعى إلى بناء (أو افتراض) تحليل دلالي من شأنه أن يدرس العبارات المعزولة باعتبارها سِستامات من التعليمات الموجهة شطرَ النص. وفي سبيل إحقاق هذا الأمر، اقتضى على التحليل الآنف أن يتجاوز التحليل الذي يتخذ شكل القاموس إلى تحليل قائم على الموسوعة أو **الخزين**(٤). Thesaurus

على أنّ تحليلاً تقطيعياً في شكل موسوعة، يبينُ، بالأساس، نَصّاً **موجَّهاً**، بمعنى أنه يهدف إلى الدلالة على النص، باعتباره (التحليل التقطيعي) يساوي في تقديره ما بين المنتخبات السياقية والمنتخبات الظرفية (راجع إيكو، ١٩٧٥، ١١- ٢؛ إيكو، ١٩٨٤)(٥). Text-oriented

إنَّ انتخاباً سياقياً من شأنه أن يسجِّل الحالات العامة حيث عبارة معطاة يسعها أن تكون واقعة في **تصاحُب** (وإذاً أن تكون متواقعة) مع عبارات أخرى تنتمي إلى نفس السِستام السيميائي. ومن ثمّ، كلّما كانت العبارة متواقعةً، بشكل ملموس، مع عبارات أخرى (أي حين يتحقق الانتخابُ السياقي) تحصَّلَ لنا **مُتَاصّةٌ** منها. Concomitance — Co-texte

أما فيما خَصَّ المنتخبات الظرفية، فهي تمثِّل الإمكانية المجرَّدة (التي تكون الموسوعة قد دوَّنَتها) في أن تظهر عبارة معطاة في ظروفِ **التلفُّظ** (مثلاً، عبارة لسانية معطاة يمكن أن يُنطق بها أثناءَ سفر، أو في ساحة الوغى أو في وزارة الأشغال العامة؛ إنَّ علماً أحمر يمكنه أن يكون متواقعاً مع امتدادِ سكة الحديد أو ضمن إطار لقاء سياسيّ: إنَّ عامل سكة حديد شيوعياً ينظر إلى العَلَم بنوع منَ الفهم في الحالة الأولى، وبثقة في الحالة الثانية). Enonciation

على أنَّ هذه الظروف المتواقعة غالباً ما تكونُ عناصر في سِستام سيميائي آخر: هكذا، فإنَّ الملفوظة الشفوية [aye] في الإنكليزية، إذ تدخل في سِستام اللياقات إبَّان جلسة نيابية منعقدة، تعني تصويتاً إيجابياً، أما إذا أدخلها المرء في سِستام اللياقاتِ الخاصة بآداب سِلك البحريَّة، فإنّ ذلك يعني إعلانَ الطاعة. ويُفاد من هذا أن قواعد **الترميز - العالي**، شأنَ القواعد **التحادثية** [أو اصطلاحات أخرى توفِّر **شروط النجاح** Hyper-Codage — Conversationnelles — Felicity conditions

لأعمال لسانية] تمثِّل في ذاتها قدراً موفوراً من المنتخبات الظروفية حيث يظهر الظرف مرموزاً بُصَورٍ متفاوتة. وفي آخر الأمر، تتوارى الظروف نفسها في النصوص الحكائية، لكونها معبراً عنها شفاهياً.

إن التمييز الذي آثرنا اعتمادَهُ ما بين المُتَناصّة، والسياق والظرف، ينبغي لنا إيضاحُهُ الآن. ولنعطِ مثالاً على ذلك: يمكن للوحدة المعجمية [حوت] أَنْ يُرفع التباسها باعتبارها سمكة أو ثديِّة بحسب الانتخاب السياقي الذي يرى إلى تواقعها في صنفين مِنَ السياقات الممكنة متمايزين، الأول يتعلق بالخطابات «القديمة» (الكتاب المقدس، الحكايات، ثبتُ بالحيوانات القروسطية)، أما الثاني فيتعلّق بالخطابات «العصرية» (أقله بحسب كوفييه). إليكَ إذاً كيف أنَّ تمثيلاً في عبارات تعود إلى الموسوعية يمكن أَنْ يَركُنَ إلى سياقات متنوعة، وبالتالي إلى تواقعات **مُتَناصِّية** ممكنة حيث تتبدّى الوحدة المعجمية أمراً ملموساً محقّقاً.

Co-textuelles

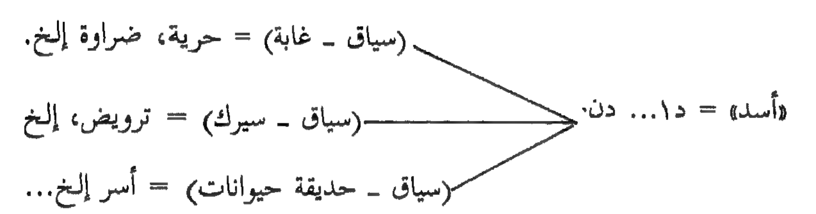
ولكن لنعُدْ إلى موضوعنا، أسدَيْنا. فعلى جاري العادة (أشدِّد على جملة «على جاري العادة»): فإنّ كفاية موسوعية تقوم على معطيات ثقافية مقبولة اجتماعياً باعتبارها ثابتة مؤكدة إحصائياً) تتعرَّفُ الناسُ إلى الأُسُودَ وهي في ثلاثة مواقف، في الغابة، والسيرك، وفي حديقة الحيوانات. أما جميعُ الإمكانيات الأخرى فتكون ظَنِّيةً، لذا تندرج خارج المعيار: وفي حال تحقُّقت، فإنها تكون أطلقَتْ تحدياً للموسوعة فأنتجت نصوصاً تجري مجرى نقدِ الأرموزة، نقداً **لسانياً - برّانياً**. وعلى هذا فإنَّ الغابة، والسيرك، وحديقة الحيوانات تكونُ ظروفاً **مَرموزيّةً** (باعتبارها مسجلة من قبل الموسوعة) حيث الوحدة المعجمية [أسد] يمكن أن تصاغَ صوغاً. أما في نَصٍ ما، فإن هذه الظروف نفسها يمكن أن تُحدَّدَ لفظياً، فتصير بذلك مواقعاتٍ لسانية بدورها. فنقول آنئذٍ أن محتوى **مَيْسُوم** «أسد» الذي يرتئي سلسلةً مِنَ السمات **الدلالية الأصلية** (ضمن حدودِ القاموس الضيقة) يعود فيضمُّ إليه، سلسلةً مِنَ السماتِ الدلالية **الالتزامية** التي تتراوح تنوُّعاً وفقَ ثلاثة منتخبات سياقية[٦]. وعلى هذا، فإن مَيْسوم «أسد»، حين يظهر في صنف من المُتَناصّات، حيث تتواقع عباراتٌ من مثل [غابة]، [إفريقيا]، إلخ...، يصيرُ متضمناً مفهومَ «الحرِّية» و «الوحشية»

Extra-linguistique

Sémiotisées

Semène (ميسوم) وهو تصغيرٌ اشتقاقيٌ على وزن «إفعول» من الكلمة الأجنبية الأصل

و «الضراوة» إلخ.. أما إذا وُجد في مُناصّة حيثُ يُشار إلى السيرك، فإنه يكون متضمناً مفهوم «الترويض»، و «اللياقة» إلخ..؛ وفي حال اندرج (الميسوم «أسد») في مُتَاصّة حيث تذكر حديقة الحيوانات؛ فقد يصيرُ يتضمَّن مفهوم «الأسر»، و «الوضع في قفص». وإليكَ تفصيل الكيفية التي يتمُّ بها التمثيل الموسوعي لميسوم [أسد] مأخوذةً بالاعتبار منتخباته السياقية:



وفي عبارة [حديقة الحيوانات] التي تعود إلى اللفظ (٢)، تبدو سمَةُ «الأسر» متضمنة من الوجهة الدلالية، إذ يستفاد، من خلال إدغام حدسيّ بين مدلولاتِ العبارات المتواقعة، أن العبارة (٢) إنما تتضمَّن المقصَد في «إرجاع» الأسدِ إلى حالة من الأسر، وهي تشكل مصدر الفعل (ذلك أنَّ فعل [أرجع] يسلِّمُ بأن موضوعَ عمله، أي الإرجاع، يتأتَّى في البدء من المكانِ الذي يشكل نقطة البدء في الفعل نفسه) .[Terminus ad quam]

حَتَّى إذا استعانَ المتلقّي (أو المرسَل إليه) بسلسلةٍ من الاستدلالات أمكنه بلوغ الخلاصة التي مفادها أنَّ الأسد كانَ قد فَرَّ من حديقة الحيوانات غصباً عن إرادة حرَّاسِه ـ وأنه بنتيجة الأمر يفضل أن يظل في حالة فراره الحالية، على أَنْ يعودَ إلى الأسر. وهذه الاستدلالات هي مادَّة التأويل النصّي؛ على أنها يمكن أن تُصاغ بدورها، وكما سوف نتبين ذلك في حديثنا عن الأُطُر أو السيناريوهات، من استخدامنا معطيات صادرة عن الكفاية الموسوعية، باعتبارها أقيسة: إنَّ عصيانَ الأسودِ على الأسر (بالإضافة إلى كونها لا تحظى، كالعادة، بالحرية، ولا بالعطل الرسمية المدفوعة، ولا يتسنى لها أن تخرج من حدائق الحيوانات إلا نادراً، وفي ظروف قاهرة للغاية) يمكن توقعه بواسطة سلسلة من المعلومات التي تُتداول في أشكال منمطة شأن سيناريوهات الأحداث الممكنة والمحتملة.

Frames

١ـ ٣ـ الميسوم باعتباره تعليمةً موجهة إلى النص:

ما من لفظ إلا ويحتاج إلى مناصة، لكي يتفعّل في كل إمكانيات دلالته. بيد أن لهذا اللفظ حاجة إلى **مُنَاصّة فعلية**، إذ أن النص الممكن يكونُ ماثلاً، فعلياً أو بصورة كامنة، في الطيف الموسوعي الذي تعمل على تكوينه الميسومات. وتحقيقاً لما كان أكده غريماس (١٩٧٣: ١٧٤)، فإنَّ وحدة دلالية معطاة، من مثل «صياد»، هي في بنيتها الميسوميَّة نفسها، «برنامج حكائي» كامن: «إذ أن الصيادَ يحمل في نفسه، بداهةً، كلَّ إمكانيات عمله، وكلّ ما يتوقعه المرء فيه من سلوك: فأن يوضع في إطار **النظير** الخطابيّ لممَّا يصوغ لَهُ دوراً **موضوعاتياً** قابلاً لأن يستخدمه السرد». لذا يقال إنَّ نظرية نصية هي أحوج ما تكون إلى جماع قواعد تداولية تعينها على تحديد الكيفية والظروف التي من شأنها أن تسوّغ للمتلقّي، من الوجهة المُنَاصية، أن يساهم في تفعيل ما بإمكانه أن يقوم فعلياً في النص وحده والذي هو كامنٌ أصلاً في الميسوم. لقد كان پيرس أوَّل عالم سيميائيّ تنبَّه إلى هذه الحيويَّة الكامنة إذ أكّد (في كلام مبنيّ على أسس منطقية صارمة) أنَّ المفردة إنما هي **تقرير** أوّليّ، في حين أن الجملة هي بمثابة **«حجة»** (أواستدلال) أوَّلية.

بعد تقليب اشتقاقات كلمة رَهْنَ المقترحة لترجمة actualiser، فضّلنا استخدام اشتقاقات **فعّل**، لأن ما هو مفعّل يصبح راهناً، في إطار زمان ومكان.

Isotopie

Thématique

Assertion
Argument

ولربَّما ردَّ أحدهم بالقول إن تمثيلاً دلالياً في عباراتٍ من المنتخبات السياقية والظرفية قد يُحسنُ تأدية وظيفته فيما خَصَّ الإضافات الجمليّة المقيّدة، في حين لا يحسن تأديتها فيما خَصَّ «الإضافاتِ الجمليّة **التركيبية المقيدة**» التي لا يصح تأويلها إلا على أسس مُناصَّية.

Catègorématiques

Syncatégorématiques

وفي هذا الشأن، يمكن لنا أن نعتمد موقفين مختلفين: إذ يسع بعض دعاة نظرية الجيل الأوَّل أن يقول: لمَ ينبغي أن يكونَ لكلمة [مكافح] مدلول واحد، حتّى ولو كانَت خارج سياقها، في حين ينبغي لتعبير [مع ذلك] ألا يكتسب مدلولَهُ إلاَّ وفقَ أسس سياقية؟ لئن كان صحيحاً أنَّ **التقابل البدئي** الذي يوحي به التعبير [مع ذلك] لا يسعه أن ينطبق على شيء دونَ إطار مُنَاصّي، فإنَّهُ منَ الصحيح، كذلك، أننا نلبَثُ جاهلين غاية كفاح المكافح هذا، ومَنْ يكافح، ما لم يُعيَّنْ إطارُ التعبير المُنَاصّيُّ.

Opposition génerique

وعليه فقد يمضي دعاةُ النظرية منَ الجيل الثاني يردُّون بالقول: حين أجد كلمة [مكافح] خارجَ سياقها، أعرف أقله (وتلكَ نقطة انطلاق جيدة) أنَّ لي شأناً، ههنا، مع عامل بشريّ، على الأرجح، يتخذ لَهُ وضعاً صراعياً (جسمانياً ونفسانياً) إزاءَ كائن بشري آخر، أو كائنات بشرية أخرى (أو إزاءَ قوى طبيعية، في حال استخدام البلاغة)؛ وبالمقابل، فإنّ الأمر نفسَهُ يحصَل، حينَ أجد تعبير [مع ذلك] خارج السياق، إذ أدرك أنَّ متكلماً ممكناً يوشك على وضع نفسه في حالة صراعية أو في حالة مبادرة إزاءَ شيء كانَ قد سبق تحديده.

إليكَ إذاً ما خَصَّ المماثلات. إنه ليحسن بنا ـ مع ذلك ـ أنْ نبرزَ حالاً، الاختلافاتِ المنوطَةَ بالأخيرة. ففي حالة [المكافح]، كانَت المُتَناصّة التي أُوحيَ بها، بصورة الإمكان، ترجع إلى موقف **سيميائي ـ برّاني** مما يحكي النص عنه، في حين تكونُ الصراعية في حالة [مع ذلك] الموحى بها، صراعيَّة نصية محضة. لذا يجدر بنا أن نقول، بعد إقرارنا بأنَّ لتعبير مع ذلك مدلولاً خارجاً عن نطاق **تواقعاته** المُتَناصِّيَّةِ المخصوصة به، أنَّ هذا المدلول يتعلَّق بوظيفته العملانية النصية ـ وهذا ما نعنيه بالضبط إذ نوردُ «الإضافات الجمليَّة التركيبية المقيَّدة».

Extra-sémiotique

Occurrences

إذاً، نخلصُ إلى القول إنه: توجَدُ **عاملات** مُنَاصِّية تؤدي وظيفتها الدلالية فقط إزاءَ مناصاتها، إلا أن مصيرَها السياقي يمكن أن يحدَّد بناءً على تحليل **تقطيعيّ** في شكل موسوعة.

Operateurs، Operateur،

Analyse compenentielle

فلنحلِّل إحدى هذه العاملات، وأعني بها عبارة [Invece]* أي [بدلاً من]. للوهلة الأولى، لا تعني [Invece*، بدلاً من] شيئاً خارجَ أيِّ سياق. إلاّ أن ذلك لا يعني استحالة طَرح تمثيل **ميسوميّ**، يتيح لنا تحصيل معلومات عما يمكن أن تعنيه، إن هي اندرجَتْ في صنوفٍ معينة من المناصّات. وإذ نشرع في التحليل، يتعيَّن علينا أن ندرك أن هذه العبارة يمكن أن تكون لها قيمة الظرف الحالي، والحرفِ والأداة، سواءً بسواء. والحالُ أنَّ الاشتغالَ اللساني من شأنه أن ينبهنا إلى أنَّ تكافؤ العاملة [بدلاً من Invece] **الحروفيّ** إنّما يُعزى إلى تواقعه مع الحرف [مِنْ، Di]:

Sémemique

نسبة إلى حروف الجرّ وغيرها.

«Invece di venire manda tuo fratello»]

«بدلاً من أن تأتي، إبعَث بأخيكَ».

هكذا، فإنَّ انتخاباً سياقياً مندرجاً في التمثيل المَيسوميّ، من شأنه أن ينبهنا إلى أنَّ [Invece، بدلاً من] تكون حرفاً، كلما تواقعَتْ مع [di، مِن]. بل يسعني أن أزيد أيضاً فأقول: إنّ الانتخابَ السياقيَّ الذي يخصّ استخدامَ [Invece، بدلاً] باعتبارها حرفاً، ينبّهنا (أو ينبغي له أن ينبهنا، إذ يتعلق الأمر بسمة تركيبية من هذا النموذج تكون في عداد **الطيف التقطيعي**) إلى كونها عاملةً جُمَليّة، في هذا النوع من **إطلاقِ الحَمْل**. بيد أن الأمر يختلف في حالِ النظر إلى قيمة [Invece، بدلاً] الظرفية: فهي تكون، في هذه الحال، **عاملة نصّية**، ذلك أنها تعبّر عن تعارض أو اختيار بين حصّتين نصيتين. ولنتفحص ذلك في عبارات ثلاث مختلفة:

Spectre componentiel

Acception (log.)

opérateur textuel

3) Maria ama le mele, Giovanni invece le odia

٣) ماريا تحبّ ثمار التفّاح، بعكس جان الذي يكرهها.

4) Maria ama le mele e invece odia la banana

٤) ماريا تحبّ ثمار التفّاح، وبالعكس تكرَهُ ثمار الموز.

5) Maria Sta suonando il irolino, Giovanni invece mangia una banana

٥) في حين كانت ماريا تعزفُ على الكمان، كان جيوفاني يأكل موزةً.

وفاقاً للحدس، فإن عبارة [Invece، بدلاً] في كل هذه الأمثلة إنّما جعلت تعبِّر عن اختيار، إذ تعني «عكسَ أمرٍ». ولكن عكس أيِّ أمر؟ على هذا يتبدّى لنا أنَّ [Invece، بدلاً من] تنطق عن اختيار بعامة، إلاّ أن اندماجها السياقي وحدَهُ كفيل بإعلامنا عن وجهة هذا الاختيار. أنكون إذاً، حيالَ استحالة **ترميز تمهيدي**؟ فلنجرّب اختباراً آخر. لما كان لكلّ من الجُمل المذكورة أعلاه فاعل، ومفعول به، وفعل ينطق عن جهدٍ ما، اقتضى التساؤل عن أيّ **الكيانات** الدلالية يوجّه ظرفنا معارضتَهُ [Invecc، بدلاً من]؟

Codage préliminaire

Entités

في الجملة (٣) يؤشّر الظرف إلى مبادرة تطاول الفاعِلَ وعمله؛

وفي الجملة (٤) يؤشر إلى مبادرة حيالَ الفعل والمفعول به في آن. أما في الجملة (٥) فإنَّ كُلَّ شيء فيها يكونُ عرضةً للتساؤل. وفي آخر المطاف، أيسعنا التأكيد في طمأنينة بالٍ، بأنه يحسن بنا ألاَّ نطرح أيَّ تمثيل دلالي لـ [Invece، بدلاً]، وأنّ كُلّ شيء إنما هو منوطٌ بمسار التأويل النصّي؟ بيد أن هذا الاستخلاصَ ليس شافياً، حتّى بالنسبة لنظريةٍ تعود إلى الجيل الأوَّل: فلئن يمتنع المرء عن شرح يعالج أرموزة الجملة، فإنه يعجز عن إيجاد شرح واحد يطاولُ النصّ بمجمله ـ فلا يبقى لنا سوى أن نلجأ، لجوءاً عبثياً، إلى حدس المتكَلّم (وهو من فئة غير ملائمة يستوجب على كُلِّ نظرية سيميائية جدّية أن تتجنّب اللجوءَ إليها على الاطلاق، ذلك أنه إذا كان للنظرية السيميائية من هدفٍ تسعى إليه، فهو أَنْ تشرح الكيفيةَ التي يتم بها عمل حدسِ المتكلّم وأن تفسرها بعبارات غير حدسية).

ولحسن حظّنا، فإن نظريات نصيةً مختلفة تمدنا بالعون في هذا السبيل، بأن تمنحنا فئةً منَ الأدوات ذات استخدام واسع النطاق (بل شديد الاتّساع) والتي يبدو أنها تسير سَيْراً مُرضياً في ما خَصَّ حالتنا: إنَّ الأمر ليتعلّق **بالمدار الدلالي** (في كونه نقيضَ «كيف»)، أو في كونه **الموضوعة** في تعارضها مع **التصوّر**). ولسوف نؤجل الحديث عن النظير إلى وقت لاحق. (أنظر. ٥ـ ٢).

Topic
Thème
Rhème

ولنكتفِ الآن باقتراح مفادُهُ أَنَّ إحدى الوسائل المقترحة لتعيين موضوع نَصٍ إِنَّما هي اعتبار الجزء المعبَّر عنه في النص (الكيف أو التصور) بمثابة الإجابة عَنْ سؤال، غير معبَّر عنه، يشكِّلُ في ذاته المدار الدلالي أو الموضوعة أو الثيمة، بصورة مضبوطة. وعليه، فلنحاولْ أَنْ ندمج الجُمَلَ (٣)، و(٤)، و(٥) في مناصةٍ ممكنة، وأن نرى إليها بمثابة إجابات عن الأسئلة التالية:

(٣أ) ولكن أيحبُّ جان وماري ثمار التفّاح؟

(٤أ) أيّ نوع منْ الثمار تحبّ ماري؟

(٥أ) ولكنْ ماذا يفعل الأولاد، يا للشيطان؟ ألا يجدر بهم أن يتابعوا درسَ الموسيقى؟

وهكذا، أمكن لنا أن نستمد منَ الجملة ذات الأسئلة الثلاثة المختلفة، ثلاثَ موضوعات نَصِّية مختلفة، وأن نحددها على النحو التالي:

(٣ب) أشخاص يحبّون ثمار التفّاح.

(٤ب) ثمار تحبّها ماري.

(٥ب) درس الموسيقى.

ههنا، يتضح جلياً أنّ [Invece] في الجملة (٣) تتعارَضُ مع الجملة (٣ب) وهي في الجملة (٤) تتعارض مع الجملة (٤ب) أيضاً، وهكذا دواليك. إلاّ أنه يتضح، وبالجلاء عينه، أنّ تحليلاً دلالياً يطاول هذا الظرف قد يكون ممكناً، تحليل من شأنه أَنْ يسجِّل انتخاباً سياقياً على الطراز الآنف: «في حال تكون حجّة نَصٍ (مدار دلالي أو موضوعة) س، فإن العبارة قيد التساؤل سرعانَ ما تطرح مبادرة إلى س».

وبموجز العباراتِ (آخذين في الاعتبار القيمة النحوية المضاعفة التي تنطوي عليها العبارة المعنية)، فإنّ تمثيل العبارة [Invece، بدلاً] تمثيلاً دلالياً قد يسعه أَنْ يتخذ الهيئة التالية (حيث سمةُ المبادرةِ البدئيةُ تلبثُ ثابتةً لكلِّ انتخاب سياقيّ ممكن):

[بدلاً، Invece] = «مبادرة»

(سياق + [من، Di] + س) حرف «بدلاً من س»

(سياق موضوع س) ظرف «ضدّ س»

إنّ هذا النموذجَ من التحليل التقطيعي لا يسعه أن ينوبَ عن مجموع قوانين نصّية أكمل: فهو، على سبيل المثال، لا يعين مطلقاً على تبيُّن الموضوع والإقرار به - وهي عملية تستدعي استدلالات قائمة على آثار مُتَناصِّيَّةٍ متعددة. إلا أنه، (نموذج التحليل) يشكل مجموعاً معقولاً منَ التعليمات الدلالية الكفيلة بتحديد موقع الأعجوم تحديداً تكوينياً ورفع الالتباس عنه تأويلياً. وعلى هذا النحو، لا يُهمل مصيرُ العبارة ولا تحديداتها النصّية، إنّما تؤخذ كلها على عاتق التمثيل الموسوعي الذي يروح يجري مجرى الجسر الأعجوم المعزول وبين اندراجه النَصِّي. إنّ تمثيلاً من هذا النوع لجديرٌ، أقله، أن يبيِّن لنا في أية صنوفٍ من

Co-textes

المُتَنَاصَّات يمكن لعبارة [Invece، بدلاً] أن تُدرج، وكيف لها أن تعمل ضمنها. وهو ينبئنا مثلاً، عن السبب الذي يُعجزنا عن بناء جملة من مثل:

(6) Maria ama le mele e invece ama le pere

(٦) ماري تحب ثمار التفّاح، وبالعكس (فهي) تحبّ ثمار الإجّاص.

لأنَّ الموضوع المفترضَ الوحيد فيها إنما هو «الثمرة التي تحبها ماري» تحديداً، ولأنَّ في الجملة (٦) يَعِدُ الظرفُ بتعارُض لا يتحقق.

وعلى هذا النحو فإنَّ التمثيل الآنف لا يستبعد (الفعل، ومعارضته)، بل يسمح بإحقاقهما:

(7) Giuseppe dice che Maria ama le mele e invece essa ama le pere

(٧) قال يوسف أن ماري تحبّ ثمار التفاح، وهي بالعكس تحبّ ثمار الإجّاص.

لأنَّ المدار، ههنا، هو بالتأكيد آراء يوسف حول ميول ماري، ولأنَّ المتحدِّث يعارض معرفته بمعرفة يوسف المظنونة.

ذلك هو السبب الذي دعاني إلى اعتبار هذا النوع من التمثيل بمثابة أداة في عملية دلالية قائمة على التعليمات (Instruktionssemantik) وموجّه نصياً، على ما طرحه شميدث أيضاً (١٩٧٦: ٥٦) إذ قال: «إنَّ أعجوماً يمكن أن يتصور نظرياً على أنه بمثابة قاعدة (في معنى الكلمة الأوسع) أو تعليمة محضة في سبيل إنتاج مسلك لفظي و/أو غير لفظي معطى... ذلك أنَّ **الحقل ـ السياق** (**الحقل المعجماني**) يعزو إلى الأعجوم إمكاناتِ اشتغاله العامة في النصوص».

Le champ-Contexte

Le champ lexématique

١ ـ ٤ـ الميسوم باعتباره نصاً كامناً والنص باعتباره توسيعاً لميسوم واحد:

سوف نرى في موضع لاحق كيف أنَّ هذا النموذج من التمثيل الموسوعي يمكن أن تعمل على دمجه عناصر منَ الترميز العالي، وذلك

Intertextuels

من خلال تسجيل سيناريوهات عامة و**تَناصيَّة**. على هذا يُصادر على وصفٍ دلالي يقومُ على بُنية الموسوعة التي تُعدّ خصيصاً بغية إدراك دلالات النصوص الملتبسة؛ إلى ذلك، يُصَادر في الآن نفسه على نظرية في النص لا تنفي نتائج التحليل التقطيعي الموسَّع، بل تسعى، بالعكس، إلى احتوائها (من خلال مفهوم الموسوعة أو الخزين والأُطر). وإذ يصيرُ التحليل موسّعاً، فإنه يغدو قادراً على تلبية تطلبات النموذج الدلالي المَصُوغ الذي كنت اقترحتُه في كتابي **الأطروحة**. وذلك من ضمن رؤية سيميائية لا محدودة، ومن خلال نموذج منَ الحقل الدلالي الشامل المسمى المثال ك. وعلى هذا المنوال (في ما تقدَّم يكمنُ مفهوم «نظرية الجيل الأول النصِّيةُ») فإنَّ الميسومَ، ضمن علم دلالة موجَّهٍ شطر تفعيلاته النصية، يصيرُ منَ المتوجَّب أن يظهر على أنه نَصٌ في حالة الإمكانِ، وألا يعدو النص كونه توسيعاً لميسومٍ واحد (والحال أنّ النص هو نتاج توسيع ميسومات عديدة. إلاَّ أنه، من الوجهة النظرية، أكثر إنتاجاً وفعالية، بحيث يقبل اقتصاره على مَيْسومٍ مركزي واحد:

حكاية صيَّاد لاتني تتَّسع، كلَّما نسجنا حولها أخباراً مما يمكن أن تهبنا الموسوعة المثالية عن الصياد).

يتبقى لنا النزر اليسير قبل أن نشرع في التعمق في دراسة النقاط المختلفة المقترحة ههنا. وإلاَّ اعتبرنا ـ كما لطالما رددتُ في أطروحتي Trattato ـ أنه في حال قبلنا بهذا المفهوم حول الكفاية الموسوعية، وهو ميسور الإدراك، يصبح مفهوم السِستام الدلالي الشامل، من حيث كونه مجموعاً من التعليمات الموسوعية مبنياً، شديد التجريد، مصادرة تطرحها النظرية وفرضيَّةً ضابطة للتحليل. ذلك أنَّ السِسْتام الشامل يتقدَّم، نظرياً، تطبيقاته النصِّيَةِ، إلا أنه لا يسعه أنْ يُبنَى، ولا أَنْ يُطَبَّق أو يصادَرَ عليه جزئياً إلاَّ في لحظات ملموسة حالما يتوفَّر للقارىء ما يعينه على تأويل حصة نصِّية معطاة. فالنصوص هي نتاج لعبة وحدات دلالية قائمة مسبقاً في الحقل الكامِن من **التسييمية اللامحدودة**. غير أن مسارَ التسييمية اللامحدودة لا يمكن أن يُحدَّ في أوصافِه الجزئية إلاَّ في حال وقع التحليل على نص معطى أو فريق من النصوص (أنظر إيكو، ١٩٧٥،

Sémiosis illimitée: تسييمية لا محدودة، وهي الدالة على فعل التسيّم، أو استعداد الكلام لاكتساب دلالات، كلما باشر القارىء تحليل مدونته، ومضى في تحليله عميقا.

٢ـ ١٣؛ شميدث، ١٩٧٦ب، ٤. ٤. ٢. ١).

والواقع أنّ السيناريوهات العالية الترميز نفسها هي، كما سوف نرى، نتاجُ تداول تناصي سابق. ذلك أن المجتمع لا يسعه أن يدونَ تعليمة موسوعية إلاّ لكونها متوفرة في نصوص سابقة. إذاً، فالموسوعة والخزين هما مصدرا تقطير (على شكل **قضايا - كبرى**) لنُصوصٍ أخرى. على أن هذه السيرورة الموصوفة ينبغي ألا تحبط البحث الصارم: فالمسألة الوحيدة هي أنْ يقوم المرء بإجراءات محددة تكفل لَهُ وعي هذه السيرورة.

Macropropostions

١ـ ٥ـ حولَ المسلّمة:

يمكن أن نستشِفَّ، من كل ما قيل في المقاطع السابقة، ولمرات متتالية، وجود ظواهر أجمعَتْ كل منَ السيميائية، النصّية، وفلسفة اللغة، ومنطقُ اللغاتِ الطبيعية وعلمُ الدلالة التكويني على تسميتها بالمسلّمات. وتلك كلمة لن نقوى على استخدامها سوى نادراً في الفصولِ اللاحقة، ويكادُ يكونُ دوماً في المعنى الأوّلي للكلمة، إذ يقتضي العزم على اعتبارها (الكلمة) البادئة؛ وحتى لو كانَتْ في حالاتٍ عديدة، ولا تزالُ، بدئيةً لحسنِ الحظّ.

Présuppositionnelle

ولو كان النص، على ما سوف نبيّن، آلةً كسولةً تتطلّب منَ القارىء بذل جهد تعاضديّ جبار لكي يملأ فراغات «ما لم يُقَلْ»، و «ما قيل»، التي لبثت بيضاء، فإنّ ذلك مما يحيل النص حقاً إلى آلة **مسلّماتية**، ليس إلاّ.

وكنتُ أشرتُ، في كتابي «الأطروحة»، إشارةً إلماحٍ إلى تعددية المدلولاتِ الممكنة في فئة المسلّمة، فقلت إن فيها: مسلّمات مرجعية، ودلالية، وتداولية، وافتراضات أخرى كثيرة. فأنْ يقال:

8) La religieuse était célibataire mais le goût de violer le vœu de chasteté ne lui faisait certes pas défaut

٨) لئن كانت الراهبة عزباء فإنّ طعمَ انتهاك نذر العفّة ما كان لينقصها، دونَ شَكّ.

قولٌ يتضمَّن عدداً لا بأسَ به منَ المسلَّمات، على ما يدعوهُ الأدب السائِد في هذا الصدد. بيد أن كلاً منهما يعود إلى نموذج سيميائي مختلف. وإذ نطلق تسمية الراهبة، نفترض أنه في عالم معين ثمة فرد ينطبق عليه هذا الوصفُ المحدّد (على الأرجح من خلال الكتابة): في ذلك مسلّمة **شاهدية** أو مرجعية أو **مصداقية**. وإذ قيل إنها كانت عزباء، فقد يصادر القائل على أنها لم تكن متزوجة، غير أن هذا النوع من المعرفة تُراه يعطى من خلال قواعد متباينة، وقد باتَ رهنَ مسلَّمات المدلولات. وفي سبيل أن نعاود ربط الضمير [ها] بالراهبة، يقتضي بأن يوضع مسارٌ مُتناصّيٌ موضع التطبيق. ولكي يقيم القارىء الحجّة على أنّ نذر العفة (المصادر عليه بأنْ سمّاهُ ضمناً الضميرُ المتصل) إنما يرجع إلى صفة العزوبية، ينبغي لَهُ مرةً أخرى أنْ يضع في حيِّز الفعل **ارجاعاً مشتركاً**، على أنْ يُصادرَ على قاعدة موسوعية يظهر بمقتضاها أن الراهبات يؤدين نذراً يلزمهن في الاتجاهَيْن، عدم الزواج وعدم إقامة روابط جنسية: وهذا مما يفرضُ على القارىء، إلى المسعى الأوّل، أن يرى الاختلاف التقطيعيّ الحاصل ما بين [عزباء] و [عفيفة]، ومما يحثُّ على إمعانِ النظر في التضمينات الصحيحة والخاطئة (إذ ليس صحيحاً أنّ كل العازبات هنَّ عفيفات، وليس صحيحاً أنّ كلَّ العفيفات هنّ عازبات، ولكنّ الأصحّ أنّ كلَّ الراهبات هنَّ عازبات، وأنّ انتهاك نذر العفّة ينطوي على معنى إقامتهن علاقات جنسية، إلخ..). وذلك دونَ أن نتحدث عن واقع أنَّ [لكنّ] تُوجبُ (لكونها أداة استدراك) أن يصادر القارىء على الموضوع، مصادرة مضبوطة كما حدث بالنسبة لـ [Invece، بدلاً] الذي أُجري التحليل بشأنه.

Indexicale

Extensive نسبة إلى

Extension = «ماصدق»

Co-Référence:

بالتأكيد، فإذا ما اعتبرت هذه المسارات بمثابة حالات يترك النص، بمقتضاها، مضامينه في وضع الإمكان، بانتظار أن يُفعِّلها عملُ القارىء التعاضدي تفعيلاً نهائياً، فإنه يظلّ في وسعنا الكلام على المسلَّمة، ذلك أن الأخيرة توفّر له دوماً ما يوحّدُ هذه المسارات المختلفة: والحال أنَّ النص هو، على الدوام، في وضع من الخفاء. ولسوف نحاولُ في الفصولِ اللاحقة أن نحيط بدرجاتِ هذا الخفاء وبمستوياته. مما يستتبع القول إن جميع فصولِ هذا الكتاب سوفَ تُعنى بمعالجة صياغة التعاضد التأويلي.

هوامش

(١) إننا نحيلُ إلى ڤاندايك، ولا سيما نتاجه للعام ١٩٧٢أ. و١٩٧٧؛ وبيتوفي، ١٩٧٤ب؛ ١٩٧٥؛ بيتوفي وريزر، ١٩٧٣. في الإيطالية، غارافيلي مورثارا ١٩٧٤؛ ڤاندايك، ١٩٧٦د.

(٢) نتناول كلمة [تداولي، Pragmatique] ليس بالمعنى الموريسيّ الذي لبث يقصره (موريس) على دراسة مؤثرات رسالةٍ، ولا بالمعنى الحصري أيضاً، الذي يُفاد منه تأويل العبارات المثبتة وحدها، إنما باعتبارها دراسة «تبعية التواصل الأساسية، في الكلام الطبيعي، الذي يكون بين المتكلم والسامع، وبين السياق اللساني والسياق اللساني ـ البرّاني سواءً بسواء، بمثل ما تطاولُ «أهلية المعرفة المتعمقة، والسرعة التي يتطلبها تحصيل المعرفة المتعمقة تلك، والإرادة الحسنة لدى المشاركين في فعل التواصل الآنف».

(بَرْ ـ هيلّل، ١٩٦٨: ٢٧١). راجع أيضاً مونتاغ، ١٩٦٨، وبتوفي، ١٩٧٤.

(٣) لاستكمالِ الإطلاع على نظرية «التعبير» البيرسية، راجع Trattato أو الأطروحة ٢ ـ ٧ وكل الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٤) في سبيل إيضاح التضاد بين قاموس/موسوعة، راجع الأطروحة، ٢ ـ ١٠، وكتاب «سيميائيات وفلسفة اللغة» (وهو قيد الصدور بترجمته الفرنسية).

(٥) إنّ مسألة الانتخابات السياقية والظرفية التي عالجتُها في كتابي الأطروحة Trattato ٢ ـ ١١، عاودتُ درسَها بصورة أعم في هذا الكتاب، وفي الفصل الرابع منه، حيث أُدرجَتْ في باب دراسة مفهوم السيناريو.

(٦) لقد عنَيْتُ بالأعجوم في موضع لاحق ـ متبعاً في ذلك النهج السائد في علم الدلالة الأنكلوسكسوني ـ الوحدة الدالة، وعنَيْتُ بالميسوم، مضمونَ هذه الكلمة، أي مجموع السيمات أو المكوّنات الدلالية التي تمثّل مدلول كلمة أو أعجوم. غير أنَّ هذا الاستخدام لا يتفق مع نظرة عددٍ من المؤلفين (أمثال غريماس، انظر حاشية ١ من الفصل الخامس). لذلك ينبغي للناقد أن يتجنّب الإلماح إلى النظريات المختلفة حتى يتعلق الأمر بتبايناتٍ اصطلاحية محضة.

* إنّ لكلمة «الإضافات الجملية التركيبية المقيّدة» [Invece] عدة وظائف نحوية. فهي حين تكون مرتبطة تركيبياً بالأداة [di، مِن]، تتخذ معنى [بدلاً من]، فتعمل بالتالي عمل العاملة الجملية. أما إذا كانت غير ملحقة بأداة جرّ، فتصير ظرفاً حالياً وتعمل عمل العاملة «البين جُمْلية»، وبالتالي، تصيرُ عاملة نصية. ويمكن أن تُترجَم بكلمة «بالعكس».

Interphrastiques

٢ ـ بيرس:
الأسس السيميائية في التعاضد النَّصِّي

إنَّ المَيْسوم هُو نَصٌّ في حالة الإمكان والنصُّ هو توسيع لمَيْسوم واحد. إلاَّ أن إثباتَ ذلك ليس بالأمر المُحدَث. إنما هو مضمر (في حال لم يكن مصرحاً به، حتّى في سياقات لا نملك فكرة البحث عنها) في نظرية بيرس السيميائية، وهو متّسق مع رؤية الأخير القائمة على **تسييمية لا محدودة** وعلى مركزية مفهوم التعبير.

Sèmiosis-illimitée

وإذ نمضي في إثر عناصر السيميائية النصية لدى بيرس (وهو أول منظّري الجيل الثاني، بلا أدنى شك) يصير لزاماً علينا أن نتصدى لموضوعات أخرى، تبدو لنا خارجة عن نطاق اقتراحنا. بيد أن التملُّص منها قد يعني المجازفة بتماسك السيميائية البيرسية، وهو تماسك يؤكد وجوده حيثما يبدو كاتبنا غاية في عدم الاتساق، آخذاً بالاتفاق ومتناقضاً في آن. لذا اقتضى هذا الارتيادُ منّا أن نعالج مختلف مظاهر الفكر لدى پيرس لعلّنا نجد حجتنا المركزية بعد جولات تأويلية طويلة، إلاَّ أنها ليست جميعها غير ذات ثمار. والواقع أن الدربَ الأطول ربّما كان الأقصر، ليس لأنه يتيح الوصول بآمن الطُرق، بل لأَنَّ من يصلْ هو مَنْ يكُنِ الأغنى في الخبراتِ، وذلك بفضل التنوّع الذي تكون عليه الأماكن المزارة. والحال أنّ مكاناً (متسقاً، بحسب الرؤية الپيرسي) يصير آلَف إن نحن أعدنا بناءَ العمليات الكفيلة ببلوغه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ـ ١ـ تعبير، أساس، مدلول، مدار:

في العام ١٨٩٥ (أوراق مقتطفة، ١ـ ٣٣٩)*، مضى پيرس يدلي بتحديده للتعبير على النحو التالي:

إن العلامة هي لشيء ما بإزاءِ الفكرة التي تنتجها أو تحوّل فيها... لذا، فقد دُعيَ موضوعها، كُلُّ ما تنقله، ودُعيَ مدلُولها والفكرة التي يعود إليه فضل توليدها، تعبيرها.

ولما كان التحديد الآنف مغرقاً في ذهنيته عمد پيرس، في العام ١٨٩٧ (٢ـ ٢٢٨) إلى التخصيص إيضاحاً:

إن علامةً، أو **ماثولاً**[١]، هو شيء يحلّ بدلاً عن امرىء أو شيء ضمن علاقة ما، أو تحت عنوان ما. وهو معَدٌّ لكي يخاطب أحداً، أي يخلق في ذهن هذا الشخص علامة متعادلة، أو علامة ربما كانت أكثر اتساعاً. وهذه العلامة التي ينشئها (لدى المتلقي) أدعوها تعبير العلامة الأولى. تلك العلامة تحلُّ بديلاً عن شيء: أي عن موضوعها الخاص. والحال أن هذه العلامة إنما تحلُّ بديلاً عن هذا الموضوع، دون أن تمثّله في علائقه كلها، بل تؤثر الرجوع إلى فكرة دعوتها أحياناً أساسَ التمثيل.

Representamen

يتضح جلياً أن التعبير في النص الثاني لم يعُدْ فكرةً، بل صار علامةً ثانية. وإن كان من فكرة هنا، فهي فكرة العلامة الثانية، والتي ينبغي أن يتوفّر لها ماثولها بصرفِ النظر عن هذه الفكرة. إلى ذلك فقد وردت الفكرة ههنا في سبيل أن تُختزل **الهذيَّة** التي يَنْطوي عليها هذا الموضوع المعطى: فهذا الموضوع هو ما هو عليه لاعتباره مُفكَّراً به من وجهة معيَّنة، ليس إلاَّ. فهو مفكَّرٌ به باعتباره تجريداً، أو بوصفه نموذج اختبار ممكناً (معاشاً من زاوية معنية).

Haecceitas وهي كلمة لاتينية استخدمناها كما استخدمها المناطقة العرب وترجموها عن المفهوم اللاتيني والذي يعني مجموع الصفات التي يكون عليها هذا الشيء شيئاً بعينه فيميزه عن غيره تمييزاً تاماً.

لا شيء يحملنا على الاعتقاد بأن پيرس كانَ يعني «بالموضوع» شيئاً ملموساً معطى (وهذا ما يدعى في علم الدلالة المخصوص بأوغدن وريتشاردز «المرجع») لا، بسبب أنّ پيرس ظلّ يثبت أنه يستحيل «تحديد» أشياء ملموسة (عبر اللغة)، بل لأن ذلك يتم لعباراتٍ بعينها، من مثل «هذا الكلب» (ثم إنَّ الموضوع لا يكونُ هذية إلاَّ في حالة من هذا النوع، راجع ـ ٥ـ ٤٣٤).

ولكن ينبغي التنبيه، مع ذلك، إلى أن فعل [ذَهَب] نفسه بالنسبة لبيرس، والظرف المكاني [فوق]، و [مع ذلك]، وبالتالي الظرف الحالي [Invece]، بدلاً كلها لا تعدو كونها ماثولاتٍ. ومن الطبيعي أنْ يعتبر بيرس، وهو الواقعيّ بأخلص ما تكون الواقعية، أنّ هذه التعابير من شأنها أن تحيل إلى اختبارات ملموسة؛ إلى ذلك فإن كل نظرية دلالية إذ تسعى إلى إخراجِ مدلولِ تعابير «الإضافات الجملية **التركيبية المقيّدة**»، فإنها تنحو إلى تحديد ثنائيّات ضدية من مثل فوق ـ تحت، ذهب ـ جاء، على اعتبار أنها عناصر المضمون، وذلك بقدر ما تعكس اختبارنا الملموس فيما خَصَّ علاقات الزمان والمكان، وتعمل على تشريعه. إلاّ أنّ فعل [ذهب] بالنسبة لبيرس هو كلمة، لا هويّة أخرى لها سوى الإجماع الذي تناله من مختلف تجلياتها: وبالتالي فإنّ موضوعها هو وجودُ قانون.

Syncatégorématiques

ومن جهة أخرى، فإنّ الفكرة هي شيء، حتى وإن لم تتخذ لها نمط وجودِ إحدى الهذّيّات. (٣ـ ٤٦٠). أما بالنسبة لجملة من مثل [هاملت كان مجنوناً]، فيقول بيرس أنّ موضوعها إن هو إلاّ عالم متخيَّل (إذن، عالم ممكن). وأنّ هذا العالم تحدّده علامة، في حين أن تتابعاً كلامياً من مثل [إستعدّ، Ga-rde-à vous] قد يكون لَهُ موضوع مخصوص، إمّا الفعل المنسوب إلى الجنود، أو «عالم الأشياء التي يرغب فيها الضابط، في هذه اللحظة». (٥ـ ١٧٨). ولما كان بيرس قد خلط، في هذا المقطع، بين إجابة الجنودِ ومقاصد الضابط، فقد أبانَ عن وجود غموض ما في تحديدهِ الموضوع: والواقع أنَّ الحالة الأولى تمثّل على الأرجح، تأويلاً للعلامة، كما سوف نرى لاحقاً. غير أنه يتضح في الحالين، أن الموضوع ليس بالضرورة شيئاً أو حالة من عالم؛ إنّما هو قاعدة، بل قانون، أو قانون متقادم (ويسعنا القول إنه: تعليمة دلاليّة). ذلك هو نتاج الوصف العملاني لصنف من الاختبارات الممكنة.

والواقع أَنَّ بيرس كان يقصد في كلامه الإشارة إلى نموذجين من الموضوعات (٤ـ ٥٣٦، في العام ١٩٠٦)، أَوَّل هذين النموذجين ويدعوه الموضوع الحيوي، وهو الذي يضطرّ إلى ربط العلامة بما يمثّلها،

ويعمل على تحديدها»، أما الثاني فهو الموضوع المباشر، أي «الموضوع كما تمثّله العلامة والذي يُناط كيانه بما يمثله في العلامة».

٢- ٢- الأساس:

وفي سبيل أن نستوضح الصلة القائمة، على هذا النحو بين الماثولِ (أو العلامة بالأعم)، والموضوعِ، وبين المدلولِ والتعبير، ينبغي لنا إمعان النظر في مفهوم الأساس. إذاً، لقد حُدّد الموضوع بصورة أدقّ (٢- ٤١٨) على أنهُ **متضايِف** العَلامة (إذ يمكن لعلامة [Man] أن تكون مرتبطة بالعلامة [homme، رجل] الذي يصير بالتالي موضوعَ العلامة). في حين أنَّ العنصر الثالث من **التضايف**، في موازاة التعبير، لا يكون هوَ المدلول، إنّما الأساس. فالعلامة ترجع دوماً إلى أساسٍ («عبر موضوعها أو طابع موضوعاتها المشترك»). في حين أن التعبير سبَقَ تحديده، بحسب المتعارف عليه، بكونه «كل الوقائع المعروفة حول هذا الموضوع». وثمة تعيين (١- ٥٥١، لا يغيبنَّ عن بالِ القارىء أننا لا نزالُ في العام ١٨٦٧) من شأنه أن يفسّر لنا السبب الذي من أجله حلَّت كلمة «أساس» أحياناً، بديلاً من كلمة «مدلول»، والعكس بالعكس. إنَّ الجملة «هذا الموقد هو أسوَدُ»، من شأنها أن تعيِّنُ للكلمة [موقد] إسناداً عاماً. وقد سُمّي هذا الإسناد «صفة»، واقتضى التعاطي معه على أنه من باب الأوَّلية. غير أَن صفةً، حتّى لو كانت في ذاتها **مونادا** محضاً، تصير شيئاً عامًّا كلما «تفكرنا فيها» (٤- ٢٢٦). وفي خَطّ **سكوت** الفكري **السكوتّي**، الذي كان پيرس غالباً ما يتبعه، فإنَّ الصفة فردٌ هيَ، مونادٌ بسبب كونها صفة للشيء، إلا أنها عالمية، لكونها تجريداً محضاً، ولأنَّ الذهن يعيها دون غيرها. على هذا، تكون الصفة «فكرة عامة»، وهي سمة منسوبة (١- ٥٥٩): إنها موضوع للفهم والإيضاح[٢]. ولما كانت (الصفة) «إسناداً عاماً» (١- ٥٥١)، لزم أن تكون بين جميع الإسنادات العامة الممكنة التي تلصق بالموضوع في نطاق أية علاقة. والحق أن المؤلف لم يصغ هذه العبارة صياغة واضحة إلاّ في زمنٍ متأخر (النظر إلى المثال ٢- ٢٢٨، ثلاثين عاماً بعد ذلك)، حين قيل إن التعبير إنّما يمثل المُضَاف «من حيث كونه» موضوع متضايفهِ الخاص. إذاً، الأساسُ هو

Corrélat

Corrélation

Monade، «جوهر روحي متوسط بين الصُوَر العقلية والجواهر المفردة الجسمانية بحسب ليبنيز (د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص ٩٢- ٩٣).

نسبة إلى والتر سكوت، الكاتب الانكليزي الشهير (١٧٧١- ١٨٣٢).

إسنادُ الموضوع من حيث أن الموضوع كان قد انتخب بطريقة معينة، وأنّ بعضاً منَ الإسنادات التي نُسِبَتْ إليه اعتبرَتْ ملائمة لبناء موضوع العلامة المباشر. ولما كانَ الأساس أحد إسنادات الموضوع الممكنة (إذ يمكن وصف الموقد بأنه حارٌ، وكبير، نظيف أو متسخ)، فإنه يتبدّى «طابعاً مشتركاً» و «**دلالة إلتزامية**» (١ـ ٥٥٩: ذلك أن الدلالة الالتزامية، هنا، تتعارض مع **الدلالة الأصلية**، بمثل ما أنَّ المدلول متعارض مع **المدلولِ الخارجي**). ولسوف نرى فيما بعد أنّ هذا المدلولَ يبدو أنه أعقَدَ مما هو عليه إلى الموضوع؛ إنه بالأحرى نوع من «رسم تخطيطي أوّلي» أو «مسوّدة رسم جانبي» للموضوع، مما يسمح بتقدير «أية تحوّلات تتطلبها حالُ الأشياء الافتراضيةُ حتى تتحقق هذه الصورة» (٢ـ ٢٢٧). إذاً، يسع القارىء أن يقترح تحديداً مفاده أن الأساس إن هو إلاَّ مكوّن من مكوّنات المدلول: والواقع أن البعض اعتبر الرموز التي تحدِّد أسسَ الأسانيد الواصفة الخاصة (أي العبارات) «مجاميع منَ السمات» (١ـ ٥٥٩).

Connotation

Dénotation

Denotatum

ولسوف يتضح هذا الإثبات في المقاطع التالية. وإلى حينه، يكفينا إدراك أنّ الأساس والمدلولَ هما من طبيعة الفكرة: ذلك أن العلاماتِ هي، ما هي عليه، بإزاء موضوعاتها «على سبيل الإحالة إلى فكرة دعوتها أحياناً أساسَ الماثول»، وقد اتضح أنَّ عبارة «فكرة» لا يتم تناولها بالمعنى الأفلاطوني «بل بالمعنى الذي نقصده حين نقول إن إنساناً أدرك فكرة إنسان آخر». (٢ـ ٢٢٨).

إنّ الأساس هو ما يمكن أن يُفهم من موضوع معطى وما يُنقل عن هذا الفهم من زاوية معينة: إنه مضمون كلمة، ويظهر مشابهاً للمدلولِ (أو لمكوّن أساسيّ منَ الأخير).

٢ـ ٣ـ موضوع حيوي وموضوع مباشر:

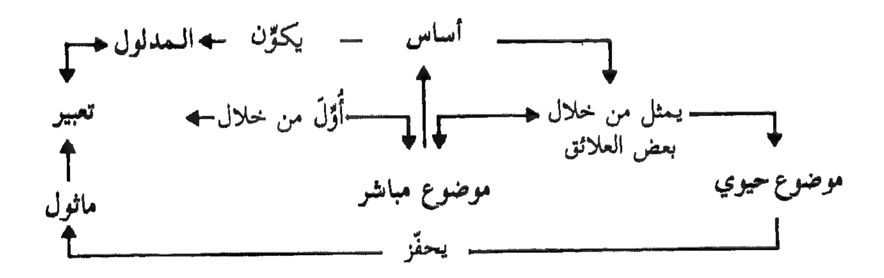
يبقى الآن أن نعالج الاختلاف في المعنى بين الأساس (والمدلول) والتعبير (أنظر ١ـ ٣٣٨، ومقاطع أخرى): **التعبير هو الفكرة التي تولدها** العلامة في ذهن الشارح ـ حتى لو لم نعاين وجوداً فعلياً للشارح. إذاً، رأيتَ پيرس يدرس مسألة التعبير، واضعاً إياه في نطاقِ البلاغة التنظيرية

Interprétant

أكثر منه في نطاقِ قواعد التنظير، باعتبار أَنَّ الأولى تعالج العلاقات بين العلاماتِ وشرَّاحها. ولكننا رأينا أن الأساس هو فكرة، في ما نعنيه من أن فكرةً يمكن أن تُدرك في سياق علاقة تواصلية بين شارحين اثنين: وعليه، تقتضي الإشارة إلى عدم وجود اختلافٍ كبير بين المدلول (باعتباره جماعاً من الأسس) والتعبير، ذلك أنّ مدلولاً لا يمكن أَنْ يوصف إلا بواسطة تعبيرات. على هذا فالتعبير هو الواسطة التي يُمثَّل بها، من خلال علامة أخرى ([man] تساوي [homme] تساوي [رجل])، مما ينتخبه الماثولُ بحكم أن الموضوع معطى (أي بحكم أنَّ له أساساً).

على أي حال، فإن الالتباسَ سرعانَ ما يرتفع إن نحن اعتبرنا أن مفهوم الأساس جدير بوضع التمايز بين الموضوع الحيوي (الموضوع في ذاته، طالما أنه يحمل العلامة على أن تتحدَّد بما يمثلها، ٤- ٥٣٦) والموضوع المباشر، في حين أَنَّ التعبير يسعى إلى إقامة الصلة بين الماثولِ والموضوع المباشر. أما الموضوع المباشر فهو الطريقة التي يُنظر من خلالها إلى الموضوع الحيوي، وليست هذه الطريقة سوى الأساس أو المدلولِ. وعليه فإنّ الموضوع المباشر هو «الموضوع كما تمثله العلامة، والذي يخضع كيانه لتمثيله في العلامة». (٤- ٥٣٦).

وإذا كانَ الموضوع الحيوي يحفز العلامة، فإنّ للعلامة أن تنشىء، عبر الأساس، الموضوع المباشر، وهو داخلي (٨- ٥٣٤). ومن الطبيعي، بعد هذا، أن يستعين المرء بتعبير هذه العلامة دون غيرها، في سبيل أَنْ يصف موضوع العلامة المباشر:



وبهذا المعنى، يكون المدلول (موضوع القواعد التنظيرية)، «في مفهوم الكلمة الأوّلي، ترجمةَ علامة واحدة في سِسْتام آخر منَ العلامات» (٤- ١٢٧)، ويكون «مدلول علامة العلامةَ حيث ينبغي أنّ تترجم» (٤- ١٣٢). إذاً، إنَّ التأويل عبر التعبيرات هو الطريقة التي يتجلّى الأساس بها، باعتباره موضوعاً مباشراً، من حيث كونه مدلولاً.

والتعبير (باعتباره موضوع البلاغة التنظيرية) هو بالتأكيد «ما تولّده العلامة في شبه - الذهن، الذي ندعوه **المُتأوِّل**» (٤- ٥٣٦). ولكن، لما كان حضور المُتأوِّل غير ضروري من أجل تحديد التعبير، توجب أن ينظر الأخير، «قبل أي شيء» على أنه تعبير مباشر، أي باعتباره «تعبيراً كما أُبينَ عنه في فهم العلامة نفسها فهماً مضبوطاً، وقد دُعيَ عادةً بمدلولِ [meaning] العلامة» (٤- ٥٣٦). Interprète

إذاً، رغم كون الأساس والمدلول والتعبير موضوعاتٍ شكلية تتخذها مختلف المقاربات السيميائية، ويُنظر إليها من وجهات متباينة شتى، فهي تمثّلُ الشيءَ نفسه، لأنه يستحيل تحديد أيِّ مدلول إلاَّ في شكل سلسلة من التعبيرات. والحال أن مقاطع عديدة تؤكد هذه الفكرة: «نعني بمدلول [Meaning] عبارة التعبير العام الكامِل من حيث كونه متعارفاً عليه» (٥- ١٧٩)؛ «إنه يبدو منَ الطبيعي أن يستخدم المرء عبارة مدلول من أجل الدلالة على تعبير تم فهمه كرمز من الرموز» (٥- ١٧٥)؛ «الموضوع المباشر الكامل، أو المدلول» (٢- ٢٩٣).

٢- ٤- تعبير الخطاب وتعبير المفردات

مع ذلك، نحن نعرف بأن التعبير ليس مدلول عبارة فحسب، بل هو استخلاصُ حجّة مستمدة من مقدّماتٍ أيضاً (١- ٥٥٩). أيجوز لنا، بعدئذٍ، أن نعتبر التعبير ذا مفهوم أرحب من المدلول؟ ولئن يقول پيرس (٤- ١٢٧) إن المدلول، في تعريفه الرئيسيّ هو ترجمة علامة في علامة أخرى، فإنه يقولُ كذلك، في تعريف آخر لَهُ «قابل للتطبيق بدوره ههنا» (وكان پيرس عهدئذٍ يعالج مسألة منطق الكمية)، يكون المدلول «تقريراً ثانياً من حيث أنّ كُلّ ما ينتج عن التقرير الأوَّل ينتج عن التقرير الثاني والعكس بالعكس». مما يدفع إلى القول إنَّ تقريراً إنما «يدلّ على Assertion

الآخر». ذلك أن مدلول قضية ما، أبداً شأن تعبيرها، لا يستنفد الإمكانيات التي ينبغي للقضية أن تنميها في قضايا أخرى، وبهذا المعنى يكون المدلولُ «قانوناً، وانتظاماً لمستقبل غير محدد» (٢ـ ٢٩٣). على ذلك فإن مدلول عبارة من شأنه أن يطاولَ كلّ استنتاجاتها الضرورية والبديهية» (٥ـ ١٦٥).

وهكذا نجد المدلول ـ بحسب پيرس دوماً ـ متضمّناً المقدِّمات، وفي عبارات أعم، هو كلُّ ما تضمنته علامة، من الوجهة الدلالية. إلا أنه ليس من الضروري بمكان أن نشير إلى الأبعاد التي تحملها مواقف پيرس هذه: ولئن توجَّب علينا أنْ نسلك بالتحديدات العديدة سبيلاً طويلاً، وغالباً ما تكونُ غامضة (أساس، مدلول، موضوع حيوي، موضوع مباشر)، فإننا أفلحنا في الإحاطة بفكرة تتعلَّق بموضوع دراستنا: إنّ مدلولَ كلمة يحتوي، بالقوة، على كلِّ شروحها النصِّية الممكنة.

ومما لا يُردُّ، أننا بلغنا، مع پيرس حداً، باتَ معه مفهوم المدلول هائل الاتساع والإفاضة. فما عاد ينطبق على كلمات بسيطة إنما على مقدمات وحجج دونَ غيرها. ولكن أيسعنا القول، بالتعابير الپيرسية، أنه يوجَدُ، بالإضافة إلى مدلولِ التصديق والحجة مدلول تصور أو مفردة؟ إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل تتعلق بالإثبات الپيرسيّ الذي يفيد بأنّ كلّ ما يقال بشأن التصديق وبشأنِ الحجّة، يصح بشأن التصورات التي تتشكل منها هاتان: العلامة والحجّة. وفي عبارات أخرى، فإن نظرية المدلولِ والتعبير لا تقتصر على الحجج فحسب، بل تتعدَّاها إلى المفردات أيضاً. وعلى ضوء نظرية مماثلة، يغدو محتوى عبارة معينة مماثلاً للموسوعة غاية التماثل.

ولنتخذ كلمة [الصياد] مثلاً، فأن يُسَوَّغ لنا تأويل [الصياد] على أنه «بائس»، فهذا من قبيل اعتمادنا التحليل التقطيعي. غير أن التصور [الصياد] ينطوي بالضرورة على كل المضامين الاستدلالية الممكنة التي تخصه. وهكذا يتحصل لنا أنَّ الحجة «كلّ الصيادين هم بؤساء، جون هو صيّاد، إذاً جُون هو بائس»، لا تعدو كونها نمواً طبيعياً للإمكانيات

المتضمنة حدسياً في التصور المعني بالدراسة ـ وتلك هي الطريقة الوحيدة للإبانة عن تعبيرات العبارة الآنفة. على أن العكس هو صحيح بالطبع. إذ الحجّة إن هي إلاّ تأكيد تحليلي يحدّد التعبيرات التي تتوجّب نسبتها إلى عبارة معطاة (يتبيّن إذاً أن التصورات والتصديقات يمكن أن تتفرّع من الحجج، أنظر ـ ٣ـ ٤٤٠).

Dénoter

Connotation

Intension

The measure of predication

Propositions

لقد قيل (٢ـ ٢٩٣) إن الرمزَ يدلّ **دلالةً أصلية على فرد**، في حين أنه يعني طابعاً، وهذا الطابع إن هو إلاّ مدلول عام (ينبغي التنبيه إلى أن أساس علامة إنما هو دلالتها **الالتزامية** وطابعها المنسوب إليها، انظر، ١ـ ٥٥٩). وعليه فإن إجراءَ التمييز ما بين أَنْ تَدُلَّ علامة دلالة أصلية وأَنْ تعني يكون رهناً بالتمييز ما بين المصداق و**المقصد**، وندلُّ عليهما بالعبارتين الانكليزيتين، (breadth and depth)، وهما تعنيان الاتّساع والعمق، على التوالي، أو بعبارات معاصرة، فإن التمايز هو ما بينَ الإرجاع إلى الشيء والدلالة عليه. على أنّ مفهوم القصديّة (depth) مرتبط بمفهوم الاعلام وهو «**قياس القضية الحملية**» و«جماع **القضايا** التأليفية حيث يظهر الرمز بمثابة فاعل أو محمول» (٢ـ ٤١٨). ومما تقدم يتضح أن كل هذه المفاهيم لا تُعنَى بالقضايا والحجج فحسب، بل تطاوِل التصورات والمفردات كذلك.

[Nota notae est nota ipsius]

«إنَّ التصور علامة يكونُ، لتعبيرهِ، علامة إمكانية نوعيّة»، وهو يعيِّن، إلى ذلك، أساساً، وهذا يعني أنه «مُدرَكٌ من حيث كونه يمثّل هذا النمط لموضوع ممكن أو ذاك، وربّما أدى كل تصور بمفرده، بعضَ المعلومات، إلاّ أنه لا يكون مؤولاً من هذه الوجهة» (٢ـ ٢٥٠). وفي نصوص أخرى يظهر پيرس أكثر إثباتاً: إذ لا تقتصر دلالة عبارة، بحسبه، على كل الصفاتِ التي تعيِّنها» (٢ـ ٤٣١)، بل تتبدّى العبارات بمثابة جماع ميزات (أو صفات، أو علاقات، أو سمات، أنظر ٢ـ ٧٧٦) يحكمها، شأنَ القضايا، المبدأُ القائِلُ إنَّ «**علامة العلامات هي ذاتها علامةٌ**» (٣ـ ١٦٦). «إن السمات التي تم التعرف إليها أصلاً بوصفها قابلة لأن تحمل على المفردة، تستغرق بالكلية عمق مفردة أخرى، لا تكون إمكانيتها على الاستغراق معروفة بعد، عاملة بذلك على زيادة التمايز المفهومي

للمفردة الأولى» (٢ ـ ٣٦٤) وفي هذا السياق، يُذكر أنه يمكن لمفردة أن تتخذ سمات عرضيةً بمقدار ما تتخذ سمات جوهرية (٢ـ ٣٩٦)، ومن شأن هذه السماتِ أنْ تشكل «العمق الجوهري» في مفردة معطاة، أي «الشكل الواقعي الملموس الذي يعود إلى كل ما يجعل من المفردة قابلة للحمل بصورة صحيحة مطلق الصحة» (لما كان الاتساع الجوهريّ، بالمقابل، «تراكُمَ **جواهر** واقعية، فإن ماهية مفردة واحدة واقعية، هي قابلة للحمل بصورة غاية في الحقيقة». (انظر ٢ـ ٤١٤).

جمع جوهر، Substance

وبهذا المعنى يكون عمق مفردة، أي مفهومها (مقصدها)، جِماعَ السمات الدلالية التي تميّز محتواها. وتلكَ السمات هي وحدات عامة: («**المسمَّيات مفردَة أما المدلولات فكلّية**» انظر ـ جان ساليزبوري في Metalogicus ـ ٢ـ ٤٣٣) وهذه السمات المسندة، بالضبط هي ما كانت تدعى الأسس. على أن جماع هذه السمات يصير، لا محالة، إلى إطراد كلما تنامت معرفتنا حول المواضيع والأشياء واتسعت؛ أما التصور فيجذبُ إليه، شأن المغناطيس، كُلَّ السمات الجديدة التي يسندها إليها مسار المعرفة: «كل رمز هو شيء حي، في معنى حقيقي ينافي تصوراً بلاغياً محضاً. ذلك أن جسد الرموز يتبدَّل وئيداً، في حين أن مدلولَهُ يروح يتنامى بصورة حتمية، فيضم إليه عناصر جديدة لاغياً القديمة» (٢ـ ٢٢٢).

«Nominatur singularia sed universalia significantur»

إذاً لنقُلْ إن المفردة هي «مدخلُ موسوعة» إذ تتضمن كلّ السمات التي تكتسبها كلّما انضوَتْ في قضيّة جديدة.

لا أخالني، ههنا، أُكرهُ التأويل على ما لا قِبَل له. بل هو بيرس نفسه مَنْ ردَّد القول، مراراً، إن كل مفردة هي **قضية** استهلالية (وكل تصور يكمن في التصديق الذي يسعه الانخراط فيه) ومَنْ شدَّدَ، غالباً على مفهوم المفردة الدلالي الذي يرى إليها مسنداً ذا حجج عديدة. إن مدلولَ المفردات المنطقية إثبات أوّلي (٢ـ ٣٤٢)، بقدر ما هي القضيّة برهنَة أوّلية (٢ـ ٣٤٤)؛ هنا، يكمنُ مبدأ التأويل الأساسُ، الذي يبيِّن العلة التي تدفع كلَّ علامة إلى إنتاج تعبيراتها االمخصوصة.

Proposition

ولطالما أدركنا التعبير البيرسي على أنه «مصداقُ» المفردة

التحديديُّ، وطاقتها التي تخوِّلها أَنْ تترجم إلى مفردة أخرى (من سستام سيميائي مساوٍ أو مختلف، كما لو كان التعبير أداة إيضاح فحسب، أو وسيلة تفسير معجمي محضة ـ بيد أنَّ هذا النقد يختص بقراءاتي الپيرسية السابقة): في حين ينبغي ألا يغيب عن بالنا، أَنَّ العلامة، بالنسبة لپيرس، ليست قائمة في كلمة أو في صورة دون غيرها، إنما هي تتمثّل في قضية وحتّى في كتاب بكامله، ثم إن رؤيته فيما خصَّ العلامة تطاوِل نصوصاً في ذاتها؛ لذا رأيتَ مفهومَ التعبير لديه، يختص بمساراتِ الترجمة الأكثر اتساعاً وتعقيداً من مساراتِ التحديد المعجمي والترادفِ الأوّلية، بما لا يُقاس. حتى ليسعنا القول إنه لا تقتصر تعبيرات كلمةِ [طفل] على صور الأطفال أو على تحديدات من أنموذج «ذَكَر، بَشَري، غير راشد»، بل تتعداها مثلاً، إلى تاريخ مذابح الأبرياء أيضاً. فالمسألة إذاً، تتعلق فقط بمعرفةِ الكيفية التي يتم بها عمل التسييمية اللامحدودة لكي يحسن المرء تجاوز مسالكه ووصلاته.

على هذا تتضح المرامي النظرية منَ الإثباتات التي ذكرناها للتوّ، والتي نزمع التحدّث عنها لاحقاً. إنَّ المفردة هي قضية أوّلية لأنها شكل قضية فارغ: «نعني بالتصور أو المحمول، شكلاً قضوياً فارغاً كما أوتي لهُ أن يكونَ مشتقاً من قضية، بعد أن تكون مُحِيَتْ منها بعض أجزائها، مُخلِّفة بعد كل منها مسافة بيضاءَ مكانها (٤ـ ٦٠٠)، بحيث لو كانت كلُّ مسافة بيضاء مُلئت باسم علم، لكانَتْ تكونت على هذا النحو قضية (وإن مجردة من المعنى). وحين يتكلّم پيرس على شكل القضايا (٢ـ ٥٦٠)، ويبين كيف أن فعلَ [تزوَّج]، يمكن أن يتمثّل على نحو «تزوّج بـ». مما يفضي إلى القول إنه من أجل تمثيل طبيعة فعل [تزوج] التركيبية تمثيلاً تكوينياً ينبغي ردها إلى صيغة معينة: «ت (س، هـ، ي)» (أنظر كذلك ٣ـ ٦٤). وهذا المسلك، إذ يتطور، على ما يقتضي، فإنه يجعل تمثيل كلمة الدلالي متعلقاً بظواهر التضمُّن والمسلَّمة الدلاليَّين. وبعبارات تذكر بمسلماتِ المدلولِ **الكرنابية** يقول پيرس إنّ جـد ـ دـث» يعني أنه في الظرفِ د، إذا كانت الفكرة ج فرضَتْ على الذهن فرضاً نهائياً، حينئذٍ تكون الفكرة ث، في المناسبة عينها، مفروضة على الذهن فرضاً نهائياً» (٢ـ ٣٥٦).

نسبة إلى كارناب Carnapp، وهو رائد في علم اللغة المنطقي.

ذلك هو المبدأ التقليدي القائل بوجودِ علامة للعلامة (Nota notae). غير أنَّ پيرس يلح، في نفسِ الصفحات، على إمكانية وجود منطق قصديّ معارض للمنطق العادي الذي يهتم بأصناف الموضوعات العامة. لذا يفصل پيرس بين مسألة القضايا من حيث **المصداق** وبين القضايا من حيث «**المفهوم**»، فينشىء اثني عشر نموذجاً من القضايا حيث يكون الموضوع صنفاً منَ الأشياء، وحيث يكون المحمول هو جماع سمات دلالية. (٢- ٥٢٠- ٥٢١).

مصطلح المفهوم هو هنا مصطلح منطقي، ويعني ما يحتوي عليه مفهوم الشيء من المقومات والصفات. وهو يقابل المصداق بالمعنى المنطقي أيضاً، أي ما ينطبق عليه المفهوم من الأفراد والآحاد. هذا وإن إيكو، يستعمل مصطلح «القصد» كمرادف لمصطلح المفهوم Comprehension

يمكن للمرء أن يلاحظ أن طريقة المساحات الفارغة ليست قابلة للتطبيق إلاّ على الأفعال والمحمولات التي تُعنى بالأُفعال، بحسب «منطق العلامات» على حدّ ما يصفه پيرس. والواقع أن مصطلح «التصور» [Rhema] في تعريف أرسطو للكلمة، إنما يعني «الفعل» فحسب. ولكن پيرس لجأ، غير مرة إلى المماثلة بوضوح بين التصور والمفردة: «كل رمز يمكن أن يكون مكوّناً مباشراً لقضية ما يُسمّى مفردة (٢- ٢٣٨). إلى ذلك ثمة «إضافات جُملية تركيبية مقيَّدة، في حين أنَّ كل مفردة «جديرة بأن تكون موضوعاً في قضية يمكن أن تُسمّى **وحدة محاكية**» (٢- ٣٣١). على أي حال، فإنَّ اسم جنس هو هو «**رمز تصوري**» (٢- ٢٦١). وقد أدركنا، من ثم، (٨- ٣٣٧) أن أسماء العلم نفسها، وأسماء النوع هي بدورها تصورات. أما السبب الداعي إلى اختيار التصوّر فيعود، ربّما، إلى أن پيرس يذهَبُ إلى اعتبار الأسماء أفعالاً مُشَيَّأةً (٣- ٤٤٠ و ٨- ٣٣٧). وفي أي حال، فإن التصوّر هو كل علامة لا تحتمل التصديق ولا التكذيب، شأن كل الكلمات تقريباً، باستثناء نعم ولا» (٨- ٣٣٧).

Onoma

Rhématique

غالباً ما يلجأ پيرس إلى المساحة الفارغة إذ يعالج النعوتَ أو الأسماء: وعليه يروح يُطَبّق الطريقة (١- ٣٦٣) على [عشيق] و [خادم]، فيوردَ المثل التالي حول التصوّر (٤- ٤٣٨): «كل رجل هو ابنُ ـ» مُقدماً مثلاً جيداً لتمثيل كلمة [أب] تمثيلاً دلالياً، من وجهة نظر منطق العلاقات. إن الدقة في هذه الرؤية، مضافة إلى نحوِ الحالاتِ القائم على منطقِ الأفعالِ (أنظر فيلمور) لسوف يتضحان للقراء في المقطع التالي.

ومن البيّن أن أسماء العلم تظلّ، من هذه الوجهة، على حالها، في حين يصيرُ خطُّ التماس بين أسماءِ الجنس والأفعالِ آيلاً إلى الخرق والسقوط»، فيقتصر «مدلول الكلمات من خلال منطق العلاقات الآنف، شأن منطق الأفعالِ، على فعل ممكن فحسب» (فيبلمان، ١٩٤٦: ١٠٦- ١٠٧، وهو يرجع إلى المقطع الذي نزمع تفحصه للحال).

٢- ٥- التعريف باعتباره قاموساً وحكماً عملانياً

يقترح پيرس (١- ٦٥١ و ٢- ٣٣٠) مثلاً للتعريف بكلمتَيْ [قاس] و [ليثيوم]. فيقول (١- ٦١٥) أنه «طالما أنّ حجراً يظلّ قاسياً، فكل محاولة لخدشهِ بضغط متأنٍ من سكين سوف تبُوء بالفشل، بالطبع. فأن تقول إن الحجر قاسٍ فهذا يعني التكهّن بأنه، أياً يكن عدد الاختبارات التي تحاول إجراءها، سوف تؤول إلى الفشل كُلَّ مرة». وفي ٢- ٣٣٠، يتبدّى لنا المثل أكثر إقناعاً، لذا آثرنا ذكره كما ورد، في البدء بسبب التعقيد الأسلوبي الذي ينطوي عليه النص ومن ثم لأنَّ لغة پيرس الإنكليزية (المريعة في دقتها شأنها دوماً) ارتدَتْ أهمية بالغة في هذه المناسبة الفاصلة (إذ تتكلم على موضوع غاية في النثرية) فحُمِّلَتْ شِعرَ التعريف شديدَ الخصوصية:

«If you look into a textbook of chemistry for a definition of lithium you may be told that it is that element whose atomic weight is 7 very nearly. But if the author has a more logical mind he will tell you that if you search among minerals that are vitreous, translucent, grey or white, very hard, brittle, and insoluble, for one wich imports a crimson tinge to an unlaminous flame, this mineral laing triturated with lime or witherite rats-bane, and then fused, can be partly dissolued in muriatic acid; and if this solutim be evaporated, and the residue be extracted with sulphuric acid, and duly purified, it can be converted by ordinary methods into a chloride, wich being obtained in the solid state, fused, and electrolyzed with half a dozen powerful cells will yield a globule of a pinkish silvery metal that will float on gasolene; and the material of that is a specimen of lithium. The peculiarity

of this definition– or rather this precept that is more serviceable tham a definition– is that it tels you what the word lithium denotes by prescribing what you are to do in order to gain a perceptual acquaintance with the object of the word*.

برغم شكل هذا التعريف الأدبي والمخفَّف، فإنه ينهض أسطع مثال على تحليل دلالي قائم على «نحوِ الحالات». والواقع أن التعرف إلى هويته ربَّما غدا شائكاً لاحتواء هذا التعريف على كثير من السماتِ التي يصعب تنظيمها في بنية ذات حجج وأسانيد. إلى ذلك، يغيب عن هذا التعريف، التمييز الواضح والدقيق بين خصائص تكون «متفاوتةً في ضرورتها» ـ كما يغيب التمييز بين سمات بارزة وأخرى متضمنة أو مفترضة[٣]. وما نراهُ ههنا، إن هو إلاّ تعريف جيّد كما يقتضيه تعريف الموسوعة بعباراتها المخصوصة، ولكن لم يُقَلْ بعد كيف يمكن أَنْ يُعَدَّ بالطريقة الأكثر شكليةً واقتصاداً.

فلو كان پيرس قال مثلاً إن الليثيوم هو معدن قلوي، لكانت بعض الخصائص المعبّر عنها اعتبرَتْ متضمنة بصورة تلقائية. إلاّ أن پيرس لم يشأ أن يعطي مثلاً عن التعريف «الاقتصادي». بل العكس، فهو أراد أن يبيِّن كيف أنَّ عبارة تتضمن مجمل المعلوماتِ التي تخصها.

بالمقابل، ولئن بدا هذا التعريف «موسوعياً» للغاية في مظهرِهِ، فإنه لا يشكل، في الواقع، سوى جزء من الإعلام الممكن حولَ الليثيوم. إذاً، يحيط «الموضوع المباشر» الذي أنجزَهُ التعريف «بالموضوع الحيوي»، في بعض العلائق فحسب، أي أنه لا يأخذ في الحسبان إلاّ الإعلام الدلالي الكافي من أجل إدخال العبارة في عالم الخطاب الفيزيائي ـ الكيميائي. على أن المثال النظري لموسوعة يرتئي «معاني» مختلفة أو فاصلات مختلفة ممكنة في طيف دلالي كامل من الوجهة المثالية. أما السمات الدلالية المدوَّنة ههنا. فمن المفروض أن تظهر تحت انتخاب سياقي محدد، بينما يفترض بسمات أخرى أن تظهر بوصفها ممكنة، حتى لو كانت عصية على التعبير. ولنعطِ مثالاً على ذلك، الليثيوم هو معدن زجاجي وشفاف ويظهر أحياناً مثل فقاعة معدن زهري ومفضض: ولو كان عالم الخطاب من النوع الأسطوري، لكانت السمات المذكورة أبرزت بشكل خاص، مع سمات

أخرى لم تُذكر ههنا. ويُعرَّف الليثيوم عادةً (بحسب موسوعات أخرى) على أنه العنصر الصلب الأخفّ وذو حرارة عادية. وقد تكون سمة الخفة هذه أساسية في سياق آخر، على ما هو محتمل.

إذاً، كان پيرس على بينة من هذه المسائل، والإجابة التي طالما وفّرها سستامه الفلسفي إنما تتعلق ببعض المسائل الجوهرية، ولا سيَّما بالنسبة لعلم الدلالة المعاصر: (I) السماتُ الدلالية أتكون عالمية أم محدودة؟ (II) وما هو الشكل الذي ينبغي أن يتخذه التمثيل الموسوعي لكي يتسنَّى لَهُ أن يكون موضوع تداول وشافياً[٤]؟ وحين طرحنا مفهوم التعبير مثلما أعدنا صياغته، كنّا ندرك أن ما يتبدَّد للتوّ، هو ضرورة العمل من خلالِ مجموعة محدودة من الأبنية «الماوراء سيميائية». كلّ علامة تؤول علامة أخرى. بيد أن الشرط الأساسي للسيمياء هو بالتحديد هذه الوضعية من التقهقر الذي لا ينتهي في هذه الرؤية، إذ يصبح كُلُّ تعبير بحكم كونه علامة بدوره، بناءً ما سيميائياً ماورائياً انتقالياً ويؤدّي دورَهُ، في هذه الحالة فقط كما يؤدّي الشارحُ دورَهُ حيال المؤولِ، بيد أنه يصيرُ بدورهِ قابلاً للتأوّلِ من خلال علامة أخرى تؤدِّي دورَ شارحِه، وهكذا دواليك.

Métasémiotiques أو «مـا يتعدى ـ السيمياء»

Explicans

explicatum

> إنّ موضوع التمثيل لا يسعه أن يكون سوى تمثيل يكون تمثيله الأوّل تعبيراً. بيد أن سلسلة من التمثيلات لا نهاية لها، وكل منها يمثّل ما وراءَه، يمكن أنْ يُنظر إليها باعتبار أنَّ لها موضوعاً مطلقاً وهو حدُّها المخصوص. إذ لا تجد مدلولاً آخر للتمثيل سوى التمثيل. والواقع أن ذلك لا يعدو كونه التمثيل منظوراً إليه وقد تجردَ من أغطيته التي يمكن إغفالها. غير أن هذه الأغطية لا يسعها ألبتة أن ترتفع كلياً: بل إن شيئاً أكثر شفافية يحلّ مكانها ببساطة. وهكذا يتبدَّى لنا تقهقراً إلى الوراء لا متناهياً. يتضح مما تقدم، أن التعبير إن هو إلاَّ تمثيل آخر وقد حُمِّلَ مشعل الحقيقة: والتمثيل بوصفه كذلك، يحوز ثانيةً على تعبيره المخصوص. وتلك هي سلسلة لا متناهية أخرى. (١ ـ ٣٣٩)[٥].

والحال أن هذه السلسلة اللامتناهية هي التي تجعل اعتماد

الموسوعة أمراً محالاً، إذ تكبت على الدوام شمولية عمل التحليل الدلالي؛ ولكن ثمة حَدّ منطقي للموسوعة التي لا يسعها أن تكون لامتناهية: أَما حَدُّها هذا فهو «عالم الخطاب». إنَّ القائمة التي ذكرنا فيها القضايا الاثنتيْ عشرة في حالِ الإدراك (٢- ٥٢٠) تصادر على عالم من السماتِ محدود:

«إن عالماً لا حَدَّ لَهُ ينطوي على السيادة التامة للممكن منطقياً.. على أن خطابنا نادراً ما يرتبط بهذا العالم: إذ يذهَبُ بنا الفكر إلى ما هو ممكن من الناحية الفيزيائية أو إلى ما هو موجود تاريخياً، سواء كان ذلك في عالم سردٍ ما، أم في عالم آخر محدود. إنّ عالماً من الأشياء يكون لا محدوداً إن كان كُلّ تراكب فيه للسمات مستمداً من عالم السمات الكامِل، ومُتواقِعاً مع شيء من أشيائه... وعلى هذا المنوال، نقول إن عالماً من السمات هو لا محدود حين يكون كُلُّ مجموع من أشياء مأخوذاً من عالم الأشياء الكامل، يشتركُ في سمة مع عالم السمات... وبالمقابل نرى في خطابنا العادي، أنّ العالمَيْن ليسا محدودَيْن فحسب، بل لا ترانا إزاءَ موضوعات فردية أو سِمات بسيطة ليس إلاّ: ذلك أنَّ لنا عالمَيْن متميزين من الأشياء ومن السماتِ المترابطة الواحدة بالأخرى بطريقة غير محددة بعامة، وبأكمل ما يكون. (٢- ٥١٩- ٥٢٠ و ٦- ٤٠١ أيضاً).

ليس المقطع غاية في الوضوح، إنما يتطلب تحليلاً فلسفياً آخر. إلاّ أنه يقدم، على ضوء علم الكون البيرسيّ[٦]، وجهات نظر شيِّقةً للغاية حول موضوعة العوالم الممكنة التي تحاول قصرَ المدوَّنات الموسوعية في أطر عالم الخطاب الدقيقة، عبر نماذج تقلصُ عدد السماتِ موضوع الصياغة وتراكباتها إلى قياس قابل للتداول[٧].

٢- ٦. المميزات الأحادية المحمول والتعبيرات المعقدة

Monadiques أو ذات المحمولاتِ الأحاديّة.

تبقى مسألة أخرى. أن يتخذ الليثيوم صفة الزجاجية، والشفافية، والقساوة إلخ.. لممّا ينمّ، بلا ريب، عن حكم قائم على الصفات (أو الخصائص أو الطبائع أو المميزات) العامة. ولكن ما عسانا نقول في حال كان الليثيوم «مختلطاً بأسيد نقيع الملح»؟ أن يكون الليثيوم زجاجياً،

Acide Muriatique

فهذه صفة ـ وهي، بحكم كونها كذلك، مميزة مونادية، بل صفة أوّلية ـ في حين أن الرد بطريقة ما على شيء مثير هو أشبه بتصرف أو بتتابع من الوقائع يؤكد فرضية ما. ومن الطبيعي أن يعمد تتابع الوقائع هذا إلى «تأويل» العلامة الأولى (ذلك أنَّ الليثيوم يتحدَّد باعتباره المادة التي تتصرف بهذه الطريقة، وفي الظروف المماثلة هذه)، ولكننا شئنا بذلك أن نقصر القول على النحو التالي: لئن كانت المميزات تعبيرات، فإن كل التعبيرات ليست مميزات محضة[8]. ولنعد إلى معالجة الحالة الآنفة، حيث يُبينُ الموضوع الحيوي نفسه وقد عَمل عمل التعبير: ما يعني أنه حين يَنظر إلى موضوع الأمر [إستعدّ!] باعتباره خاصاً بعالم الأشياء التي يرغَبُ فيها الضابط لحظة إصداره الأمر، أو باعتباره الفعل المُستَتْبَعَ إذ أوجب على الجنودِ إنفاذه، لن يكون من شك في أن أجوبة التصرف، والأجوبة اللفظية، والصور التي تؤول **علامةً عنوانيّةً**، والعلاماتِ العنوانية التي تؤولُ صورةً، تكون كلها تعبيرات، ولكن أتكون مميزاتٍ في الآن نفسه؟[9]

Didascalie

والحال أنَّ پيرس يفصح، بوضوح، عن أن السمات حتى ولو كانت صفات، فإنه لا يسعها أن تكون أوصافاً أولية خالصة. ولما كانت الأولى «عامة» فإن الإحساس بالأحمر لن يعدو كونه محسوساً به، وهو لن يكون رئاية محضة؛ وهذه المحسوسية تعني بنياناً إحساسياً، أي ذلك «الوصف الذي يباشره الذهنُ في شأنِ حواس جليّة» (٢ـ ١٤١). ومن أجل أن يتحصل لنا بنيان ذهني، ينبغي لنا أن نمرّ من محضِ المحسوس باعتباره تصديقاً، إلى الحِكم الإحساسي الذي يتشكل من واقعة خام هي التعبير المباشر (٥ـ ٥٦٨). فأن يقول المرء إن شيئاً هو أحمر لا يعني أنه «رآهُ» بنفسه: إذ يتلقى المرء صورةً، فإنَّ إثباتَ أنَّ شيئاً يحوز صفة كونه أحمر يشكل بذاته حكماً. وعلى هذا، فإن كلّ مميزة بحكم كونها واصفة أوّلية، تندرج لتوّها في تضايف يمثل دوماً اختبار واصفة **ثالثية** (٥ـ ١٨٢، ٥ـ ١٥٧، ٥ـ ١٨٣)[10].

Terceïté

إذاً، ليس من افتراق جوهري بين أن يقال إن الليثيوم ينحَلُّ إذ يُسحق، وبين أن يقال إنه زجاجيّ. ففي الحالة الثانية، نكون إزاءَ شيء هو

بمثابة نوع من **تصديق**. أما بالنسبة للأمر الأول، فنكون إزاء شيء هو بمثابة الحجة، غير أن العلامتين تتفقان كلتاهما على تأويل التصور [ليثيوم]، فلا يكون فرق بين المميزات وبين باقي التعبيرات من وجهة النظر التي يوصف من خلالها مدلول كلمة ما. على أن نسبة مميَّزة إلى كلمة هي مما ينمّ عن حكم إحساسي، ولكن ينبغي «لأحكامي الإحساسية نفسها أن يُنظر إليها باعتبارها حالات استدلال فاصل». (٥- ١٥٣).

Dicisigne

ومن جهة أخرى، فأن يقوم بعض الجنود، وفي ظروف متباينة، بأداء عمل منتظم معطى كلّما يلفظ الأمر [استعدّ] فيعني أن هذا التصرف ينضوي تحت لواء مفهوم، حتى بات تجريداً، وقانوناً، وانتظاماً ثابتاً. وفي سبيل أن يصيرَ هذا التصرف منخرطاً في هذا التضايف، فقد بات عليه أن يتحول، أبداً شأن صفة الاحمرار، أمراً عاماً.

٢- ٧- التعبير النهائي

يجدر بنا الآن، أن ندرك كيف يتجلّى في فلسفة مفكر واقعي من أتباع «سكوت»، **تقهقر سيميائي لانهائي إلى الوراء**، بحيث يغدو الموضوع الذي يُحدد العلامة عصيَّ التعيين من قِبَل الأخيرة، إلاّ في شكل الموضوع المباشر الإيهامي. ونحن إذ نستخدم كلمة «إيهامي» فلأننا نرى في ذلك بعض صواب (وبعض مكر)، لأنّ ما يتبدى لنا ههنا، هو تلك الاستحالة في أن يعاودُ الإدراكُ حيازةَ الموضوع (الذي أثار الإحساس) الذي نقع عليه في علم العرفان **التوماويّ**: لما كان الذهنُ عاملاً فاعلاً يحقّق في وهم الموضوع فعل التجريد، فقد يهبُ الذهنَ الممكن «**انطباعَ الهيئة**»، أما في حال عجز الذهن عن أنْ يعاودَ حيازة الموضوع الأصلي، فتكون حيازته إياه على الشكل الشفّافِ الذي يكونُهُ الموضوع في «**معاكسة صور الأشياء**». .[Reflexio ad phantasmata]، وقد أمكن پيرس أن يتخلّص من هذه الخطوة المتعثّرة بلجوئه إلى «علم البلاغة التنظيرية»، ولا سيّما اعتماده فيه المفهوم التداولي القائل بوجود تعبير نهائي.

Regression infinie sémiosique

Gnoséologie thomiste، نسبةً إلى القديس توما الأكويني.

[Species impressa]

صورة بلاغية في اللاتينية وتعني «نقل كلام الخصم معكوساً».

ينبغي لنا أن نوضح هذه النقطة لكونها الوجهة الوحيدة التي تعيننا

على رؤية علم الدلالة البيرسي، وقد اتخذ شكل قواعد الحالات، وإن كانت معالمها لا تزال غير واضحة.

كيف يتسنى لعلامة أن تعبر عن الموضوع الحيوي الذي ينتمي إلى العالم الخارجي (٥- ٤٥) حين لا يسعه التعبير عنه «بحكم طبيعة الأشياء نفسها» (٨- ٣١٤)؟

وكيف يمكن علامة أن تعبر عن الموضوع الحيوي («موضوع كما هو» [٨- ١٨٣]، وموضوع «مستقل في ذاته» [١- ٥٣٨])، حين لا يسع هذه العلامة أن تكون سوى علامة هذا الموضوع بمقدار ما يكون الموضوع السالفُ يعود إلى طبيعة علامة أو فكرة» (١- ٥٣٨)؟ وكيف يمكن لنا أن نقيم علاقةً بين العلامة والموضوع حين يقتضي منا التعرف إلى موضوع سبق اختباره (٨- ١٨١)، وحين لا تهب العلامة أية إشارة تعرّف أو معرفة بالموضوع (٢- ٢٣١)؟ أما الإجابة عن هذه التساؤلات فنجدها في خاتمة تعريف [الليثيوم]: «إنَّ الخاصية التي يتميّز بها هذا التعريف ـ أو بالأحرى هذا الحكم، وهو أعم فائدة من التعريف بكثير ـ هو أنه يقول إن الكلمة ليثيوم تدل وهي تُملي، في آن، ما ينبغي فعله بغية الحصولِ على صلة حاسّية مع موضوع الكلمة». (٢- ٣٣٠).

وعلى هذا، ترى مدلولَ العلامة يندرج في صنف الأفعال الآيلة إلى إحداث بعض المفاعيل المحسوسة (نموذج، ١٩٥٠: ١٥٥). «إنّ فكرة المدلول هي ما يتضمن قدراً من الارجاع إلى كلام..» (٥- ١٦٦). إلى ذلك، فإن كُلَّ شيء قد يؤول إلى الوضوح إن نظرنا إلى ما نعتبره واقعية بيرس السكوتّية من منظار تداوليته: فالواقع ليس معطى محضاً، إنما هو محصلة. وقد وضع لنا بيرس مفهوم التعبير النهائي لكي ندركَ ما يستوجب على مدلول علامة أنْ يَصوغَهُ من حيث أنه محصّلة. إنَّ أي علامة، إذ تصوغ سلسلةً من الأجوبة المباشرة (**تعبير باعث الحيوية**)، من شأنها أن تؤسِّس لعادة، أو لانتظام تَصَرُّف لدى تعبيرها، ذلك أن العادة، إن هي إلاّ «الميل [...] إلى الفعل بموجب طريقة مماثلة في المستقبل». (٥- ٤٨٧)، وعليه فإنَّ تعبير العلامة النهائي يكون هذه العادة المعتبرة محصّلَة (٥- ٤٩١).

Interpretant énérgetique

مما يحمل على القول إنّ المرء إذ يدركُ علامة، فهذا معناهُ أن يتلقّن ما ينبغي لَه فعله من أجل أن ينتج موقفاً ملموساً يخوّله الحصولَ على الخبرة الحسية التي تتحصّلُ منَ الموضوع، حجّة العلامة ومرجعها.

وبعد، ليس هذا كلّ شيء. إنَّ لمقولة «عادة» معنى مزدوجاً، نفسانياً وآخر متعلقاً بعلم الكون (الكوزمولوجيا).. والعادة، إلى ذلك، هي انتظام كونيّ، وعليه فإنّ قوانين الطبيعة تكون محصّلة للعادات المكتسبة (٦ـ ٩٧)، مثلما أنّ «لكل شيء ميلاً إلى اتخاذ عادات» (١ـ ٤٠٩). فإذا كانَ القانون قوة فاعلة (**ذات مرتبة ثانوية**)، فإن النظام والتشريع يحوزان مرتبة **ثالثية**. (١ـ ٣٣٧): فأن يكتسب المرء عادة، يعني أنْ يؤسس لطريقة وجود، منتظمة ومتراتبة. إذاً، وفي عودتنا إلى تعريف الليثيوم، يتوقف تعبير الكلمة [ليثيوم] النهائي لدى إنتاج العادة في وجهتين: في أن يصوغَ العادة البشرية القائمة على اعتبار العلامة بمثابة حكم عملاني، وفي أنْ يصوغ العادة الكونية (هذه المرة بغاية إظهارها) التي يصير لليثيوم من خلالها وجود، كلما تصرّفت الطبيعة على نحو معيّن. على هذا فإنّ التعبير النهائي يعبّر عن المبدإ نفسه الذي يحكم الموضوع الحيوي، سواء من حيث إملاء الطريقة التي يتحصّل منها على الخبرة الحسية، أو من حيث وصف الطريقة التي يعمل بها الموضوع الحيوي ويُعيّن حسياً.

Secondeité

Terceïté

إذاً، نحن بصدد إدراك التراتبية التي تنتظم تقسيم التعبيرات في أنموذج التمثيل الدلالي، هذا الذي لا يزال مجرداً من الشكل: فالأمر يتعلق بتوالية منتظمة من العمليات الممكنة إلى كونها (توالية) موجّهة، أما المميّزات فليست منتظمة على نحوٍ يشتمل بمقتضاه النوعُ على الجنس، إنما بحسب العمليات الجوهرية التي ينبغي أن يضعها موضع الفعل عميل يستخدم بعضَ الأدوات من أجل تبديل موضوع معطى بغية التغلب على مقاومة عميل ـ مضاد، وذلك في سبيلِ الحصولِ على بعضِ النتائج أو المحصلات.

وعلى هذا المنوال يسعنا أن نلطّف التعارضَ الظاهر بين الدلالية القصديّة التي يكون عليها التقهقر السيميائي اللانهائي إلى الوراء وبين

الدلالية المصداقية التي تكونُ عليها الإحالة إلى موضوع حيوي. والحق يقال إن العلامات لا تهبنا الصلة الملموسة مع الموضوع الملموس، لأنه لا يسعها إلاّ إملاء الطريقة التي يتم بها تحقيق هذه الصلة. إذ ليس للعلامات سوى إقامة الصلة المباشرة بموضوعاتها الحيوية، إلاّ في حال حددت هذه الموضوعات شروط إنتاج العلامة؛ على أي حال، فإن العلامات «لا تعرِف» إلاّ موضوعات مباشرةً، أي مدلولات (أو معطيات محتوى). ومنَ الجليّ أن ثمة اختلافاً بين الموضوع الذي علامته هي علامة، وبين موضوع العلامة. فالأوّلُ هو الموضوع الحيوي، وأقصد به حالةً من العالم الخارجي، أما الثاني فبنيان سيميائي هو موضوعٌ من العالم الجوّانيّ المحض. وفي هذا الصدد فإنه لا يُسوّغ اللجوء إلى التعبيرات سوى في حالة وصف هذا الموضوع الجوّاني، وعنيتُ به اللجوءَ إلى علاماتٍ أخرى معتبرة تعبيرات، حتّى يتسنى الحصولُ على اختبار مواضيع أخرى منَ العالم الخارجي.

على أن الموضوع الحيويّ، منَ الوجهة السيميائية، يكون في تصوّرنا في حالة وحيدة تقضي باعتبارهِ جماع التعبيرات المنتظمة على نحو **طَيْف تقطيعي** مُبَيّن عملانياً.

Spectre componentiel

وإذا كان الموضوع الحيوي، منَ الوجهة السيميائية، يشكل موضوعاً ممكناً لاختبار ملموس، فإنه يتبدّى لنا، من الوجهة **الأنطولوجية**، موضوعاً ملموساً لخبرة ممكنة.

Ontologique

٢ـ ٨ـ التسييمية اللامحدودة والتداولية:

إذاً، من شأن كل الملاحظات السالفة أن تفضي بنا إلى معاودة اعتبار مفهوم التعبير بمثابة فئة تعود إلى نظرية دلالية، بل بمثابة فئة تعود إلى سيميائية تُعدُّ التداولية من فروعها. بيد أن مفهوم التداولية يمكن أنْ يُرى إليه من وجهات مختلفة: الوجهة التي يقترحها موريس وتتعلّق بالأثر، دونَ غيره، الذي تحدثُهُ العلاماتُ في المرسل إليهم بها. ولا شكَّ، في أنّ رؤية بيرس التداولية في هذا الشأن، تفسحُ لهذه المسألة مجالاً واسعاً. والآن، فلنشرع بتفحص هذه الوجهة النظرية.

يسعنا القول إن بيرس، إذ راح يصوغ صورةً عن سيميائية، يحيلُ

فيها كُلٌّ تمثيل إلى تمثيل متوالٍ، قد كشف عَنْ واقعيته «القروسطية»: فهو لن يفلح في تبيان كيف أن علامة يمكن أن تكون موضع إحالة إلى موضوع. أضِفْ إلى أَنَّ علاقة دلالة ملموسةً قد تتيه في شبكة لامتناهية من العلامات التي تحيل إلى علامات، في عالم محدودٍ إلاَّ أنه يفيض إلى ما لا حَدَّ له، بالمظاهر السيميائية الطيفية.

رغم ذلك، قد يكفي أن يفكر المرء تفكيراً يمتّ إلى الواقعية التداولية، دونَ الواقعية الأنطولوجية، لكي يتسنى لَهُ أن يدرك أنّ العكس صحيح، وأنَّ عقيدة المؤوّلات والتسييمية اللامحدودة قد أفضَيا ببيرس إلى ذروة واقعيته غير المبسَّطة. ذلك أن بيرس لا يهتم مطلقاً للموضوعات باعتبارها جماع خصائص، بل باعتبارها فرصاً ومحصِّلات اختبار فعَّال. فأن يكتشف المرء موضوعاً، فهذا يعني، كما أسلفنا، أن يكتشف «قياس اشتغاله» [Modus operandi] لكي يسعه صوغه (أو لكي يصوغَ استخدامه العملي). إنَّ بمقدور علامة أَنْ تنتج تعبيراً حيوياً أو انفعالياً: كأن يكون المرء يستمع إلى قطعة موسيقية، فيكون التعبير الانفعاليّ تفاعلنا إزاء سحر الموسيقى؛ ولكن هذا الانفعال الموسيقي أحرى به أن يثير جهداً ذهنياً أو عضلياً، فتكون الاستجابات هذه حينها **تعبيرات طاقوية** (Interpretant energetique). على أَنّ استجابةً طاقوية لا تتطلَّب تأويلاً: إنما هي تنتجُ عادةً (عبر التواترات المتتالية). والحال أَنَّ طريقة تعاطينا مع العالم تصيرُ عرضة للتبدّل، لمجرّد أن نتلقى تواليةً من العلامات، فيلبث التحوُّل برهةً أو يظل فينا أبداً. وهذا الوضعُ الجديد هو ما ندعوه بالتعبير النهائي. آنئذ يمكن للتسييمية اللامحدودة أن تتوقف، حالما ينتجُ تبادلُ العلامات تحويلاتٍ في الاختبار، وحالما تُعينُ هويَّةُ الحلقة المفقودة بين التسييمية هذه والواقع المادي. وعليه، فإن نظرية التعبيرات ليست بالأمر المثالي.

ولكن، لا نكتفينَّ بهذا. فلمَّا كان للطبيعة نفسها عادات، بل قوانين وانتظامات، ولما كانت «المبادىء العامة معمولاً بها، بصورة واقعية في الطبيعة» (٥- ١٠١)، فقد صار لزاماً أَنّ يُرى إلى المدلول الأقصى (أو التعبير النهائي) الذي يكونُ لعلامة، على أنها القاعدة العامة التي تتيح إنتاج هذه العادة الكونية أو التدقيق بشأنها. ولنذكر ههنا تعريف

[الليثيوم]: إنّها القاعدة المادية، والوضع الذي ينبغي لنا أن نبلغَهُ لكي تتاح لنا فرصُ اختبارها، ما يحكمان إنتاج الليثيوم، على السواء. وهذا القانون موضوعي لكونهِ قابلاً للمراقبة بصورة **تذاوتية**. إذاً، يكمنُ كل التعارض في ما بين تداولية جايمس و**تداولانية** بيرس في الشأن التالي: إذ لا يُعدُّ حقيقياً ما ينجح في امتحانِ الفعل العملي، إنما ينجَحُ في الفعل العملي ما هو حقيقيّ، ذلك أن ثمة ميولاً عامة (انتظامات كونية) وقواعد عملانية تسمح لنا بالتدقيق فيهما وقياسهما.

Intersubjectivement

Pragmaticisme

وأن ينظر المرء إلى العلامة باعتبارها قاعدة تنمو من خلالها سلسلة من تعبيراتها الخاصة فهذا يعني أن يكون (المرء) اكتسب عادة الفعل بحسب ما تمليه عليه العلامة:

«الاستخلاص [...]، أنه في ظروف معطاة، قد يكتسب التعبير عادة التصرف بطريقة ما كلّما رغب في نوع من النتائج. إن الخلاصة المنطقية، الواقعية والحية، هي هذه العادة: لن يكون دأبُ الصياغة اللغوية سوى التعبير عنها. لا أنكر أنّ مفهوماً، جملةً أو حجّةً، قد لا يسعها أن تكون تعبيراتٍ منطقية، إلا أنني أشدّد على أنّها إذ تعجز عن أن تكون تعبيراً منطقياً نهائياً، فلأنّها نفسها بمثابة علامة لها تعبيرها المنطقي الخاص بها. وحدها العادة حتّى لو يسعها أن تكون علامة بطريقة أخرى، لن تكون على النحو الذي تصيرُ فيه كُلُّ علامةٍ علامةً لتعبيرها المنطقيّ، بأي حالٍ من الأحوال. والواقع أنَّ العادة مقرونةٌ بالحوافز وبالشروط يكون لها «الفعل» بمثابة تعبيرها الطاقويّ المخصوص؛ ولكن الفعل لا يسعه أن يكونَ تعبيراً منطقياً لأنّه منقوصُ التعميم. (٥ـ ٤٩١)».

وهكذا، نجح پيرس، بفضل تداولانيته، في تدبر أمره مع واقعيته السكوتية: فالفعل هو المكانُ حيث تضع **الهذيات** حداً نهائياً للعب التسييمية.

hacceitas

ولكن إذا كان پيرس معتبراً بحق بمثابة مفكّر متناقض مع نفسهِ، فهو، إلى ذلك، مفكر جدالي ـ بل أكثر مما نظنّ. والحال أنَّ التعبير النهائي ليس نهائياً بمعنى التتابع الزمنيّ. فالتسييمية تموتُ كُلَّ حين،

وتحيا ثانية من رمادها. ولئن كانت الأفعالُ الفردية منقوصة التعميم، فإن سلسلةً منَ الأفعال، المكررة بصورة متماثلة، يسعها أن توصف بعبارات عامة. إذاً يضيف بيرس في ختام الصفحة تماماً، والتي كنا ذكرناها للتوّ: «ولكن كيف يسعنا وصف عادة إن لم يكن من خلال وصف نوع من الأفعالِ التي تولدها، مع تخصيص الظروف والحوافز؟» هكذا، فإن الفعل المتكرِّر الذي يستجيب لعلامة معطاة يصبح بدورهِ علامة جديدة، ماثولاً لقانونٍ من شأنه أن يؤوِّل العلامة الأولى وينشىء مساراً من التأويل جديداً ولا متناهياً. وفي هذا المعنى، يبدو بيرس أقرب إلى فلسفة موريس السلوكية، إذ يربط هذا الأخير معرفة مدلولِ علامة بالاستجابة المسلكية التي تنتجها (وهذه الاستجابة، بالنسبة لبيرس، إذ يرى إليها منفردة، هي أحد أشكال التأويل ليس إلاَّ): إنْ سمعتُ صوتاً بلغة مجهولة، وإنْ تحققتُ أنه كلَّما أطلقه متكلِّم، وردَّ مخاطَبُهُ بتعبير من غضب، سُوِّغ لي أن استدلّ من الاستجابة المسلكية أنّ في الصوت مدلولاً مزعجاً؛ هكذا، يغدو مسلَكُ المخاطب تعبيراً لمدلولِ الكلمة.

من هذه الرؤية، تنغلق دائرة كُلِّ آن ولا يسعها أنْ تنغلق على الاطلاق. وعليه فإنَّ **نسق الأنساق** السيميائية، الذي يمكنه الظهور على نحوٍ مثالي، هو بمثابة عالم ثقافي منفصل عن الواقع، قد يفضي، بدوره، إلى التأثير في الواقع وتحويله؛ على أن كُلَّ فعل تحويلي من شأنه أن يتحوَّل بدوره إلى علامة وينشىء مساراً سيميائياً جديداً.

٢ـ ٩ـ توجهات في سبيل تداولية حول النص

من هذه الوجهة، تبدو عقيدة التعبيرات وثيقة الصلة بمفاهيم أخرى تنسب إلى التداولية، وعلى سبيل المثال ذلك المفهوم حيث يُعلى من شأن ظروف **التلفُّظ** دونَ بنية **اللفظ** الدلالية، على غرار ما يُعلى من شأن المُتَناصة، والمسلَّمات التي يضعها المتأوِّل موضع الفعل، والاشتغال الدلالي في تأويل النص.

Enonciation

Enoncé

فلنقُلْ، بادىء الأمر، وبناءً على حكاية التعبيرات هذه، أن كلّ الحياة اليومية تُمثَّل باعتبارها شبكة نصية، حيث تصيرُ الحوافز والافعالُ، والعبارات المبثوثة لغايات تواصلية مفتوحة، بالإضافة إلى الإفعال التي

تحثّ عليها، عناصرَ في نسيج سيميائي حيث بمقدور أيّ شيء أَنْ يُؤوِّل أيَّ شيء آخر[١١].

وفي مقام ثانٍ، فإنه لا توجَدُ عبارة، سواء كانت قضيةً أو حجّةً من الوجهة الحدسية، إلاّ وتدل على النصوص الممكنة، حيث قد يسعها أَنْ توضع. ومع ذلك، فإن اشتغال التأويل، في مقابلة غنى **التضميرات**، Implicitations والوعود الاستدلالية والمسلَّمات التي فيها خلل، قد يفترضُ خيار الحدود، والوجهاتِ التأويلية وعالم الخطاب. وما يدعوه پيرس عالم الخطاب، والذي بتنا ندركه الآن بوضوح، إنما يمثل الشكلَ المناسبَ [Ad hoc] في آنه، والذي ينبغي أَنْ نستمده منَ الموسوعة في حالة **الإمكان** (نسق دلالي إجمالي) Encyclopédie potentielle حتى يتسنى لنا استخدامه. والواقع أن الموسوعة إذ تكونُ مفعلةً على الدوام، مختزلة، ومشذَّبة، تكونُ التسييمية اللامحدودة مكبوحةً ثانيةً، في سبيل استمرارها وتحوّلها أيْسَرَ للاستعمال.

بيد أن اختزال الخطاب، إذ يكبح الموسوعة العميقة، من شأنه أن يفضي إلى ازدهار النص الذي يتم تطبيق الموسوعة عليه. والحال أن قرارات **المتأوّل** Interprète التداولية (بالمعنى المعاصر للكلمة) نراها تُنضج، بحصافة بينة، غِنى التضميرات التي تحتويها كُلُّ حصة نصية، بل عبارات ذات حجج. حتّى ليسعنا تأويل پيرس، فنقول مثلاً: لما كان عنوان كتاب «ستاندال» [الأحمر والأسود] بمثابة **علامة ـ كبرى** Macro-signe (وهذا المثل اختير اعتباطاً)، أمكن النظر إلى الرواية ككل باعتبارها تأويلاً للقضيّة التالية: «مات ناپليون في الخامس من نيسان ١٨٢١». فأن يقارب الناقد مأساة شاب فرنسي في عهد الإصلاح مقاربة متأنية، وأن ينظر ملياً في تمزّقه بين أحلام مجد ضائع وتفاهة الحاضر، يعني أن يخلص، بما لا ردَّ له، إلى أَن ناپليون قد مات في تلك الفترة وأنّ [ناپليون] هو، منَ المنظار الموسوعي، أكثر من **مُعيِّن** Désignateur جامد (كما يشاء لَهُ كريپكه أَنّ يكون)، بل حريّ به أن يكون بمثابة عَلاّقة يُثبَتُ عليها عدد لامتناهٍ من أوصاف متناهية (على حد مايقول سيرل)، ومن بينها سلسلة الدلالات الالتزامية التي للقيم والمشاريع، والمُثُل، والقضايا الإيديولوجية التي تتبارى فيما بينها من أجل أن تشكل، موسوعياً، مفهوم شخصية ناپليون التاريخية

(فتتحصل لدينا هذه الأوصاف بالصدفة: «مؤلف أرموزة نابليون»، «الداعية الأوروبي إلى مُثُل الثورة الفرنسية»، «حامل مفهوم جديد للمجد» إلخ.. أوصاف من شأنها أن تغذي الصورة الخُلقيَّةَ التي قد ترسمُها الوحدة الدلالية «نابليون»، مما يحمله أدب الحنين لدى جوليان سوريل).

Macropropositions = القضايا - الكبرى

إنَّ غزارة المراجع الملموسة إلى فرنسا اللاحقة بالمرحلة النابليونية، والأحكام الإيديولوجية الضمنية والظاهرة التي تشكل **قضايا الرواية الكبرى**، بالإضافة إلى المغامرة المكبوتة التي يشير إليها جوليان، وهي، على أي حال تقوم مقامَ المَثَل (وعلى هذا فإن تحديدَ الرواية يتم بصورة مجازية) من الحلم البونابرتي المتأخِّر، كل ذلك يجعل من العنوان «الأحمر والأسود» تعبيرَ القضية المذكورة أعلاه.

حتى إذا شاءَ النقاد أن يحيطوا بما كان يعنيه غياب نابليون بالنسبة لجيل بكامله، كان لهم أن يرجعوا، في الغالب، إلى أعمال من مثل «الأحمر والأسود» لستاندال، مؤثرينها على المصنَّفات التاريخية الضخمة. ذلك أن هذا الكتاب «يُؤوِّل» (أو يوفّر كل التبعات الاستدلالية لـ) واقعة معبّراً عنها في قضية، أفضل مما تقوم به تأويلات أخرى تقصدُ إلى إبرازِ كل دلالة هذه القضية. ولكن قراءة رواية ستاندال هذه تعني أنَّ المتأوِّل، مدفوعاً بحوافز مختلفة، قد اختار عالم الخطاب الذي رآه ملائماً. وكلما كان العالم مختلفاً، انساقتْ قراءة الرواية إلى تأويلاتٍ أخرى (على سبيل المثال، وبناءً على ما قد يوحي به العنوان: مثال ديني/ مثال علماني. وبعدُ، لم لا؟). على أي حالٍ، فإنَّ الكتاب منظوراً إليه باعتباره علامة، يصيرُ بدوره قاعدة: فنظام تأويلاته يشكِّل نظام العمليات التي يوحي بها في سبيل أن يبلغ موضوعاً حيوياً معيناً. وهذا يعني الأمر التالي: لئن صَحّ أنَّ نصاً سردياً هو سلسلة من الأفعال اللسانية التي «تتظاهر» بكونها **تقريرات**، ولا تتطلَّب بدورها أنْ تُصدَّق ولا أن يبرهن عَنْ وجودها، فإنَّ وجودها هذا يكون رهناً بوجود شخوصٍ متخيلة يضعها النص في الاعتبار، ليس إلاَّ. ولا يُستبعد، في المقابل، أن تضاف إلى سلسلة التقريرات الوهمية التي تكون منتشرةً في النتاج، تقريرات أخرى لا تكون وهمية وتجدُ، في الآن نفسه، ظروف سعادتها في التزام تأييدها من قبل المؤلف،

Assertions

وفي البراهين التي يزمع توفيرها (تحت نقاب المَثَل السردي) من أجل أن يسند تأكيداته إلى المجتمع، وعلم النفس البشري، وقوانين التاريخ.

إنَّ مظهراً من الوظيفة التي تؤدِّيها منتجات كهذه إنَّما يُعزى إلى أنّ أفعالاً لسانية جدية (أي غير وهمية) يمكن أنْ تحملها نصوصٌ من المخيِّلة، حتّى لو كانَ الفعل اللساني المحمولُ غير ممثَّل في النص. وعليه يكاد يكون كلُّ نتاج مخيلةٍ هامٍ حاملاً «رسالةً» أو «رسائل» تكون محمولةً في النص، ولا تكون داخل النص، مع ذلك. (سيرل، ١٩٧٥: ٣٣٢).

وفي هذا الصدد، تصيرُ الرواية الستاندالية نفسها مماثلة بعض الشيء لتعريف الليثيوم، حَتَّى لتُملي ما ينبغي عمله لاكتساب عادات في الفعل وفي تحويل العالم. أما الاختلاف القائم ما بين الرواية وتعريف الليثيوم، فيكمن ببساطة في أن جماع التعبيرات يصيرُ أوسع متاهةً. فضلاً عن ذلك، يبقى موضوع آخر جدير بالتأويل، ويقيم، شأن الأمر الصادر [استعدّوا!] في عالم الأشياء الذي يرغب فيه المؤلف في أوان التلفُّظ.

لن نخلص إلى القول، في ختام هذه المغامرة التأويلية، التي قاربنا بها النصوصَ الپيرسية، أنّ لدى پيرس تسييمية حول النص بيّنةً، وقابلةً لأن تترجم في عبارات مما صاغهُ النقاد اليوم. ولكننا نحرصُ على تكرار القول إن الفرضية القائلة بأنَّ المَيْسوم إنما هُوَ نَص كامن، وأنّ النصَّ هو ميسوم في حال توسعه إنما تجد أساسها في مفهوم التأويل - وأنّ لدى پيرس، أفضل بكثير مما لدى مؤلفين لاحقين، يرتسم الرباطُ الذي يسعه أن يوحِّد ما بين سيمياء الأرموزة وسيمياء النصوص والخطابات. وههنا اشتغال ينبغي متابعته والسير به، أبعد مما انتهى إليه پيرس: ولكنَّنا أدرى بحالنا، فإن نحن إلاّ أقزام على كواهل جبابرة.

هوامش

* فيما يلي، تحيل كل الاستشهادات التالية إلى نفسِ العمل.

(١) (١- ٥٤٠) يُقيم بيرس تمييزاً بين العلامة والماثول: ويتضح أنه يشاء لكلمة [علامة] أن تعني ما تعنيه العبارة وهي واقعة في موقع المصادفة، إذ تستخدم في مسار التواصل الملموس، في حين يريد لكلمة الماثول أنْ تعني النموذج الذي تسند إليه الأرموزة مدلولاً ملائماً وذلك بواسطة تعبيرات جديرة بترجمته. وفي حالات أخرى اعتبر العلامة على أنها الأدوات ذات الصفة التواصلية البيِّنة، ونظَر إلى الماثولِ على أنه كل موضوع يسعه أن يقيم علاقة بمضمون، حتى لو لم يكن مبثوثاً بصورة قصدية.

«أعني بالعلامة كلَّ ما يحمله كُلُّ مفهوم محدَّدٍ عَن موضوع في أي شكل من الأشكال، بمقدار ما تكون حاملات الفِكرة هذه مألوفة لنا. إذ أنه، انطلاقاً من هذه الفكرة المألوفة أمضي بالتحليل على خير ما يمكن حولَ ما أجده أساسياً في العلامة وأرائي أحدِّد الماثولَ باعتباره كل ما ينطبق عليه هذا التحليل... على الأخص، فإن كل العلامات تبلغ مفاهيمَ إلى أذهان بشرية، ولكني لا أجد من العلل ما يسوِّغ للماثول أن يكونَ على هذا الوصف...» يمكن أن نقرأ هذه الصفحة باعتبارها إثباتاً للاختلاف بين مسارات التواصل المحسوسة وبين علائق الدلالة المجرَّدة. أياً يكن الأمر، فإن بيرس غالباً ما يستخدم عبارة في موضع أخرى، لذا لن نأخذ بهذا الاختلاف، ولن نصرَّ عليه.

(٢) لما كانت خاصة «الإسوداد» غير معتبرة في ذاتها، إنما هي مسندة إلى المدفأة، فلن يكون بوسعها أنْ تغدو صفة عامة مسندة: «لا يسعنا أن ندركَ اتفاقاً بين شيئين، بل محض اتفاق ضمنَ علاقة ما». (١- ٥٥١).

أما الملاحظات التالية في النص فقد أوحى بها كابريتيني، ١٩٧٦.

* أعرض ههنا لترجمة فرنسوا بيرالدي (أ.إيكو، «بيرس وعلم الدلالة المعاصر»، في Langages، ٥٨، ١٩٨٠، ص ٨٦). «إنَّ بحث المرء عن تعريف الليثيوم في كتاب كيمياء، ربَّما وجد أنَّ الموصوفَ هو عنصر يبلغ حجمةُ الذري ٧ تقريباً. ولو كان المؤلف أوتي ذهناً أشد مراساً بالمنطق، لكان أوضح أنه في حال اخترتم من بين المعادن الزجاجية، الشفافة، الرمادية، أو البيضاء، الشديدة القساوة، الهشَّة والعصية على الذوبان، وما يهبُ شعلةً لا لونَ لها تلويناً قرمزياً، وإذا ما خلطتم هذا المعدنَ بالكلس أو بمسحوق سُمِّ الفئران وإذا أمكنكم تذويب هذا الخليط جزئياً بأسيد نقيع الملح، وما أن يتبخر المحلولُ، وبعد أن يستخرج الراسب مختلطاً بالأسيد الكبريتي وبعد أن يُنَقَّى كما ينبغي، فإذا أمكنكم تحويله إلى حمض الملح بالطريقة العادية، ومن ثم الحصول على حمض

الملح هذا بحالته الصلبة، وتذويبه، وتحليله كهربائياً مع نص دزينة من العناصر المتينة إلى أن تنبجس منها كرية من المعدن مفضضة ومورّدة وتطفو على صفحة النفط، فإذا تمّ لكم ذلك كله فالمادة التي تنتج عنه تكون نموذجاً منَ الليثيوم».

(٣) سوف تستعاد هذه الموضوعة في الفصل ٨ـ ٥.

(٤) لقد عالجتُ هذه النقطة معالجة موسعة في فصل «المعجم/ في مواجهة الموسوعة» من كتابي سيميائيات وفلسفة اللغة «Semiotics and philosophy of language»، الصادر في انديانا م ـ ج، ١٩٨٤.

(٥) في إطار سيميائية عامة، لا يفرض تحليل عبارة مكتوبة تحليلاً تقطيعياً النظرَ إلى التعبيرات اللغوية وحدها. إذ بين تعبيرات كلمة [أحمر]، ثمة فوارق لونية (مرئية) تعود إلى الأحمر، وصور الأشياء الحمراء؛ وبين تعبيرات كلمة [كلب]، هنالك أعداد لا تحصى من رسوم كلاب جديرة بالاعتبار من خلال الموسوعة حول تنوّع التعبيرات، أنظر إيكو، ١٩٧٥، ٢ـ ٧.

(٦) هناك عالم مثالي (حيث قضيتان متناقضتان هما ممكنتان)، وهناك عالم واقعي أو راهن (حيث تلقى القضية وإن هي وجدت، نقيضاً مستحيلاً): على هذا فإن الأخير يمثل انتخابَ الأوّل وتحديداً اعتباطياً لَهُ (٦ـ ١٩٢). أما العالم الراهنُ، مقارنة مع هذا الماثول الفسيح (٥ـ ١١٩) الذي يكونه العالم الكلّي «المنثور بالعلامات» (٥ـ ٤٤٨) فهو عالم خطاب، من شأنه أن يحيل كلّ الخصائص الممكنة إلى عددٍ يسير التداول.

(٧) سوف أتحدث مطوّلاً، في آخر مقالة لي من هذا الكتاب، في الفصل ٦ منه، عن هذه العملية في إطار نظرية بنائية حول العوالم الممكنة.

Constructiviste

(٨) انظر ٥ـ ٥٦٩، حيث قيل إنّ «رسمَ شخص وقد ذُيِّلَ باسم صاحبه هو بمثابة قضية». ومن شأنِ هذا الإثبات أن يشرع البابَ أمام اجتهادات هامة حول دور الأيقونات في عقيدة التعبيرات. وفي العام ١٨٨٥ (١ـ ٣٧٢)، قيل إنه في حين تغدو عبارة لغوية وصفاً عاماً، لا تعود القرائن ولا الأيقونات تملكُ عموميتها. ولكن في العام ١٨٩٦ (١ـ ٤٢٢ و٤٤٧) باتت هذه الخصائص، بحكم كونها أيقونات، أحكاماً أوّلية، وقد أُلحقت بها صفة العمومية. وفي العام ١٩٠٢ (٢ـ ٣١٠) قالَ (پيرس) إن التصديق وحده يمكن أن يكون حقيقياً أو مزيفاً، ولكن قيل في العام ١٨٨٣ (٢ـ ٤٤١) أن أيقونتين يمكن أن تشكلا قضية: فأيقونة صينية (ولكن پيرس آثر أن يقول بصفة غير محددة «a chinese») وأيقونة امرأة تشكلان كلتاهما قضيةً وتعملان باعتبارهما عبارتين عامتين. وفي عالم ١٩٠٢ (٢ـ ٢٧٥)، ولئن باتت الإيقونة أنقى صورةً من الموضوع فإنها لا تني تنتج فكرةً تعمل على تأويلها. وفي المقطع ٢ـ ٢٧٨، يُذكر أن الأيقونات يسعها أن تعمل بمثابة محمول لقضية (مما يبدو جديراً بإثبات ما ذكر في بداية هذه الملحوظة). وفي

بالمعنى السيميائي

Hypoicônes

Terceïtés

سبيل شرح هذه التناقضات الظاهرة، ينبغي التذكير بأن پيرس ينظر إلى الأيقونات على أنها أمثلة أوّلية (وبالتالي فهي خصائص محضة) لماثولاتٍ أيقونية يدعوها بدورها **«أيقونات متعالية»**. فتكون هذه الماثولات بدورها **ثالوثات**، وهي بالتالي قابلة للتأويل. هكذا يغدو الرسم إلى جانب الاسم المذيّل تحته قضية في معانٍ عديدة: إذ يسع «الأيقونة المتعالية» أن تقوم مقامَ تعبير الاسم، أو أن الاسم يسعه أن يُؤوِّل الأيقونة المتعالية.

وأياً يكن الأمر، فإن من شأن هذه المناقشة كلها أن تختزل الاختلافَ الحاصل بين الخصائص باعتبارها صفات محضة وبين التعبيرات الأكثر تعقيداً، كما سوف نرى لاحقاً.

(٩) «يمكن أن نتناول علامة بالمعنى البالغ الاتساع والرحابة بحيث لا يكون تعبيرها فكرةً بل فعلاً أو اختباراً، إلى ذلك يسعنا أن نوسّع مدلولَ علامة إلى درجة يصير معها التعبير صفة شعور محضة». (٨- ٣٣٢).

(١٠) كل هذا كانَ كُتِب بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٣. حين أقدم پيرس عام ١٨٩١ (على اختصار «مبادىء علم النفس» لجايمس)، وكانَ لا يزال أكثر حذراً: «في الإدراك الحسي، ليست الخلاصةُ موضوعاً للتفكير، إنما نظرة مرئية بالفعل، بحيث لا يُعدّ ذلك حكماً حقاً، حتى وإن كان يعادل الحكم». (٨- ٦٥) «يجاوزُ الإدراك الحسي حكماً طيَّ الإمكان، وهو يدرج شيئاً في باب صنفٍ، وليس هذا بعد كل شيء، بل هو يضع، بصورة ممكنة، في مقابلة القضية ختمَ القبول». (٨- ٦٦).

(١١) إنّ الهوى السيميائي، إذ يجعل كلَّ شيء يعمل من زاوية كونه تأويلاً لمدلول شيء آخر، عبر هروبه الميتافيزيقي الظاهر إلى الأمام، يحفظ فئة المدلولِ، في الواقع، من كل أفلاطونية. عبر التعبيرات، تغدو محدِّداتُ المدلولِ بحكم كونه مضموناً، مُيَسَّرة التداول، من الوجهة الاجتماعية، والفيزيائية والمادية، وقابلةً للمراقبة. وليس أبلغ تعبيراً عن تداولية التعبيرات - وعن الطريقة التي يكفّ بها المضمون عن أن يكون حدثاً ذهنياً عصيَّ البلوغ - من حجر روزيت. والحال أن مضمونَ النص الهيروغليفي كان أُوِّلَ وجُعِل ممكنَ الرقابة بصورة ذاتية بفضل النص المصري القديم المبسَّط، وهذا الأخير جُعِل كذلك بفضل النص اليوناني. والنص اليوناني كانت أوّلته نصوص يونانية أخرى شكّلَتْ في جماعها قاموس اللغة اليونانية وموسوعتها. إن المدلول يبرز من خلال الواقع التناصّي.

٣ ـ القارىء النموذج

٣ـ ١ـ دور القارىء

إنّ نصاً في حال ظهورهِ من خلال سطحِه (أو تجلّيه) اللساني، يمثّل سلسلةً من الحيل التعبيرية التي ينبغي أن **يفعّلها** المرسَلُ إليه. ولما كان قرّ رأينا في هذا الكتاب على الاهتمام بالنصوص المكتوبة دونَ غيرها (وسوف نقصر تحليلنا، تدريجياً على النصوص الحكائية)، رأينا أن نتكلم على القارىء من الآن فصاعداً، بدلاً منَ المرسل إليه ـ وفي السياق نفسِه سوف نستخدم كلمتَيْ «مرسل» و «مؤلف»، لنُعرّف بهما منتج النص، من غير التفريق بينهما.

Actualiser وهو الفعل الذي يمارسه القارىء حالما تقع عيناه على نص، ساعياً إلى إدراكه ووضعه في إطاره الزمني والمكاني، وإلى تحقيقه بما تيسر له من ثقافة.

والنص الذي يكون موضوعاً للتفعيل، يصير غير كامل، وذلك لسببين: أولهما لا يتعلق بهذه المواضيع اللسانية التي قررنا أن نحددها باعتبارها نصوصاً (أنظر ١ـ ١) فحسب، بل بأية رسالة كانت، بما في ذلك الجُمَل والعبارات المعزولة. ذلك أن عبارة تظلّ محض «صوت لَهَث» [flatus vocis] إن لم تنشىء لها صلة مرجعية **بأرموزة معطاة**، وبمضمونها المتعارف عليه: بهذا المعنى يطرَحُ المرسَلُ إليه (أو المتلقّي) دوماً على أنه **العامل** (ليس التجريبي بالضرورة) الجدير بأن يفتح القاموس لدى كلّ كلمة وأن يلجأ إلى سلسلة منَ القواعد النحوية السابقة في سبيل أن يفقه وظيفة العبارات المتبادلة في سياق الجملة الآنفة. وعليه، نقول إن كل رسالة تفترض كفاية نحوية لدى المرسل إليه، حتى لو كانَ النص قد بُثّ بلغة لا يلمّ بها سوى الباثّ ـ باستثناء لغة المعوقين، حيث يقرّ الباثّ

Code

opérateur

نفسه بعدم وجود تأويل لساني ممكن، إنما يبينُ في نصّه، على الأكثر، أثر انفعالي واقتراح **لساني - خارجي**.

Extra-linguistique، أي كُلّ ما تسجله اللغة وفي النص، ويكونُ دالاً على حالٍ أو صفة أم فعل غير لغوي، كأن تشير اللغة إلى سمة جسمانية لدى بطل القصة.

أن يفتح المرء قاموساً يعني أن يقبل سلسلةً من مسلّمات المدلول[1]: ذلك أن عبارة ما تظل غير كاملة في ذاتها حتى وإن تلقت تعريفاً بعباراتٍ من **القاموس الأدنى**. ولئن يقول لنا القاموس إن شراعيةً هي زورق، فإنه يضمّن في خصائص دلالية أخرى كلمة [زورق]. والحال أن هذه المسألة تعود، من جهة، إلى لاتناهي التأويل (الذي ألفيناهُ مبنياً على أسس ثابتة في النظرية البيرسية حولَ التعبيرات)، وتُعزى من جهة أخرى إلى موضوعات الاستلزام (entailment)، وإلى العلاقة بين الخصائص الضرورية، الجوهرية والعرضية (انظر ـ ٤).

Dictionnaire minimum

وعلى أي حال، فإن النص يتميز عن سواه من نماذج التعبير بتعقيده الشديد بما لا يُقاس. أما علّة التعقيد الأساسية، فتكمن في كونه نسيج ما «لا يُقال» (أنظر. دوكرو، ١٩٧١).

«ما لا يقال» يعني الذي ليس ظاهراً في السطح، على صعيد التعبير: على أنَّ «ما لا يقال» هذا هو ما ينبغي أنّ **يُفعَّل** على مستوى **تفعيل** المضمون. وهكذا يكتسب نص ما، بطريقة أظهر من أية رسالة أخرى، حركات تعاضدية فاعلة، وواعية من جانب القارىء.

Actualisation

وإذا ما وردَ المقطع النصي التالي:

(٩) دخل جان الغرفة. «عدتَ إذاً!» قالت ماري مندهشة، وبوجهٍ نضر،

فإنه يصير من البدهيّ أن يفعّل القارىء مضمونَه (النص) عبر سلسلة بالغة التعقيد منَ الحركات التعاضدية. وقد آثرنا، في هذا الصدد، أن نتجنب الخوض، لهذه الآونة، في **الإحالات المشتركة** (وهذا يعني أنه ينبغي لنا أن نعتبر [أنتَ] في استخدام المخاطب المفرد من فعل [كان]، إنما يحيل إلى جان)، على أنَّ حمْل هذه الإحالة ـ المشتركة إلى حالِ الإمكان إنما هو قاعدة **تحادثية** يقرُّ القارىء، بحسبها، بأنه في غياب الإيضاحات التعاقبية، بحكم وجود شخصين، يكونُ مَنْ يتكلم مخاطباً الآخر. تلكَ قاعدة تحادثٍ تنضاف إلى قرار تأويلي آخر، هي بمثابة عملية مصداقية يجريها

Co-references

Conversationnelle

القارىء: إذ يقرِّر، بدءاً من النص الذي آلَتْ إليه إدارته، أنه باتَ عليه أن يحدِّد حصةً من العالم يسكنها فردان، جان وماري، وقد أوتيا منَ الصفات ما جعلهما يكونان في نفس الغرفة. أخيراً، أن تكون ماري في الغرفة عينها حيث جان لـمَّا يتعلّق باستدلال آخر متولّد من استخدام أداة التعريف [أل] و [تاء التأنيث]: يقصد المتكلم، ههنا، الإشارة إلى غرفة واحدة، والغرفة نفسها[٢]. يبقى أن يتساءل المرء عما إذا كانَ القارىء يجد منَ المناسب أن يماهيَ جان بماري، عبر قرائن مرجعية، باعتبارهما في عداد كيانات من العالم الخارجي يسعه التعرف إليها من خلال اختبارات سابقة يقاسمها (القارىءُ) المؤلِّفَ، إنْ أحالَ المؤلفُ هذا إلى فردَيْن يجهلهما القارىء، أو في حال اقتضى أن ترتبط الحصة النصية (٩) بحصص نصية سابقة أو متوالية حيث **تؤوِّل** أوصافٌ محدودة جان وماري.

فيما خصَّ العربية

Interpréter

ولئن تركنا جانباً كل هذه المسائل، فإن حركات تعاضدية أخرى لا تني تنخرط في السياق، دون أدنى ريب. بادىء الأمر، يتوجب على القارىء بمقتضاها أن يُفعِّل موسوعته الخاصة بما يعينه على إدراك أن استخدامَ فعل [عاد] يصادر على أنَّ الفاعِل كانَ قد ابتعد، فيما مضى. وفي المقام الثاني، يتطلَّب من القارىء اشتغالٌ استدلاليٌ من أجل أن يستخرج من استخدام الأداة الإضرابية [إذاً] استخلاص أنَّ ماري ما كانَتْ لتتوقع هذه العودة، ومن [بهجتها] الحازمة صدق رغبتها الشديدة في أن يعود.

إذاً، فالنص إن هو إلاَّ نسيج فضاءات بيضاء، وفرجات ينبغي ملؤها، ومَنْ يبثه يتكهَّن بأنها (فرجات) سوف تُملأ، فيتركها بيضاء لسببين: الأوّل، وهو أنَّ النص يمثل آليّة كسولة (أو مقتصدة) تحيا من قيمة المعنى الزائدة التي يكون المتلقّي قد أدخلها (إلى النص)؛ والحق أن النص لا يُوسَم باللغو ولا يكتسب تعيينات لاحقة إلاَّ في حالِ بلوغِه ذروة الحذلقة، وذروة الاهتمامِ التعليمي أو في حالٍ من الكبت قصوى - إلى الحدّ الذي تنتهك فيه القواعد التحادثية المألوفة[٣]. ومن ثمّ، لأنَّ النص بقدر ما يمضي من وظيفته التعليمية إلى وظيفته الجمالية، فإنه يترك للقارىء المبادرة التأويلية، حتّى لو غلبت فيه الرغبة، بعامة، في أن يكون

النص مؤوَّلاً وفقَ هامش من الأحاديّة كافٍ. أنَّ نصاً غالباً ما يتطلَّب إعانة أحدهم لكي يتحقق عمله.

ولا يُخيَّل للقرّاء أننا نحاول ههنا أن نرسم صورة عن النصوص بناءً على «كسلها» أو حريتها المعطاة، التي حدَّدَتْ، في مجال آخر، على أنها «انفتاح». ولسوف نتحدث عن هذا الأمر في مجال أقرب مما هو متوقع. أما الآن، فلنقل هذا: إنَّ النَصَّ يصادر على المتلقي خاصته باعتباره **شرطاً لا غنى عنه** [Sine qua non] لطاقته التواصلية الملموسة، بالإضافة إلى اعتباره شرطَ احتماليته ذات الدلالة. وفي عبارات أخرى، فإن النص إنَّما يُبَثُّ إلى امرىء جدير بتفعيله ـ حتَّى وإن كانَ الأمل بوجوده الملموس أو التجريبيّ معدوماً.

٣ـ ٢ـ كيف يتوقع (يستبق) النصُّ قارئَه

هذا الشرط البديهي لوجود نصوص يبدو أنه يصطدم بقانون تداولي بديهي بدوره، أُوتي له أن يخرج في النهاية، اليوم، من مطاوي النسيان حيث جرى إقصاؤه من قبل تاريخ نظرية التواصل. وهذا القانون يمكن أن نصوغه بشكل شعار: «إنّ كفاية المتلقّي ليست بالضرورة مساوية بأهميتها لكفاية الباثّ».

كنّا لطالما انتقدنا (وأجرينا ذلك النقد نهائياً في كتابنا الأطروحة Trattato، ٢ـ ١٥) النموذجَ التواصلي الذي انتهى إلى تبسيطه منظرو الإعلام الأوائل: **مُرسِل** (أوباثّ)، ورسالة، ومرسل إليه (أو متلقٍّ)، وفي هذا السياق تتكوَّن الرسالة بناءً على أرموزة ويُعبَّر عنها من خلالها. والحال أننا بتنا ندرك أن أرموزات المرسل إليه يمكن أن تختلف، كلياً أو جزئياً، عن أرموزات المُرسِل (أو الباثّ)، وأنَّ الأرموزة ليست كياناً بسيطاً، إنما هي في الغالب نسق معقد من أنساق القواعد، وأنّ الأرموزة اللسانيةَ لا تكونُ كافيةً وحدها لكي يفقه المرء رسالةً لسانيةً:

Emetteur

[أنت تدخن؟] [لا] هما جملتان قابلتان لأن تُفَكَّ رموزهما من الناحية اللسانية، باعتبارهما جملة السؤال وجملة الجواب، على جري عادة مَنْ تلقى السؤال؛ ولكن الإجابة في ظروف بَثّ محدَّدة، تتَّخذ لها مدلول «عدم اللياقة»، ليس وفقَ قواعد لسانية إنَّما بحسب قاعدة من قواعد اللياقة ـ

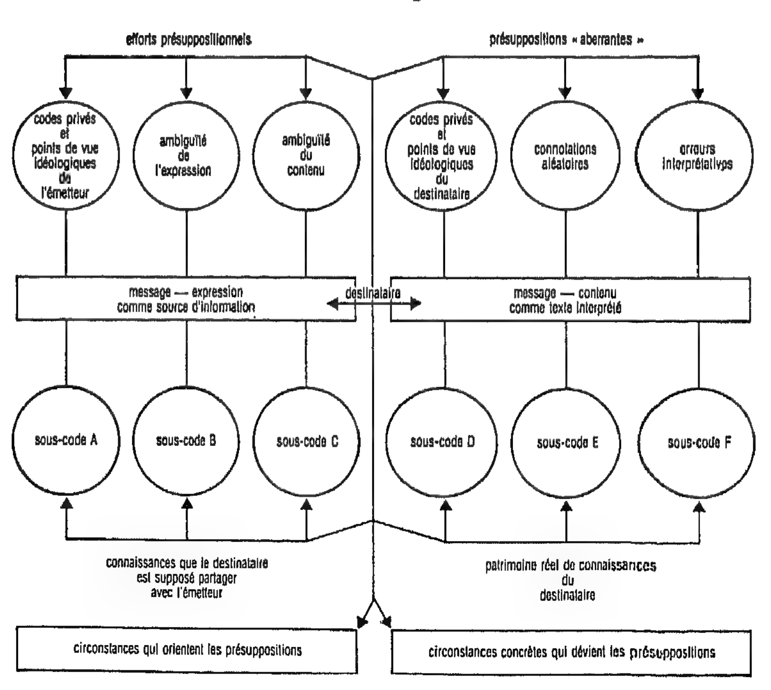
إذ كان ينبغي أن يقال [كلا، شكراً]. وعليه يُفترض بالقارىء أن يؤتى، إلى كفايته اللسانية، كفاية ظرفية متنوعة المدارك وطاقة على ارتقاب مسلّمات، وكَبْت سوانح حدسية.

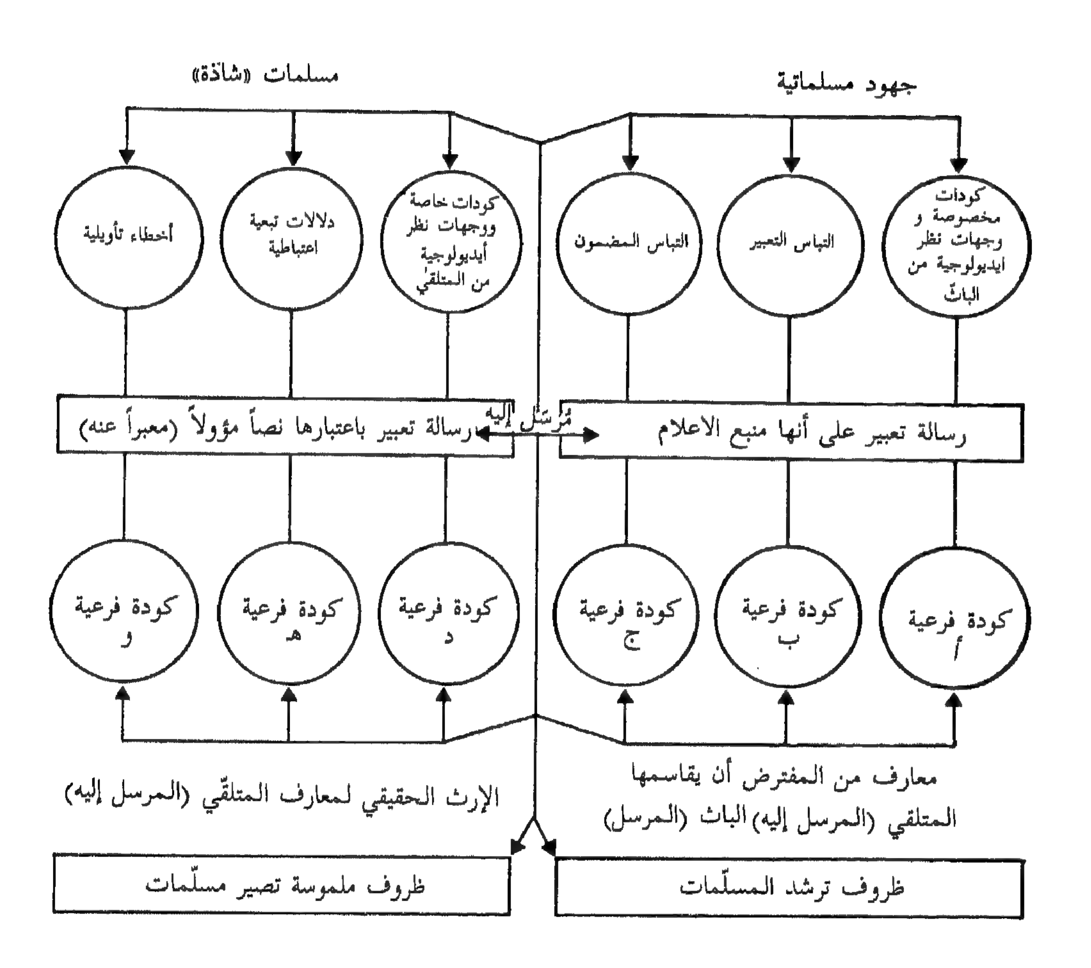
وذلكَ في سبيل إدراك رسالة لغوية. ولقد أرفقنا بالصفحة الجانبية بياناً مصوراً، هو بمثابة مَثَل على سلسلة منَ الإكراهاتِ التداولية التي أشرنا إليها في كتابنا الأطروحة Trattato.

إذاً، ما الذي يضمن التعاضد النصي بإزاء إمكانيات التأويل الذي يتفاوت «ضلالاً»؟ والحال أنّ أشكالاً لا تحصى منَ **التعزيز اللسانيّ - الخارجي** (الإيمائية منها، والإعلانية، إلخ..)، وسلوكاتٍ عديدة من التكرار والارتجاع تتدخل في صلب التواصل اللفظي ويسند بعضها بعضاً. مما يعني أنه لا وجودَ لتواصل لساني صرفٍ أبداً، بالمعنى الصريح للكلمة، إنما نشاط سيميائي بالمعنى الشامل للكلمة، حيث تتكامَلُ أنساق علامات عديدة فيما بينها. ولكن ما صلة هذا بالنص المكتوب، الذي يصوغه المؤلف ثم ينيط به أمره إلى مختلف أفعال التأويل، على نحو ما يرمي المرء بقنينة إلى البحر؟

renforcement extra-linguistique

الترسيمة - ١-





مسلمات «شاذة»
جهود مسلماتية
أخطاء تأويلية
دلالات تبعية اعتباطية
كودات خاصة ووجهات نظر أيديولوجية من المتلقّي
التباس المضمون
التباس التعبير
كودات مخصوصة و وجهات نظر ايديولوجية من الباثّ
رسالة تعبير باعتبارها نصاً مؤولاً (معبراً عنه)
مُرسَل إليه
رسالة تعبير على أنها منبع الاعلام
كودة فرعية و
كودة فرعية هـ
كودة فرعية د
كودة فرعية ج
كودة فرعية ب
كودة فرعية أ
الإرث الحقيقي لمعارف المتلقّي (المرسل إليه)
معارف من المفترض أن يقاسمها المتلقي (المرسل إليه) الباث (المرسل)
ظروف ملموسة تصير مسلّمات
ظروف ترشد المسلّمات

لقد سبق أن قلنا إن النَّصَّ يصادر على تعاضد القارىء باعتباره شرطاً **للتفعيل**. ويسعنا أن نخلصَ إلى هذا التعيين بكلام أدقّ: النَّص إن هو إلاّ نتاج يرتبط مصيره التأويلي (أو التعبيري) بآلية تكوينه ارتباطاً لازماً؛ فأن يكوِّنَ المرء نصاً يعني أن يضع حيِّز الفعل استراتيجية ناجزة تأخذ في اعتبارها توقعات حركة الآخر ـ شأن كل استراتيجية. وعليه فإنَّ الاحترابيَّ إذ يكون حيال استراتيجيته الحربية (أو حيال استراتيجية الشطرنج، أو لنقُلْ حيال كل استراتيجية لعب) فإنه غالباً ما ينصرف إلى رسم صورة خصم نموذجيّ. فلما كان نابليون احترابياً فقد ارتأى فرضيات مختلفة: إن قمتُ بحركة كذا، كانَتْ ردة فعل ولينغتون كذا. وبالمقابل، فقد لبث وِلينغتون يتفكّر على نحو مماثل: إن فعلتُ كذا، جاءت ردة فعل نابليون كذا. والحقّ أن ولينغتون، أمكنه أن يتبنّى لنفسه نابليوناً نموذجياً، يشبه نابليون الحقيقي والملموس. وبالمقابل فقد مضى نابليون يتصوَّر ولينغتوناً نموذجياً، لا يمتُّ إلى ولينغتون الحقيقي سوى بصلة شبه واهية. إلاّ أن أمراً واحداً يلبث يهدِّد ببطلان هذه المماثلة: ذلك أن المؤلف، بعامة، يسعى في كتابه إلى أن يجعل الخصم رابحاً، لا خاسراً. وبعدُ، لم أقُلْ مرادي من إيراد المثل الآنف. ولأجل هذه الخطة وجدنا نص «ألفونس آلّيه» «Alphonse Allais»، والذي رأينا وجوب تحليله في الفصل الأخير من الكتاب، يتحدَّث عن معركة واترلو أكثر من حديثه عن الملهاة الإلهية.

Actualisation

مع ذلك، فإن خفايا عديدة يمكنُ أَنْ تطرأ في سياق الاستراتيجية العسكرية (بخلاف استراتيجية لعبة الشطرنج). ولنعطِ مثالاً عن ذلك: رغم أنّ غروشي بات امرءًا عاجزاً فقد يحدث أن يعود إلى ساحِ المعركة (وهذا ما لم يأتِ به في ساحة واترلو)، وربّما حدث، كذلك، أنّ يبلغ «دوسيه» [Desaix] واترلو ومعه النجدة المرتجاة (وهذا ما حدث في مارينغو). على هذا أخال كل احترابيّ جيد يتحسَّب لهذه الأحداث الطارئة، لمجرد توقّعه الاحتمالات وتعدادها.

ذلك هو شأن النصوص جميعها. إذ يتعيّن على مؤلف نص أن يتصرَّف بطريقة مماثلة: «إنَّ ساعد بحيرة كومو [Côme] الذي يمتدّ حتى

الجنوب*...»: فأنا إن وقعتُ على قارئ لم يسمع قَطّ «بكومو»، فقد توجّب عليّ أن أعوّض عن هذا الأمر، فأشرحه لَهُ لاحقاً. أما الآن، فلنشرعْ في بحثنا كما لو كانَتْ «كومو» محض «أصوات لهث»، مثيل «كزانادو». ومن ثم أروح أبثّ إيحاءات إلى سماءٍ لومباردي، مثبتاً صلتها الفعلية بمدينة «كومو»، كما أعمد إلى إجراء المقاربة نفسها ما بين «ميلانو» و «برغام»، وهما في موقعهما داخل شبه الجزيرة الإيطالية. وفي خلاصة القول إن القارئ المصابَ بقصور موسوعي يجد نفسَهُ على قاب قوسين أو أدنى مما يعوزه.

وهي مدينة واقعة في شمال إيطاليا.

Flatus vocis

مدينة خرافية.

على أن الاستخلاصَ الآنف يتبدّى بسيطاً، بحكم ما بلغناه وبناءً عليه. إذ ينبغي للمؤلف، في سبيل أن ينظم استراتيجيته النصية، أن يلجأ إلى سلسلة منَ الكفايات (وهي عبارة أشمل من «معرفة الأُرموزات» التي من شأنها أن تمنح العباراتِ المستخدمة من قبله مضموناً. وهذا مما يلزمه التسليم بأنَّ مجموع الكفايات التي يرجع إليها إنّما هو ذاته ما يرجع إليه قارئه. لذا تراهُ يستشف وجود «قارئ نموذجي»، يكون جديراً بالتعاضد من أجل التأوين النصي، بالطريقة التي يراها، هو المؤلف، ملائمة وقمينةً بأن تؤثر تأويلياً بمقدار ما يكون فعله (المؤلف) تكوينياً.

على أن يكون للقارئ هذا عدة وسائط في تصرفه: خيار لغةٍ (ما عدا تلك التي لا قبل لَهُ بالتكلم بها)، وخيارُ نموذج منَ الموسوعة (ولا سيّما إذا شرعت في النص بـ [كما يشرحه بغاية الإيضاح النقد الأول..]، فأكون أقلّص، بطريقة بالغة التعاضدية، صورة قارئي النموذجي)، وخيارُ تراث معجمي وأسلوبيّ معطى... يسعني إلى ذلك أنْ أتوفّر على إشارات من النوع الذي يفضي إلى انتخاب مخاطِبيّ: [أبنائي الأعزاء، في قديم الزمان جرت حادثة في بلاد بعيدة...]؛ وإذ يسعني أن أقلص الحقل الجغرافي يتحصّل لديَّ الآتي: [أصدقائي، أيها الرومانيون، مواطنيّ!]. والحال أن نصوصاً كثيرة تكشف للتوّ عن قارئها النموذجي حين تصادرُ، بكلماتٍ مفتوحة [Apertis verbis] (فليعذرني القراء لهذه الإستعارة)، على وجود كفاية موسوعية مخصوصة. وفي سبيل أن نجزي المديح بعضاً من

النقاشات الشهيرة حولَ فلسفة اللغة، لنيمِّمَ شطر «واڤرلي» (وهو النتاج الذي كانَ مَن ألفه هو المؤلِّفُ نفسه، بصورة علانية):

(١٠) لكن للأسف! ما الذي لبث يتوقَّعه قرّائي من أسماء تفيضُ بالفروسية شأن هوارد، وموردونت، ومورتيمر، وستانلي، أو من مقاطع صوتية أكثر عاطفية وأرقّ من سابقاتها، من مثل بلمور، وبلڤيل، وبلفيلد، وبلغراف، وإن هي إلاّ صفحات ملئَتْ تُرَّهات شأن الكثير من المؤلفات التي أُريدَ لها أن تكون كذلك منذ ما ينيف عن نصف قرن؟"".

يتيحُ لنا هذا المقطع توفير عناصرَ تفكُّر أخرى. فلما كانَ المؤلف يفترض كفاية قارئهِ النموذجي، فإنه يعمد إلى تأسيسه في الآن نفسه. ونحن الذين لم نحُزْ على خبرة الرومانيين الغوطيِّين، التي كانَتْ لدى قرّاء «والتر سكوت»، مدعوون كذلك إلى إدراك أنّ بعض الأسماء تضمر في ذاتها صفة «البطل الفروسي»، وأنَّ بعضَ روايات الفروسية إنما تحفل بالشخصيات المذكورة أعلاه والتي تكشف عن طبائع أسلوبية مشوبة بالهنات وملومة بها بعضَ الشيء.

إذاً، أن يرتئي المؤلف قارئه النموذجي لا يعني، حصراً، أن «يأمل في وجوده»، بل يعني ذلك أَنْ يؤثّر في النص بما يؤدّي إلى بنيانه (القارىء النموذجي). وبالتالي فإن النص، إذ يقومُ على كفايةٍ، فإنه يساهم في إنتاجها أيضاً. أيسعنا القول آنئذٍ، إن النص هو أقل كسلاً مما يتبدّى لنا، وأن طلبه التعاضدي هو أقلّ تحرّراً مما يريد الإيحاء به؟ ما الذي يماثله بالقدر الأكبر؟ أيشبه إحدى هذه العلب «الكيت»، التي تحتوي عناصر مصنّعة، يستخدمها المستفيد منها ليصنّعَ منها نموذج إنتاجٍ متقن وحيداً وفريداً، دون أن تكون له أدنى حرية في تركيبها، فإن أقلّ خطأٍ منه يكون قاتلاً، أو يشبه (النص) لعبة ليغو (Lego) التي تتيح بناء كل أنواع الأشكال، بحسب الاختيار؟ ثم، أَوَليس بازلاً كاملاً، يُستَفاد منه، حالما يتشكل، أنه يمثِّل الجوكوندا، على الدوام، أم لا يكون يعدو حقاً كونه من عجائن الپستل؟

أتكون ثمة نصوصٌ معدةٌ لأن تأخذ على عاتقها الأحداث الممكنة التي تروح تتوقعها الترسيمة ؟! أتكون ثمة نصوص تلعَبُ على حدود

الافتراقات، فتوحي بها، وتؤمِّل بها - وعليه، أليست هذه نصوصاً «مفتوحة» إزاء ألف قراءة ممكنة، وقد توفّرت كلها على متعة لامتناهية؟ وهل تتمنّع، من ثم، نصوص المتعة هذه، من المصادرة على قارىء نموذجي، أو أنها تصادر على وجود قارىء من طبيعة مختلفة؟[٤].

ولئن وسعنا أن نحاولَ تحديد أنموذجيات، في هذا الصدد، فإن القائمة المعطاة ربّما أمكن تقويمها على شكل تتابع متدرّج ذي تلوينات غير متناهية. وعلى هذا نؤثر، على المستوى الحدسي، اقتراح طرفَيْ نقيض، ثم لن نلبث أن نعود، فنسعى إلى إحداث قاعدة موحّدة وموحِّدة، وقالب **تكويني متعالٍ**. Transcendantale

٣- ٣- نصوص «منغلقة» ونصوص «منفتحة»

يدركُ بعضُ المؤلفين إدراكاً جيداً الحالَ التداولية التي أعطينا مثالاً عنها في الترسيمة رقم ١. إلا أنهم، يظنون أنّ في ذلك وصفاً لسلسلة من الحوادث المحتملة الوقوع، والتي يمكن تجنبها، مع ذلك. لذا، تراهم يحيطون بقارئهم النموذجي بفطنة اجتماعية وحذر إحصائي: إذ يخاطبون، كُلاًّ بدورهِ، وعلى التوالي، الأولادَ، ثم هواةَ الموسيقى، والأطباءَ من بعدهم، ثم اللواطيّين، وهواةَ المراكب الشراعية، ومدبرات المنازل من الطبقة البورجوازية الصغيرة، وهواةَ جمع الأقمشة الإنكليزية، والرجالَ الضفادعَ. وإن شئنا التكلم بلغة الإعلانيين قلنا إنّ المؤلّفين، إنما يضعون نصبَ عيونهم دريئة Target (والدريئة، نادراً ما تبدي تعاضداً؛ لكونها على حال من ترقب إصابتها). وهم، أي المؤلفون، يتصرفون على النحو الذي تصير به كُلُّ عبارة لديهم، وكلّ مداورة أسلوبية، وكل إحالة موسوعية، على ما يرجوها قارئهم المأثورُ، وفقَ كلّ احتمال، مُدرَكةً من قبله. والمؤلفون، في هذا إنما يقصدونَ إلى إثارة عامل محدّدٍ؛ فمن أجل أن يطمئنوا إلى إثارة انفعال الرعب في مخاطَبيهم، يقولون مسبقاً: «إذاً، لقد حدَثَ أمر مريع»، على بعض المستويات، حتى يؤتي اللعب ثمرَه.

مع ذلك، فإنه يكفي أن يقع نتاج «**سوفستر**» و «**آلآن**»، اللذَين Souvestre, Allain جعَلا يكتبان لجمهور شعبي، بين أيدي أكثر مستهلكي الأدب الرثّ نهماً، حتّى يصيرَ عيدا للأدب الاستعراضيّ كبيراً، وجُنّة التأويل ما بين

السطور وتذوّق التوافه، وعيد المذاق **الهويسماني** بالنسبة إلى النصوصِ التي لاتني تتلعثم. آنئذٍ، يصيرُ النص «المنغلق»، والكابتُ، غاية في الانفتاح، بل آلة لتوليد الحكايات المنحرفة.

نسبة إلى هويسمان، Huysman

ولكن ثمة ما هو أدهى (أو أفضل، بحسب الحالات): ذلك أن التكهُّن بكفاية القارىء النموذجي يمكن أن يكونَ غيرَ كافٍ ـ بسبب نقص في التحليل التاريخي، أو خطأ في التقدير السيميائي، أو عدم تقدير الظروفِ الآيلة إلى مصير ما. وعلى هذا فإن كتاب «أسرار باريس» لمؤلفه «سو» (Sue) يهبنا أروع مثال عن مغامراتِ التأويل. ولما كانَتْ هذه المغامرات كُتِبت بنوايا **الغندرة** لكي تحكيَ إلى جمهور مثقفِ الحوادث العذبة التي تنطوي عليها مأساة مثيرة للعجب، فقد جعلت البروليتاريا تقرؤها باعتبارها وصفاً واضحاً وشريفاً لعبوديتها الطبقية؛ وإذ تنبَّهَ المؤلف إلى هذا الأمر، مضى يصوغها (المغامرات)، لصالح البروليتاريا وحدها هذه المرة، حاشداً في نصّه سيلاً من الحِكم الأخلاقية الاجتماعية ـ الديمقراطية، في سبيل أن يقنع هذه الطبقات «الخطِرة»، والتي يتفهمها ويخشاها في آنٍ، بألاّ تيأس، وبأن تثق تمامَ الثقة بعدالة الطبقات المالكة وإرادتها الطيبة. ولئن صنّف ماركس وأنجلز هذا الكتابَ إذ اعتبراه مثالاً للدعاوى الرجعية، فقد أمكنه (الكتابُ) أن ينجز رحلةً مكتنفة بالأسرار في ذهن قرائه، هؤلاء ممن سوف نلقاهم لدى متاريس **العام ١٨٤٨**، وهم يهمُّون بالثورة، لكونهم قرأوا كتاب «أسرار باريس»[٥]، إلى حوافز أخرى.

التباهي والمشي بطريقة استعراضية.

إبّان العاميّة الأولى التي قام بها عمال باريس.

وقد يحدث أن يتضمَّن الكتاب هذا التحقيق الممكن أيضاً. ولربَّما كانَ اختطّ، بخيطٍ من ذهب، صورة هذا القارىء النموذجي. وقد يكون هذا من باب الاحتمال بدوره، شرط أن يقرأه، غاضّاً عن الأجزاءِ الواعظة ـ أو قاصداً عدم فهمها.

لا أكثر انفتاحاً من نَصّ منغلق. إلاّ أن انفتاحه يكونُ من فِعل مبادرة خارجية، بل يكونُ طريقة في استخدام النص وليس طريقةً يُستخدَم بها، على أن يتم ذلك برقّة بالغة. إنَّ في هذا عنفاً أكثر منه تعاضداً. على أي حال، يمكن المرء أن يمارس عنفاً على النص (إذ يسع المرء أن يبتلع كتاباً، شأنَ الرسول في پاثموس)، وأن تنالَهُ من ذلك متَع مرهفة. ولما كنا

نتحدث ههنا عن التعاضد النصي باعتباره نشاطاً يثيره النص، فقد بدت لنا هذه الكيفيات عديمة الأهمية. وليكن واضحاً: إنها لا تهمنا في هذا الإطار ليس إلّا. وفي هذا الصدد، فإن العبارة التي قالها ڤاليري ـ «ليس من معنى حقيقي لنصٍ ما» ـ تتيح المجال لقراءتين: الأولى، أن المرء يسعه أن يتصرَّف بنصٍ ما على ما يحلو لَهُ، وهذه القراءة لا شأنَ لنا بها ههنا؛ أما الثانية، فهي التي تخوِّلُ المرء أن يطلق تأويلات لامتناهية عن نصٍ ما، وتلكَ هي القراءة التي سوف نوليها اهتمامنا، الآن.

يتحصَّل لنا نَصّ «مفتوح» كلَّما أدرك المؤلف المغزى كلّه الذي يقتضي استمداده منَ الترسيمة ١. فهو يقرأ الترسيمة الأخيرة باعتبارها نموذجاً لوضع تداولي يستحيل إلغاؤه. فينهض بها على أنها الفرضية الناظمة استراتيجيته. وعلى هذا يقرِّر (عند هذا الحَدّ توشكُ نمذجة النصوصِ أن تصيرَ **متصلاً** من التلاوين) إلى أي مدى ينبغي لَهُ أن يراقب تعاضد القارىء، وأين يجب أَنْ يحثّه عليه (التعاضد)، ويوجِّهه، ويتركه يتحوَّل إلى محض مغامرة تأويلية. فإذا ما قال [زهرة]، فإنه مهما أدرك (وشاء) أنه «خارج النسيان حيث لا يُقصي صوتي أَيَّ تخم (...) ترتفع موسيقيّاً (...) الغائبة بين كل الباقات»، سوف يخلصُ إلى العلم يقيناً أنه ليست باقة الشراب المعتَّق، غاية التعتق، ما يفوح نشرها (إنما يقصد «الزهرة» بما تنطوي عليه من دلالات جوهرية): وعلى هذا تراه يوسع لعب التسييمية اللامحدودَة أو يقلِّصه، بما يحلو له.

Continuum

وهو، إذ يخوضُ في استراتيجيته بنفاذ بصيرة، يسعى جاهداً إلى بلوغ هدف أوحد: أياً يكن عدد التأويلات الممكنة، فإنه يجهد في جعل كل تأويل منها يذكِّر بالآخر، حتى تقوم بينها علاقة من التمكين المتبادل، لا الاستبعاد على الإطلاق.

ويسع المؤلف أَن يصادرَ على قارىء مثالي تولاَّه أرق مثالي، على غرار ما حدث **لفينّغانز وايك**، وقد ملكَ كفايةً متنوعة. على أَنّ كفايته الأساسية تكمن في تمكُّنه التام منَ الإنكليزية (حتى لو لم يكن الكتابُ مكتوباً بلغة انكليزية «خالصة»). على أي حال، فإن هذا القارىء لن يسعه

Finnegans Wake

أن يكونَ قارئاً هلّينياً من القرن الثاني ب ـ م، جاهلاً وجودَ مدينة «دبلن»؛ كما لا يمكنه أن يكون غير متعلّم ، ذا معجم لا يتعدّى الألفي كلمة (وبعدُ، لم لا، ولكننا قد نجد أنفسنا مرةً أخرى إزاءَ حالة من الاستخدام الحرّ، الذي كان بُتَّ أمره من الخارج، أو من القراءة قيد التقلّص إلى أبعد حَدّ، والمحدودة في البُنَى الخطابيّة الأشد جلاءً. [راجع ـ ٤]).

إذاً، يتوقّع «فينيغانز وايك» قارئاً مثالياً، منصرفاً كُلَّ الانصرافِ إلى انشغالِه، وقد أوتي ذكاءً جَمّاً في الربط، وموسوعةً ذات حدود غامضة، ولكن ذلك لا يعني أيّ نموذج من القرّاء. ذلكَ أنَّ قارىء «فينّيغانز وايك» المثاليّ إنما هو ذاك **العامل** الجديرُ بأن يضع موضع الفعل، في سياقة الزمن، أكبر عدد ممكن منَ القراءات المتقاطعة(٦).

Opérateur

وبعبارات أخرى، فإنّ جويس نفسه، في نتاجه النهائي، كان يسعى إلى بناء قارئه الخاص عبر استراتيجية نصّية، وهو المؤلّف الذي أُثِرَ عن نصّهِ انفتاحُهُ الشديد. وفي المقابل، فإن النَصّ، إذ يحيل إلى قرّاء لم يكن يفترض وجودهم ولا ساهم في إنتاجهم، يصيرُ عصياً على القراءة (أكثر مما هو عليه) أو يصيرُ كتاباً آخر مختلفاً.

٣ـ ٤ـ استخدام وتأويل

إذاً، ينبغي لنا أن نقيم الحَدَّ ما بين استخدام النص استخداماً حراً، باعتباره **منبّهاً** من منبّهات التخيّل، وبين تأوّل نص مفتوح. وعلى هذه التخوم وحدها يُسَوَّغ، دون التباس نظري، تأسيس إمكانية «متعة النص»، على ما يدعوها بارت ـ وللإيضاح نقول: إما أن نستخدم نصاً على أنه نَصّ متعة بنفسهِ، أو أن يكونَ نَصٌّ محدَّدٌ ينظر إلى تحفيز استخدامِهِ بأكثر الطرق حريّةً على أنه أساسُ استراتيجيته الخاصة (وبالتالي تأوّله). ولكن يخالجنا الظنّ بضرورة أنْ نضع حداً لإثباتنا، فنقول إن مفهوم التأوّل يلازمه على الدوام **جَدَلٌ** بين استراتيجية المؤلف واستجابة القارىء النموذجي.

Stimulus

Dialectique

وبطبيعة الحال، يمكن أنْ نتوفّر، إلى القدرة على التطبيق، على جمالية في استخدام النصوص استخداماً حراً، وشاذاً، وراغباً وخبيثاً. وفي

هذا الصدد يقترح بورخيس أَنْ تُقرأ «الأوذيسة» كما لو كانت لاحقة «بالإنياذة»، أو أن يُقرأ كتاب «تقليد يسوع المسيح» كما لو كان «سيلين» من كتبه. اقتراحات رائعة، ومثيرة، وهي إلى ذلك ممكنة التحقق على خير وجه. إنها لاقتراحات خَلاَّقة، أكثر من أي وقت مضى. إذ أنّ من صلب هذه القراءات يُنتج نَصٌّ جديد على الدوام (المثال على ذلك، فإن كتاب «دون كيشوت» لمؤلفه بيار مينار، مختلف اختلافاً بيّناً عن كتاب سرفنتِس، رغم تطابق الاثنين فيما بينهما كلمةً كلمة، وإنْ عَرَضاً). وما لا غرابة فيه، أن يتوصَّل الكاتب، إذ يكتب هذا النَصَّ الآخر (أو نصاً مختلفاً)، إلى نقد النص الأصلي أو إلى الكشفِ عن إمكانياته أو سَبْر أغوار قيمِهِ المتوارية. إذ لا أَقْدرَ منَ الكاريكاتور على الكشفِ والإبانة، لكونه يبدي الموضوع ممسوخاً (مع عدم كونه كذلك). ومن جهة أخرى، فمن الأكيد أَنَّ رواية أُعيد روايتها تصيرُ أجمَلَ إذ تغدو رواية «أخرى».

Céline

ومن وجهة نظر السيميائية العامة، وعلى ضوء التعقيد الذي يعتري المسارات التداولية في الحقل الدلالي الإجمالي (الترسيمة رقم ١) وطابعه المتناقض، تتبدّى لنا كل هذه العمليات مسوَّغةً نظرياً. وبالمقابل، لو كانَتْ سلسلة التأَوُّلات غير متناهية، على ما بيّنه لنا پيرس، لكانَ سُوِّغ لعالَم الخطاب أَنْ يتدخّل من أجل أن يحدَّ من حجم الموسوعة. ذلك أن النص إن هو إلاّ الاستراتيجية التي تشكِّل عالم تأوّلاتِه المسوَّغة أقلّه، إن لم تكُنْ شرعية. وبالمقابل، فإنّ كل قرار آخر باستخدام النص استخداماً حراً، إنما يتلاءم مع القرار بتوسيع عالم الخطاب. والحالُ أَنَّ حيويَّة التسييمية اللامحدودة لا تحولُ دون ذلك، بل الأحرى بها أَنْ تشجِّع التوسيع الآنف. ولكن ينبغي للمرء أَن يدركَ ما يريد: فيختار بين أن يمارس دربتَهُ في السيمياء، وبين أَنْ يؤوِّل نصّاً.

وفي الختام نضيف أن النصوص المنغلقة هي أشدُّ عنتاً للاستخدام من النصوصِ المنفتحة. فهي، إذ تُعدُّ لقارىء نموذجي محدَّد بدقة، وذلكَ بقصدِ توجيه تعاضده بصورة قمعية، تخلِّفُ هوامش للمناورة مطّاطةً كفاية. فلنتناوَلْ مثالاً لنا القصص البوليسية لمؤلفها «ركس ستوت»،

ولْنُؤَوِّلِ العلاقة القائمة بين «نيرو وولف» و«أرشي غودوين»، باعتبارها علاقةً «كافكاوية»: وهذا مما يبدو غايةً في الامكان. ذلك أن النص يقوى على تحمُّل هذا الاستخدام جيداً، فلا يضيِّع القارىء التسلية الموفورةَ في الحكاية، ولا يغيب عنه مذاقُ الختام الكامنُ في اكتشاف المجرم. إليكم الآن بكتاب «الدعوى» لكافكا، فاقرأوه باعتباره رواية بوليسية. ولئن كانَ هذا الأمر مسموحاً به من وجهة التسويغ، فإنه يفضي إلى نتيجة عديمة الجدوى. وقد يكونُ خيراً للقارىء أنْ يصنع لنفسِه لفافاتٍ من الماريجوانا ويدخنها، إذ يروح يقلِّب صفحات الكتاب الآنف، على هذا الاعتبار.

لقد كان بمستطاع «پروست» أن يقرأ سجل مواقيت سكك الحديد، فيجد في أسماء الدساكر في الڤالوا أصداءً رقيقة ومتاهيةً من رحلة نرڤال باحثاً عَنْ سيلڤي. ولكن ذلك لم يكن من قبيل تأوُّل سجل المواقيت، إنما كان استخداماً من استخداماته المسوَّغة، وتكاد تكونُ الهذيانية. أما سجلّ المواقيت، فلا يتوقع، من جانبه، سوى قارىء مثالي، على نموذج أوحد، هو أقرب ما يكون منْ عاملٍ ديكارتي متعامد وقد أوتي حساً حاداً باستحالة الارتدادِ التي تسم التواليات الزمنية.

٣ـ ٥ـ المؤلف والقارىء باعتبارهما استراتيجيتين نصّيتيْن

يجد المرءُ، في أي مسارٍ تواصليّ، بَاثّاً (أو مُرسِلاً)، ورسالةً، ومرسلاً إليه، (أو متلقياً). وغالباً ما يتجلى الباثُّ والمرسَلُ إليه نحوياً، عبر الرسالة: [أقول لكَ إنّ...].

وحين يكون مدار الكلام على رسائل ذات **وظيفة مرجعيّة**، يروحُ المرسَلُ إليه (أو المتلقّي) يستخدم هذه الآثار النحوية باعتبارها **قرائن مرجعية** ([أنا] قد تشيرُ إلى الفاعل **التجريبي** الذي أدَّى فِعل التلفظ للفظ قيد المعالجة، إلخ..). وهذا ما ينطبق بالطريقة عينها، على النصوصِ البالغة الطول: رسائل، وصفحات من يوميّات؛ والحال أن هذا يمكن أن يحدث لكل ما يُقرأ بغية أن يتوفّر على معلومات عن المؤلف وظروف تلفُّظ نَصّه.

Referentielle
indices referentiels
sujet empirique

ولكن حين يُنظر إلى النص باعتباره كذلك، ولا سيّما في حالات

تكونُ فيها النصوصُ المرتآةُ لمخاطبين أوسع مدى (روايات، خطب سياسية، معلومات علمية، إلخ..) يكونُ المُرسِل والمرسَل إليه حاضرَيْن في النص، ليس باعتبارهما قطبَيْ فعل التلفُّظ فحسب، بل منظوراً إليهما على أنهما **دوران فاعليان** من أدوار اللفظ. (أنظر. جاكوبسون، ١٩٥٧). في هذه الأحوال، يتجلى المؤلف وحده في النص (I) من حيث كونه أسلوباً يمكن التعرف إليه - وهو إلى ذلك ما يمكن أن يكون **لهاجاً** نصّياً، أو لِهَاجَ مدوَّنة أو عصرٍ من العصور (راجع، Trattato، ٣- ٧-٦)؛ (II) وعلى أنه موقع فاعلي محض ([أنا] = «فاعل هذا اللَّفْظ»)؛ (III) على أنه تواقع للفعل **الداخل في القول** (أُقسِمُ بأنّي...] = «هناك فاعل يؤدي فعل القسم»)؛ (IV) وعلى أنه عامل ذو قوّة **لاحقة بالقول** من شأنه أن يبلّغ عن وجود «دعوى خاصة بالتلفُّظ»؛ (V) أو على أنه تدخُّلٌ من قبل فاعِلٍ غريب عن اللفظ، إلاّ أنه حاضر، بصورة معيّنة في نسيج النص الأوسع ([فجأة، حدث أمر مريع...]؛ [... قالت الدوقة بصوتٍ جدير بإيقاظ الموتى...]).

Rôles actanciels

Idiolecte على وزن «فِعال»

occurrence illocutoire

Perlocutoire

وعلى جري العادة، فقد لَبث الإيحاءُ بوجود شبح الباثّ (أو المُرسِل) متضايفاً مع الإيحاء بوجودِ شبح المتلقّي (أو المرسَل إليه). [كريستيڤا، ١٩٧٠]. فلنتناوَلْ هذا المقطع المقتطف من كتاب «استقصاءات فلسفية» لمؤلِّفه ويّتغينشتاين. (٦٦):

(١١) «أنظر مثلاً إلى المسارات التي ندعوها «ألعاباً». فأنا إذ أدعوها كذلك أعني بها ألعابَ شطرنج، و**ألعابَ ورق**، وألعابَ كراتٍ، وسباقاتٍ رياضية، وهكذا دواليك. ما الذي تراه قاسماً مشتركاً بين هذه الألعاب؟ لا تقل البتة: «ينبغي أن يكون ثمة قاسم مشترك بينها جميعها، وإلاّ انعدمت العلّة في تسميتها ألعاباً» - بل انظُرْ ملياً إن كان ثمة قاسم مشترك بينها جميعها. والحال أنك إنْ عاينتها فإنك لن تجد فيها، يقيناً، صفةً تكون القاسمَ بينها جميعها، إنَّما تجد مشابهاتٍ، وصلاتٍ قربى بينها، وقد تجد متواليةً بنفسها...».

ما يدعوهُ البعض في لبنان وسوريا، ورق الشدَّة.

لا تشيرُ الضمائر إطلاقاً، في هذا المقطع، إلى شخص يُدعى

«لودڤيغ ويّتغنشتاين»، أو إلى قارىء تجريبي معيَّن: إنما الضمائر تمثل استراتيجيات نصيةً محضة. ذلك أنّ تدخل امرىء متكلم يتبدّى مكمّلاً لتفعيل «قارىء نموذجي»، مَنْ لا يعيِّنُ قسماتِ إعدادِهِ الفكريّ سوى نموذج من العمليات التأويلية التي يجدر بالقارىء أن يتمّها: أن يتعرّف إلى المشابهات، ويأخذ في الاعتبار بعضَ الألعاب.

وعلى هذا النحو، يتبدّى المؤلف محضَ استراتيجية جديرة بإقامة تضايفات دلالية: إن كلمة [أَعني...] (Ich meine..) تدلُّ على أنه في إطار هذا النص فإن عبارة [لعب] ينبغي أن تتحمَّل قدراً منَ المصداقية (تطاولُ ألعابَ الشطرنج، وألعابَ الورق، إلخ..) في حين يُمتَنَعُ عن إعطاء وَصْفٍ قصديّ. في هذا النص، لا يعدو «ويتينغشتاين» كونه أسلوباً فلسفياً في حين يُرى إلى القارىء النموذجي على أنه الطاقة العقلية على مقاسمة هذا الأسلوب، إذ يتعاون على تأوينه، ليس إلاّ.

وليكن واضحاً، منَ الآن فصاعداً، أنه كلما استخدمنا عباراتٍ من مثل المؤلف والقارىء النموذجي، فقد عنَيْنا بهما، في الحالَيْن، نموذجَيْن من الاستراتيجية النصّية. فالقارىء النموذجي إن هو إلا جماعُ شروط النجاح أو **السعادة** التي وُضعَت نصياً، والتي ينبغي أَنْ تُستَوفى في سبيل أَنْ يُؤولَ نص إلى تأوُّنه الكاملِ في مضمونِه الكامن(٧).

felicity conditions

٣ـ ٦ـ المؤلف باعتباره فرضية تأويلية

إنْ سلّمنا بأن المؤلّف والقارىء النموذجي هما استراتيجيتان نصيَّتان، وجدنا أنفسنا إزاءَ موقف مزدوج. فمن جهة، وعلى ما أسلفنا، ولما كنّا اعتبرنا المؤلف التجريبي بمثابة فاعِلِ التلفُّظ النصّي وقد صاغَ فرضية حولَ القارىء النموذجي، وراح يترجمها إلى عبارات استراتيجية تعود إليه وحده، جهد في أن يعتبر نفسه، بحكم كونه فاعِلَ اللفظ ومؤلِّفاً على السواء، بمثابة طريقة في إعدادِ العمليات النصية وبعباراتِ «استراتيجية» محضة.

ولكن، بالمقابل، فإن القارىء التجريبي، بحكم كونه فاعلاً ملموساً لأفعال التعاضد، ينبغي لَهُ أن يرسم لنفسه فرضيةَ المؤلِّف، مستخلصاً إياها من معطياتِ الاستراتيجية النصّية، بصورة مضبوطة. وقد

تُعَدُّ الفرضية التي يروح القارىء التجريبي يصوغها فيما يخصّ مؤلفَه النموذجيّ أصوَبَ منَ الفرضية التي يعمد المؤلّف التجريبي إلى بَثِّها في شأنِ قارئه النموذجي. والواقع أنه ينبغي أن يصادرَ الأخيرُ، بدءاً، على شيء لا وجودَ راهناً لَهُ بعد، وأن يُفعِّله باعتباره سلسلةً منَ العمليات النصِّية؛ وبالمقابل، يقتضي منَ الأوّل أن يستخلص صورةً نموذجيةً عن شيء كان سبقَ التثبُّت من كونِه فِعلَ التلفظ وقد حَلَّ في النص على هيئة اللفظ. إليكم مثالاً على ذلك (١١): يصادرُ «ويتيغنشتاين» على وجودِ «قارىء نموذجي» فحسب، يكون قادراً على إتمام العمليات التعاضدية التي يقترحها، في حين لا يسعنا، نحن القرّاء، إلاَّ اعتبار صورة ويتينغشتاين النصية على أنها سلسلة من العمليات والقضايا التعاضدية الجلية. غير أنَّ المؤلف النموذجي لا يكون دوماً على هذا الانكشاف المتيسّر، ولا يندر أن يكونَ للقارىء التجريبي مَيْلٌ إلى إسقاطه (من خلال المعلومات التي يكون حاز عليها) على المؤلف التجريبي باعتباره فاعِل التلفُّظ. تلكَ هي المخاطر، والاختلافات التي من شأنها أن تجعل التعاضد النصي شائكاً أحياناً.

وبواضح العبارة نعني «بالتعاضد النصي» المقاصِدَ المتضمنة اللفْظَ وهي في حالة الإمكان، ولا نعني به تفعيل مقاصد فاعل التلفُّظ التجريبيّ. ولنتخذ لنا مثلاً على ذلك: يشير أحدهم في سياق نقاش سياسي أو في مقالة، إلى سلطات الاتحاد السوفياتي «سابقاً» أو مواطنيه، بأن يسمّيهم [الروس] بدلاً من [السوڤيات]؛ فندركُ حينئذٍ أنَّ الكاتبَ المذكور إنما يقصد إلى تفعيل دلالة تبعية إيديولوجية بيِّنة، كما لو أنه يرفض الاعترافَ بوجود الدولة السوڤياتية السياسي، الناشىء من ثورة أكتوبر (تشرين)، ولا يزال يحنُّ إلى زمن روسيا القيصيرة، ولا يني يتفكّر فيه. على أن استخدامَ هذه العبارة أو تلك، في ظل ظروف معينة، من شأنه أن يكون بالغَ التمييز. إذ قد يحدث أنَّ مؤلفاً يستخدم لفظة [روسي] بغفلة منه، ومنساقاً إليها بالعادة، وبالخفّة، والسهولة، دونَ أي حكم مسبَق معادٍ للاتحاد السوڤياتي، ومنحازاً بذلك إلى الاستخدام الأكثر شيوعاً. مع ذلك، فإنَّ للقارىء، إذ يقارنُ بين تجلّي العبارة الخَطّي (استخدام **أعجوم المعني**) في **الأرموزات الفرعية** التي يملك كفاية الكشفِ عنها (راجع العمليات

Lexème وهي على صيغة «إفعول» المصغرة، عن الكلمة «المعجمة».

Sous-Codes

التعاضدية المحددة في الفصل ٤ـ ٦) الحَقّ في إسنادِ دلالة تبعية إيديولوجية إلى الكلمة [روسيّ]. للقارىء الحقّ في ذلك، طالما أَنّ الدلالة التبعيّة مفعَّلة نصّياً: وهنا يكمنُ المقصدُ الذي يقتضي منه إسناده إلى مؤلِّفه النموذجي بغضّ النظر عن مقاصِد المؤلِّف التجريبي. ذلك أن التعاضد النصّي ظاهرة آيلة إلى التحقّق، على حَدّ ما طفقنا نكرِّر، بين استراتيجيتين خطابيتين، لا بَيْنَ فاعلين فردَيْن.

ومن نافل الكلام، أنّ على القارىء التجريبي واجبات «فقهيّة لغوية»، في سعيه إلى أن يكون «قارئاً نموذجياً»: وأهمّ هذه الواجبات أن يعاود اكتساب أرموزاتِ المُرسِل، بأكبر قدر من التقريب. ولنَهَبْ أَنَّ المرسِلَ متكلِّمٌ هوَ، ذو أرموزة محدودة للغاية، وهو على ثقافة سياسية ضحلة، حتّى لتعجزه ثقافته (وبحكم اقتصار موسوعته على القليل) عن تمثُّل هذا الاختلاف في ذهنه بين الكلمة [روسي] وغيرها؛ ولنفرِضْ أَنَّ امرءاً غير متعلم، ولا يملك من عدَّة المعرفة إلاَّ تعريفات سياسية ـ لسانية، لفظَ جملةً على طراز «كان خروتشيف رجُلَ سياسة روسياً» (في حين أنه كانَ أوكرانياً). فمن الجليّ، إذاً، أَنّ تأويل النص يعني، بهذا السياق، أن يتعرَّفَ إلى موسوعة بَتٌّ أكثر حَصْراً وبدئيّةً من الموسوعة المرسلة. ولكن هذا يعني أن يرى النص في ظروفِ تلفُّظه. ذلك أنه لو افترضنا أن هذا النص يحقق مسيراً تواصلياً أوسع وأنه يتداول بوصفِهِ نصاً «عاماً»، فيُحال دونَ أن يُنسَب إلى محضِ فاعلِه **اللافظ** (Enonciatif) الأصيل، استوجب النظر إليه في حالته التواصلية الجديدة بوصفِهِ النص الذي يَرجع، عبر طيف مؤلف نموذجي شديد الاختصار، إلى أرموزة وفرع أرموزة مرضياً عنه من قِبَل المرسَل إليهم الممكنين، والذي يستدعي أن يكون مفعَّلاً بحسب كفاية الجهة المقصودة بالرسالة. وعلى هذا ينطوي النص على دلالة تبعية هي دلالة إيديولوجية مميَّزة. والأمر يتعلق، ههنا بالقرارات التعاضدية التي توجب تقييمات فيما خَصَّ تداول النصوصِ الاجتماعي. إذاً، ينبغي أن نقدِّر الحالاتِ التي نحدِّد فيها، بصورة واعية، مؤلفاً نموذجياً صار كذلك بعد سلسلة منَ الأحداث الاجتماعية، مدركين في الوقت عينه أنه لا يوافق المؤلف التجريبي(٨).

يبقى، بالتأكيد، الكلام على الحالة التي يتقدم فيها القارىء بفرضية أنَّ الكلمة [روسي] قد استخدمَتْ بصورة لا إرادية (مقاصد نفسانية مسندة إلى المؤلف التجريبيّ) إلا أنه رضيَ الخوضَ فيها دالاً على تمايز اجتماعي ـ إيديولوجي أو نفساني لدى الباثّ (المرسِل) التجريبيّ؛ وهذا الأخير ما كان ليدرك أنه يشرع في تفعيل بعض الدلالاتِ التبعية، غير أنه كان يريد ذلك «بصورة لا واعية». أيسعنا في هذه الحالة، أن نتحدث عن تعاضد نصّي صحيح، أو عن تأوّلٍ دلالي يطاول النص؟

من الواضح أننا نَصِف، ههنا، وضعَ تأوّلاتِ النصوصِ الاجتماعية أو النفسانية ـ التحليلية هذه، حيث يقتضي اكتشاف ما يقوله النص، بغضّ النظر عن مقصد المؤلف، حولَ شخصية المؤلف أو جذوره الاجتماعية، أو حولَ عالم القارىء نفسه.

وإنه لمن الجليّ كذلك، أننا إذ نبلغُ إلى هذه البنى الدلالية العميقة التي لا يبسطها النص على السطح، فذلك أن القارىء يُقدِّرها باعتبارها مفتاحاً من أجل تفعيل النص تفعيلاً كاملاً: على سبيل المثال **البُنَى الفاعلية** (مسائل تتعلق «بفاعل» النص الحقيقي، فيما يتجاوز الحكاية الفردية عن فلان والتي تُروى في النص ظاهرياً) والبُنَى الإيديولوجية. ولسوف نحدِّد هذه البُنَى في الفصل اللاحق ونناقشها في الفصل ٩.

Structures Actantielles: وقد ارتأيتُ صياغة ترجمتها العربية «البُنَى الفاعلية» على هذا النحو من صيغة «فاعلية»، لوقوعها بالأصل الأجنبي في صيغة دالة على أدوار الشخوصِ العاملة في النصِ، أو من خلاله.

ولنكتفِ، الآن، بالاستخلاص أنَّ لنا قارئاً نموذجياً، باعتبار ذلكَ فرضية تأويلية كلَّما تمثلنا فاعِلَ استراتيجية نصِّية كما تتبدَّى لنا من خلال نص مدقَّق فيه، وليس حين نبثُّ فرضية، من وراء استراتيجية نصية، تقضي بوجود فاعل تجريبي يشاءُ أو يفكِّر، أو يشاءُ التفكيرَ في أمور مختلفة عما يقوله النص إلى قارئه النموذجي، مقارَناً بالأرموزة التي يرجع إليها.

مع ذلك، فإنه يستحيل إنكار الوزن الذي تأخذه «ظروف التلفُّظ» التي تفضي إلى صياغة فرضية حولَ مقاصِد فاعلِ التلفُّظ التجريبي، في تحديد خيار المؤلف النموذجي. ولنتخذ لنا مثالاً الحالة الصوريَّة التالية: إنَّ التأوّل الذي جعلت الصحافة والأحزاب السياسية تصوغه حولَ رسائل «**ألدو مورو**» أثناء سجنه الذي سبق اغتياله، إلى الملاحظات الملائمة

رئيس وزراء إيطالي سابق، اختطف على يد منظمة إرهابية ثم قتل بعد فشل المفاوضات من أجل إطلاقه.

للغاية التي خلص إليها «لوكريسيا أسكوديرو» حولها[٩].

وإذْ جعلَ البعضُ يؤوِّل رسائل ألدو مورو تأوّلاً يأخذ في الاعتبار الأرموزات السائدة، ويتجنَّب إبراز ظروفِ التلفُّظ، فإنه لم يجد أيّ شك في دلالتها؛ إنها بحسبه رسائل (وأخصُّ ما في الرسالة الحميمة، أَنْ تشاء التعبير بصدق عن فكرة كاتبها)، حيث يتبدَّى فاعل التلفظ هو فاعل اللفظ، ويعبِّر عن عرائض، ونصائح، وتوكيدات. أما إذا شاءَ المرء الإحالة إلى قواعد التحادث المشتركة، بمثل إحالته إلى مدلولِ التعابير المستعملة، تحصَّل لَهُ أنَّ مورو لطالما أراد أَن يُفتدى بإبداله بأسرى آخرين.

في حين أن الصحافة، بغالبية وسائلها العظمى، جعلت تعتمد ما ندعوهُ باستراتيجية تعاضد الرفض: إذ راحت تضع موضع التساؤل، من جهة ظروف إنتاج الملفوظات (مورو يكتب تحت وطأة التهديد، إذاً لم يكن يعني ما قالَهُ)، ومن جهة أخرى المماهاة بين فاعل التلفُّظ وفاعل اللفظ، (ففي حين تقول الملفوظات [أنامورو]، يكون فاعل التلفّظ شخصاً مختلفاً، إنهم الخاطفون لا يلبثون يتكلمون من خلفِ قناع مورو). وفي الحالين، جعلت تتبدَّل هيئة المؤلف النموذجي، فما عادت استراتيجيته متماهية بالاستراتيجية التي كان يمكن أَنْ ننسبها بصورة مغايرة إلى الشخص التجريبي «ألدو مورو» (باعتبار أن مؤلف هذه الرسائل النموذجي ليسَ المؤلف النموذجي الذي صاغَ النصوصَ اللفظية الأخرى أو كتابات ألدو مورو في ظروفٍ اعتيادية).

من هنا تتفرَّع فرضيات أخرى: (I) مورو ظلّ يكتب ما يكتب إلا أنه جَعَل يوحي، بصورة ضمنية بأنه يريد العكس. إذاً ينبغي للقارىء ألا يأخذ نداءاته على حرفيتها؛ (II) مورو كان يستخدم أسلوباً مختلفاً عن أسلوبه المألوف، وذلك من أجل أن يبلِّغ رسالةً وحيدة وفريدة: «لا تصدقوا ما أكتب»؛ (III) مورو ليس مورو حقيقةً طالما أنه ينطقُ بأقوال مخالفة لما كان يقول على عهدنا بهِ في الظرفِ العاديّ، ومخالفة لما يفرضه التعقل والرزانة، ولِمَا كان ينبغي لَهُ قوله على جري مألوفه. ولسوف نبيِّن للحال، وفي سياقِ هذه الفرضية الأخيرة، كم أثّرت توقّعاتُ المرسَل إليهم الإيديولوجيةُ في مساراتِ «الصدقية» وفي التعريف بالمؤلِّف التجريبي

وبالمؤلف النموذجي.

وبالمقابل، فقد أدّت الأحزابُ والمجموعاتُ الموافِقة على المفاوضات لعبةَ التعاضد، إذ أقامت، بخلاف هؤلاء، استراتيجيةً للقبول: فإذا كانت الرسائل تقول «أ» وذُيِّلَتْ بالتوقيع «مورو»، لأوجب التصديق بأنَّ مورو إنّما يقولُ «أ». ههنا لم يُنَاقَشْ فاعِل التلفُّظ، وبالتالي فقد أبدل المؤلف النموذجيُّ سيماءَهُ (واستراتيجيته).

بالطبع، إننا لا نقصد بكلامنا أَنْ نعيِّن الاستراتيجية «الفضلى»، أو أنْ نفاضل بين الاستراتيجيات الممكنة. ولو كانت المسألة تكمن في معرفة «من كتب هذه الرسائل؟»، لكانت الإجابة عُهِدَت إلى بروتوكولات بعيدة الاحتمال بعضَ الشيء. وكلما كانَ السؤال «مَنْ هو مؤلِّف هذه الرسائل النموذجيّ؟»، كانَ واضحاً أن القرار (الآيلَ إلى السؤال) ربَّما أملته تقديرات حولَ ظرفِ التلفُّظ، أو مسلَّمات موسوعية فيما خَصَّ «التفكير المألوف» لدى مورو، أو وجهات نظر إيديولوجية (على أن العنصر الأخير يفوق العنصرَيْنْ الأولين أهمية وقدرة على التحديد) تمهيدية (لسوف نتحدث عنها في الفصول ٤- ٦- ٧). والحال أنه كلما انتقينا مؤلفاً نموذجياً مختلفاً، تبدّل نمط الفعل اللساني المفترض، واتخذ النص معاني مختلفة، إذ جعل يفرض مختلف أشكال التعاضد. ذلك هو ما يحدث إن نحن ارتأينا أن نقرأ لفظاً جدّياً باعتبارِهِ لَفظاً تهكمياً والعكس بالعكس.

على أَنَّ التشكُّلَ الذي يبين عليه المؤلّف النموذجي رهنٌ بالقرائن النصية، غير أنه يضع موضع التساؤل العالمَ الكامنَ وراءَ النص، ووراءَ المرسل إليه، وعلى الأرجح أمام النص ومسار التعاضد فيه (بحيث يكون رهناً بالتساؤل: «ماذا أريد أن أفعل بهذا النص؟»[١٠]).

هوامش

(١) انظر. كارناب، ١٩٥٢. عاودنا مناقشة المسألة في هذا الكتاب (٨- ٥).

(٢) حول تدابير التماهي هذه في علاقتها مع استخدام أدوات التعريف المحدَّدة، أنظُرْ ڤاندايك ١٩٧٢أ، وقد أنجز تلخيصاً للمسألة - أما سلسلة الأمثلة بهذا الشأن فتردُ في هذا الكتاب (٨- ١١ و١٠).

(٣) في شأن **قواعد التحادث**، نرتئي الإحالة إلى «غرايس»، ١٩٦٧، على جري الطبيعة. على أي حال، نعيد التذكير بمبادىء غرايس التحادثية: Règles conversationnelles

- مبدأ الكمية: تصرَّفْ بما يكفل لمساهمتك (في المحادثة) القدرَ من الإعلام الذي يتطلبه وضع التخاطب فحسب؛ مبدأ النوعية: لا تقُلْ ما تظنه خطأً ولا تتكلم عما يفوتك إثباته بالحجج الدامغة؛ مبدأ العلاقة: لا تتحدث لكي لا تقول شيئاً؛ مبدأ الطريقة: تجنَّب العبارات الغامضة، وحِدْ عن الالتباس، وأوجزْ (تجنَّب كُلَّ إطناب عديم الجدوى)، وكُنْ سديد الرأي.

* يورد المؤلف ههنا أولى كلمات رواية أليسّاندرو مانزوني Ipromessi sposi (والتي ترجمها إلى الفرنسية أرمان مانجو، وجعلها بعنوان: الخطِّيبون، ١٩٨٢).

** أما الترجمة إلى الفرنسية فأنجزها «دوفو كونبريه»، باريس، غارنييه، ١٩٣١.

(٤) أما بشأن النص المفتوح فنحيل إلى كتابنا «العمل المفتوح»، باريس، سُوي ١٩٦٥.

(٥) أنظُر. إيكو، ١٩٧٦، ولا سيّما في مقالة «الاشتراكية والمؤاساة؛ وإيكو، عام ١٩٦٧: «بلاغة وإيديولوجيا» في مقالة «أسرار باريس» لمؤلفها «أوجين سو»، الصادرة في المجلة ذات التيارات المتداخلة في العلوم الاجتماعية، ١٤، ٤.

(٦) أنظر أومبرتو إيكو، في البحث حولَ «الخصائص الصناعية في كتاب جويس»، وذلك ضمنَ كتاب «النص المفتوح»، المذكور سابقاً. وانظرْ «علم دلالة الاستعارة»، في مجلة «تِل كِل»، العدد ٥٥، ١٩٧٣.

(٧) في سبيل أن نصف شروطَ النجاح، نُحيلُ، بلا أدنى ريْب، إلى أُوستِن، ١٩٦٠؛ كما إلى سيرل، ١٩٦٩.

(٨) أنحسب أنفسنا واثقين من أنَّ جملة [أعطوا ما لقيصر لقيصر] التي قالها المسيح تتضمن افتراض المعادلة التالية: قيصر = سلطة الدولة بعامة، وأنه ما كانَ ليعني بها محضَ الإشارة إلى الامبراطور الروماني إبان سلطته، في حينه فحسب، دون أن يأتي على ذكر واجبات تلاميذه في ظروف زمانية ومكانية متباينة؟ ويكفي المرء بياناً أن ينظر في الجدال

الذي عَمّ الإكليروس حولَ شرعية المُلكية لدى الرسل وشرط الفقر، في القرن الرابع عشر، والذي دار في مجمله بين الرهبانية الفرنسيسكانية «الروحية» المنزع وبين قداسة البابا، كما الجدالُ الأقدم والأكثر شيوعاً، الذي دار حولَ السلطة البابوية والامبراطورية، حتى يدرك الصعوبة الكامنة في هذا القرار التأويلي. مع ذلك، فقد قبلنا اليومَ بالمعادلة المرَمزة غاية الترميز (من خلال الكفايات) القائمة بين «قيصر» و «سلطة الدولة»، معتبرينها معطىً موسوعياً. وعلى هذا الأساس نواصل تحقيق مقاصِد المؤلف النموذجي، باعتباره يسوع الأناجيل الشرعية.

(٩) «حالة مورو: معالجة وتعرُّف» «Il caso moro: manipolazione e riconosci mento»

بحثٌ قُدِّمَ في الندوة حولَ الخطاب السياسي، في المركز الدولي المعنيّ بالسيمياء واللسانيات، بمدينة أوربينو، وذلك في تموز من العام ١٩٧٨.

(١٠) على أنَّ مفهومَ «القارىء النموذجي» باتَ متداولاً، في تسميات مختلفة ومع بعضِ التباينات وضمن نظريات نصية عديدة. أنظُرْ، على سبيل المثال «بارت»، ١٩٦٦؛ لوثمان، ١٩٧٠؛ «ريفاتير»، ١٩٧١، ١٩٧٦؛ ڤاندايك، ١٩٧٦؛ هيرش، ١٩٦٧؛ كورتي، ١٩٧٦، أيزر، ١٩٧٢. وقد يجد المرء تحديدات غير مباشرة ولكن قيِّمة للغاية، لدى واينرش، ١٩٧٦ (٧، ٨، و٩).

٤ ـ مستويات التعاضد النصّي

٤ ـ ١ ـ حدود النموذج

النص إنْ هو إلاَّ نتاج حيلة نحوية ـ تركيبية ـ دلالية ـ تداولية، والتي يشكل تأوُّلها المحتمل جزءاً من مشروعها التكويني الخاص. وهذا ما سعينا إلى إثباته في الفصولِ السابقة. وفي سبيل أنْ نستوضح هذا التعريف، باتَ علينا أن نتمثَّل نصاً باعتباره نسقاً مِن «العِقَد» أو المفاصل، أو أَنْ نعيِّن، في أي العقد، يُتَوقَّع تعاضد القارىء النموذجي ويثار.

إنه لمن المحتمل أن يتجاوز تمثيل تحليلي هذا وصفه الإمكانيات الحالية المتوفرة لدى السيمياء النصية. وفي هذا السياق، كان بعض النقاد قد اقترح أموراً مماثلة في شأن نصوصٍ ملموسة ـ ولئن كان هؤلاء قاربوا تحليلهم مستندين إلى فئات ملائمة في الغالب، فإن هذه الأخيرة طالما تطلعت إلى قابلية للتطبيق تكون أعمَّ وأشمل. أما الأبحاث الأخصب، على سبيل المثال، فهي التحليل الذي قام به «بارت» باحثاً في «**سارَّازيـن**» (عام ١٩٧٠)، والتحليل الذي كان أجراه «غريماس» (١٩٧٦) في شأن قصة «الصديقان»، لمؤلفها «موباسّان». على أن دراسات تحليلية أخرى أشد تعقيداً، كانت تناولت مقاطع نصية أصغر (كتلك التي أجراها بيتوفي [١٩٧٥] حول قصة «الأمير الصغير» لمؤلفها أنطوان دوسانت إكزوپيري) وقد ارتُئِيَتْ لتكون اختبارات لمدى قابلية النظرية على التطبيق، أكثر منها محاولات حصرية في تأويل نَصٍّ مِنَ النصوص.

وهي قصة قصيرة كتبها «أونوريه دو بلزاك»

والحال إن النظريات الشائعة اليوم، إذ تقترح نموذجاً عن نص مثالي أو نموذجين فإنها تعمد إلى تمثيله، على جري عادتها، باعتبار مستوياته البنيوية ـ المنظور إليها من وجهات متباينة من مثل المراحل المثالية في مسار التكوين و/أو التأويل.

إلى ذلك، فإن مفهوم المستوى النصّي لأدعى أنْ يثير الحَرَج في ذاته، ولطالما كانَ الحافز إلى إطلاقِ العديد الوافي منَ النقاشاتِ والاقتراحات. أما النص، على ما يتبدى لنا، في تجلّيه الخَطّي، فلا مستويات له: لأنَّ ما وُجد كان أصابه التكوين فاكتمل. وفي هذا السياق، يقترح سيغر Segre (١٩٧٥؛ ٥) أنَّ «مستوى» و «توليد»، إن هما إلاّ استعارتان: إذ لم يعدُ المؤلف قيدَ التكلم، إنما يكون أنهى كلامه لتوه. وبالتالي، لا يكون لنا أن نتعاطى سوى مع مخطَّط التعبير النصّي، ولا تعود المراحل التأويلية التي نكون في صدد إنجازها في سبيل تأوين التعبير مضموناً، تعني أنها تعكس المراحل التكوينية التي صار خلالها مشروعُ مضمونٍ تعبيراً تاماً. إلى ذلك، فإن غالبَ ما يطرح في النظريات، لا يُعزى إلى ديناميَّة التأويل بقدر ما يكون موضوعه دينامية الإنتاج، والأرجح أنَّ ما يهمّ هذه النظريات، بالدرجة الأولى، هو مشروع مسارٍ تكويني يمكن تطبيقه على ناظم آلي.

في الواقع، لا يسع مفهوم المستوى النصّي أن يكون سوى مفهوم نظري، أو ترسيمة ما وراء نصيّة. وبمقدور هذا المفهوم أن يتمفصَل بحسب المشروع النظري الذي يحتكم إليه ويؤيده. وعلى هذا، فقد ينصَبُّ جُلُّ اهتمامنا على الحركات التعاضدية التي يروح يؤدّيها قارىءُ نَصٍ مكتوب، وفي هذا الصدد فإنَّ الترسيمة المقترحة في الرسم ٢ (أنظر ص ٩٣) إنما هي موضوعة للغاية المقصودة. وهي تستوحي تشكلها من نموذج المستويات النصّية التي كان اقترحها پيتوفي لنظريته TeSWeST[١]. والحال أنَّ پيتوفي جعل يخطُّ لنفسهِ غايات أخرى ويحاول أن يدمج، في إطار نظريته، عناصر مقترحة من مقاربات نظرية أخرى (ولا سيّما ما له صلة بغريماس وڤاندايك)[٢]؛ رغم ذلك، فقد آثرنا الاستيحاءَ من النموذج الپيتوفي لكونه يجهد، أكثر من أي نموذج آخر، في تفحُّص مسائل

Meta-textuel

المصداقية والقصدية في الآن نفسه.

Extensionnels

Intensionnels

مع ذلك، فإن هذا النموذج البيتوفي من شأنه أن ينشىء، بصرامة ملحوظة، إدارة المسار التكويني، في حين أنَّ نموذجنا يرفض أن يتمثَّل، بصورة بيِّنة، توجهاتِ المسار التعاضدي وتراتبية مراحله. وإلى هذا، قد تُعزى وفرة الأسهم إلى الوجهات المتعاكسة، حتَّى ليخالجنا الظنّ، المضبوط مع ذلك، أنَّ كل هذه الأسهم لا تعيِّنُ أية وجهة، إنما تشير، بالعكس، إلى حركة تنقُّل مستديمة ومنهكة.

على أنَّ الرسم التخطيطي خاصتنا شئناهُ من أجل أن يعكس واقع أن كُلَّ المستويات، والمستويات الفرعية، في مسار التأويل الملموس ـ والأحرى بهذه المستويات الفرعية أنها ليست سوى خانات لما وراء النص ـ يمكن أن تطاولها «قفزات» كبرى، دون أن تجتاز بالضرورة مسالكَ ملزمة، خانةً إثر خانة: ولئن كانت استعارة ضربة الفارس، في لعبة الشطرنج، لم تكن ذات فائدة بالنسبة لأحاديث أخرى، فإنه يستحسن استخدامها ههنا.

وقد يؤتي تعاضد القارىء، أحياناً، ثمارَهُ على مستوى البنى الخطابية، إذ نكون تقدمنا بفرضية فيما خَصَّ بُنَى العوالم، وهكذا دواليك. ولكن، يسعنا أن نقولَ الشيءَ عينه ـ وينبغي لنا أن ننظر إلى هذه الملاحظة باعتبارها اقتراحاً بسيطاً حول نقطة لا تتعلق بموضوعنا مباشرة ـ فيما خَصَّ الآونة التكوينية. كم من المرّاتِ لا يقع المؤلف على قرارهِ في شأن بنية نصه الدلالية العميقة، إلاَّ في اللحظة التي يختارُ فيها كلمةً دونَ أخرى، وذلك على مستوى تحقُّق النص المعجميّ؟ وفي ما خَصَّ الشعر، ألا توحي متطلباتُ القافية، غالب الأحيان، بالقرار حولَ البُنَى الدلالية العميقة التي ينبغي الاحتفال بها في النص؟

ولنخلصْ إلى القول، إذاً، إن سهامَ مخططنا لا تشير، في مطلق الأحوال، إلى مسار زمني أو منطقي، أية كانت مثاليته، إنما تبيِّنُ الترابط المتبادلَ القائم بين الخاناتِ المختلفة. وأياً كانت الإكراهات التراتبية في النص، فإنها لا تتعلق إلاَّ بالخاناتِ الدنيا: إذ لا يسع المرء الانطلاق منَ التجلّي الخطّي، أي أننا لا نقرِّر تفعيل نَصّ إلاَّ حالما يُقترح علينا باعتبارهِ

عبارةً خالصة. إلى ذلك، فإنه لا يسعنا المباشرة في تفعيل النص دون أن نحمّل العباراتِ فيه مضموناً، وقد نستعين لذلك بسستام الكفايات السيميائية (أرموزات، وأرموزات فرعية)، وهو سستام ثقافي يسبق إنتاج التجلّي الخطّي الملموس نفسه. بعدئذٍ، تُعدَم القراءة أن تكونَ متدرجة، إذ لا يكون بمقدورها أن تَطّردَ على هيئة تشجير إثر تشجير، ولا على سبيل «الشارع نفسه» (Main Street) إنما من خلالِ جذور متوالية (ولربَّ متوجس محافظ يقول: أيسع النظرية السپيتزرية* حول الدائرة المفسِّرة أن تقول بخلاف ذلك؟).

نسبة إلى سپيتزر Speatzer

Herméneutique

٤- ٢- اختيار نَصّ سردي نموذجاً

إنَّ المستويات النصِّية الممثلة في الرسم ٢ تتخذ لها نَصاً منَ النوع السردي مرجعاً. والحال أنه يساورنا الاعتقاد بأنَّ نصاً سردياً يمثّل، إلى جانب بعضِ المسائل المخصوصة، كُلَّ المسائل النظرية التي يطرحها نَصٌّ آخر (من نفسِ النوع). إذ يتسنى لنا أن نجد أمثلةً، في كل نَصّ عينيّ، عن أفعال لسانية وتحادثية، ووصفية، وبرهانية، إلخ..

على هذا، فإنّ ڤاندايك (١٩٧٤ب) مضى يميّز بين **سردية طبيعية وسردية مصطنعة**، باعتبارهما وصفَيْ أفعال. غير أَن السردية الأولى تحيلُ إلى أحداث ممثّلة وكأنما جرَتْ فعلاً (على سبيل المثال، شتّى الوقائع المذكورة في الجرائد)، في حين أن السردية الثانية تعالجُ الأفراد والوقائع المنسوبة إلى عوالم ممكنة، مختلفة عن العالم الواقع تحت حسّنا واختبارنا.

Narrativité naturelle

Narrativité artificielle

ومما لا ريبَ فيه أنَّ السردية المصطنعة لا تظهر كبير اهتمام بالشروطِ التداولية التي تخضع لها السردية الطبيعية (فالمؤلف لا يلزم نفسه قول الحقيقة ولا البرهنة على مزاعمه). بيد أنَّ هذا الاختلاف لا يلقى منا إيثاراً، بَلْ نكون أمْيَلَ إلى استبعاده من اقتراحنا، ذلك أن مخططنا يأخذ في الاعتبار هذه القراراتِ التأويلية أيضاً. وببسيط العبارة، فإن السردية المصطنعة تتضمن عدداً منَ المسائل المنتمية إلى النموذج المصداقي، أوسَعَ وأشمل، على ما سوف نراهُ في التحليل الذي قارنا به قصة «ألفونس ألّيه» في الفصل الأخير منَ الكتاب. إليكَ إذاً، السبب الذي حدا بنا إلى

اقتراحِ نموذج منَ النصوص السردية دونَ غيرها، سواءً كانت طبيعية أم مصطنعة.

وكما أسلفنا القول، فإنه ينبغي لهذا النموذج أن يطابق عيّناتٍ نصّية أصغر وأَوْجز. ذلك أن النّصّ السردي هو أعقد من جملة شَرْطية بسيطة ومُيَسَّرة التقليد وقد بُثّت في أثناء محادثة ([لو لم تأتِ، لكنتُ مضيتُ إلى العشاء وحدي])، وحتى لو كان كلاهما يتعلق بحالة ممكنة من حالاتِ العمل أو بمجرى من الأحداث ممكن. وثمة اختلاف بين أن يقول المرء إلى شابة ما قد يحدث لها إن هيَ قبلَتْ أن يغازلها امرؤ فاسق، وبين أَنْ يروي إلى أحدهم ما جرى، بما لا يُرَدُّ ولا يُصلح، في لندن من القرنِ الثامن عشر، لشابة تدعى كلاريس، إذ رضيَتْ بأن يغازلها امرؤ فاسق يدعى «**لوفْلاس**». وفي هذه الحالة، يسعنا أن نطلع بعدة سماتٍ حول السردية، المصطنعة مخصوصةً، وهي على النحوِ التالي: (I) من خلال صيغة استهلالية فريدة (ضمنية أو واضحة) يُدعى القارىء إلى عدم التساؤل عما إذا كانت الوقائع المروية حقيقية أم مزيفة (ولربّما كانَ دُعِيَ القارىء، في أقصى حالٍ، وبصورة ضمنية إلى الإقرار «بصدقيتها» الكافية، طالما أن هذا الشرط معلّق فيما خصّ الحكايات الخرافية)؛ (II) يُختار بعض الأفراد ويُمثّلون عبرَ سلسلة من الأوصاف «المشبكة» (على حد قول سيرل) بأسمائهم، فتنسب إليهم بهذه الحال بعضُ الخصائص؛ (III) على أَنَّ توالية الأفعال تكون قليلة التموضع في الزمانِ والمكانِ أو كثيرته؛ (IV) كما تعتبر توالية الأفعال «غاية في ذاتها» وخاتمةً (فهنالك بدء وخاتمة)؛ (V) وفي سبيل أَن يقال ما سوف يحدث لكلاريس بصورة نهائية، ينطلقُ النص من حالٍ من التوقعات بدئية تخصُّ كلاريس ويتبعها عبر بعض التبدّلاتِ الحالية، موفرةً للقارىء إمكانية أن يتساءل، كلّما تسنّى لَه ذلك، عما قد يحدث في المرتبة التالية من مراتب الحكاية؛ (VI) لذا يمكن أن يوجز كلّ مجرى الأحداث التي يصفها السرد في سلسلة منَ **القضايا ـ الكبرى** ندعوها: ـ هيكلية الخرافة، التي ندعوها **الحكاية**، فنقيم بذلك مستوى متتابعاً للنص، متفرعاً عن التجلّي الخطّي وغير متماهٍ به.

Lovelace

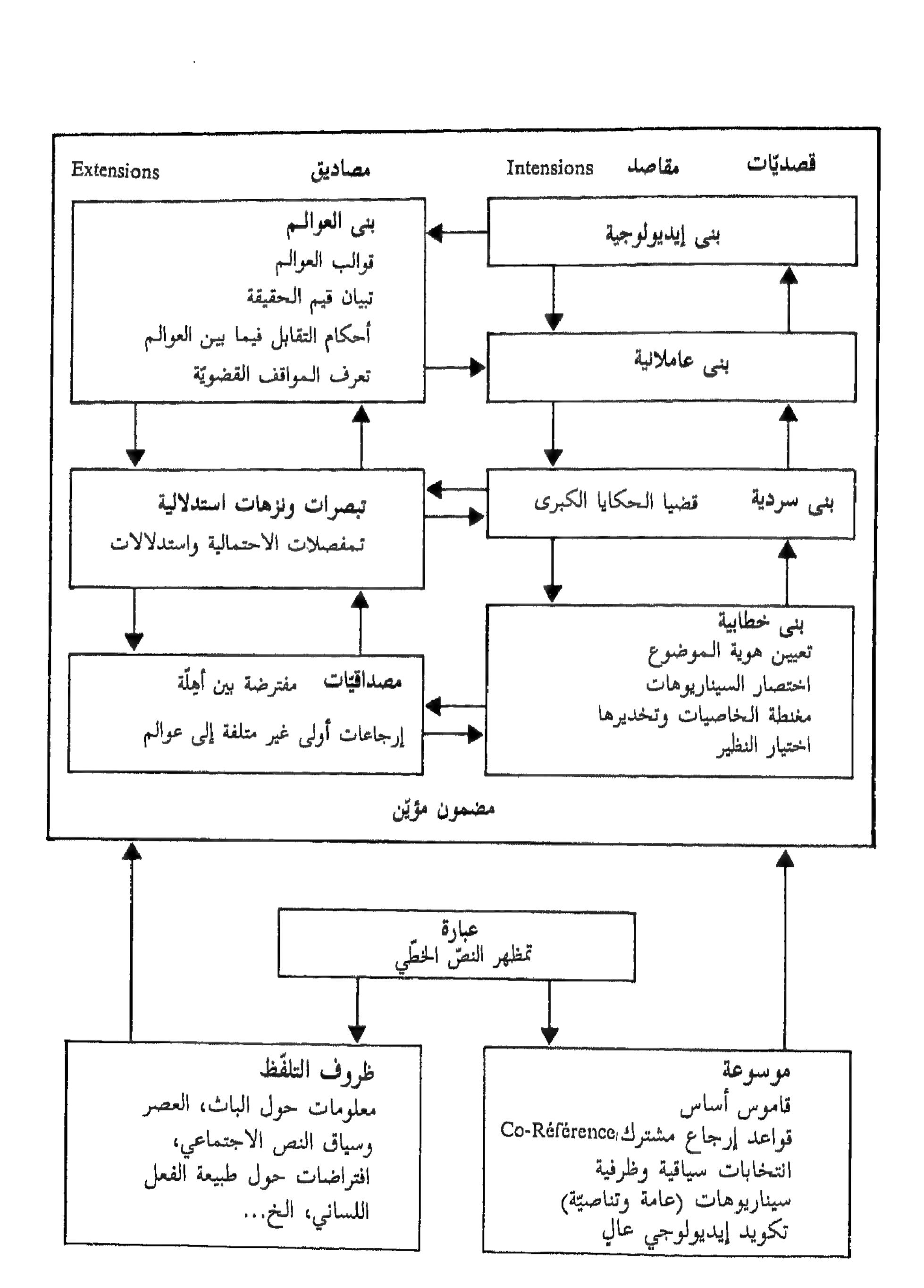
Macro-propositions

Fabula

مع ذلك، فإنَّ الشرطية المضادَّة لحدوث الفعل لا تختلفُ عن مقطع من سردية مصطنعة، إلاَّ لأنَّ المرسلَ إليه في الحالة الأولى يكونُ مدعواً إلى التعاضد بفعالية أكبر في تفعيل النص الذي يكون قد طرح عليه، وذلك في سبيل أن يبني بذاته بصورة عَرَضية، القصة التامة التي يقترحها عليه مضادّ حدوث الفعل. ولسوف نتفحّص، في المقاطع التالية، آخذين في الاعتبار نموذجاً لنصٍ سرديّ ممثَّل في الرسم ٢، بعضاً من الحالاتِ التي تكون فيها نصوص غير سردية. وفي ظاهر الأمر، ينبغي لنا ألاّ ندرج هذه الأخيرة في إطار النموذج المقترح نفسِه. ولكننا، سوف يتبيَّن لنا أنه من الممكن توسيع النص غير السردي، بغاية أَنْ يُحَوَّل إلى نَصّ سردي، وذلك بأن يُجرى فيه تحقيق بعض من الإمكانيات التي يتضمنها. Contrefactuel

وهذا مما يقنعنا بصحة مشروعنا. فلمّا كانت النصوص السردية أعقد، وأغنى بالمسائل سيميائياً، استوجب أن تكون أكثر نتاجاً و «إقراضاً». وقد يجوز التساؤل، ههنا عن سبب الإحجام عن اختبار بعض المبادىء النظرية مطَبَّقةً على حصص نصية أوسع، طالما أَنَّ النقد يحفل بالكثير من النظرياتِ النصية التي تفيض بالتحليلات التي تطاول حصصاً نصية أكثر تفصيلاً وأوسع مما اخترناه؟ لا شكَّ أَنَّ الاشتغال على نصوص موجزة مما يسهِّل إنشاء نظريات مصوغة تهدف إلى وضع إمكانيات في الحساب التكويني. غير أن ذلك ليس ما نرمي إليه.

إذاً، سوف نجهد في اتّباع مسار معاكس، فَلربَّما يؤتي ذلك ثماره. وعلى هذا النحوِ، قد نطلق اقتراحات نظرية نسعى إلى التثبّت منها تالياً، من خلال نص سرديّ يكون، على قِصَره، شديد التعقيد ويطرح سلسلةً من التحديات في وجه الصياغة النظرية الأساسية والبدئية.



قصديّات
مقاصد Intensions
مصاديق Extensions
بنى إيديولوجية
بنى العوالم
قوالب العوالم
تبيان قيم الحقيقة
أحكام التقابل فيما بين العوالم
تعرف المواقف القضويّة
بنى عاملاتية
بنى سردية
قضيا الحكايا الكبرى
تبصرات ونزهات استدلالية
تمفصلات الاحتمالية واستدلالات
بنى خطابية
تعيين هوية الموضوع
اختصار السيناريوهات
مغنطة الخاصيات وتخديرها
اختيار النظير
مصداقيات
مفترضة بين أهِلّة
إرجاعات أولى غير متلفة إلى عوالم
مضمون مؤيّن
عبارة
تمظهر النصّ الخطّي
موسوعة
قاموس أساس
قواعد إرجاع مشترك Co-Référence
انتخابات سياقية وظرفية
سيناريوهات (عامة وتناصيّة)
تكويد إيديولوجي عالٍ
ظروف التلفّظ
معلومات حول الباث، العصر
وسياق النص الاجتماعي،
افتراضات حول طبيعة الفعل
اللساني، الخ...

٤ـ ٣ـ التجلي الخَطّي

إننا ندعو التجلّي الخطّي في نصٍ ما سطحَةُ **المعجماني**. إذ يطبّق القارىء على التعابير نسقاً منَ القواعد اللسانية، من أجل أن يحوّلها إلى مستوى مضمونيّ أول (بُنى خطابية). Lexématique

والحال أنه يمكن لنا أن نحصل على نصوصٍ ليس فيها من التمثيل سوى التجلّي الخطّي بحيث يستحيل أن يعتلق بها أي مضمون. على سبيل المثال هذه الأبيات المأخوذة من كتاب كريستيان مورغنسترن، وهي بعنوان «لا لولا البدينة» [Der grosse Lallula]:

Kroklowafgi? Semememi!
Seikronto prafliplo.
Bifzi, bafzi i; Hulalomi...
quasti besti bo

فهيَ (الأبيات) تُتمثّل على أنها تجلٍّ خَطّي فحسب يستحيل أن ننسب إليه أي مضمون قابل التفعيل، بحكم أنَّ المؤلف لم يرجع فيه إلى أي أرموزة موجودة. (على أننا لنفي عن هذه الأبيات، ولأسباب التبسيط المحض، صفة «الأدبية» التي لا تزالُ الأبياتُ الآنفة توحي بالانطواءِ عليها، والتي يمضي المؤلف في تصريفها؛ ثم إننا نروح نستبعده، ليس لاعتباره مضموناً ممكناً، بل لأنَّ العلاقة التي تقوم بين التمفصلاتِ التعبيرية وبين غمامة مضمون غامضة، لا تسمح لنا باعتبار الوارد نصاً، في حين يسعنا وصف ذلك على أنه رسالة مبثوثة لغاياتٍ تواصلية.).

بيد أن النّصَّ التالي، المقتطف من قصيدة توتو ـ ڤوكا (Toto-Voca) لمؤلفها تريستان تزارا:

(13) Ka tangi ta Kiwi
Kiwi
Ka rangi te molo
moho

إنْ هو في الظاهر، إلاَّ شبيه سابقه. فمن الناحية النظرية ينبغي أنْ

يكون لَهُ مضمون، طالما كان في الأصل، على ما يبدو، شِعراً **ماوُريّاً**. على أي حال من المحتمل أن يكون هذا الكلام قد بث للمقاصد عينها التي تولّت مرسِل الكلام الأوّل. هذا إن لم يكن الإيحاء **النصي - الخارجي** الذي كان أضمره تزارا، يقوم جزءاً لا يتجزّأ، وخلسةً، من النص الإجمالي (أبداً كما يُرى إلى العنوان جزءاً من النتاج)[٣]: في هذه الحالة قد نضيف إلى الدلالة التبعية التي للأدبية، دلالة تبعيّة أخرى خاصة بالتغريب.

الماوُري، وهو شعب من أقدم شعوب نيوزيلاندا، له لغة تنعكس فيها نبرة الغضب والقوة والحكمة، في آن.

Extratextuelle

وحتّى هذا النوع منَ النصوص، وإلى نصوص **التأتأة** التي يجهل باثّها نفسُه مضمونَها، يمكن أن تخضع لتأويل صِواتي (إذ يسعها أن تُتلى) ويمكنها أن تثير تداعياتٍ صواتية - رمزية أساسية ومتعددة. إذاً، يسمح لنا العنصر الآنف وحده بالقول إنه، حين يشتغل المرء على نصوص تؤثر، بشكل ما، «منطقاً للدالّ»، وتعليه، (على سبيل المثال **التحويرات الصواتية والرخوات - اللفظية**)[٤]، فإنَّ التمظهر الخَطّي يتخذ لَهُ وظيفة، وذلك بغضّ النظر عن اللجوء إلى أرموزة أو باللجوء إليها في صورة مكمِّلة.

وهي أحاديث يؤديها منفصمو الشخصية شِفاهةً، وتكون غير منسجمة في الظاهر، إلا أنها تشكل، لغة جديدةً خاصة.

Métaplasmes

Métataxes

يمكن لنا أنْ نرجع إلى ملاحظاتنا حول مستويات النص الدنيا وحولَ تقطيع **المتَّصل** اللاحق في النص الجمالي. (٣- ٤- ٧، Trattato).

Continuum

ونحن، إذ نهمل ههنا هذا المظهر الهام، فلأننا ماضون في اهتمامنا بالنصوص السردية، حيث يكتسب الأوّل (أي المتصل) وظيفة ثانوية؛ ولكننا نشاءُ التذكير بأنَّ عدداً من حالات الابتكار على غرار مبدإ **السببية الصعبة** (أنظر، Trattato، ٩- ٤- ٣، و ٧- ٦- ٣، ٨- ٦- ٣) حيث انطوت معالجة التصميم التعبيري على إعادة صياغة المضمون، بصورة جذرية، لاتني تتحقّق وتتقوّم بنفسها[٥].

Ratio difficilis

٤- ٤- ظروفُ التلفُّظ

إنَّ التجلّي الخطّي ليوضع، بصورة مباشرة، في علاقة مع مختلف ظروف التلفّظ. أما الذي يشكل مادة بحثنا، فهو «مباشرية» هذا **التوصيل** (وتلكَ هي إحدى العِلل التي من أجلها كان نموذج الرسم رقم ٢ غير متراتب تراتباً صارماً). وفي حال التلفُّظ الشفاهي، يكون من الحتميّ أنْ يحالَ اللفظُ إلى مَنْ يلفظ به، وأنه قبل أن نلجأ إلى القواعد اللسانية بغية

ما بين التجلّي الخطّي وظروف التلفّظ.

الإقرار بماهية ما يقوله المتكلم، نتلقّى من ظرفِ التلفُّظ معلوماتٍ **لسانية - خارجية** حول طبيعة الفعل الذي يؤديه. وعلى هذا، لا يعود من الضروري أن يُؤوِّل المرء تأويلاً لسانياً عبارة [آمركَ بأنْ...] حتّى يدرك أنه يتلقّى أمراً: يمكن للعناصر النَّبْريَّة، والموقع الاجتماعي، والحركة (الملازمة الكلام) أَنْ تتدخَّل من باب الأَوَّلية. مع ذلك، قد يكون المجرى معكوساً أحياناً، إذ يتعيَّن على القارىء، منذ تأويل العبارة الأَوَّلِ أن يتلقّى معلوماتٍ تقتضيه صَبَّها شطر تحديد الظروف. وعلى جري العادة، فإن الحركة الآنفة متأرجحة هي، ذلك أَنَّ المتلقّي (أو المرسل إليه) لا ينتهي إلى إقرارهِ بنموذج الفعل اللساني الذي كان أُخضع إليه، إلاَّ عبرَ سلسلة كاملة من التصويبات المطَّردة. وعلى هذا النحو، إذا ما نُظر إلى الرسالة على أنها فعل إِرجاع، اقتضى الافتراض بأَنَّ المتلقي ينفذُ بعضاً من عمليات المصداقية، (انظر ٨)، مثبتاً بذلك أن المتكلّم إنّما يحيل إلى عالم الاختبار العام، أو يقول الحقيقة أو عكسها، أو يأمر أو يطلبُ شأناً مستحيلاً، وهكذا دواليك. وحتّى في حال وجود عبارة مماثلة: [تعالَ، أيها المثقف القذر] (والتي تعود إلى خيار: اليهودي القذر، الزنجي القذر، المِنكاشُ القذر، دَقَّة عتيقة)، فقد يسع القارىء، بعد أن يوظِّف أوّل استثمار معنى (في سبيل إدراك العبارة) أن يتقدَّم باقتراحات في ما خَصّ بُنَى المتكلِّم الإيديولوجية.

Extra-linguistiques

وبمقابلة ذلك، حين نقرأ نصاً مكتوباً، تكونُ لإحالتنا إلى ظروف التلفُّظ وظائف أخرى. ويقضي نموذَجُ الإحالة الأَوّلُ بتفعيل **ما وراء قضية**، بصورة مضمرة على صعيد المضمون، تكون على غرار النوع التالي: «هنا (كان) كائن إنساني أبانَ عن النص الذي شرعتُ في قراءته، هذه الآونة، والذي شرع يطالبني (أو لا يطالبُ البتة) بالإقرار بأنه يتحدث عن عالم اختبارنا المشترك». على أَنَّ هذا النموذج من التفعيل يمكن أن ينطوي، إلى ذلك، على فرضية مباشرة في عبارات من النوع النصّي (على غرار ما سوف نراهُ في الفصول ٤- ٦- ٥): وبموجبها يتسنى للقارىء الإقرار بكونه إزاءَ نَصّ روائي، أو تأريخي، أو علمي أو غير ذلك - عامداً إلى الإحالة، ثانيةً، إلى قراراتٍ مصداقية. أما نموذَجُ الإحالة الثاني فيتضمَّن عمليات أعقد، على الطراز **«الفقهي اللغوي»**: مما يعني أننا، إذ نكون في

Métaproposition: «ما وراء قضية أو ميتاقضية»

Philologique

حضرة نَص ملفوظ في زمنٍ بَعُدَ عن زمننا، نجهد في إعادة بناء إطارِه المكاني ـ الزمني الأصيل حتى ندرك إلى أي نموذج من الموسوعة ينبغي لنا الرجوع (لحسنِ الإحاطة به). والحالُ أنَّ اللعبة التعاضدية حول فاعِل التلفُّظ، وأصلِهِ، وطبيعته، ومقاصدِهِ، لا تبلغ ذروة تعقيدها إلاَّ إزاءَ نَصّ مكتوب فحسب (حين يكونُ المرسِلُ غائباً جسمانياً، ومضمراً من قبل كلّ الخصائص الآيلة إلى التحليل في عباراتٍ تعود إلى أنساق سيميائية ألسنية ـ خارجية). إذاً، في هذه الحالة فحسب، تصيرُ القرارات الواجب اتخاذها، رهناً بعلاقة تفاعلية بين كل المستوياتِ النصية الأخرى.

٤ـ ٥ـ مصاديق مشمولة

في شأن النصوص المكتوبة، وبالأحرى في إزاء النصوص السردية، يسعنا أن نسلِّم بوجودِ سلسلة من العمليات **المُتَقاوِلة**، التي تلازم إشارات نهائية إلى قِيَم الصدقية، وذلك ضمن علاقة تواصلية لفظية، وضمن نصوص غير سردية. ولما كانَ النص يضع في حسبانِه بعض الأفراد (أشخاص، أشياء، مفاهيم) ممّن أوتوا خصائص معينة (ومن بينها قدرتهم على إتمام بعض الأفعال: وعلى هذا نجد أنفسنا إزاءَ فرد قادر على إتمام أفعالٍ في سياق العبارة التالية [اليومَ، تمطر])، فقد يُحمل القارىء على إشغال بعض القرائن المرجعية. غير أن النص، كلّما أُسيء تفعيله، ظَلَّ القرار النهائي في نسبة هؤلاء الأفرادِ إلى عالم محدد، «واقعي» أو ممكن، قيد التعليق. وهكذا، يعمد القارىء إلى التسليم، بصورة عرضية، بوجود تماهٍ بين العالم إلى حيث يرجع اللفظ، وبين عالم اختباره الخاص، كما يتبدَّى لَهُ عبر معجمه الأساس، باعتباره التسليم أوَّل فعل جدير بأَن يطبق المعلومة المعطاة من قبل المعجم.

Interlocutoires أي تلك العمليات التي ترافقُ القولَ أو أفعال القول وتتوسطها.

وإذا حدث أن اكتشف، في سياق التفعيل الآنف، وجودَ تباينات في عالم اختبارِهِ وعالم اللفظ، شرع للتوّ في عمليات مصداقية أعقد. ولنتخذ لنا مثلاً في النص القائل: [بالأمس، في الساعة الخامسة عصراً، مات ملك السويد]. فإنّ أوَّل ما يسلم به القارىء بادىء الأمر، بأن النص يتكلم على عاهل السويد الحالي. غير أنه يسارع إلى وضع تعرُّفِهِ إلى العالَم هذا في موضع الاستطراد، معلقاً بذلك على تصديقه بصورة مؤقتة

(أو عدم تصديقه، سيان بينهما) في انتظار أن يجد قرائنَ أخرى، على مستوى البُنَى الخطابية، تفضي به إلى التعرُّف إلى نمط الفعل اللساني الذي يهمُّ باختباره. وقد يظلّ الحذر سيِّد الموقف، حتّى وإن بدت العبارة المذكورة، عرضاً، بمثابة عنوان رئيسي على صدر جريدة يومية. وبالطبع، فإن قرينة دالة على ظرفِ التلفظ الواضح من شأنها أن تحذره بأنَّ اللفظ كانَ بُثَّ في حالة التزم فيها الناسخُ قولَ الحقيقة. غير أن الجملة يسعها أن تكون متبوعة بالشروح دوماً [ـ هذا ما كانت تؤكده شائعات، هذا الصباح، وما لبثت أَنْ كُذِّبَتْ]، وقد أظهر سيرل (١٩٧٥) كيف أن **القضايا السردية** (المصطنعة منها أو المتخيلة) أنّما تمثُلُ مع كل خاصّيات الإثباتات، مع الاختلاف بأن المتكلم لا يلتزم بحقيقة صدقيتها، ولا يحتفل بطاقتها على برهنة هذه الإثباتات: تلكَ هي إذاً إثباتات، إلاّ أنها من نمط خاص لا يلتزم المتكلم فيه قولَ الحقيقة، ولكن دونَ أن يقصد بذلك إلى الكذب؛ إنما هو «يتظاهر» فحسب باصطناعِه إثباتات، حين ينبغي له إدراك «التظاهر» هذا على أنه فعل أشبه بالفعل المسرحي؛ إذ يقوم الممثِّل بما «يتظاهر به»، وليس بمعنى ظهور المرء تحت اسم مزيَّف من أجل أن يحظى بأطيب سمعة، تدليساً وبهتاناً. وفي هذا السياق يثبتُ «سيرل» أنّ هذا «التظاهر» إنما يحدِّدُه مقصد المتكلم وحده، وذلك دون أَنْ يتسنّى للناقِد تعريف الآثار النصية الجديرة بالإبانة عن المقصد الآنف؛ أما نحن فنظن حصول العكس (أنظر ٥ و١٢)، إذ توجد أدوات نصية جديرة بأن تبرز هذا القرار ولكن بعبارات تعود إلى الاستراتيجية الخطابية. ولهذا السبب ارتأينا أن نضع العمليات المصداقية الأولى بين هلالين، إلى أَنْ تُحدَّد، على مستوى البُنَى الخطابية، الضماناتُ الكافية التي تسمح بصريح الإبانة عن نمط الفعل اللساني قيد المعالجة.

Propositions narratives

٤ـ ٦ـ الموسوعة:

وفي سبيل أَنْ يُفَعِّل القارئُ البُنَى الخطابيةَ، يعمد إلى معارضة **التجلّي الخَطّي** بنسق القواعد الموفور في اللغة التي كتب بها النص، وفي الكفاية الموسوعية التي تحيل إليها اللغة، على جري تقليدها. على أَنَّ هذا النسق المعقّد، الذي دعوناهُ في مجموعة «بالكفاية الموسوعية»،

Manifestation linéaire

هو ما كنا عالجناهُ في كتابنا (٢ـ ٢ Trattato) وشئناهُ ممثلاً في النموذج ك [Q].

وإن بلغ بنا التفاؤل المعجمانيّ ذروته، قلنا إن العملية لن تعترضها صعوبة عارضة أية كانت، طالما أن مضمون كل كلمة قد اتُّخذ من المعجم، وأنه ما على القارىء سوى تأويل الكلمات، أُعجوماً إثر أعجوم، واتّباع عمليات الاندغام الدلالية الضرورية. ولكن الأمور تكون بخلافِ هذا التبسيط، إذ ليس من نظرية في **الاندغام** خالية من المسائل التي تطرحها المدلولات المسّماة سياقية أو التي يطرحها ضغط **المُنَاصّة**. على الرغم من ذلك، فلنبادر إلى التسليم بوجود سلسلةٍ من المقاطع التعاضديّة، وإن على صورة فرضية نظرية، والتي تمضي من العملياتِ الأبسط حتّى الأعقد فالأكثر تعقيداً.

Amalgame

Co-texte

٤ـ ٦ـ ١ـ القاموس الأساس:

إذاً، يلجأ القارىء، لدى هذا المستوى الفرعيّ، إلى معجم على هيئة قاموس، وسرعانَ ما تنكشف لَهُ هوية الخاصّيات الدلالية الأساسية التي تنطوي عليها الكلماتُ والعبارات المقصودة، حَتّى تجرّئُه السهولة على تجريب الاندغامات المؤقتة، أقله على المستوى التركيبي (أسماء موصوف تمهد لفاعل، وأفعال تقدّم لفعل وهكذا دواليك). والأحرى أن تكون هذه، المطروحة ههنا، «**مسلمات**» **مدلول** صغرى أو قوانين **استلزام** فعّالة. ونحن، إن قرأنا في كتاب أنه [كانت تعيش في مملكة بعيدة أميرة جميلة تدعى بياض الثلج (Blanche-neige)]، أدركنا بصورة تلقائية أن كلمة «الأميرة» تستلزم «المرأة»، وبالتالي أنها «حية وبشريّة، ومن الجنس الأنثوي». إلى ذلك، فإن الفرد الموصوف على أنه أميرة قد أحيط بخاصّيات لم تُحسب، على جري العادة، من باب الإضمار، باعتبار أنها غير «تحليلية»، إنما هي «استخلاصية»؛ مثلاً، ينبغي للكائن البشري (من جنس أنثوي) أن يتحصّل على بعض الخاصيات البيولوجية (بعض الأعضاء، وزن وسط معيّن، وقامة وسط معينة، وقدرات فعل محددة).

Postulats de signifié

Entailment

ولكن، ما لا يني يدقّ عن القارىء، هو تعرّفه إلى الخاصيات التي ينبغي تفعيلها دون غيرها: وإن نحيل إلى پيرس (أنظر ٢ـ ٩)، يسعنا

القول إن عالم الخطاب لمّا يكن محدداً بعد وأنَّ بمقدور سلسلة منَ **التعبيرات** أن تتابع (استنطاقها النص) إلى ما لا نهاية. ولسوف يتبدَّى لنا ما ينبغي تفعيله حين نتكلم على البُنَى الخطابية. على هذا، سوف نقيم الحَدَّ، في الفصل ٨ـ ٥، ما بين الخاصِّيات المضمَرة وبين الخاصيات الأخرى غير التحليلية. وما يسعنا قوله، في هذه الحالة، أن القارىء قد يعلِّق قراراتِهِ مكتفياً بتعريف هذه الخاصيات التركيبية المرتبطة بالأعجومات المعتبرة كذلك، والتي تسمح لَهُ بأول محاولة إدغام: فيدرك أن كلمة [أميرة] إنما هي من الوجهة التركيبية كيان فريد وأنثويّ، ومن الوجهة الدلالية فهي «بشر وذات روح».

Interprétants

٤ـ ٦ـ ٢ـ قواعِد الإرجاع ـ المشترك:

بعضاً من الكلمات فحسب حولَ هذه القواعد التي كان لسانيّو النص أشبعوها درساً حتّى أفاضوا. على هذا، يسع القارىء أن يزيل على الفور، الالتباسَ المحيط بالأدوات **الإشارية والتكرارية**، أقله على مستوى الجملة. ومن ثم قد يواجه التباساتٍ إرجاعية ـ مشتركة يتعيَّن عليه رفعها، وذلك بفضل تعرُّفه إلى **المدار** (انظر ٥ـ ٣). وفي أي حالٍ من الأحوال، وإن حدَثَ ـ بعد الجملة المذكورة حول بياض الثلج ـ أَن تلتها جملة من النمط التالي [كانت غاية في الجمال]، لم يجد أية صعوبة في أن يخلص إلى أَنّ [هي]، (في فعل كانَتْ الناقص)، إنما ترجع إلى فاعِل الجملة الأولى المؤنّث.

Deictiques
Anaphoriques
Topic

٤ـ ٦ـ ٣ـ انتخابات تناصية وظرفية:

كنّا تحدثنا عن هذه الانتخابات في الفصل ١ـ ٢. واعتبرنا أَنَّ بمقدور موسوعة توفير عدد كافٍ منها (الانتخابات). والحال أَنَّ الانتخابات السياقية الآنفة من شأنها أن تعيننا على الدخول إلى نسق **الكفاية التناصِّية** (انظر. كريستيفا، ١٩٧٠) الذي يتضح مداهُ أكثر جلاء حين يجري الحديث عن السيناريوات أو **القوالب**. على أي حالٍ، فإن التسليم بأن عبارة [فعل] ينبغي أن تُؤوَّل لا باعتبارها فئة نحوية، بل باعتبارها مثابة «الشخص الثاني في الثالوث المقدس»، ضمنَ سياقات

Compétence intertextuelle
Frames

لاهوتية، يعني الإقرار بعجزنا عن تمثيل أعجومة تمثيلاً موسوعياً دونَ الرجوع إلى الاستخداماتِ التي كانت صيغَتْ منَ الأعجومة الآنفة في نصوصٍ سابقة.

٤ـ ٦ـ ٤ـ الترمّز البلاغي والأسلوبي العالي: Hypercodage

لدى هذا المستوى الفرعي، يكون القارىء معداً لتأويل سلسلة كاملة منَ **الأعجومات المركبة** (Paralexèmes) والتعبيرات المجمّدة التي كان انتهى التقليد البلاغي إلى تدوينها، وذلك برجوعه إلى الموسوعة. آنئذٍ، يكون بمقدور القارىء أن يتعرَّف إلى التعبيراتِ المجازية والتراكيبَ الفعلية والإسمية ذات الدلالة التبعية من الوجهة الأسلوبية، سواءً بسواء. أما إذا ألفى القارىء نفسه إزاءَ عبارة من مثل [كان ذات مرة]، فقد استوجب منه ذلك أن يستخلص، بصورة تلقائية ودونَ جهود استدلالية، أَنَّ (I) الأحداث التي يُشار إليها في العبارة المذكورة إنما تقع في عصر غير تاريخي ولا محدَّد؛ (II) وأنها لا تُعدُّ من الأحداث «الواقعية»؛ (III) وأَنَّ مُرسِلَها يريد أن يروي حكاية خرافية بقصد التسلية. إذاً، ههنا، يُشرع في عقد الصدقية، على جري المألوف.

إلى ذلك، قد ندرج ضمن قواعد الترمّز العالي هذه قواعِدَ النوع. فعلى سبيل المثال، فإنّ حكاية «أَلّيه» الواردة في الحاشية I (مأساة باريسية حقاً)، إذ تتوزَّع فصولاً، يحمل عنوان الفصل الأول فيها إشارة إلى [سيِّد] و[سيِّدة]، فيدخلهما إلى سياقة القَصّ. على هذا، فإنَّ السطر الأوّل من النص الواقع في الفصل الأول حريٌّ به أن يدخِلَ الشخصَيْن «راوول» و «مرغريت» إلى السياقة المذكورة. ولمّا كانَ توجَّب أن يتضمّن القاموس الأساسُ قاموساً إعلامياً، فقد تيسَّر للقارىء أَنْ يتعرَّف إلى رجل وامرأةٍ في هذين الفردَيْن. غير أَنّ أياً من قواعِد الإرجاع المشترك لا تشير إليه بضرورة أَنْ يحيل كُلاً من راوول ومرغريت إلى [سيِّد] و [سيِّدة] العنوان المذكور ـ وتلك عملية ضرورية. إلى ذلك، من أَجل أن يثبت أَنَّ هذين الفردَيْن راشدان وأنهما ينتميان إلى وسط بورجوازي، على وجه الاحتمال. آنئذٍ، قد تتدخَّل قاعدةٌ عالية الترمُّز، فيصيرُ عنوانُ فصل، بحسبها (عدا التورية أو أية صورة بلاغية أخرى)، معلناً مضمونَهُ. والحال

أنّ الإرجاع المشترك لا تجوز صياغته إلاَّ على هذا المستوى، ليس على أسس نحوية، إنما على أسس قواعد النوع نفسه.

ويتابع النص قوله إنّ راوول ومرغريت هما متزوِّجان. ولئن كان النص غير مهتمّ بأن يقول إن أحدهما متزوج من الآخر، فإنَّ أيّ قارىء عاقل لا يرتابُ في ذلك. ويدركُ المؤلِّف أنّ بمقدور النص تسويغ هذا الكسل لنفسه على أساس من قاعدة أسلوبية عالية الترمّز. ولو كان المؤلف شاء القول إنهما كانا مزوَّجيْن إلى شخصَيْن مختلفَيْن، لكانَ حَيَّدَ مفعولَ هذه القاعدة بأن جعل في قولهِ تعابير مطنبة ـ شأن «وودي ألَن» إذ يروح يؤكد قائلاً: «أرغب بشدة في الرجوع إلى الرحم، أيّ رَحم».

٤ـ ٦ـ ٥ـ استدلالات تعود إلى سيناريوات مشتركة

في الفصل الثاني، من قصة «مأساة باريسية حقاً»، يتبدَّى راوول ومرغريت، في عِزّ أزمة الغيرة المتبادلة، ويروحان يتخاصمان، وفي لحظة معينة، يلاحق راوول مرغريت، فيصفه النص قائلاً:

(١٤) يده مرفوعة، وعيناهُ جاحظتان، وشارباهُ شأنَ شاربَيْ القطط المسعورة، سارَ راوول باتجاه مرغريت.

فيدرك القارىء أن راوول إنما يرفع يده ليهمَّ بضرب مرغريت، حتّى لو لم يشر التجلّي الخطّي إلى الواقعة ولا إلى المقصد (من ذلك). ولو كان راوول نائباً أثناء الانتخابات لكانت يده المرفوعة اتخذت دلالة مختلفة تماماً. ولكن، طالما أنه كان لا يزال في وضع من مخاصمة امرأته، فقد انعدم أي استدلال آخر ممكن. بل إن الأمر بات يستدعي، ههنا، استدلالاً مسوَّغاً من «سيناريو» مسبق ندعوه «مخاصمة عنيفة».

وفي هذا السياق، فقد ذهبت الأبحاثُ في «الذكاء المصطنع»، ومعها العديدُ من النظريات النصية المختلفة، إلى حَدّ صياغة مفهوم **القالب**، الذي نترجمه ههنا بكلمة «سيناريو». أما السيناريو المذكور فيبدو أنه شيء ما يتوسط ما بين تمثيل سُمَيميّ واسع الموسوعية، معبّراً عنه في قواعد الحالات، وبين مثل من الترمُّز العالي. وإذا كانَ هذا الاقتراح من شأنه أن يثير بعضَ الارتياب بالنسبة إلى تعريفه، فإن ذلك يُعزى إلى طبيعته

Frame

sémémique نسبة إلى Seme أو السيمة.

التجريبية الشديدة. مع ذلك، يتبدّى لنا هذا المفهوم جليل الفائدة Empirique
والإثمار، لكونه صيغ في سبيل أن يحلَّ، تطبيقياً، مسائِل التأويل النصِّي
الصعب: «كلما واجهنا وضعاً جديداً [...] حثَّتنا الذاكرة على انتخاب
بنية جوهرية تدعى القالب. وهذا الأخير إن هو إلاَّ إطار صورة مستذكر
ومتوجب التكيُّف مع الواقع، إذ يبدّلُ التفاصيل فيه كلَّما اقتضاهُ الموقف
ذلك. والقالبُ هو بُنيَةٌ من المعطيات، تفيد في تمثيل حالة نموذجية
معمَّمة، كأن يكون المرء في نوع منَ القاعات، أو أن يحضر عيد مولد
أحد منَ الأولاد. ثم أن كُلَّ قالب يتضمن عدداً منَ المعلومات. بعضها
يتعلق بما يمكن للمرء أن يتوقع حدوثه لاحقاً. أما الأُخرى فتختص بما
ينبغي عمله في حال لم يصدر توكيد على هذا الانتظار». (مينسكي،
١٩٧٤). إنّ القوالب، على هذا النحو، «عناصر معرفية [...] بل إنها
تمثيلات عن «العالم» الذي يسمح لنا بإنجاز أفعال معرفَية أساسية من مثل
التبصرات، والإدراك اللساني، والأفعال». (ڤاندايك، ١٩٧٦ب). على
سبيل المثال فإنّ القالب «متجر كبير» من شأنه أن يحدِّد وحدات أو
مجموعات من المفاهيم التي تدلّ على بعض مجريات الأحداث أو
مجريات الأفعال التي تنطوي على مختلفِ الأشياء والأشخاصِ، والأملاك،
والعلاقات أو الوقائع» (نفس المرجع: ٣٦؛ أنظر، من أجل صياغة أولى
پيتوفي، ١٩٧٦ب).

إذاً، قد يتضمن سيناريو «متجر كبير» مفهومَ المكان حيث يدخل
الناس لكي يشتروا مختلفَ السلع التجارية، فيتخذوها مباشرةً دون توسيط
الباعة (بالمفرّق) ويدفعوا من ثم إلى صندوق المحاسبة ـ على أَنَّ سيناريو
من هذا النمط قد يأخذ في اعتبارهِ السلع المبيعة في متجر كبير أيضاً
(على سبيل المثال: فراشي أسنان: نعم، أما السيارات، فلا).

وفي هذا المعنى، يكون السيناريو نصاً كائناً بالقوة أو حكاية
مكثّفة. ولنهَبْ أَنّ أحداً وضع إزاءَ عقل الكتروني هذه الجملة سعياً منه
إلى أن يرفع عنها التباسَها:

(١٥) كان على جان أن ينظّم كوكتيلاً وقد مضى إلى المتجر الكبير.

وإذ نسلّم بأَنَّ للآلة معلوماتٍ مبسَّطة على صعيد القاموس الأساس،

فهي تعتبر قادرة على إدراك ما يريد «جان» أن يفعله والجهة التي يقصدها، غير أنها تظل عاجزةً عن الإقرار بالعلة التي تدفعه إلى تنظيم الكوكتيل، أو الذهاب إلى المتجر الكبير. وبالمقابل، فإذا كانت الآلة قد زوِّدَتْ بالسيناريو «كوكتيل»، وخَصّ الكلامُ المرافق لَهُ الإشارة إلى الظروف الاجتماعية الداعية لهُ والمقيمة إياه، فأوردَتْ من الظروف توزيع المشروبات الروحية، والكحول والمقبِّلات، وفي حال كانت الآلة هذه مزودة، بالتلازم مع عبارة سيناريو «المتجر الكبير» وبالتزامن معها، ببعض المعلومات حولَ ما إذا كانت تُبَاع فيه إلى بعض السلع، المشروبات الروحية وأنواع الكحول والمقبّلاتِ، فإن تحقّق ذلك باتَ اندغام عناصر السيناريوَيْن المشتركة أيسر مما يُظَنّ. بل إن ذلك ليكون حتمياً. فقد يمضي جان إلى المتجر الكبير، في طلب المنتجات الموصوفة أعلاه، هاملاً لحم البيفتيك، وفراشي الأسنان والمطهرات، أبداً كما تفعل الآلة الذكية، على أي حال. وبعامة، فإنَّ البَشَريّ (المرسَل إليه) المتلقي لا يأتي عملاً بخلاف هذا. وإذا شئنا أن نعاود التفكير في المثل الذي كان طرحه بيرس (٢ـ ٥) والمتعلق بتعريف الليثيوم، أدركنا أَنَّ لهذا التعريف الموسوعي مظهر سيناريو عالي الترمّز حولَ كيفية إنتاج الليثيوم[٦].

على هذا، نعتقد أنَّ الفهم النصي الكامل إنما يخضَع بصورة كاملة إلى تطبيق السناريوات الملائمة، ابداً شأنَ الفرضيات النصية الآيلة إلى الفشل (والتي نعالج مثلاً عنها جلياً في الفصل الأخير) إذ ترتهن بتطبيق سيناريوات مغلوطة و«بائسة».

٤ـ ٦ـ ٦ـ استدلالاتٌ سيناريوات تناصية

إنَّ أَيَّ نص لا يُقرأ بمعزل عن الاختبار الذي يتولّد لدى القارىء من مقاربته نصوصاً أخرى (مماثلة أو مختلفة). ذلك أَنَّ **الكفاية التناصية** (Compétence intertextuelle) (أنظر بالأخص كريستيڤا، ١٩٧٠) تمثّل حالة منَ الترمّز العالي خاصةً ومن شأنها أن تصوغَ سيناريواتها المخصوصة بها.

والقارىء الذي ينبغي لَهُ أَنْ يزيل الالتباسَ اللاحقَ بالمقطع (١٤) فيبيتَ على يقين مفاده أَنَّ راوول إذ يرفع يده على مرغريت إنما يكون يهمُّ بضربها، وذلك لأن سلسلةً من المواقف السردية خلصَتْ أخيراً إلى

وصفِ الموقف وصفاً عاليَ الترمّز باعتباره «شجاراً مضحكاً بين الزوج وامرأته الغيور». إلى ذلك، فإن سلسلةً طويلةً من السيناريوات الأيقونية (طالما كانت **ترسيمات الأيقنة** سيناريوات بصريّةً تناصية، ليس إلاّ) تروح تمثّل آلافاً من الأيدي مرفوعةً لكي تضرب.

Iconographie

إذاً، تشمل الكفاية التناصّية (تخومَ الموسوعة القصوى) التى تتحصَّل لدى القارىء، كُلَّ الأنساق السيميائية الأليفة لديه.

والواقع أنه يمكن التقريب ما بين السيناريوات التناصية وبين **الهيئات** التي تنطوي عليها البلاغة التقليدية و«الحوافز» التي ما وَني النقاد يتكلمون عليها منذ «فيزيلوفسكي» إلى أيامنا. والحال أنَّ فئة «الحافز» المعجميَّة إذ أثارَتْ عدداً منَ النقاشاتِ المتزايدة (أنظر. إرليتش ١٩٥٤؛ فراي، ١٩٥٧؛ سيرج ١٩٧٤؛ آثال، ١٩٧٥، ١٩٧٧، وهذه اللائحة هي أبعد ما تكون عن الإيفاء بالمطلوب) فقد جعلتنا ندركُ أَنَّ هذه العبارة إنما تحيل إلى كُتَل موسوعية عديدة ومختلفة. وفي هذا السبيل لا بُدَّ لنا من أن نورد مثال «بوريس توماشيفسكي» (١٩٢٨) برهاناً، والذي كانَ اقترح منذ عهد الشكلانيين الروس، مفهوماً للحافز تالياً: قطعة **موضوعاتية** غير منقسمة فيما بعد («هبط المساء»، «مات البطل»..)؛ غير أَنَّ توماشفسكي لبث يصرّ على أن يكون هذا المفهوم مختلفاً عما يتداوله التحليل المقارِن الذي يجرى على الحبكات «المتنقِّلة» حيث تكون الوحدات أوسع، وحيث تظهر أشبه «بغير المنقسمة تاريخياً» أكثر منها غير منقسمة في إطار النوع الأدبي الذي تعود إليه. ويمضي توماشفسكي فيعطينا مثلاً عن الحافز «اختطاف الخطيبة» أو «الحيوانات المداوية». ولئن كانت هذه الحوافز أقربَ إلى سيناريواتنا التناصّية، إلاَّ أننا نعتقد أنَّ سيناريو حولَ ملاحقة فتاة ينبغي أن يكون أكثر تحليليةً، من حيث الممثِّلون، والأدوات، والأهداف، والمواقف.

Topoï, Topos, وهي كلمة باليونانية تعني الهيئة اللازمة التي يكون عليها شكلٌ ما أو صورة ما ممثلة في اللغة.

نسبة إلى موضوعة - Theme

والواقع أنه ينبغي التوصّل إلى وضع السيناريوات في مراتب حيث لا تعود الحوافز تحتلّ سوى موقع واحد. وبادىء بدءٍ، يسعنا أن نعرِّف **بالسيناريوات القصوى** أو «الحكايات المصنوعة سلفاً»: وعلى هذه الصورة قد تكون التراسيم الثابتة في الرواية البوليسية ذات السلسلة، أو في

Scénarios-maximaux

مجموعات من الحكايات حيث تتواتر الوظائف عينها (بحسب معنى بروب) ضمنَ التتابع ذاته؛ والحق أَنَّ هذه السيناريوات قد تكون قواعد تنتظم النوع، شأن تلكَ التي ترتئي «أصحَّ» تنظيم لمشهد من المنوعات التلفزيونية، إلى حيث ينبغي أن تدخل بعض المقوِّمات في تتابع متناهٍ (مثالاً على ذلك يُدخل مقدم البرنامج مغنيةً، بعد أن يجري معها حديثاً موجزاً وفَكِهاً، تقوم خلالها بالدعاية عن أسطوانتها الجديدة ذات الثلاث والثلاثين دورة، ثم تشرع في أداء أغنيتها، إلخ...). وفي المقام الثاني تدخل في الاعتبار «**السيناريوات الحوافز**»، وهي ترسيمات مرنة بما يكفي، على نمط «الفتاة المضطهدة» حيث يقوى المحلِّل على تحديد بعض العاملين (الغاوي، الفتاة)، وبعض تواليات الأفعال (غواية، وقوع في الفخ، تعذيب)، وبعض الديكورات (قلعة الظلمات)، إلخ... وذلك دون أن تفرض ضوابط محدَّدة فما خَصَّ توالي الأحداث؛ لذا قد يتحصَّل لدينا وجود اضطهادات متفاوتة النوع، من مثل اضطهاد جوستين، واضطهاد كلاريس، واضطهاد زهرة - مريم (Fleur-de-Marie)، وحلول متباينة (الموت، الخلاص). ويلحق بهذه، في المقام الثالث، **السيناريوات الظرفية** (على سبيل المثال النمط التالي: الصراع بين الشريف والعصابة في أفلام الوسترن) التي من شأنها أن تفرض ضوابط على تنامي قطعة من التاريخ. على أنَّ هذه الضوابط تكون قمينةً بأن تتراكب بصورة مغايرة بحيث تنتج حكايات مختلفة. وهذه السيناريوات تتفاوت بتفاوت الأنواع، إلى كونها تنطوي في ذاتها أحياناً على أفعالٍ بالغة الدقة. ولنتناوَلْ مثالاً على ذلك موقفاً نموذجياً: «ملهاة الصفح» [Splastick Comedy] التي تنطوي على «شِجَار في المطبخ أو أثناءَ احتفالٍ بعيد إذْ يُرمى أحد المحتفلين بالفطيرة على وجهه». ولكن ينبغي للتعليمات أن تكون غايةً في الوضوح: إذ يتوجَّب على أن تكون الفطيرة مكوَّنة منَ القشدة ومغطاةً بها (طالما أن كلَّ حلوى ممنوعة عداها)، وينبغي لهذه الفطيرة أن تصيبَ وجهَ الشخص المستهدف وتُهَشَّمَ فوقَهُ، كما يقتضي من الشخص المستهدف أن يمسح القشدة عن عينيه بكلتا يديه، ثم يتوجَّب عليه أن يبادر بدوره إلى رمي المعتدي بفطيرة أخرى (غير أن ذلك يظلّ اختيارياً) وهكذا دواليك... أما في المقام الرابع، فينبغي النظر إلى **الهيئات البلاغية**

Scénarios-motifs

Scénarios situationnels

Topoï rhétoriques

الحقّة شأن السيناريو الذي يملي الشكلياتِ الواصفة لدى «**المتكلم الوضّاح**».

Locus amoenus

بيد أن هذا التعداد يلبث غير مكتمل، بصورة حتمية. والحال هذه، فإنّ أيّ نمط من السيناريوات يمكن أن يملي ألاّ يكون المذنب، في الرواية البوليسية، التحرّي نفسه على وجه الضرورة؟ أيّاً يكن الأمر، فإننا نرى إلى مفهوم السيناريو التناصّي، الذي لا يزال تجريبياً بما يعصى على الضبط، أشمل من مفهوم الحافز، وأشبه بقاعدة من قواعد النوع، وأنه يملي سلسلةً من «الحالات»، تتمثّل في عدد الممثلين، والأدوات، وأنماط الفِعل، والجُمَل المتبادلة. إلى ذلك، فإن مفهوم السيناريو التناصّي هو مفهوم أبعد شمولاً وأكثر اتساعاً، غير أنه يلبث مفيداً في مراحل البحث هذه، إذ يفيد في تعيين ما يسمّيه «ويتغنشتاين» «**عائلة التشابهات**» والتي تستلزم التعمق فيها من خلال تصنيفات أوضح.

Familles de ressemblances

بطبيعة الحال، فإن السيناريوات التناصية تُتَداول في الموسوعة باعتبارها ملائمة لمختلف التراكبات، ويُتاح للمؤلف أنْ يغضّ الانتباهَ عنها متى قصد إلى ذلك عن علم، لإحداث المفاجأة بالضبط، ولخداعِ القارىء أو تسليته. نذكر في هذا السياق مجلة (Mad) «المجنون» التي كانَتْ خصَّت نفسها، في الخمسينيات بسلسلةٍ من القصص المصّورة الصمّاء، والتي اتخذت لنفسها عنواناً تقريبياً وهو «الأفلام التي نرغب في رؤيتها»؛ وكان كتّابُ القصص المصوَّرة هذه يطرحونَ في رسومهم المقدمات المنطقية **المدارية** لمشهد ذي حَلّ محتوم، فيعمدون من ثمّ إلى إخراج الحكاية وسَوْقها بطريقة تعاكس كُلّ احتمال تناصّي. مثلاً: كانَ أفراد العصابة قد ربطوا الفتاة إلى خطوط السكة الحديد؛ ويظهر الرسّامون، في مونتاج على الطريقة الغرافيتية، مطاردةً تجري فصولها بين المنقذين الذين يسارعون، تعدو بهم أفراسهم، إلى بلوغ المكانِ، وبين القطار الذي يروح يدنو بأقسى سرعته. وبعد؟ إذاً، يكونُ القطار هو الرابح في هذا السباق، فيمزّق الفتاة إرباً.

Topic نسبة إلى مدار

إذاً، تعود السيناريوات المسماة مشتركة (أو عامة) إلى كفاية القارىء الموسوعية العادية، والتي يقاسمها الغالبية العظمى من أعضاء ثقافة

ينتسبُ إليها؛ تلكَ هي في الإجمال «قواعد من أجل الفعل التطبيقي»: في هذا السياق يدرسُ «شاريناك» (١٩٧٥، ١٩٧٦) القوالب التي تتبدّى، للوهلة الأولى مبتذلة شأنَ القالبين التاليَيْن: «كيف نفتح شمسيّة» أو «كيف يدهن المرء أثاثاً أو جداراً وهما مثابة معطَيَيْن من الكفاية الفاعلية التي تنطوي بدورها على سلسلة منَ المعلومات مدهشة. في حين أنَّ السيناريوات التناصية، على العكس تماماً، هي ترسيمات بلاغية وسردية وتُعتبر جزءاً من ذخر منَ المعارف منتخب ومحدود، لا يقوى أعضاء ثقافة بعينها على امتلاكه جميعهم.

Actanticlle

ذلكَ هو السبب الذي من أجله يكون بعض الأفراد قادراً على التعرف إلى انتهاكِ قواعد النوع دونَ غيرهم، في حين يقصر آخرون معرفتهم على توقُّع نهاية الحكاية بينما يكتفي الآخرون، ممن لا يملكون سيناريوات كافية البتة، بالتمتع أو التألم من المفاجآت، وانقلاباتِ المواقف، أو من الحلولِ التي قد يحكم عليها القارىء المتصنّع الثقافة بأنها مبتذلة.

ولا يندر أن يعمد القارىء إلى انتزاع السيناريو الملائم مباشرةً من مخزون كفايته التناصية، فيكون (السيناريو) أَوْجَز وأشد كثافَةً من الأوّل (وبالتالي يكون أيسر انطباقاً على عالم من الخطاب أكثر تحديداً). وعلى سبيل المثال، فإن السيناريو التناصّي «السطو المسلح على مصرف» الذي عملت العديد من الأفلام على تعميمه، لينطوي على عدد أقلّ من الأفعال، والافرادِ، والعلاقات الأخرى، مما ينطوي عليه سيناريو «كيف يقوم المرء بالسطو المسلح على مصرف» المشتركُ والمعمّم، والذي يحيل إليه المتسكّعون الحرفيون (وغالباً ما يفشل الهواة إذ يستعملونَ سيناريوا تناصياً في فعل تطبيقي، ويغفلون سيناريوا عاماً، صلباً ومتكرراً).

٤ـ ٦ـ ٧ـ ترمّز إيديولوجي عالٍ

بدءاً، تعتبر الأنساق الإيديولوجية بمثابة حالاتٍ من الترمّز العالي. وهي تنتمي إلى الموسوعة. وعلى هذا، فإن القارىء يقاربُ النص انطلاقاً من منظور إيديولوجي شخصي يقوم جزءاً من موسوعته، حتّى وإن كانَ غير مدرك ذلك. إذاً، يقتضي من القارىء أن يعاين (حالةً حالةً) إلى أي

مدى يستبق النص قارئاً نموذجياً متوفراً على كفاية إيديولوجية معطاة. إلى ذلك، يقتضي منه الأمر النظَر في كيفية تدخّل كفاية القارىء الإيديولوجية (أكان النص يرتئيها أم لا) في مسارات تحقيق المستويات الدلالية الأعمق، ولا سيّما **البُنَى الفاعلية** والبنى الإيديولوجية.

Structures actantielles

وسوف نقاربُ ههنا (٥- ٣) تأوينَ **النظائر** أو مستويات المعنى في نصٍ ما. وفي هذا السياق أيضاً، يمكن لأوضاع المرسل إليه الإيديولوجية أن تتدخّل لكي تحدِّد مستوى القراءة. ولنستعِدْ ما كانَ قيل (٣- ٦) حول التأويلات المختلفة التي أُجريت لرسائل مورو. ومما لا شكَّ فيه أنَّ القرار في ما يتعلق بفاعِلِ التلفُّظ («أيكون مؤلف النص «ألدو مورو» حقاً؟) كانَ رهناً بميولِ المؤوّلين الإيديولوجية. ولو كان المرء يسلِّم جدلاً بأن الدولة ينبغي لها ألاَّ تفاوضَ الألوية الحمراء، لكانَ ذهب به الظنّ إلى أن مورو لا يسعه أن يقترح حلاً يتنافى مع مصالح الدولة؛ في حين أن موقعاً إيديولوجياً معارضاً ربّما كانَ دفع بالمرء إلى اعتبار التماسِ المفاوضات موقفاً عاقلاً قد تصحُّ نسبته إلى رجل حكيم. وفي هذا الصدد تقول لنا «لوكريسيا إيسكو ديرو» (في مقاربتها المذكورة آنفاً) بأنَّ من كانوا قرروا اعتبار فاعلِ التلفُّظ «مورو» نفسه وأنه كانَ خَطَّهُ تحت وطأة الإكراه، إنما كانوا ممن اختاروا **القراءة التأويلية**، أي أنهم اعتبروا أنَّ رسائله كانَتْ مكتوبة بأرموزات. ومما لا شَكَّ فيه أن مورو كانَ أراد أن يبلغ عن حالةِ الأسر (التي يعانيها) في غواصة ماء ذلك أنه ما وَنِي يستخدم عبارات من مثل [خاضع]، (إذاً، كانَ «تحتَ») و [مسار] (ومعناهُ أنه كانَ في شيء ما يسير أو يتقدم)، وعبارة [مسار متدرِّج في أوانه] (ومعنى ذلك أن الشيء المذكور كان يسعه أن يصعد ويهبط إلخ..[٧].

Isotopies

Lecture Anagogique

لَنْ يذهب بنا الاهتمامُ إلى التعليق على تهافت هذا التأويل، الذي يقوم مقاماً وسطاً بين رواية الجاسوسية والتفسير القروسطي. والواقع أن اختيار هذا المستوى منَ القراءة الآنفة كان ممكناً، في اللحظة التي كانت ماثلة فيها المسلَّمة النظرية التي مؤدَّاها «إنَّ قائداً ديمقراطياً -

مسيحياً لا يمكنه التفكير أو القول بأنه يتوجب على الدولة التعاطي مع الارهابيين»، وهي (أي المسلَّمة النظرية) متضمَّنة في كفاية المؤولين الإيديولوجية. إذاً، كان ينبغي لَه أن يقول أمراً آخر، (أي مختلفاً عمّا أوّله المؤولون قبيل أن اغتاله خاطفوه).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش

(١) أنظر بالأخص ١٩٧٦ب و ١٩٧٦ث. وتوضيحاً لكيفية تفريع أخرى بين البُنى العميقة، وبين البُنى السطحية والبُنى الظاهرة، أنظر، غريماس وراستيه، ١٩٦٨.

(٢) مما لا ريبَ فيه، على ما نراهُ في الفصولِ اللاحقة، أنَّ الأطر النظرية متباينة في هذا الأمر. إذ أن مقاربة غريماس النظرية هي من النمط اللساني، ويشدِّد فيها على المظهر المفهومي، وتستحوذ اهتمامه القيم الدلالية أكثر منها المسارات التداولية. في حين أنَّ مقاربة «ڤاندايك» النظرية هي أنْبَه إلى القيم التداولية، وتشدِّد على المظهر المصداقيِّ، وهي تعود إلى علم الدلالة وعلم التداول، الأنكلو - ساكسونيي الأصل. ولكن ڤاندايك نفسه، شأن پيتوفي الذي مضى يحاول صياغة توليف بين عالمي الخطاب، لبث يعتمد على الأبحاث الغريماسية وعلى كلِّ التقليد البنياني، حتّى وإن كانَ تقرَّب شيئاً فشيئاً من فلسفة اللغة ومنطقِ اللغاتِ الطبيعية، وذلك عبر مختلف المسائل والمصطلحات. وبالمقابل، لمن الأكيد أنَّ كلَّ هؤلاء المؤلفين (وغيرهم)، ولئن استخدموا عبارات مختلفة، فإنهم يتحدثون عن نفس الشيء، أي عن النص وعن الكيفية التي يتأوَّن فيها. من الجليّ أنَّ موضوعاً من مواضيع الخطاب يصيرُ شيئاً مختلفاً بحسب الإطار النظري حيث يندرج، ولكن ينبغي ألاَّ تستقِلَّ كُلٌّ من هذه النظريات بنفسها، وتروح تصول وتجول مفردةً. وهذا مما يبرِّر المحاولة، التي نجريها ههنا، في إيجاد نموذج موحَّد يسعى (أقلَّه من وجهة نظر مسارات التعاضد التأويلي) إلى الاعتبار من مختلفِ المسائلِ المطروحة.

(٣) إنَّ ثبتاً بالمراجع والمصادر حولَ ما يذكره علم الدلالة وعلم التداول بشأنِ العنوان يوشك أن يستغرق منا صفحات عديدة. فنكتفي ههنا ببعض العناوين والأسماء على سبيل المثال: دوشيه في مجلة «أدب»، عدد ١٢، ١٩٧٣؛ فوريه وفونتانا في مجلة لغات Langages؛ العدد ١١ وشارل غريڤل، «إنتاج الاهتمام الروائي»، دار موتون، ١٩٧٣؛ ل.هـ. هوك، من أجل سيميائية العنوان؛ أوربينو، ١٩٧٣؛ دراسة الفريق U حولَ عناوين الأفلام في مجلة تواصلات Communications عدد ١٦، ١٩٧٠؛ هيلين في مجلة «المسيرة الرومانية» عدد ٣- ٤؛ فلاندران في مجلة حوليات Annales العدد ٥، ١٩٦٥؛ «هذا الشيء الذي عنوانه باريس» [Che cosa e un titolo de parisi] لكلٍّ من ديڤسكوڤي، وكاشتلفرانشي، ١٩٧٨؛ كما أشير إلى أطروحة الدكتوراه التي كانت أنجزتها «كوليت كانتوروڤيتش» والتي أتاحتْ لي إعداد مرجعية غنية في هذا الصدد. أما المؤلفون الذين أوردتُ أسماءَهم، ولما كانوا أبدوا اهتمامهم بالموضوعات والنظائر النصية، فقد بذلوا جهوداً كبيرة في دراسة العناوين. على أن مسألة هامة لبثَتْ تذرّ قرنها دون أن تفي المعالجاتُ بشأنها، وهي الاختلافُ بين العناوين التي تشير إلى الموضوعة النصّية وتساهم

في إظهارها، وبين العناوين المخادعة التي تتركُ الخيار الموضوعي الحرّ للقارىء نفسه. في هذا الصدد أنظر نقاشنا حولَ القصة القصيرة لمؤلفها «ألّيه»، وقصة «فرسان الهيكل»، والتي سوف نتحدث عنها لاحقاً.

(٤) لمعالجة هذا الجانب، نحيل إلى أبحاث الفريق U، ١٩٧٠ و١٩٧٧.

(٥) أنظر، لدى إيكو، ١٩٧١:

Sulla possibilità di generare messaggi estetici in lingua edenica

«حول الإمكانية في تكوين الرسائل الجمالية في اللغة العَدَنيّة» (والمترجمة تحت عنوان «لغة فنية، تقطيع المضمون والمراجع» في مجلة Degrés العدد ١، ٣).

(٦) هناك «قالب» آخر لدى پيرس وهو الظرف «كيف تُعِدُّ فطيرة التفاح» والذي نوقش في مجلة Collected papers، العدد ١- ص ٣٤١. أنظر بهذا الصدد كاپريتيني، ١٩٧٦. ويبدو لنا أنَّ مفهوم «القالب» كما هو مستخدم في إبحاث «الذكاء المصطنع»، ليس نفسه الذي كان اقترحه «بايتسُن» (١٩٥٥) في البدء، ثم غوفمان (١٩٧٤)، فيما بعد. ولئن صَحَّ تأكيد غوفمان بأن هناك معنىً حيث يكون اللعبُ محضَ لعب بالنسبة للاعب الغولف، في حين يكون عملاً بالنسبة للصبي خادم لاعبي الغولف». (١٩٧٤:٨)، فإنَّ القوالب التي اقترحها «بايتسن» تتبدّى لنا فرضيات نصية أكثر منها سيناريوات مودعةً في الموسوعة، أي أنها تبدو أطراً تأويلية متراكبة إزاءَ ظرف ملموس ممثل في فعل، بغية جعله مفهوماً. بهذا المعنى، تشبه هذه الأطر قواعد النوع وقد أُدخلت في سبيل أن تبدِّل من تأويل ظرف ما: «انتبه، إنّ ذلك لَعبٌ». ولكن من المسوّغ أن يتساءل المرء عما إذا كانت تلك محضَ تلاوين تقتضيها استخدامات غير دقيقة للفئة، وعما إذا كان ممكناً، على ضوء تحليل أدق، أن يستشف المرء التماثلات السيميائية الأقوى وأن يؤسسها. أما بالنسبة للأبحاث في الذكاء المصطنع، انظر، فيما يتعلق بمختلف تلاوين فئة «القالب»: مينسكي، ١٩٧٤، وينستون، ١٩٧٧؛ شانك، ١٩٧٥؛ ڤاندايك، ١٩٧٧، بيتوفي أ ١٩٧٦.

(٧) استُمِدَّت المعلومات حول هذا التأويل من مجلة الصحافة الإيطالية، Espresso، ١٩٧٨.

٥ ـ البُنَى الـخطابية

٥ـ ١ـ التبيين الدلالي:

عندما يجد القارىء نفسه إزاءَ أعجومة، يعجز عن إدراكِ أيّ من سماتِ السَميْمة أو الخصائص الملائمة يجدر بها أن تُؤون، وذلك بغية وضع مسارات الاندغام موضع التنفيذ. وفي حال استوجب أَنْ يعتبر كل خاصة دلالية تحتويها السميمة أو تضمرها، في سياق تفكيك رموز النص، صار القارىء مجبراً على تعيين الحدود التي ينبغي أَنْ تقف لديها كُل شبكة الخصائص المترابطة التي تشكل الحقل الدلالي الإجمالي أو جماعَ الموسوعة، وذلك في نوع من استحالة رسم تخطيطي ذهني.

Seméme أو المعجمة الكلّية

ولحسن الحَظّ فإنّ الأمر لا يتم على هذا النحو أبداً. ففي الوضع المألوف تكون خصائص السميمة في حالٍ منَ الكمون بالقوة، أي أنها تظلّ مسجّلةً من قبل موسوعة القارىء الذي يعمد، ببساطة، إلى تفعيلها، كلّما تطلّب منه المجرى النّصّي ذلك. إذاً، لا يفصح القارىء، مما يظلّ من الوجهة الدلالية مضمراً أو متضمَّناً، إلاّ عمّا كان بحاجة إليه، وإذ يتصرّف على هذا النحو فإنه يمغنط بعض الخصائص أو يجزيها تمايزاً، في حين يترك أخرى في حالة منَ الخَدَر[1].

على سبيل المثال، يذكر في قصة «مأساة باريسية حقاً» أَن راوول هو [سيد]، وهذا مما يتضمن دلالة الذّكَر والإنسان والراشد. إنّ لكل راشد، بمثابة خصائص تكون الموسوعة قد منحته إياها، ذراعين، وساقين، وجهازَ دورة دموية حاراً، ورئتين وغدّة حلوة. ولكن، حالما تنذر

سلسلة من إشاراتِ النوعِ القارىءَ بأنه ليسَ إزاءَ بحث في علم التشريح، يعمد إلى وضع كل هذه الخصائص في حالٍ من الخدَر، وصولاً إلى الفصل الثاني من هذه الحكاية حيث يرفع راوول يده. وإذ ذاك تصيرُ الخاصّيّة الكامنة في أن يكون للمرء يدان، والتي ظلّت بهذا المعنى «قيد التصرف» في الموسوعة، مميزة وذات أهمية. ولئن كان راوول يسعه العيش، دون رئتيـن، وذلك بحسب النص ـ فإنه، إذ نقرأ «الجبل السحري»، يصير متوجباً علينا أن نأخذ بعين الاعتبار رئتَيْ «هانس كاستروب»، عاجلاً أم آجلاً.

مع ذلك، فإن خاصيةً موضوعةً قيدَ التخدير لا تكون خاصية محذوفة. وهي، وإن لم تكن مثبتة، فإنها لا تكون مستبعدة على الاطلاق. وإذا حدث أن أعلمتنا الحكاية التي نتفحصها بصورة مفاجئة، أنّ لراوول جهاز دورة دموية بارداً، نكون مجبرين على تصويب انتباهنا التعاضدي فنتلقى إشارةً من النوع الآنف: فترانا ننتقل من الملهاةِ إلى العلم المستقبلي.

ولكن، في سبيل أن يحسم القارىء أمر الخصائص التي ينبغي أن تحظى بالامتياز عن تلك التي يقتضي أنْ ترمى بالخدر، لا يكفيه أن يقارنَ كُلَّ ما يوفر عنا تفتيشاً في الموسوعة. وعلى هذا فإن البُنَى الخطابية تكون محققة على ضوء نظرية حول المدار أو المدارات النصية.

٥ـ ٢ـ المدار

Topic

Sémiosis

تقوم السيناريوات والتمثيلات السميميّة على مسارات **التسييميّة** غير المحدودة؛ ولما كانت كذلك فإنها تلتمس تعاضداً من القارىء الذي يكون عليه أن يقرّر أين ينبغي لَه توسيع **مسار التأويلية غير المحدودة** أو إيقافه. ذلك أن الموسوعة غير محدودة من وجهة الإمكان (أو هي متناهية غير أنها ليست محدودة)، ومن أقصى محيط سميمة معطى، يمكن أن يصابَ مركز أي سميمة آخر، والعكس بالعكس (أنظر الأطروحة Trattato، ٢٠٢١).

Processus d'interprétabilité illimitée

ولما كانت كلُّ قضية تنطوي على قضية أخرى، والعكس بالعكس، فقد بات بمقدور كل نص أن يستولد، بواسطة تأويلات متتالية،

أيّ نصٍ آخر (وذلكَ هو الحاصلُ في المسار التناصي أيضاً، وما تاريخ الأدب سوى برهان عليه).

إذاً، ينبغي لنا أن ندرك كيف أنَّ نصاً، غير محدودٍ في ذاته بالقوة، يمكنه أن يستولد التأويلات التي ترتئيها استراتيجيته دونَ غيرها. وفي واقع الأمر، فإنّ «سيناريو قد يتضمَّن العديد من التفاصيل التي لا يسع مناسبتها أن تضمر افتراضها» (وينستون، ١٩٧٧؛ ١٨٠)؛ ويبدو جلياً أنني إذ أُنظِّم كوكتيلاً، أو أقرأ حكاية عن كوكتيل، فإنه لا يكون متاحاً لي أن أُفَعِّل السوق الكبرى برمّتها لمجرَّد أنني أمضي إلى السوق الكبرى بغية أن أشتري بعض المقبلات لضيوفي... ففي مناسبة حيث «شراء بعض المقبّلات للضيوف» يكون هو المدار [...]، فإن المظهر الوحيد الأهم يكون نجاح الفعل الذي يحقق هدفي» (ڤاندايك، ١٩٧٦ ب: ٣٨).

ونحن إذ نستعيد مفهوم المدار الذي تحدثنا عنه سالفاً في الفصل الأول، يتعيَّن علينا أن نحدِّد بوضوح السبب الذي كان دفعنا إلى استخدام لفظة إنكليزية (كانت نسخت، من جهة أخرى، من مصطلح بلاغي يوناني) بدل أن نلجأ إلى كلمة [Thème] أو موضوعة (والأفضل ثيمة) التي تفيد أكمل الإفادة استخدامنا بهذا الشأن. والواقع أنه ما كانت لتكون ثمة أية صعوبة في استخدام كلمتيْ المدار والمدارة (Topic et Thème)، اللتين قد نستخدمهما كلتيهما، حيناً بعد آخر، لو لم تكن كلمة ثيمة أو موضوعة توشك أن تتَّخذ معاني أخرى. على سبيل المثال، فإن كلمة ثيمة لدى توماتشيفسكي (١٩٢٨)، تدنو كثيراً من المفهوم Fabula أي الحكاية التي سوف نعمد إلى تحليلها في الفصل السادس. وفي حين يتبدّى لنا المدار أداة **ما وراء نصيّة**، وترسيمة افتراضية يقترحها القارىء، فتكون الحكاية جزءاً من مضمون النص (وعلى هذا فالتعارض هو التالي: أداة **تداولية** بنية دلالية)؛ وهذا ما سوف نوضحهُ فيما بعد.

Méta-textuel

Pragmatique

ولسوف نرى أن ثمة مدارات يمكن أن يتبين المرء منها هويتها من خلال **قضية ـ كبرى** من الحكاية (إنّ المدار في الجزء الأول من

Macro-proposition

Le petit chaperon rouge

«ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» هو بلا منازع «لقاء فتاة صغيرة بذئب في الغابة»، أما القضية - الكبرى التي نتحصّل عليها غافلين عن البُنَى الخطابية فهي «فتاة صغيرة التقَتْ بذئب في الغابة»). ولكن، قد يكون كذلك مدارات منْ جُمَلٍ ومدارات خطابية تروح تتوارى كلّما شئنا تغييبَ «المدار الغالب» في النص.

وفي هذا الشأن يتحدث تشيغلوف وتزولكوفسكي عن «الثيمة» باعتبارها شيئاً «مرتبطاً بالنص»، ليس من خلال علامة تساوٍ، بل من خلال «سهم استدلال»، وهما يتكلمان عليها ليس بكونها تلخيصاً للقارىء إنما يعنيان بها تجريداً علمياً، أو «تسجيلاً للمدلولِ» في عبارة **ما وراء لسانية**،

Métalinguistiques

ويقرّان بوجود تراتبيات في المدارات داخل نص معطى؛ وبهذا المعنى فإن مدلولَ الثيمة أو المدارة التي يعتمدانها يكون يتماثل مع ما ندعوه ههنا المدار. ولكنهما، إذ يحللان قصص «كونان دويل»، يعمدان إلى تصنيف قِيَم الحرارة، والرفاهية والأمن على اعتبار أنها موضوعات (ثيمات عامة)، والتي قد ينظر إليها، ههنا، على أنها تعارضات كبرى على مستوى البُنَى الإيديولوجية.

لذا، فإنه يبدو لنا ملائماً أن نجرؤ على مخالفة القاعدة فنستخدم [المدار]، في دلالة محددة جداً، حتى لو لم يكن من الخطورة اعتباره، أحياناً، تسهيلاً للأمر، بمثابة ثِيمة، أو موضوعة.

إذاً، لا يفيد المدار في تنظيم التسييمية مختصراً إياها فحسب: إنّما يفيد في تصويب وجهة التفعيلات أيضاً. والحال أننا كنا تفحصنا، في الفصل الأول، **الطيف السّميّميّ** الذي لعبارة [Invece] «بعكس»، والتي لا تكتسب تحديدها باعتبارها تعليمة دلالية إلا إذا سجّلت **عاملاً** نصياً شأنَ المدار بالضبط. والواقع أن حالاً مماثلة يمكن أن تعطى لنا من خلال الظرف [أيضاً]، مما تظهره لنا الجملة التالية:

Spectre sémémique

(١٦أ) شارل يضاجع امرأته مرّتين في الأسبوع، بيار أيضاً.

إلا أن القارىء الأقل حنكةً لا يسعه أنْ يمسكَ نفسه عن الابتسام إزاءَ الغموضِ الممكن في هذا النص. ولربما كان ذلك محضَ ملاحظة إحصائية حولَ تواتر الإيقاعاتِ الجنسية لدى هذين الزوجين، ولكنه قد

يكون إيحاءً بمثلَّث زني. بيد أن الالتباسَ سرعان ما يزول، حالما نعتبر (١٦أ) إجابةً عن أحد هذين السؤالين التاليين:

(١٦ب) كم مرةً بالأسبوع يضاجع كلّ من شارل وبيار إمرأتيهما على التوالي؟

(١٦ج) ما الذي يجري بين هؤلاء الثلاثة؟ أعني بالقول، مَنْ يضاجع مَنْ؟

في حالة (١٦ب) يكون المدار الإيقاع الجنسي للزوجين، في حين يكون المدار في الحالة (١٦ج) العلاقات بين امرأة ورجلين، أبداً شأن ما يجري لـ [بالعكس أو بدلاً من invece]، إذ نتنبَّه إلى أن [أيضاً] الظرفية لا تحددها أمارة أو سمةٌ صالحة لدى كل سياق، إنّما ينبغي لها أن تحمل انتخاباً سياقياً معيناً يكون من شأنِه أن يسجل تجانساً في المسلكِ إزاءَ العمل الذي يحدِّده المدار نفسه.

وعلى هذا نلحظ أَمرين لدى معالجتنا الظاهرة. بادىء الأمر، فإن الالتباس الناشىء من الجملة (١٦أ) لا يتولد مباشرة من اللفظة [أيضاً]؛ والواقع أنه لن يكون أي التباس في الحالة التالية:

(١٧) شارل يأخذ كلبه في نزهة كُلَّ مساء. بيار أيضاً.

إذ لن يخطر في بال أحد أنّ الرجلين معاً يرومان إلى تنزيه الكلب نفسه. مما يعني أنه في حالة (١٦أ)، ثمة سيناريوات تناصية أيضاً (هيئات مثبتة جيداً في ما خَصَّ مثلَّثات الزنى) قد تدخُلُ في مجالِ الفعل، حين لا تكون سيناريوات مماثلةٌ قائمةٌ مما تعالجُ العلاقات بين الرجالِ والحيواناتِ الأليفة. أما الملاحظة الثانية، في هذا السياق، فهي أنه من أجل التعريف بالمدار (١٦أ) اقتضى على القارىء أن يتقدم بفرضيات حول عدد الأفرادِ المعنيين في العالم، الممكن أو «الواقعي»، الذي كان حدده النص. والحال أنه ينبغي معرفة ـ وكل الأمور مرتبطة بهذه المعرفة ـ ما إذا كان النص يتحدث عن أربعة أفرادِ مميزين أم ثلاثة.

وهذا يسوقنا إلى القول إن تعيين المدار إنّما يندرجُ في باب الاستدلال أو في ما يدعوه پيرس [abduction قياس إحتمالي] أو فرضية (انظر إيكو وسيبيوك، ١٩٨٣). ذلك أن تعيين المدار يعني التقدم

بفرضية حولَ انتظام معيَّن يعتري المسلكَ النصِّي. على أَن هذا النموذج من الانتظام هو ما يضع كذلك ـ على حد اعتقادنا ـ حدوداً لتماسك نص وشروطاً لقيامه، على حَدّ سواء. والنص التالي:

(١٨) «تلقّى نصفي واحداً لتوّه. عصا سويرانو مع بُقعٍ صوتية. أنف في شكل حَدّ السكين، ظريفة بما يكفي على طريقتها في أغنية عاطفية قصيرة. لا حلقوم. إذاً ماذا، أيها العرّاب والرفيق؟ في نفس السلّة، مهرّبُ مراهم. هذا مما تأخذه على النظام. ألن يكون جديراً بالاستماع إلى الفارق؟»

لمن الممكن أن يكون هذا الكلام غير متماسك كلياً، إن امتنعنا عن تحديد مدارٍ تعقل صياغته من مثل «تداع حُرّ من الأفكار يجري في ذهن ليوپولد بلوم». والواقع أن النص لا يعدو كونه حواراً أحادياً داخلياً اقتبسناه مِن رواية «أوليس»* لمؤلفها جايمس جويس. ولكن قبل أَنْ يثبت قرار نَصّي أَنَّ فيضاً من وعي يسعه أَنْ يرتقي، بدوره، إلى مصاف المدارة السردية، يتمُّ اعتبار هذه الفئة من النصوصِ غير متماسكة، فيصحّ وصفها بالتالي بأنها ليست ـ نصوصاً (لا ـ نصوص).

وعلى المنوال نفسه، من شأن المدار أن يضع حدوداً للنص (وتلك مسألة أخرى ما برح عدد من النظريات النصّية يتجنّبها). وفي هذا السياق نرجع إلى قِصة ألفونس آلّيه الثانية (التي أرجىء ذكرها إلى الحاشية II) وهي فرسان الهيكل. فمن الشائع التفكير أن عنوان قطعة (نص) يحدِّد لها المدار. ولو كان الأمر كذلك (وهو كذلك عادةً)، لغدت قصة «آلّيه» غير كاملة لكونها تعدنا بموضوعة من النموذج التالي: «إليكَ ما حدَثَ يوم وقعتُ على فرسان الهيكل»، ولكانَتْ خيَّبَتْ توقعنا منها. وبالعكس، إن نحن أهملنا العنوانَ وقرأنا أسطر الحكاية الأولى قراءةً متمعنة، أدركنا أن المدارَ النَّصِّي إن هو إلا «كيف يتذكر اسم هذا الرجل الطيِّب».

وحالما يتحصَّل القارىء على النتيجة، إذ يروح يستطرد من ذكرى إلى ذكرى حتى ينتهي إلى الذكرى الأكثر حيويةً، يُعدَمُ النص أيّة علة للاستمرار، فيصير مستنفداً. وفي هذا الصدد فإن حكاية فرسان الهيكل إنما

تكون **أَداتية** بالنسبة إلى القصدِ الرئيسي منها. وبالطبع، فقد وضع «أَلّيه» عنواناً خادعاً، لأنه كان يدركُ بالضبط أَنَّ القارىء سوف يستخدم العنوان، على اعتباره مؤشراً **موضوعاتياً**. وعلى ما ألفناهُ لدى أَلّيه، تجدنا، هذه المرَّة أيضاً، إزاءَ لعب ما وراء لساني حوْلَ الاصطلاحاتِ السرديَّة، حيث يسعى المؤلف إلى إعادة النظر بإحدى القواعد الراسخة.

نسبة إلى أداة، أي بمثابة الأداة للقصد الرئيسي

Thématique

والواقع، أَنَّ المسألة تكمُنُ في معرفة الطريقة التي يتبعها القارىءُ النموذجي (الذي لا يقوم، عادةً، مقامَ المتآمَرِ عليه من قبل المؤلف) حتَّى يهتدي إلى سبيله في إعادة بناء المدار. وغالباً ما تكونُ الإشارة التي يلحظها في النص علنية: إنه العنوانُ بالضبط، أو عبارة تُنبىءُ عمَّا يسعى النص إلى الاهتمام به. وأحياناً، يكون المدار، بالعكس، هو ما ينبغي تقصِّيه. وعلى هذا فإن النصّ يقومُ على تكرار سلسلة من السميمات تكراراً أكيداً، وبمعنى آخر يُنشأ هذا المدار من خلال تكرار كلمات ـ مفاتيح[٢]. إلى ذلك، يسع هذه التعابير المفاتيح أن تتخذ مواقعها (في النص) في بعض المواضع الاستراتيجية منه فحسب، بدلاً من أن توزَّع فيه بغزارة لافتة. وفي هذه الحال، ينبغي للقارىء أَنْ يشتَمّ، إذا صحَّ التعبير، أمراً استثنائياً في نموذج من **الترتيب**، وأَنْ يجرِّب فرضيته الخاصة، بناءً على هذا. وبطبيعة الحال، فقد تتبدَّى الفرضيَّة الآنفة مخطئة، كما هي الحالُ (سوف نرى ذلك) في عنوان «مأساة باريسية حقاً»، الذي يوحي بوجود مدارٍ في ظاهر الأمر، وينمِّي آخر على صعيد الوقائع. ذلكَ هو السبب الذي يجعل من الأَوْلَى أن لا يُقرأ النص المعقد قط قراءةً خطية؛ مما يجبر القارىء على الالتفاتِ إلى الوراء، وإعادة قراءة النص، مرَّات عديدةً حتَّى، ومباشرة قراءته منْ خاتمته أحياناً.

Dispositio

وفي الختام، ينبغي الإشارة إلى أَنَّ أيَّ نَصٍ قد يحوز، بالضرورة، على أكثر من مدار واحد. وفي هذا الصدد يسعنا أَنْ نطرح تراتبيات مدارات، من مدارات الجُمل إلى المدارات الخطابية وهكذا دواليك، ووصولاً إلى المدارات السردية وانتهاءً **بالمدار ـ الأكبر** الذي يضمُّ الأخيرة كلها تحتَ لوائه. ففي مطلع كتاب مانزوني «الخطّيبون» يُحكى عن بحيرة «كومو». وعليه فإنَّهُ منَ الضروري فهم ذلك حَتَّى تصح نسبة

Macro-topic

المعنى الجغرافي لكلمة [ذراع] في جملة [ذراع بحيرة كومو..]. ثم، كلَّما تقدَّم المرء في القراءة، أدرك طبيعة ما يحدث، فيتبين لَهُ أن ما يجري إنْ هو إلا لِقاء كاهن منَ الريف باثنَيْن من الشجعان. ومن ثم، يتسنّى للقارىء هذا التحقق من أن هذه المداراتِ الصغرى إنما تشكِّلُ جزءاً من موضوعة كبرى ألا وهي الصعوبَةُ في إقامة زفافٍ. وفي الختام، إذ يشاءُ المرء أن يؤوِّل الكتابَ في قِيَمه الإيديولوجية، يُرسِل فرضية عن مدار الكلام المتداوَلِ فيه، فينتهي إلى الاعتبار بدور العناية الإلهية في الشؤونِ البشرية. ذلك أنه، لدَى كل مستوى من هذه التراتبية، يسعى مدار إلى إقامة، ما يدعوه ڤاندايك، **تصوّراً تقريبياً**، أو كياناً ـ حول ـ شيء ما. وعلى هذا فإنَّ التصوّر التقريبي القائم في جملة «مِنَ البلدِ **الغاليّ** البهي» [De Bello gallico]، إنما هو حربُ الشعوب الغاليّة، لما كانت مِنْ [De] اللاتينية إشارةً موضوعاتية، بالضبط.

Aboutness

نسبة إلى بلاد الغال

على أنَّ تحديد المدار بدقَّة يتيح سلسلةً من عمليات الدمج الدلالية التي من شأنها أن تُعيِّن مستوىً معطىً منَ المعنى أو **نظيراً**. ولكن ينبغي لنا أن نفرّق ما بين المدار (Topic) والنظير (Isotopie) (وهما تصوُّران يبدو أنهما مترابطان من حيث اصطلاحهما، ترابطاً صائباً).

Isotopie

على أنه ثمة حالاتٌ يتبدَّى فيها المدار والنظير متطابقَيْن، بيد أنّ أمراً ينبغي أَنْ يستوضح: في حين يكون المدار ظاهرةً تداولية، يكونُ النظير ظاهرةً دلالية محضة. ذلك أن المدار فرضية متعلقة بمبادرة القارىء الذي يروح يصوغها بصورة أوَّلية بعضَ الشيء، في هيئة سؤال («ولكن ما هو مدار الحديث يا ترى؟») والذي يُترجَمُ باقتراح عنوان موقَّت («إنَّ الحديث يدور، بصورة محتملة، على هذا الأمر»). وعلى هذا يكون المدار أَداةً **من أدوات ما وراء النص** يسَعُ النص أَنْ يفترضها مسبقاً، كما يمكنه احتواءَها بصورة علنية تحت شكل مسجَّلاتٍ للمدار، وعناوين، وعناوين فرعية، وكلمات ـ مفاتيح. والحالُ أَنَّ القارىء إنما ينطلق مِنَ المدار حتَّى يقرِّرَ إيثارَ خصائص الأعجومات الدلالية أو تنويمها، مما يكون موضع الاهتمام، فينشىء بذلك مستوى من الانسجام التأويلي اتفق على تسميته نظيراً.

Méta-textuel

٥ـ ٣ـ النظير:

يعرِّف غريماس (١٩٧٠: ١٨٨) النظير على أنه «مجموع مسهَبُ من الفئات الدلالية التي تجعل القراءة السردية قراءةً متّسقة أمراً ممكناً». إذاً، يكونُ للنظير وظائف لرفع الالتباسِ في ما يتجاوز الجُمَلَ أو الالتباس النصّي. على أن غريماس، وفي مناسبات عديدة، مضى يوفِّر أمثلةً تخصُّ الجُمَلَ وحتّى **أركاناً** إسميةً معيَّنة. وفي سبيل أَن يشرح بأي معنى يسمح الإدماجُ القائِمُ على **أصنوف** classème (أو فئة دلالية، أو سُمَيمة سياقية مكررة) بقراءة متّسقة، أعطى هاتين الجملتين مثلاً عن ذلك: [الكلبُ يعوي] و [المفوَّض يعوي]. ولما كان لفعل «عوى» أصنوفان اثنان، «إنساني»، و «كلبيّ»، فإنَّ وجود الكلب أو المفوَّض هو ما قد يفضي إلى تكرار أحدهما، وإلى تقرير ما إذا كان فعل [عوى] سوفَ يؤخذ به بالمعنى الحقيقي أو المجازي. وما يجدر بنا إيضاحه أنّ ما دعوناه بالأصنوفاتِ ههنا، إنما هي انتخاباتُنا السياقية (أنظر. ١ـ ٢ و ٤ـ ٦ـ ٣). إذاً، يكون من شأن وجود المفوَّضِ البَشَري أن يدخل سياقاً «بشرياً»، فيسمح بأن يُتعرَّف من خلال طَيفِ [عوى] **التقطيعي** إلى الانتخاب الموافق[٣].

Syntagmes

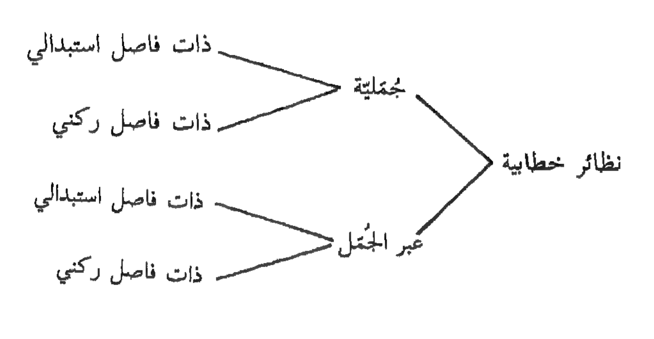
Classème

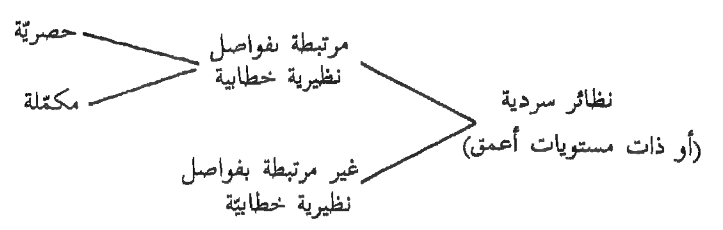
componentiel

ولكن أيسعنا القول إن نظيراً يتحقق دوماً وسطَ هذه الشروط، ووفقاً لها وحدها؟ لنقُلْ، بادىء الأمر، أنه في تلك الحالة لا يعود النظير يتميّزُ عن التناسق الدلالي العادي وعن مفهوم الإدماج؛ وبالمقابل، فإن جداول مختلفِ التعريفات بالعبارة، أكانَتْ لدى غريماس أم لدى مريديه (أنظر. كِرْبرات ـ أو ريتشيوني، ١٩٧٦) تعلمنا بأنه سبق وتُحُدِّث، مراراً، عن نظائر دلالية، وأصواتيّة، وعروضية، وأسلوبية، وتبيانية، وبلاغية، وافتراضية، وتركيبية، وسردية. وهذا مما يتيح لنا أن نفترضَ أَنَّ كلمة [نظير] تغطي مختلف الظواهر السيميائية التي يمكن أن تُحدَّد نوعياً على أنها «تماسكُ مجرى من القراءة»، لدى كافة المستوياتِ النصية.

ولكن أيتحصَّلُ التماسُك، لدى مختلف المستويات النصّية، من خلال تطبيق القواعد نفسها؟ والحق أنّ هذا التساؤل إنما يثبتُ لنا صوابَ الداعي إلى تحقيق تصوّر نسقيّ للنظائر، وإلاّ العمل، أقلّه، على جعل الكلمة أشد حفظاً لدلالتها وأطوع للتداول، بأن تعيِّن بدقّة الشروط الدنيا

لاستخدامها (النظائر). ولدى قيامنا بالتحليل الأول، يتبدّى لنا أَنَّ التعريفات الممثلة في الترسيمة (٣) أدناه، هي التي تنبثقُ، بادىء الأمر. على أَن هذا الرسم التخطيطي لا يدَّعي تمثيل تصوّر نسقي شامل للنظائر، بل إنه يشاء أن يظهر كيف يمكن هذه الفئة أن تتخذ أشكالاً مختلفة:





ترسمية ٣

لننظر الآن في بعض الأمثلة التي يسعنا من خلالها أَن نتثبت من مختلفِ الحالات هذه.

٥- ٣- ١- نظائر خطابية جُملية ذات فاصل استبدالي(٤)

كان غريماس (١٩٧٠) قد تفحّص هذا التعريف مع التسمية اللازمة به، وذلك في بحثِه حول كتابة الكلمات المتقاطعة:

(١٩) صديق البسطاء = أعشابيّ.

إذاً، يكمُنُ دهاءُ التعريف الآنف في أنَّ لِصفَة [بسطاء] انتخابَيْن سياقيين، الأول عامٌّ والثاني مخصَّص، وقد حكمت التعريفَ الصفة المنتخبَةُ «نباتي». وفي هذا لا تراهُ يتنبّه القارىء إلى أنَّ التعريف يعادِلُ

الموصوف، من الوجهة النحوية، وليس هو بالنعتِ، إلاّ بعد أن يقرِّر (تماهياً بالمدار) أن الكلمة ينبغي أَنْ تُفهم وفقَ التعريف الثاني بها. آنئذٍ، يقرِّر القارىء تأويل [صديق] على أنه هاوٍ أو شغوفٍ، وليس باعتباره رفيقَ درب. والحال أنَّ المدار إذ تدخَّل (في سياق القراءة هذه) كانَ على هيئة فرضيّة قراءة (ذلك أنّ موضوع الكلام إنّما كان الأعشاب وليس مواقف خُلُقية)، فوجَّه الانتباهَ شطرَ الانتخاب السياقيّ الملائم وفرضَ قاعدة من التماسكِ التأويلي تهمُّ كل الأعجومات موضع التداول. وعلى هذا يسعنا أن ندعو نظيراً النتاجَ الدلالي المتحصّلَ من هذا التأويل المتماسك، فنقرُّ بالنظير المُؤوّن على أنه مضمون العبارة «المداريّ» (موضوعي بالمعنى الذي يبدو فيه مؤيِّداً بالموسوعة): وبطبيعة الحال، فإنه في شأنِ هذه العبارة التي تظهر ملتبسةً، بصورة طوعية، أو إذا شئنا اعتبار الالتباس فيها ناشئاً من طبيعتِها النظيرية الثنائية، يكون لها مضمونان موضوعيان، (مفعَّلان كلاهما). وينبغي لنا القول، في هذه الحال، أن النظيرَ لا يرتبط بأيّ إسهابٍ في الفئاتِ الدلالية، باعتبار أَنَّ كلمتَيْ [صديق] و [بسطاء] لا تبدوان أَنَّ لهما سميمات مشتركة. والحق يقال، إن الجملة النظيرية الثنائية كانت اكتُسبت من خلالِ التعريف، زائداً الحَلَّ المقترح لها. والواقع أنه حالما ينشىء القارىء المدارَ (إنّما مدار الكلام هو الأعشاب) تتحصَّل لديه الجملة [العشَّابُ يحبُّ البسطاء]، حيث تفرض الكلمة «العشّاب» السميمة «النباتية»، ويسمح بتأوين الانتخاب السياقي المناسب في الطيف التقطيعي الذي تتشكل منه الصفة [بسطاء]. ذلك هو السبب الذي يجعل هذه النظائر معتبرة على أنها «جُمَليّة»، حتّى وإن بدَتْ للوهلة الأولى، لا تهمُّ إلاّ الأوصاف المحدَّدة.

وعلى أي حال، فإن النظائر الموصوفة هي ذات فاصل استبدالي: فهي تتعلَّق بواقع أن الموسوعة تنطوي على تعابير معجمية، لكل منها مدلول متعدِّد. ومن الجليّ أن الفاصل الاستبدالي إنّما يرتبطُ بضغط مُنَاصّيّ يتحقق بصورة تراكنية، ولكن ذلك لا يحولُ دون العزم على تعيين المسار الذي ينبغي لطَيْفٍ تقطيعي أو أطيافٍ كثيرة أن تتخذه.

Co-textuelle

إلى ذلك، فهذه النظائر هي حصرية من وجهة **الدلالة الأصيلة**: إذ

Dénotativement

يكون مدار الكلام إما بسطاء الروح، أو الأعشاب.

وفي هذا الصدد يتدخَّلُ المدار على أنّه فرضية تعاضدية من شأنها أن تعين على تحديد الانتخابات السياقية.

٥ـ ٣ـ ٢ـ النظائر الخطابية الجُمَليّة ذات الفاصل الركنيّ

لقد عوّدتنا القواعِدُ التحويلية على الجُمَل الملتبسة، من مثل:

(٢٠) They are flying planes (إنها طائرات في طيرانها/ أو إنهم يطيِّرونَ طائرات)،

والتي تتميَّز ببنية عميقة مختلفة. ولمنَ الأكيد أنه في سبيل رفع الالتباسِ الحاصل في هذه الجملة تؤدي الفواصِلُ الاستبدالية دوراً فاعلاً (إذ ينبغي على سبيل المثال الإقرار في ما إذا كان الفِعل معتبراً على أنه متعدٍّ، أو لازم)، بيد أن القرار الأساسي (المتعلِّق دوماً بخَيار المدار المتقدّم) يبقى في معرفة ما إذا كانَ المتحدث يأتي على ذكر أشخاص بشريين يؤدون عملاً ما مع الطائراتِ أو أن الحديث يدور على طائرات تقومُ بفعلٍ ما. وفي هذا المستوى، ينبغي أن يضع المرء موضعَ الفعل **إرجاعاً مشتركاً**، فيتبيَّن لَهُ إلى أي شيء أو شخص يعود الضمير [They]. وقد يسعنا القول، أَن القرار الإرجاعي المشترك (الركنيّ) إنّما يحسمُ في أمر الخيار الاستبدالي الذي يخصُّ معنى الفعل.

إلى ذلك فإن النظائر الآنفة هي حصريَّة من وجهة الدلالة الأصلية: إذ يكون بحسبها، مدارَ الكلام إما فعل بشري، أو أشياء آلية.

ههنا، يتدخَّل المدار باعتباره فرضية تعاضدية من أجل أن تُؤوِّن الإرجاعات المشتركة والانتخابات السياقية، سواءً بسواء.

٥ـ ٣ـ ٣ـ نظائر خطابية عابرة الجُمل ذات فاصل استبدالي

ohrastiques

فلنحلِّل هذه النادرة ـ المذكورة لدى غريماس (١٩٦٦) ـ التي تمثِّل شخصَين يتناقشان إبّان أحد الأعياد. وقد راحَ الأوَّل يعلي من شأنِ الطعام (المقدَّم في الاحتفال بالعيد)، ومن الخدمة، والضيافة، وجمال النساءِ، وفي الختام يروح يثني على رَوْعة الحمامات. أما الثاني فيجيبه بأنه لم يَطأها بعد. والحالُ أَن المتكلم الثاني، من حيث كونه مُتأوِّلَ الرسالة التي

بثّها الأوّل، بدا مخطئاً لأنه مضى يراكبُ سيناريوين اثنَيْن. ذلك أن السيناريو «عيد» ينطوي دون أدنى شك على مراحيض مخصوصة بالزوّار، إلا أنّه لا يسعه في أي حال أَنْ يضيفَ حالة الغرف الصحّية (إلى وصفِهِ مظاهر العيد كلها)، وإلاّ توجَّب عليه أن يتحدَّث عن أدواتِ الرصاصِ، والتجهيز الكهربائي، وصلابة الجدران، وجهوزية الأمكنة نفسها. إذاً، يمكن أن ينظر إلى هذه العناصر من خلال سيناريو من مثل «هندسة الداخل والأثاث». والواقع أن العيد يُحيل إلى سيناريو من النموذج الاجتماعي، في حين أن الأثاث يحيل إلى سيناريو من النموذج الثقافيّ. فأن يحدِّد المرء المدارَ، معناهُ ههنا أن يعيِّن الحقل الدلالي بغية جعل الانتخابات السياقية تعمل عملَها. ومما لا شكّ فيه أن كلمة [حمامات] إنما هي متعدّدة الدلالاتِ، إذ تكتسبُ معنيين وفقَ الفاصِلِ بين «الطراز» (الذي يحيل بدوره إلى سميمة «المجتمعية») وانتخاب «الهندسة». وفي هذه الحالة، يسعنا بالتأكيد أن نتكلم على وجود أصنوف أو فئة دلالية سائدة، طالما أن نَصَّ المتحدّث الأول جعل يفيضُ بالكلمات ـ المفاتيح، التي تتضمَّن جميعها إحالاتٍ إلى العيد وإلى مجتمعية المناسبة. لم يكن ثمة من التباسات ممكنة، والنادرة أضحكت سامعيها لأنها تمثل بالفعل حالة من التعاضد النصّي البائس.

على هذا، فإن النظائر الآنفة إنَّما تكون ذات فاصل استبدالي لأنها، حتّى ولو قامَتْ على قاعدة ضغط مناصّي (ركنيّ)، فإنَّها تتعلّق بانتخاباتٍ سياقية في وحداتٍ معجمية ذاتِ مدلولٍ متعدد.

إلى ذلك فالنظائر الموصوفة هي حصريَّة من وجهة الدلالة الأُصلية: إذ يمكن للمرء أن يتحدَّث عن الثياب، وعن الحجيرات، سواءً بسواء.

ههنا يتدخَّل المدار باعتباره فرضية تعاضدية تعينُ على تحديد الانتخاباتِ السياقية، بغية اقتراح سيناريوات.

٥ـ ٣ـ ٤ـ نظائر خطابية عابرة الجُمَل ذات فاصل ركنيّ

إنها حالة العبارة المذكورة في (١٦أ). وكما تبيّن لنا، فإنَّ الأمر يقضي بقراءة هذا النص الصغير، باعتباره حكاية ثنائي أو باعتباره حكاية علاقة ثلاثية (أو مثلَّث). وههنا، يتحصَّل لدينا كذلك نظير خطابيّ مع

علامات تناوبيّة: بمفردات صدقيّة، فإنَّ الأمر يتعلّقُ بما إذا كانَ المرء يتحدَّث عن أربعة أفراد أم ثلاثة. وفي سبيل أن يتم ذلك، ينبغي تقرير الكيفية التي سوف يحدث بها التأويل [كذلك]؛ ولكن، ولما كانَ الأمر يقتضي إجراء احالة مشتركة، فقد استلزم أَن يكون الاختيار متعلقاً ببنية الجملة التركيبية، وبالتالي فإنَّ الحصولَ على نتيجة أو نتائج دلالية إنَّما يكونُ من خلال اتخاذ قرار تركيبي ليس إلاَّ. وكما تبين لنا سابقاً، فإن القرار الذي نتخذه في ما يكون مجالَ الكلام ثنائيّ أو ثلاثيّ إنما نتحصَّل عليه باختيارنا المدار: ففي الحالة الأولى، تكون بنية النص المنطقية: أ:ب = ج:د، في حين تصيرُ في الحالة الثانية أ:ب = ب:ج. إن في ذلك مسألة اتّساق تأويلي؛ فإذا كان ثمة أربعة أفراد موضع تداول، وكنّا قارنّا في الجملة الأولى ما بين أ وب، فإن [أيضاً] تفرضُ أن نعمد، وبالطريقة نفسها، في الجملة الثانية إلى المقارنة ما بين ج ود؛ وبالعكس فإذا كان ثمة ثلاثة أفراد موضع تداول، وكنّا عمدنا في الجملة الأولى إلى المقارنة ما بين أ وب، فإنّ [أيضاً] تفرضُ أَنْ يُقارنَ، في الجملة الثانية، ما بين ب وج. ولكن لا يعود بمقدورنا أن نتبيَّن كيف أَنّ القرارَيْن التأويليَّيْن يصيران متعلّقَيْن بإسهاب الفئاتِ الدلالية. ههُنا، تقعُ الصلَةُ ما بين المدار والقرارات الإحالية المشتركة، دونَ الحاجة إلى توسيط الانتخاباتِ السياقية. وعلى الأكثر، فإن افتراضاتٍ من السيناريو تدخلُ في الاعتبار والتداول فحسب.

إذاً، للنظيرَيْن فاصل ركني.

وهما حصريَّان بصورة متبادلة (إذ يكون مدار الكلام إمَّا العلاقة على النمط كينساي، أو علاقة زنى)، إلا أنهما لا يكونان متناوبَيْن تماماً فيما خصَّ تأشيرهما: لئن كانَ بعضُ الأفراد في التداول، فإنهم يظلّون أنفسهم في كل الحالات، إنما تُنسَبُ إليهم أعمال مختلفة ومقاصد متعددة. وكما سوفَ نلحظ ذلك في الفصل ٨، إذ ترتسم عوالم ممكنة مختلفة.

والحالُ أَنَّ المدار يتدخَّل، ههنا، باعتباره فرضية تعاضدية في سبيل أَنْ تنشأ الإحالات المشتركة، وإذ يتم لَهُ الأمر، يمضي إلى توجيه بَنْيَنة عوالم سردية مختلفة.

Structuration

٥- ٣- ٥- نظائر سردية مرتبطة بفاصلاتٍ نظيريّة سرديّة من شأنها أنْ تولِدَ حكايات حصريّة بصورة متبادلة

فلنتفحّص النَصّ التالي. إنه الترجمة الفرنسية لمقطع من مكياڤيلي، وبالتالي فإنه لممّا لا طائل فيه أن يعرف المرء ما إذا كان الالتباس نفسه يظهر في النص الإيطالي الأصلي شأنَه في النص الفرنسي سواء بسواء(٥)؛ وعلى هذا قد يُتَفحص النص الفرنسي كأنّما كان نصاً أصلياً مجهولَ المصدر:

(٢١) «لبث دوميثيان يراقب أعمار أعضاء مجلس الشيوخ، وكُلّ مَنْ رآه في مكانَة تخوّله خلافته كان يعمد إلى إهلاكه، حتى أنه عزم على إهلاك نيرڤا، الذي كان يفترض أن يخلفه. لكن شخصاً ماهراً في التخطيط من أصدقائه نهاهُ عن ذلك، نظراً لأنه هو نفسه [وهذا ما نلحظه نحن] كان بَلَغ من الكِبر بحيث باتَ على قاب قوسين من الموت؛ وهكذا أمكن نيرڤا أن يخلفه».

يطالعنا، ههنا، وقبل أية ملحوظة أخرى الخيارُ ما بين نظيرَيْن خطابيَّين عابرَيْ الجُمَل مما لهما فاصِل ركني: فالضمير المكرَّر [هو نفسه] يمكن أن ينسب إلى دوميثيان بنفس احتمال نسبته إلى نيرڤا. فإذا ما نُسب إلى دوميثيان، بدا الموت الذي يُحكى عنه على أنه وشيك ويلي [موته]، موتَ دوميثيان، وإلاّ كان موت نيرڤا. إذاً ينبغيّ الحسم في مسألة الإحالة المشتركة على قاعدة من المدار: أيكون مدار الكلام عمر دوميثيان أم عمر نيرڤا؟ وحالما يُحسم أمر الإحالة المشتركة، تُتوفّر توالية خطابية تناوبيّة بصورة علامية، في صلتها بالتوالية الأُخرى. والواقع أنه في الحالة الأولى يروح المستشار يحثّ دوميثيان على عدم قتله نيرڤا لأنَّه ـ أي دوميثيان ـ سوف يموت في مدى قريب وأنه من العبث إهلاك خلفائه الممكنين؛ أما في الحالة الأخرى، فترى المستشار ساعياً إلى إقناع دوميثيان بأن نيرڤا مائت في أمد منظور، على الأرجح، وأنه لن يشكل، بالتالي، أيّ خطر بالنسبة لدوميثيان.

ولكن يتضح مما تقدم أنه يمكن اختصار حكايتين، على قاعدة من نظيرَيْن خطابيَّيْن اثنين. ولسوف نتحدث، في الجزء التالي، بإفاضة

Macro-propositions

أكبر عن **قضايا - كبرى**[٦] في الحكاية؛ وللحال، يبدو لنا كافياً أنْ يعيَ المرء أن النظيرَيْن الخطابيَّين إنَّما يولدان اختصارَيْن سرديَّيْن ممكنَيْن. ففي الحالة الأولى ثمة حكاية صديق دوميثيان، الذي يدافعُ إزاءَهُ عن تحليل حول السلطة: «إذ تموتُ توشِكُ أن تفقد السلطة، ولكنك إذ تعفو عن نيرڤا فإنك حينَ تعيِّنه ضمناً خليفةً لكَ، تحتفظ برقابتك على السلطة، حتى بعد موتك، وتتولد منكَ السلطة الجديدة». وفي الحالة الثانية تكون ثمة حكاية صديقٍ لنيرڤا الذي يجعل من دوميثيان ضحية مكيدة كان أعدَّها له مخادع - «أيا دوميثيان، لِمَ تريد أن تقتل نيرڤا؟ فلقد بلغ به الكبر عتياً، وها أنه مائتٌ وحدَهُ!» وعلى هذا النحو يتسنَّى للمخادع أن يضع نيرڤا على عرش المُلك.

Actualisation

هكذا ترتسمُ ملامح حكايتَيْن حصريَّتَيْن على التوالي، واللتَيْن يُعزى تعيينهما الدقيق إلى **التفعيل** الخطابي. وليس هذا كلَّ شيء بعد. إذ أنه لدى مستوى أعمق (انظر الترسيمة رقم ٢، ص ٩٣) تروح ترتسمُ بُنًى فاعلية وبُنًى إيديولوجية مختلفة.

وعلى هذا فقد يُرى إلى المستشار على أنَّهُ معارض لدوميثيان وأحدُ مساعدي نيرڤا، أو يُرى إليه على أنه مساعِدٌ للسلطة ومعارض لدوميثيان من حيث كونه فرداً مائتاً، أو قد يُعتبر مساعداً لدوميثيان ومحايداً بالنسبة لنيرڤا. يمكن الجزم، ههنا، أننا نقومُ بإعداد تعريف بما يكونه تعارضٌ إيديولوجيٌ قطباهُ السلطة/الموت (حيث تغلبُ السلطةُ الموتَ)، أو بما يكونه تعارض فيما بين السلطة/المكر (حيث دسائسُ رجل البلاط تتغلَّبُ على عنف السلطة). إلى ذلك يُسَوِّغ لنا أن نتساءل، عما إذا كان خيار الإرجاعات المشتركة هو الذي يولِّد مختلف البنى العميقة، أم أن فرضية أوَّلية حول البُنَى العميقة هي ما تفضي إلى ذلك إذ توحي بمدار مخصوص، فتسوق تفعيل الإرجاعات المشتركة على المستوى الخطابي. والحال أننا قلنا ذلك (١٠٤) ولسوف نكرره (الفصل ٩): إن التعاضد التأويلي مصوغٌ من قفزات ودورات قصيرة لدى المستويات النصية المختلفة، حيث يغدو مستحيلاً إقامة تواليات منتظمة انتظاماً منطقياً.

وعلى أي حال، فقد وجدنا أن النظائر السردية الماثلة لدينا مرتبطة

بالنظائر الخطابية (أو العكس بالعكس).

إذاً يتبدّى لنا النظيران حصريَّيْن، الواحد إزاء الآخر، إلا أنهما ليسا متناوبَيْن تناوباً كلياً، الواحد بعد الآخر، فيما خصَّ دلالتهما الأصلية: ففي الحالين يكون مدار الكلام دوميثيان ونيرڤا، إلا أنه تُنسبُ إليهما أعمال مختلفة ومقاصِد مختلفة. وكما سوف نعاين ذلك في الفصل ٨، فإن الأفراد يظلون أنفسهم إلا أن بعضاً من خصائصهم يعتريها التبدّل. إذاً ترتسم عوالم ممكنة مختلفة من جَرَّاءِ التأويل الآنف.

وعليه فإن المدار يتدخَّل في سبيل أَنْ يوجه بَنْيَنَة هذه العوالم السردية.

٥- ٣- ٦- نظائر سردية مرتبطة بفاصلات نظيرية سردية يسعها أَنْ تولّد حكاياتٍ مكمّلة

تلكَ هي حالة الفرضية القروسطية حولَ معاني الكتابة الأربعة، التي كان أطلقها دانتيه: ولما كان النّص على هذه الهيئة:

(٢٢) ـ لدى خروج إسرائيل من بلاد مصر

–Inexitu Israrl de Aegypto

ـ إقامة يعقوب بين الشعوب البربرية

–domus Jacob de populo barbaro

ـ تقديم الشعب اليهودي أضحيته (إلى الله)

–facta est Judea sanetification ejus

. إسرائيل تحوزُ سلطتها

–Israel potestas ejus

ولما كنا ندركُ أنه في حال «لم نعتبر إلاّ بمعنى هذه الأقوال الحرفية، فقد نستدلّ على أن المعنيّ بالكلام إنما هو خروج أبناء إسرائيل من مصر في زمنِ موسى؛ أما إذا نظرنا إلى الجملة الأولى على أنها مجازٌ تمثيلي، وجدنا أنَّ المقصودَ بها إن هو إلاَّ خلاصنا بالمسيح؛ وفي حال شئنا استخلاص المعنى الخلقيّ منها، تحصَّلت لدينا دلالة هداية النفس،

إذ تجوزُ من ترح الخطيئة وبؤسها إلى حالة النعمة؛ وفي آخر المطاف، إن نحن تفحَّصْنا معنى الجملة الروحانيّ، تبيّن لنا أنها تعني خروج النفسِ المقدَّسة عن عبودية هذا الفساد، إلى حرية المجد الأبدي».

والآن، فلنتفحّص المعنيين الحرفي والخلقي دون غيرهما، بغاية تبسيط الأمور. فلا يسعنا سوى «التأكيد مرة أخرى أن كُلَّ شيء (في هذين المعنيين) مرتَهَنٌ بفرضية المدار: أيكون مدار الكلام إسرائيل أم النفس البشرية؟ وحالما يُحسم أمر الخيار، يتبدَّل التفعيل الخطابيّ: في الحالة الأولى، ينظر إلى [إسرائيل] على أنها اسم علم لشعب، و [مصر] باعتبارها اسماً علماً لبلد إفريقي؛ أما في الحالة الثانية فتكون كلمة إسرائيل دالةً على النفس البشرية، في حين تصير كلمة مصر، عبر الاتّساق التأويلي، تمثيلاً للخطيئة (إذ لا يسع المؤول خلط مستوياتِ القراءة).

مع ذلك، لا يسعنا ههنا أنّ نختار معاني تناوبيّة لطَيْفٍ تقطيعي، ذلك أنه ينبغي لنا التبصُّر أنَّه في موسوعة ثريَّة بما فيه الكفاية، على ما كانَتْ الموسوعة القروسطية، كانت كلمة إسرائيل، كانَتْ تعني الشعب المختارَ ولبثَتْ تتضمَّن دلالة الروح. بيد أن هذا ليس من شأن كلمة [الحمَّامات] التي قد يكون لها معنى ج أو د. ذلك أن العبارة الآنفة إذ تنطوي على المعنى «ج»، فأنَّها تدلُّ على المعنى «د» بالضبط. وعليه فإنَّ العلاقة الموصوفة هي علاقة **اقتضاء** وليستْ علاقة تفاضُل. إذاً، يقوم ثمة فاصل **نظيري** لا يكون مؤسَّساً، رغم ذلك، على فاصل دلالي، إنّما على اقتضاء دلاليّ.

implication

isotopique

النظيري: مشتقة من النظير.

وإذ نحسُم أمر مجرى القراءة لدى المستوى الخطابيّ، يصيرُ في وسعنا أن ندخِلَ حكايات مختلفة انطلاقاً من بُنَى خطابيّة مُفعَّلة؛ فتغدو الحكاية الخلقيَّةُ متعلِّقة بالتفعيل الخطابي الأخلاقي، مثلما أن الحكاية الأدبية قد تكون رهناً بالتفعيل الخطابي الأدبيّ. غير أن الحكايتين (ونحن ندرك أنّ ثمة أربعاً في الحقيقة) ليستا حصريتين بصورة متبادلة؛ بل إنهما، على العكس، متكاملتان، من حيث أنَّ النَصَّ يتحمَّل أن يُقرأ تناوباً، بطريقة أو بطرق مختلفة، وكُلٌّ تأتي لتدعم الأخرى، بدلاً من أنْ تلغيها.

إنّهما إذاً، نظيران سرديّان مرتبطان بنظائر خطابية، بيد أنَّهما ليستا

حصريَّين، بصورة متبادلة.

إنَّما هما، بالعكس، متناوبان علامياً: إذ يكون مدار الكلام إما الشعب المختار، أو النفس البشرية. وبمقتضى هذا الخيار ترتسم مختلفُ العوالم الممكنة.

وفي هذا السياق يتدخَّل المدار (أكان خطابياً أم سردياً) من أجل المفاضلة ما بين انتخاب السميمات ذات الدلالة الأصلية وبين السميمات ذات الدلالة التبعيَّة، وفي سبيل ترشيد بَنْيَنة العوالم الممكنة.

٥ـ ٣ـ ٧ـ نظائر سردية غير مرتبطة بفاصلاتٍ نظيرية يكون بمقدورها أنْ تولد في كل الحالات حكاياتٍ مكمّلة:

وفي هذا الصدد يحدثنا غريماس (١٩٧٠)، في تحليله **ميثة** البورورو لشعب الأرا، عن نموذج آخر من النظير السردي. Mythe

والحالُ أن الميثَةَ إنَّما تتضمَّن سردَيْن؛ الأول الذي يتعلَّق بالبحثِ عنِ الماءِ، في حين أنَّ الآخر يتعلق بالمسائل الناجمة عن النظام الغذائي. إذاً، يتحصَّل لدينا: نظير «طبيعي»/ في مقابلة نظير «غذائي». وعلى هذا تطرح مسألة اتِّساق تأويلي شبيه بما يكون لنا أن نجد لَهُ حَلاً في حكاية «فرسان الهيكل». إلا أننا نلحظ، في الحالَيْن، أنه وأيةَ كانت الحكاية (أو، ما سوف ندعوه في الفصل التالي، بالـ Fabula) التي نعمَدُ إلى تفعيلها، «فإننا لن نجد فيها تبديلاً في المستوى الخطابي». ذلك أن المسارد لا تني تتكلم على هذه الشخصيات وعلى الأحداث الآنفة. ولئن كنَّا قد نلجأ، وبحسب النظير السردي، إلى اختيار بعض الأفعال وبعض الفاعلين، على الأكثر، الذين نعتبرهم أجودَ عملاً من غيرهم، فإن الأفعال هذه والفاعلين الذين قد يحققونها يظلُّون أنفسهم، حتى ولو تبدَّلت القيمة التي ننسبها إليهم في سياق التناسق السردي. لذا اقتضى أن تُطرح فرضيةٌ ذات موضوعة سردية، ويستند عبرَها إلى كلماتٍ أو جُمَلٍ ـ مفاتيح دونَ صياغة فاصلات استبدالية فيما خص معنى الأعجومات أو دون صياغة الفاصلات الركنية فيما خَصَّ معنى الإرجاعات المشتركة.

إنَّ ديمومةَ اتِّساق خطابيّ وحيد من شأنها أنْ تفضي إلى اعتبار نظيرَيْن

سرديَّين غير نافيَيْن الواحِد منهما الآخر بصورة متبادلة، مثلما قد تؤول إلى نفي اعتبارهما في علاقة استبعاد أو تناوب، إنما في علاقة تكاملية. وحتى لو اختار غريماس، النظير الغذائي، باعتباره خيرَ النظائر، فإن ذلك لا يعني أن الحكاية لن تُحمل على القراءة، إلى ذلك، من خلال النظير الطبيعي. بل العكس، فإن النظيرَيْن يوطد الواحدُ منهما الآخر.

وفي حالة النادرة عن [الحمامات]، كان لنا في مقابلة تأويلنا قراءتان، تبدَّت لنا إحداهما خاسرةً خسراناً واضحاً، فلو كانَ المتحدِّث الأوَّل شاءَ حقاً أن يتحدَّث عن الحجيرات، لبَانَ تدخّلُه بائساً من الوجهة **التحادثية**، ذلك أنَّه يكون ينتهكُ مبدأ العلاقة. وهذا ما لا يسعنا الأخذ به فيما خَصَّ ميثة شعوب الأرا.

Conversationellement

لذا نملك ههنا نظائر سردية غير مرتبطة بفاصلات خطابية. والنظائر السردية، على ما نعتقد، وإن كانت من اثنين أو أكثر، فإنها ليسَتْ حصرية بصورة متبادلة. وهذه النظائر ليسَتْ، إلى ذلك، تناوبيَّة كلياً فيما خَصَّ دلالتها الأصلية، وقد يُنسب، على الأكثر، إلى الأفراد أنفسهم خصائص مختلفة س ـ ضرورية (والتي سوف نتحدث عنها في الفصل ٨ـ ١١). لذا فإنَّ عوالمَ سردية مختلفةً ممكنة ترتسِم.

والحالُ أَنَّ المدار لا يتدخَّل إلاَّ في سبيل أن يوجِّه تقويمَ الخصائص المجوَّدة سردياً، وبالتالي فإنه يرشِدُ بَنْيَنة هذه العوالِم.

٥ـ ٣ـ ٨ـ خلاصات مؤقتة:

كلّ ما قلناهُ إنَّما يتيحُ لنا التأكيدَ أَنَّ [النظير] هو كلمة تغطّي ظواهر مختلفة. في حين يكشف لنا أنه تحتَ هذا الاختلاف تتوارى وحدة ما. والواقع أن كلمة [نظير] تحيل دوماً إلى تكرار مجرى من المعنى، لا يني النص يُظهره إذْ يُخضَعُ لقواعِد من الاتساق التأويلي، وحتّى ولو تبدَّلت قواعِدُ الاتساق، وفق ما نشاء تعيين نظائر خطابية أو سردية، وبحسب ما نسعى إلى رفع الالتباسِ عن الأوصاف المحدودة أو عن الجُمَل، أم وضع الإرجاعات المشتركة موضع الفعل، وتقرير ما يفعله أفرادُ معيَّنون أو طرح العديد من الحكاياتِ المختلفة التي يمكن أن تتولَّد عن الفعل عينه الذي يقوم به الأفراد أنفسهم.

على أن ما ينبغي أن يكون واضحاً، على أي حال، هو أَنَّ تعيينَ المدار إن هو إلاَّ حركة تعاضدية (تداوليَّة) يكون من شأنها أَنْ تسوق القارىء إلى تعيين النظائر باعتبارها خصائص النص الدلالية.

هوامش

(١) «أعجومة» Lexème هي [...] تنظيم سيميٌ مضمر، إلا أنّه، وباستثناءاتٍ نادرة [...] لا يتحقَّق في الخطاب المعلن، كما هُوَ، على الإطلاق. وعليه فإن كُلّ خطاب، من اللحظة التي يطرح فيها نظيرَهُ الدلاليَّ الخاصَّ، لا يعدو كونَهُ استثماراً جزئياً للغاية للإمكانيات الهامّة التي يمنحها إياه (الخطاب) المكنز المعجميّ؛ فإذا حدث أن مضى الخطاب مكمّلاً مسيرَهُ، فإنه ينثر على امتدادِهِ صوراً من العالم كانَ أهملها على الطريق، غير أن هذه الصور تتابع حياتَها فتعيش وجودَها المضمر، متحيّنة الفرصة للانبعاث ثانيةً لدى أدنى جهد يُبذل للاستذكار» (غريماس، ١٩٧٣؛ ١٧٠). وحتّى يدرك المرء تمامَ الإدراك هذا المقطع، لا بُدَّ من التذكّر أن غريماس، إذ جعل يتحدَّث عن الأعجومة، لم يكُنْ ليعني بها التعبيرَ الفعلي، إنّما المضمون الدلالي، بل كُلّ الطيف السميمي (مع الاحتفاظ بكلمة [السميمة] ذات مجاري من المعاني المخصوصة، أو ذات فاصلات من التمثيل السميميّ).

Thesaurus

semème

* الترجمة الفرنسية: عن دار غاليمار، الطبعة الأولى ١٩٤٨، ص ٧٤.

(٢) في سبيل محاولة إسناد المدارات أنظر ڤاندايك، ١٩٧٦ب: ٥٠، الذي يتكلم على استراتيجيات احتمالية وإسنادات مؤقتة. ويكون المدار مُبرزاً أحياناً من خلال جملة من مثل [النقطة الأهم في هذه المسألة تمكن في...]؛ ويدعو ڤاندايك هذه العبارات وغيرها، مؤشراتٍ على المدار (ومن بينها، على الأغلب، العناوين). وفيما تخصّ مداراتِ النوع، انظر كولوٌ ١٩٧٥:٧. وحولَ الكلمات ـ المفاتيح، أنظر ڤاندايك، ١٩٧٥ وغريماس، ١٩٧٣: ١٧٠، إلى تصوّر «المسار المجازي» (انظر كذلك، فريق أنتروڤرن، ١٩٧٧:٢٤).

(٣) أنظر غريماس، ١٩٦٦: ٥٢ـ ٥٣.

(٤) التمييز بين النظائر ذات الفاصِلِ الاستبدالي وبين النظائر ذاتِ الفاصل الركني إنّما يتوافق مع التمييز بين النظائر العمودية والنظائر الأفقية، الذي يقترحه راستييه ويعالجه كربرات ـ أوريتشيوني، ١٩٧٥: ٢٤ـ ٢٥.

(٥) وكان اقترح النَصَّ ألان كوهين أثناءَ مؤتمر حولَ كيفيّات التصديق الذي انعقَد في أوربينو في «المركز الدُوَلي للسيمياء» في تموز من العام ١٩٧٨. والحال أن تحليل كوهين كانَ يرمي إلى أهداف أخرى مغايرة عن أهدافنا، إذ تخصّ به الخطاب حولَ السلطة، هذا الخطاب الذي قد نشير إليه في موضع من الكتاب أبعد.

٦ ـ البُنَى السرديّة

٦ـ ١ـ من «الفاعل»* إلى الحكاية:

* أو المسند إليه: Sujet

بعد أن يكون القارىء قد فعَّل المستوى الخطابي، يصيرُ بمقدورهِ أنْ يعاودَ تأليف أقسام من الخطاب برمَّتها عبر سلسلة من **القضايا ـ الكبرى** (انظر ڤاندايك عام ١٩٧٥) وبعد أن يكون قارىء «**الخطِّيبون**» قد فعَّل المستويات الخطابية في صفحاتِ الرواية الأولى، يصير قادرا على صياغة تلخيصات من مثل هذا النوع: «في بلدة صغيرة قائمة على ضفة بحيرة كومو، من جهة ليكو، ذات مساء، وكانت الشمس غاربةً، وإذ مضى الكاهنُ يتنزّه التقى في طريقه بشخصَيْن مشبوهَيْن تعرف إليهما للتو على أنهما مشاكسان، وبدا أنهما يترصدانه». وقد بيَّنا كيف أن القارىء كان انساق إلى التساؤل التالي: ما الذي قد يحدث للكاهِن، وما الذي قد يقولُه المشاكسان لهُ؟

Macropropositions

Fiancés، وهو عنوان رواية

وفي سبيل أن ندرك آلية هذا المسار التجريدي وديناميةِ هذه التساؤلاتِ إدراكاً أفضل، ينبغي استعادة التعارض القديم الذي كان الشكلانيون الروس قد اقترحوهُ بين الحكاية و «**الفاعل**»[1]. فالحكاية، من هذه الوجهة، هي **ترسيمة الرواية** الأساسية، ومنطقُ الأفعال ونحوُ الشخصيات، وهي كذلك مجرى الأحداثِ المنتظم زمنياً. ويمكن للحكاية ألا تكون تواليةً من الأفعال البشرية أيضاً، فتدلُّ على سلسلة من الأحداث التي تتعلّق بأشياء غير ذات حياة أو بأفكار. بالمقابل، فإنَّ «الفاعل» يكون الحدَث كما رُويَ تماماً، وكما بانَ على السطح، مع

بمعنى الإخبار، وليست إطار القصّ الروائي

تفاوتاته الزمنية، وقفزاته إلى الأمام وإلى الوراء (وهما تقنيتا الإستباق والفلاش ـ باك)، وأوصافه، واستطراداته، ومواضيع تفكيره المشمولة (بين قوسين).

ففي نص سردي، يتماهى «الفاعل» بالبُنى الخطابية. إلى ذلك يمكن أن يُدرك الفاعل على أنه الاستخلاص الأول الذي يحاول القارىء القيام به على قاعدة البنى الخطابية، وسلسلة القضايا ـ الكبرى تكون أقدر تحليلاً، والتي تلقي ظلالاً من الالتباس على التتابعات الزمنية المحددة، والرباطات المنطقية العميقة في النص المذكور. إلّا أن هذه الأمور الدقيقة قد يُستغنى عنها. فما يهمنا، نحن، على مستوى المراتب التعاضدية، هو أن نتوصل إلى صياغة قضايا ـ كبرى حكائية، عبر سلسلة من الحركات التأليفية، بعد أن نكون فعّلنا البُنى الخطابية(٢).

٦ـ ٢ ـ تقلص مستويات الحكاية وتمدّدها:

إن نظريات نصية مختلفة تؤيد النظرة القائلة بأنّ القضايا الحكائية الكبرى لا تشكل إلّا تأليفاً واحداً للقضايا ـ الصغرى المعبر عنها على مستوى البنى الخطابية. وعليه، ولئن كان هذا صحيحاً في أغلب الحالات (ثمة إيحاء بأن حكاية أوديب الملك إنما تُختزل في «إبحثوا عن المذنب»)، فإن ثمة الكثير من المواقف حيث القضايا ـ الكبرى الحكائية تعمد إلى توسيع القضايا ـ الصغرى السردية. وعلى هذا النحو، يجدر التساؤل عما تكون القضية الكبرى التي تؤلف البيتين الأولين في الملهاة الالهية*؟ وبحسب نظرية المعاني الأربعة، تتوفر لدينا أقلّه أربعة نظائر حكائية، لا يسع كلا منها التعبير عن نفسه إلّا من خلال سلسلة من القضايا الكبرى (أو التعبيرات) التي تروح تُمثل لدى مستوى تجلّ خطّيّ جديد، على أنها أوسع من التجلّي الخطّي المؤول. ومن نافل الكلام أن قضية كبرى مثل «في الخامسة والثلاثين من عمره، ألفى دانته اليجييري نفسه غارقاً في حالة الخطيئة»، ليست قابلة للتأوّن إلّا على المستوى الأخلاقي. في حين أن المستوى الحرفي الذي تكون عليه الجملة، يقتضي تفسيراً مؤداه أن ثمة فرداً، في منتصف سعيه

Actualisable

في الحياة البشرية، يجد نفسَهُ في غابة مظلمة. أما البنية الحكائية في الجملة المأثورة [الله غير المرئيّ خلق العالم المرئي] فإنها تُترجَمُ بالجمل التالية: «ثمة اللهُ. اللهُ هو غير مرئي. اللهُ خلقَ (في صيغة الماضي) العالم. العالم هو مرئيٌّ». وقد يكفي أَن يتناول المرء جملة التعجّب التي تفوّه لها هوراس العجوز [فَلْيَمُتْ!] حَتَّى يدركَ أَيَّ تمدُّد تتطلبه الترجمة في عباراتِ حكائية عن هذا الفعل اللساني البسيط.

وعلى هذا نقول إنَّ شكل الحكاية يرتبطُ بمبادرة تعاضدية حرّة: وبمعنى آخر، تُبنَى الحكاية على مستوى التجريد الذي نعتبره الأكثر إفادةً، من الوجهة التأويلية. فإيڤانويه، إما أن يكون تمثيلاً للحدث الذي جرى لسدريك، وروينا، وربيكا، إلخ.. أو يكون عنوانَ حكاية صراع الطبقات (والإثنيات) بين النورمانديين والأنكلوساكسونيين. بيد أن هذا الأمر يتعلق بما نود فعله بهذه الحكاية: أن نعيد صياغة الحدث على أنه سيناريو فيلم أو أن نصوغ عنه تلخيصاً لمجلّة تُعنى بالدراساتِ الماركسية. ولئن صَحَّ، أنه في سبيل بلوغ الحكاية الثانية (بغضّ النظر عن ضرورة بلوغ الحكاية الأولى، بطريقة أو بأخرى)، إذ نلفي أنفسنا على عتبة المستوى الفاعلي: يسَعُنا، في هذه الحال، أن نتميّز فاعلين رئيسيَّين يكون مختلفُ فاعليهما المثلين فيهما الفرديّنِ أو الجماعيّنِ الذين يظهرون على مدار الكتاب تجلياً مجازياً للحكاية. إلى ذلك، فإنه يصح أَن هذه البنى الفاعلية الهيكليّة إنَّما يُرى إليها على أنها مستثمرة في دورَيْن (عِرقان، وطبقتان). إذاً، هانحن بلغنا مستوى الحكاية.

والمسألة التي أشرنا إليها، سابقاً، حول العلاقة ما بين المدار والنظير لا تلبث أن تعود إلى الظهور في هذا الصدد. ولما كان ظاهراً أن الحكاية إن هي إلاّ نظير حكائي: فقد كانت قراءَةُ مطلع «الملهاة الالهية» على اعتبار أنها قصّة نَفْسٍ خاطئة وتسعى إلى إيجاد مخرج من «غابة» الخطيئة، تعني أن تُقرأ كلّ الكيانات، التي كانَتْ ظهرَتْ في مستوى البُنَى الخطابية على شكلها الحرفيّ (لدى المستوى الخطابي، فإنّ الوَشَق حيوان، ولكن إن نحن عزمنا على قراءته باعتباره تمثيلاً لشَرّ ما، ألزمنا أنفسنا بالخَيّار عينه فيما يتعلّق بالذئبة) في مستوى الاتّساق الدلالي عينه.

لذا اقتضى، في سبيل تفعيل هذه البنية الحكائية، أن يُقترح مدارٌ مفتاحاً للقراءة: نتكلم ههنا على النفس الخاطئة.

ولنعدْ إلى قراءة قصة «فرسان الهيكل» لمؤلفها «آلّيه» (أنظر الملحق II): قلنا إنها تصير مُتّسقة نَصّياً أو غير متّسقة إنْ رأينا إليها إجابة معطاةً لمدارين مختلفين، ليس إلاّ:

(I) «أن يحاول المرء التذكّر ما كان يدعى الشخص س» و (II) «ما حَصَل آنَ وصلتُ إلى قصر فرسان الهيكل». وبعد أن نكون فَعَّلنا المدار، نرى أن التفعيل الآنف، رغم ذلك، لم يطرأ عليه تبديل، على مستوى البُنَى الخطابية؛ وبالمقابل فإنّ حكايتَيْن نراهما ترتسمان، على المستوى الحكائيّ، يكون بوسعنا، من خلالهما أن نتبيَّن الأفعال الهامة قيد الحدوث.

فإذا اخترنا المدار الأول، طالعتنا بعضُ الأسماء **المكانية** التي toponymes تتبدّى متعاوضة (على سبيل المثال فإن بمقدور أبطال القصة أَنْ يصلوا إلى قَصر قاتلي سيِّد الجبل، لا إلى قصر فرسان الهيكل)، فأمكننا أن نسقط هذه التفاصيلَ إبّان التلخيص وإعادة التأليف التي تتمّ عبر القضايا الكبرى؛ وإن نحن اخترنا المدار الثاني، أمكننا أن نهمل واقع أَنَّ المنشىء لا يتذكّر اسم صديقه (ولكن أياً يكن الأمر، فإن الحكاية الأخرى تظلّ أدعى إلى التشويق، في أي حال).

وفي غالب الأحيان، فإنَّ القرارَ فيما يتعلّق بمقاسِ الحكاية إنَّما يكونُ رَهناً بكفاية القارىء التناصّية أيضاً. فلنتخذ لنا مثالاً «أوديب الملك»: إذا وجدتَ متلقياً لا إلمامَ لَهُ بأسطورة أوديب، تبيَّنَ لَهُ أن المأساة (من خلال بعض إشاراتٍ فيها آذنةٍ وعَوْداتٍ إلى الوراء، فلاش ـ باك) إنما تروي قصة ملكٍ يعمد إلى هجر ابنه لأنَّ عَرّافاً كان أنبأه بأن هذا الابن سوف يقتلُه ذات يوم، وهكذا دواليك، إلى حين يكتشف أوديب، وقد صار ملك طيبة، أنَّه كان قتل أباه وأنَّه تزوَّج أمّه. وفيما خَصَّ التأليف الأخير، فإن لعبة التساؤلات والإنكارات التي جعل أوديب يسوق، من خلالها، بحثَهُ الأخير، قد تصير أقلَّ أهمية.

ولكن، إذا كان المتلقّي ملمّاً بالأسطورة الآنفة، والتي تفترضُ

المأساةُ معرفتَها مسبقاً (مثلما تصادر المأساةُ على وجود قارىء نموذجي يدركُ ما يدقّ على أوديب، ويسهمُ إسهاماً شَغفاً في الجدالية القائمة بين إرادته [أوديب] في المعرفة ورغبته العميقة بعدم المعرفة)، مضى يؤلّف حكاية مختلفة قد تُعنى تماماً بالمقاطع، حيث يكون أوديب، على قاب قوسين من الحقيقة، إذ يسعى في إثرها من جهة ويطرحها إطّراحاً من جهة أخرى، حتّى يُسلم أمره للمحتوم. وفي هذا الصعيد، تصيرُ حكاية أوديب القصة التي تروي كيف أنّ مذنباً يرفضُ الاعترافَ بقصّة ذَنْبِه. آنئذٍ يؤخَذُ في الاعتبار مستويات أخرى تكون أعمق: البُنَى الفعلانية والإيديولوجية، بمثل ما يُعتدّ بالجدل ما بين العوالم الممكنة ـ كما سوف نرى ذلك في الفصل ٨.

وأخيراً، لنلحَظْ أنه في سبيل أن نعبر من المستوى الحكائي إلى مستوى البُنَى الفاعلية، شأنَ عبورنا من قضايا الحكاية الكبرى إلى الحالاتِ المنظورة حولَ مجرى الأحداث، ينبغي للقارىء أن يجري بعض عمليات الاختزالِ المتوالية التي لا قِبَل للترسيمة ٢ على تسجيلها: فمن المحتمل أنّ تتدخّل ههنا توليفات من نموذج التوليفات التي كان أنشأها بروبّ إذ اختزل القصة إلى وظائف حكائية، وبريمون إذ اختزَلَ الهيكلية الحكائية إلى سلسلة من الفاصلات الثنائية التي تكون خواتيمُها مرمَّزةً تناصّياً، أو تراث كاملٌ مما تناوَلَ «الموضوعات» (الثيمات) و «الحوافز»، بالمعالجة. غير أن تصوُّر الحافز، ههنا، وعلى ما قلنا في الفصل ٤ـ ٦ـ ٦، يلبث يتماهى بتصوُّر السيناريو التناصّي، الذي قد نتحدث عنه لاحقاً في الفصل ٧ـ ٣.

٦ـ ٣ـ بُنى حكائيّة في نصوص غير حكائية

إن النموذج المقترح في الترسيمة ٢، لئن جرى تصوره في سبيل أَنْ تُؤخذ النصوص الحكائية بعين الاعتبار، فإنه ينطبق على النصوص التي ليسَتْ حكائية، أيضاً. وبعباراتٍ أخرى، فإنه يسعنا أن نُفعِّل حكايةً، أو تواليةً منَ الأعمال، حتى في نصوصٍ غير حكائية، وحتّى في الأعمالِ اللسانية المحضة الأكثر أوّليةً، شأنَ الأسئلة، والأوامر، والعهود أو مقاطع من أحاديث. ففي مقابلة الأمر التالي [تعالَ إلى هنا]، يمكن لنا أَنْ نوسِّع

البنية الخطابة إلى قضية حكائية كبرى من النموذج الآتي «ثمة امرؤ يعبِّر بطريقة آمرة عن الرغبة في أن يَعمد المتلقّي، الذي يظهر نحوَهُ مسلكاً منَ الإلفة، إلى الانتقال من موقعِه حيث هو والدنوِّ من الموقع، حيث فاعل **التلفُّظ**». وعلى هذا فقد تبدو هذه الجملة قصَّة قصيرة، وإن تكن أهميتها ضئيلة. ولنأخذ حواراً من مثل:

Enonciation

(٢٣) پول: أين هو پيار؟

ماري: خارجاً.

پول: آه. ظننتُ أنه لا يزال نائماً.

ما أيسر لنا أن نستقرىء من هذا الحوار قصة تروي كيف: (I) أنَّ في عالم معارف كلّ من پول وماري، يوجد شَخص يُدعى پيار؛ (II) وأنَّ پول في زَمَن بدئيّ ز١ ظَنَّ پ (= پيار لا يزال نائماً في المنزل)، في حين أنَّ ماري، وهي في زمن ز٢، تؤكد معرفة أن ك (= پيار خَرَج)؛ (III) إذاً فإن ماري تعلم پول عَنْ ك؛ (IV) مما يجعل پول يتخلّى عن ظنه حول پ فيقبل بأَنَّ پ ليست الحالة الحقّة، في حين يعترف أنَّه ظنَّ پ في زمن ز١. وبطبيعة الحال فإنَّ كل المسائل الدلالية الأخرى (افتراضات حول واقع أَن پيار هو كائن بشري ذَكَر، وأَنَّ الصفة البشرية تنطبق على پول وماري سواءً بسواء، وأَنَّ المحادثة جرت في منزل أو أمامَ منزل، وأَنَّ پول شاءَ معرفة شيء عن پيار أو أن زمن المحادثة كانَ في الضحى، على الأرجح) إنَّما تتعلَّق بالمسار السابق الخاصّ بتفعيل البُنَى الخطابية. أما إثبات أَنَّ ماري تقول الحقيقة أو تتظاهَرُ بالأخذ بها فحسب، فأمران يتعلقان بالعمليات **المصداقيّة** اللاحقة (بُنَى العوالم). ولكن، في سبيل أن يتم الانتقال من البُنَى الخطابية إلى بُنَى العوالم، يبدو أَنَّ توليفاً على صعيد الحكاية لازم، وضروري. لازم، بالتأكيد، إن نحن «قرأنا» حواراً من هذا النوع؛ وهو لازم كذلك بالنسبة لپول، بطل الحوار قيد الحدوث، إن شاءَ إدراك الحدث الذي لا يزالُ يحياهُ والتوقعات التي يمكن أن تخطر له (وذلك بلجوئه احتمالياً، إلى سيناريوات عامة) لكي يتسنى له، على سبيل المثال، أَن يردَّ على الموقف بأن يقرِّر تركَ رسالة إلى پيار.

Extensionnelle: المصداقية

وكما أشرنا في (٦- ٢) فإن بمقدور الحكاية ههنا أنْ تكون مفعَّلة لدى مستويات أكثر تأليفيةً، إذ تصاغ، مثلاً، القضية الكبرى «پول يبحث عن پيار»، أو «پول يسأل ماري عن پيار»، أم «پول يعلم من ماري خبراً غير متوقع».

وعلى المنوال نفسه، فإن أمثلة **الاستلزام التحادثي** التي كان اقترحها غرايس (١٩٦٧) تحمل في ذاتها قِصة ممكنة. والحال أنَّ قيمة استلزام **التداولية** إنما تكمن في واقع أنها تُلزم المتلقِّي صياغةَ قصة حيث يبرز بصورة ظاهرة، انتهاك طارىء أو ماكر لمبدإ تحادثي:

Implicature Conversationnelle

Pragmatique

(٢٤) أ ـ لم يعد لديَّ بنزين ـ

ب ـ ثمة مرآب في زاوية الشارع.

القصة: أ بحاجة إلى بنزين وب يريد أن يساعده. ب يعرف أن أ يعرف أنَّ للمرائب مضخَّة للبنزين، ويعرف أن ثمة مرآباً في زاوية الشارع ويعرف (أو يأمل) أنَّ لدى هذا المرآب بنزيناً للبيع. وهكذا يُعلم ب الفريقَ أ حولَ موقع المرآب، ويفعَل ذلك دون أنْ يضيع في متاهِ الخطابات الطويلة ودون أن يؤدِّي معلوماتٍ أكثر مما يتطلَّبه الموقف. لدى هذه النقطة، فإن قارىء المحادثة:

(٢٤) ـ وحتّى ب من حيث كونه متلقياً ممكناً للقصّة التي كان بطلها ـ يسعه الشروع في مساءلة نفسه سلسلة من الأسئلة حول مجرى الأحداث المستقبلي: هل يتّبع أ اقتراحات ب؟ أيكون ثمة بنزين في المرآب؟ إلخ...، تشويق طفيف إلا أنّه أكيد: فالأمر يتعلق ههنا بآليّة نتحدث عنها لاحقاً (٧٠٢ و٧٠٣) في شأن التوقّعات والنزعاتِ الاستدلالية.

٦ـ ٤ـ شروط أساسية لتوالية حكائية

يبقى أنّ نبرهن عن الشروط الأساسية التي تجعَل توالية خطابيّة محدَّدة على أنّها هامّة حكائياً. إن ذلك لشرط لا غنى عنه للتمكُّن من التقدم بتوقُّعاتٍ واستكمالِ نزهاتٍ استدلالية.

وحتّى دون أن نلجأ إلى التمايز، المقترح سالفاً، بين الحكائية الطبيعية والحكائية المصطنعة، يسعنا أن نقبل التعريف التالي الذي يختصر

سلسلةٌ من الظروف المقترحة من قبل ڤاندايك (١٩٧٤)، على أنه تعريفُ السرد العامّ والمتّسق: إنَّ السرد إن هو إلاَّ وصف أفعال، يَلتمسُ لكلِّ فعل موصوف عميلاً، وقصداً للعميل، وحالةً أو عالماً ممكناً، وتبدُّلاً، مع سببه والغاية التي تحدِّده؛ ويمكن أَنّ نضيفَ إلى هذه بعضَ حالات ذهنية، وبعضَ مشاعر، وظروف؛ بيد أَنَّ الوصف يرتدي أهميته (نقولُ: إنه مقبولُ تحادثياً) إنْ كانت الأفعال الموصوفة صعبةً وإن لم يكن للعميل، فحسب، خيارٌ واضح، فيما خَصَّ مجرى الأفعال التي ينبغي مباشرتها من أجل أن تتبدّل الحالة التي لا تتلاءمُ مع رغباته؛ والأحداث التي تتلو هذا القرار ينبغي أن تكونَ غير متوقّعة، ويتعيّن على بعضٍ منها أن يظهر غير مألوف أو غريب.

إنه لمن الواضح أن سلسلةً منَ الصفات المكتسبة من هذا النوع تستبعد، بحقّ، من عِداد النصوصِ الحكائية، إثباتاتٍ من مثل:

(٢٥) «بالأمس خرجتُ من عندي قاصداً أَنْ استقل قطار الثامنة والنصف الذي يصل إلى تورينو في الساعة العاشرة. ركبتُ سيارة أجرة أوصلتني إلى المحطة، هناك اشتريتُ بطاقة، وتوجَّهْتُ إلى الرصيف الملائم (لوجهتي)؛ وفي الثامنة والدقيقة العشرين صعدتُ إلى القطار الذي انطلق في ميعاده المضبوط وأقلَّني إلى تورينو».

إزاءَ امرىء يروح يروي قصَّةً من هذا النوع، قد نتساءَلُ لماذا يكون أضاعَ وقتنا بانتهاكهِ القاعدة التحادثية الأولى التي وضعها غرايس، والتي يقتضي بموجبها ألا يكون المرء أكثر إعلاماً من اللزوم (إلا إذا كان الإضرابُ، بالأمس، قد عَمّ السكك الحديد، وعليه فإن السرد يبلِّغ واقعةً غير مألوفة).

والحالُ أَنَّ الصفات الملتمسة والمذكورة أعلاه ربما بدَتْ لنا مبالغاً فيها. ومما لا ريبَ فيه أَنّ كتاب التكوين الأوّل يروي قصةً حيث تحدثُ تبديلات حالاتٍ كانَ أحدثها عميلٌ أوتي مقاصد واضحةً للغاية؛ وهذا الأخير، إذ جعَل يتدبَّرَ عللاً ومعلولات، كان أَتَمَّ أفعالاً نادرة الصعوبة، وهي (إنْ لم تماثل العالم الموجود بخير العوالم الممكنة) لا تشكل خياراً واضحاً في شيء. ولكنّ أحداً لا يسعه القول إن الأحداث

المتوالية على العمل كانت غير متوقعة، وغريبة أو غير مألوفة بالنسبة للعميل، إذ أنه ماوَنيَ يعلم بالضبط ما سوف يحدث إذ يقول «فليكن ضوءٌ» [Fiat lux]، أو حين يفصل الأرض عن الأمواه (فلنضف إلى ذلك أن القارىء، بدوره، يروح يتوقّع ما قد يحدث في الواقع). ومع ذلك، فقد يتبدّى من الصعوبة بمكان أنْ ينكر المرء أنَّ خلاصة خلق الكون إن هي إلاّ قطعة سردية جميلة فحسب.

لذا يسعنا أن نقصر الشروط اللازمة (اللّهم تلك التي نضطر إلى إدخالها تبعاً للنوع الحكائي المخصوصِ فحسب، الذي نقصد إلى تحديده) على تلك التي تقترحها **الصناعة** الأرسطيطاليسية: فيكفي، في هذا السبيل أن يُحدَّد عميل (سيّانَ كان بشرياً أم لم يكن)، وحالة بدئية، وسلسلة من التبدُّلات الموجَّهة في الزمن والتي تنشأ عن أسباب (ليس أمراً ضرورياً تخصيصَ الأسباب بأيّ ثمن) بلوغاً إلى نتيجة نهائية (أكانت إنتقالية أم حواريَّة). ولن يكون لنا أن نضيف في هذه الأثناء (طالما أن هذه الصفة لا تليق إلاّ ببعض نماذج السرديَّة المصطنعة) سوى العميل، الذي ينبغي لَهُ، في سياق تتابع الأفعال، أنْ يلقى تبدُّلاً في الثروة، فيمرّ من السعادة إلى الشقاء، والعكس بالعكس. ونحن، إذ نحتفظ بسلسلةٍ من الشروط اللازمة المختزلة على هذا النحو، قد يتسنى لنا التوصّل إلى القول إنَّ وصفَ العمليات الضرورية، نفسها، الآيلة إلى إنتاج الليثيوم، الذي كان أجراهُ پيرس وطرحَهُ علينا (أنظر ٥٠٢) إنَّما هو مَثَلٌ على حكائية، على كونه أساسياً.

Poétique، على حَدّ ما أدركها علماء البلاغة العرب أمثال عبد القاهر الجرجاني وأبو هلال العسكري وغيرهما.

وعلى أي حالٍ فإن سلسلة الشروط اللازمة هذه تتيح تعيين مستوى حكائي (حكاية)، حتّى في نصوصٍ ليستْ، في الظاهر، حكائية. ولنرَ إلى مقدّمة كتاب «الأخلاق» لسپينوزا:

(٢٦) لهذا السبب أفهم (أو أعني) بعلة ذاته ما ماهيته تستغرق وجوده؛ بعبارة أخرى ما لا يمكن تصور طبيعته غير موجودة.

(26) Per causam sui intelligo id cujus essentia involvit existentiam; sive id cujus natura non potest concipi nisi existens.

ثمة، ههنا، حكايتان تغلف الواحدة منهما الأخرى. الأولى تتعلّق

بعميل (مضمر نحوياً) [أنا Ego] يؤدي فعل الفهم أو الدَّل، أو مَن يقوم بذلك، كان قد جازَ حالة المعرفة الملتبسة إلى حالة المعرفة الأبيَن حول ما هو الله. ولنلحَظْ، أنه لو أوَّلْنا كلمة [Intelligo] بفعل «أفهم» أو «أقرّ»، لبقي اللهُ موضوعاً غيرَ عرضة للتبدّل بسبب من فعل الفهم.

ولكننا، إن عَنيْنا بنفسِ الفعل [Intelligo] «قصدتُ أن أقول» أو «عنَيْتُ» (عنَيْتُ [I mean أو Ich meine]، - على ما كانَ في نَص «ڤيتغنشتاين» الذي وَرَد في الفصل ٣- ٥)، فإن العميل ينشىء عندئذ من خلال فعل التعريف الخاص به، موضوعه الخاصّ على أنه وحدة ثقافية (أي يكسبه كينونته).

Wittgenstein

فضلاً عن ذلك فإن هذا الموضوع، يشكل مع صفاته فاعل الحكاية المغلّفة. إنما الفاعل إذ يتمّم فعلاً، فإنه ينوجدُ بعلَّة ذلك الفعل بالذات. وعليه يتضح لنا أنه في مغامرة الطبيعة الإلهية هذه لا شيءَ «يحدث»، طالما أنه لا تقوم مدّة من الزمن فاصلةً ما بين تفعيل الجوهر وتفعيل الوجود (وليس من شأن التفعيل الأخير أن يبدِّلَ من الحالة التي مثلها التفعيل الأوّل)؛ أما في ما خَصَّ الكينونة، فإنها لا تبدو لنا عملاً ينشأ به **الإنْوجاد**، حال تحققه. غير أن هذا المثل لا يعدو كونه حالةً قصوى. ذلك أن الفعل، في هذه القصة،يكونُ إلى جانب مجرى الزمن في درجة الصفر (= اللامتناهي). ذلك أن الله يتصرَّف، على الدوام، بتجليه الذاتي وصموده الدائم، بحيث ينتج بصورة متواصلةٍ واقعةً أنه ينوجد بفعل أنه كائنٌ بالذات. ولئن كان ذلك أقلّ مما يقتضيه بناء رواية من المغامرات، فإنه لمن الكافي أن يشكِّل الشروط الجوهرية لقيام الحكاية، إذ تكون درجتها الصفر. أحداث كثيرة، ودون أي حادث مفاجىء - نوافق الناقد هذا الأمر، ولكننا نشير إلى أنَّ تفاعُلَ القارىء في هذه الحكاية الموصوفة يتعلَّق بحساسيته، فالقارىء النموذجي الذي يقاربُ قمة من هذا النوع إنما يكون صوفياً أو ناظراً في الماورائيات، أو نموذجاً لمتعاضد نَصّي قادر على مكابدة مشاعر حادّة إزاءَ هذه اللا - مغامرة التي لا تني تدهشه، مع ذلك، بطابعها الفريد للغاية. أما عدم حدوث أمر جديد، فيُعزى إلى أن «**تراتب الأشياء وترابطها فيما بينها هما نفسهما تراتب الأفكار وترابطها**.». ولئن

L'exister

ordo et connectio rerum idem est ac ordo et connectio idearum amor dei intellectualis

كان قيل كُلُّ شيء، فإنّ حبَّ الله حباً عقلياً، يكون لدى هذا القارىء هوىً مشغفاً أيضاً، كما أن دهشته غير المستنفدة من الإقرار بالضرورة تلبث ماثلةً أبداً لديه. وعلى هذا، فإن الحكاية الآنفة إذ تبلغ حداً مفرطاً منَ الشفافية تسوقنا للتوّ إلى بنية جامدة (يركن فيها) فاعلون خُلَّصٌ. والحال أنّ هذه الحكاية تفضي بنا إلى الإقرار بوجود بنية من العوالم تلازم فرداً واحداً يحوز على كلّ الخصالِ، ويكون ذا قدرة على الدخولِ إلى كل العوالم الممكنة[٣].

وفي مقابلة ذلك، يسعنا على الدوام، أن نقارب نصوصاً لا تبدو أنها تروي أية حكاية، وذلك في وجهة نظر البناء الحكائي: وهذا ما قام به غريماس (١٩٧٥) بصورة لافتة، إذ راح يحلِّل «خطاباً غير مجازي»، ألا وهو المُدخل الذي كان صاغَهُ دوميزيل لكتابِهِ «ولادة رئيس ملائكة». وقد أظهر النص العلمي، في هذه المقدمة، ليس «تنظيماً خطابياً» فحسب، بل «تنظيماً حكائياً» أيضاً، مصوغاً من مفاجآت علمية (أو أكاديمية)، وصراعات ضد معارضين، وانتصارات وانكسارات. ذلكم هو تأريخ بناء نَصٍّ واستخدام استراتيجية لا تعوزها إرادات الاقناع، بالإضافة إلى فاعل عميل، ما يزعم في النهاية بأنه يشخصن العلم نفسه.

إنه لاقتراح بالغ الأهمية ذلك الذي يتيح لنا أن نعاود قراءة كل النصوص النظرية على أنها تاريخ لمعركة من معارك الإقناع جرى خوضها والانتصار فيها. طالما أن التحليل لم يكشف على الأقل عَن حِيَلها.

هوامش

(١) لتأريخ هذا التمايز أنظر. إرليخ، ١٩٥٤. وللإطلاع على نقاش قريب العهد، أنظر، في سيغر Segre، ١٩٧٤، «منطق السرد، تحليل حكائيّ والزمن»، بالإضافة إلى فوكّيما وكونّ - إيبش، ١٩٧٧.

(٢) للمسألة بُعد نظري وقابلية للتحقّق تجريبية. ولنقاش الجانب النظري، أنظر فكرة التاريخ على أنها «قضية كُبرى» لدى بارت، ١٩٦٦؛ انظر تودوروف ١٩٦٩ كذلك. وكنّا ذكرنا فيما مضى غريماس، ١٩٧٣: ١٧٤، في شأن البنية السميمية منظوراًإليها على أنها برنامج حكائي كامن. وعلى مستوى آخر، قد نجني نفعاً من استيضاحنا الأبحاث التي أتمّها ڤاندايك، عام ١٩٧٥ و١٩٧٦، حول «الخلاصات» التي يضعها القرّاء حول قصّة.

Empirique

Sémémique

* «في وسط درب الحياة

ألفيتُني في غابة قاتمة...»

في ترجمة فرنسية، باريس، غارنييه، ١٩٦٦.

ففي هذه «الغابة الدكناء»، يلتقي دانتي ثلاثة حيوانات مفترسة، وَشَق، وأسدٌ وذئبة.

(٣) المبدأ الآنف ينطبق بالأحرى على هذه النصوصِ الاختبارية حيث يظهر العملاء «الجامدون»، وحيث لم يؤتَ لنا أن نحدّد سلاسِل الأحداث الهامّة، وحيث تصوُّر العميل ذاتهُ هو موضع تساؤل. أنظر في هذا الصدد التحليل الذي أُجري في مجلة «Nouvelles impressions d'Afrique»، لمؤلّفه روسّل، وقد أجرت البحث كريستيڤا، ١٩٧٠: ٧٣.

٧ ـ توقُّعات ونزهات استدلاليَّة

٧ـ ١ـ فاصلاتُ الاحتمال

إنَّ القضايا الكبرى التي يستعين بها القارىء في سبيل أنْ يفعِّل الحكاية لا تكونَ رهنَ قرار اعتباطيّ: إذ ينبغي لها، في شكلٍ ما، أن تفعِّل الحكاية التي يحملها النصّ. على أنَّ ضمانةَ هذه «الأمانة» للنص، من حيث كونه نتاجاً، إنَّما توفرها قوانين دلاليّة قابلة للقياس بفضل روائز تجريبية. وعلى سبيل المثال فلنتناوَلْ القطعة النصية التالية (١٤): بعباراتٍ من الموسوعة ـ لما كان راوول رجلاً ومرغريت امرأة، ولما كان فعل [مشى] ينطوي على سيمة «الحركة نحوَ»، نتحصَّلُ على الضمانة أنّ هذه القطعة يمكن أنْ تُختصر من خلال القضية الكبرى التالية «رجُلٌ ينتقل ناحيةَ امرأة». ومن جهة أخرى، فإنَّ الروائز التجريبية حولَ الطاقات الوسطى الكفيلة باختصار نَصّ تنبئنا أن بناءَ القضايا ـ الكبرى يتمظهَرُ على أنه متجانِسٌ من الوجهة الاحصائية.

بيد أن التعاضُدَ التأويليَّ يحصَلُ «في الزمن»: ذلك أنَّ النص يُقرأُ خطوةَ إثْرَ خطوة. لذا فإنَّ الحكاية «الإجمالية» (أي القصة التي يكون يرويها نَصٌّ متماسك)، حتّى وإن تصورها المؤلِّف بمثابة المنتهية، تمثُلُ للقارىء النموذجيّ على أنَّها لا تزالُ قيدَ صيرورتها: إذ لا يني يحقِّق فيها قِطَعاً متتاليةً. على هذا يسعنا التوقُّع أنَّ القارىء يفعِّل قضايا ـ كبرى متماسكةً: وفي حالة النص (١٤) فبدلاً من أنْ يمضي القارىء إلى تلخيص القضية الكبرى «رجُلٌ ينتقل ناحيةَ امرأة»، يتوقَّعُ أن تبلغ توالية

الأحداث قدراً من التماسكِ يدفعهُ إلى اختصار القضية الكبرى «راوول ينقضُّ على مرغريت لكي يضربها، فتفرّ منه». وإنه لمن قبيل التوقُّع كذلك، أَنْ يميّز القارىء لدى هذه المرحلة فاصلةً من احتمالٍ، نظراً إلى أَنَّ راوول، وفقَ اختبار القارىء الموسوعيّ (سيناريوات عامّة وتناصّية) يمكنه إمّا التقاط مرغريت وضربها، أو لا يعمَدُ إلى التقاطها، فتتولاّهُ الدهشة من مبادرة غير متوقّعة تصدر عن مرغريت قالبةً الوضع رأساً على عقب (على أي حال، هذا ما يحدثُ في القصّة).

والحالُ أَنَّ القارىءَ، كلّما تسنّى لَهُ أن يشهد في عالم الحكاية (رغم كونه مستطرداً فيما خَصَّ القراراتِ التعميمية) تحقيقَ فعل يسعه أن يحدثَ تبديلاً في حالة العالم المرويّ، وذلك بإدخالِ مجاري أحداث جديدة إليه، بات مسوقاً إلى «توقّع» التبدُّل في الحالة التي قد تحصَلُ بنتيجة الفِعل ومجرى الأحداث الجديد الذي قَدْ يتولدّ عنه.

صحيح أَنَّ فاصلة احتمال يمكنُ أَنْ تنشأ لدى أية نقطة من نقاط سردٍ ما: «خرجت الماركيزة في الساعة الخامسة». لأيَّة غاية تسعى، وإلى أين؟ إلاَّ أَنَّ فاصلاتِ احتمال من هذا النوع تروح تنفتح بدورها داخل جملة بسيطة، على سبيل المثالِ كلّما كان فِعل متعدٍ مكرَّراً [أَكَلَ لويس...]: ماذا؟ دجاجاً، سندويشاً، مبشّراً؟.

وعلى ما اتّضح، فإننا لَنْ نأخذ في الاعتبار ظرفاً تأويلياً مقلقاً للغاية، إذ نسارع إلى الوثوق بالقراءة التي يباشرها القارىءُ النموذجيُّ فيدرك بطرفة عين بُنيةَ جُملَة أو جُمَل عديدة، وهو مَنْ لا وقت لَهُ للاستفسارِ عما يأكل لويس، الذي كان حصَّل عنه المعلومةَ المرغوبةَ.

وبالمقابل، فإنه لمن المشروع تماماً أن يتساءَلَ المرء عما تكون مجاري الأحداث والتبدُّلات التي تنطوي عليها فاصلة احتمال جديرة بالاهتمام.

فإذا ما أجابَ القارىءُ أَنَّ الفاصلاتِ الهامَّةَ إنّما تنفتح كلّما كانت الأفعالُ «الملائمة» مكرَّرة في سبيل مجرى الحكاية، أوشكت تلكَ الإجابة أن تشكّل **مصادرة على المطلوب**. Petitio principii

غير أنّه قد لا يكون شافياً، ولا دقيقاً، أَنْ يقولَ المرءُ بأن القارىءَ

هو الذي يحدِّد فاصلات الاحتمالِ وفقَ فرضية الحكاية التي يصوغُها بناء على المدار المنتقى.

والأحرى بنا أَن نقول إنَّ نصاً حكائياً ما يُدخِلُ إلى صلبه إشارات نصِّيةً من مختلفِ النماذج بغية التشديد على أَنَّ الفاصلة التي قد تكونُ متواقعةً هي هامَّة.

فلندعُ الإشاراتِ هذه إشاراتِ تشويق. إذ يسعها، على سبيل المثال، أَنْ تنطويَ على التمييز ما بين إجابة القارىء وسؤالِه الضمنيّ. إنَّنا لنتفكَّر في هذا السبيل بالصفحاتِ التي كان «مانزوني» أدخلَها بَيْنَ ظهور **الجدعان** (الشُّطار) على دون «أبُّو نديو»، الكاهن، وبين السرد الذي يزمع الجدعانُ هؤلاء على قولِهِ لَهُ. وللمزيد من اليقين، يجهَدُ المؤلف في أن يدلَّنا، لمرَّتين، قبل استطراده إلى الصرخاتِ وبعدَهُ، على حالة الانتظار التي باتت فيها الشخصية (وهي الحالة التي تطابق حالتنا، وتؤسسها في الآن نفسهِ):

Bravi

(٢٧) [...] الكاهِنُ [...] رأى آنئذٍ أمراً لم يكُنْ ليتوقعه وكانَ آثر عدم رؤيته: رجلان ظهرا واقفَيْن [....]. (ويلي ذلك وصف الجدعَيْن الاثنين، ثم يندمج به المقطع الطويل حولَ الصرخات، بغاية إمداد التشويق؛ ومن ثم يستعيد النصُّ مسارَه مع إشارات تشويق أخرى).

[...] أن تكون الشخصيتان الموصوفتان أعلاه ماثلتين هنا، تنتظران أحداً، فهذا أمر بدا بيِّنَ البداهة. ولكن ما أغاظ الكاهن «دون أبُّونديو» أشدَّ الإغاظة هو أن يكون مجبراً على إدراك أَنَّ الشخصَ الذي لبث ينتظرهُ هذان، إنَّما كان هو بالذات، وذلك من خلالِ بعضٍ من حركاتهما.

[....] وسرعان ما تساءَلَ في نفسِه، عما إذا كان بينَهُ وبين «الجدعان» **دربٌ مختصرٌ** ذات اليمين وذات اليسار [....]. وأجرى فحصاً سريعاً (في ذهنه): أيكون أهانَ شخصية مرموقة وقادرةً؟ [...] وضع سبابة يدهِ اليسرى والإصبعَ الوسطى في ياقته كأنَّما ليسوِّيها؛ [...]. ورمى بنظره إلى أعلى جدار الجَلّ في الحقول: لا أحد؛ [....] لا أحد سوى «الجدعان». فما العمل؟.

مختصر: قادوميَّة بالعاميَّة اللبنانية، تكون عادة أقصر طريق ولكن أكثر صعوبة.

والواقع أن إشاراتِ التشويق قد أُعطيَتْ، ههنا، أحياناً من خلالِ

انقسام النص إلى فصولٍ، طالما أَنَّ خاتمة الفصل توافق وضعَ الفاصلة. وأحياناً أخرى، يروح يُبسط السرد في حلقاتٍ، فيُدخل فترة من الزمن مفروضَةً بين السؤال (الذي ليس مضمراً على الدوام) والإجابة. فنقولَ، آنئذٍ إنّ الحبكة، لدى مستوى البُنَى الخطابية، تعمَلُ على إعدادِ توقّعات القارىء النموذجيّ في مستوى الحكاية، وأَنّ توقعات القارىء غالباً ما يقترحُها وَصْفُ أوضاع التوقّع الأظهر، والقَلِقِ غالباً، الذي يروحُ يتولّى الشخصيَّة.

٧ـ ٢ـ التوقُّعات باعتبارها تجسيداً مسبقاً لعوالم ممكنة:

أن يدخل المرء في حالة انتظار معناهُ أَنْ يُجريَ توقُّعات. وعليه فإن القارىء النموذجيّ يكون مدعواً إلى المساهمة في تنمية الحكاية إذ يستبق المراحل المتوالية فيها. ذلك أن استباقَ القارىء يشكِّلُ حصَّةً من الحكاية التي ينبغي أَنْ تتوافق مع الحكاية التي يزمع قراءتها. وحالما تتمّ لَهُ القراءة (على هذا النحو)، يتثبَّتُ مما إذا كان النص مطابقاً لتوقّعه أم لا. على أَنَّ حالاتِ الحكاية (المتفاوتة) من شأنها أَنْ تثبتَ حصة الحكاية التي كانَ حَدَسَ بها القارىءُ أو تدحضها (تثبت أو تزيِّف) [أنظر. ڤاينا، ١٩٧٦، ١٩٧٧]. إذاً، يثبتُ الحَلُّ الذي أوتي القصّة ـ كما هو مقرر في النص ـ آخِرَ استباق من قبل القارىء، بالإضافة إلى بعض حدوسِهِ الماضية، ويشكّلُ بعامَّة تقويماً مضمراً للطاقاتِ التوقُّعية التي كان القارىء دلَّ على جدارتِه بها على مدى القراءة برمَّتها.

والحقُّ أَنَّ هذا النشاطَ التوقُّعي ينطوي ضمناً على كل مسار التأويل ولا قِبَلَ لَهُ أن يتنامى إلاَّ من خلالٍ جدليّة شديدة التعالق مع عمليات أخرى، في حين أنه (النشاط التوقعي) يكون عرضة للتثبُّت، وبصورة متواصلة، من قِبَل نشاطِ التحقيق الذي ينمّ عن البُنَى الخطابيَّة.

وعلى ما سوف نعاينه في الفصل اللاحق، فإن القارىء، إذ يجري هذه التوقعات، فإنه يضطلع بموقف قضويّ* (يظنّ، يرغب، يودّ، يأمُلُ، يعتقد) فيما خَصَّ التحوُّل اللاَّحق بالأشياء. وهو إِذْ ينجزُ ذلكَ الأمر، فإنه يشكل مجرى من الأحداث ممكناً أو حالةً من الأمور ممكنةً ـ وكما أسلفنا، أعلاهُ، فالقارىء يجازف بأن يطرح فرضياتٍ حولَ بُنَى عوالم. أما

اليومَ، وقد عَمَّ الاستخدامُ الآنف معظمَ الكتابات الذائعة حولَ السيمياء النصّية المعنية بالتكلُّم، فقد اتضحت هذه الحالاتُ من الأمور المتوقعة من قِبَل القارىء، وعنيتُ بها العوالم الممكنة.

ولسوف نتفحَّصُ في الفصل التالي الشروط التي يتسنى لنا بموجبها أَنْ نستخدم هذا المفهوم (المستعار بكلّ المحاذير الضرورية إزاءَ العلم بما وراء الطبيعة والمنطق الجهوي) في إطار من سيمياء نصية. وسوفَ نتبيَّن، كذلك، كيف أَنَّ هذه المستعارات كانَتْ وُصِمَتْ بأنها غير مشروعة، ذلك أَنها جعلَتْ تفترضُ مسبقاً تأويلاً ميتافيزيقياً وجوهرياً لمفهوم العالم الممكن (كما لو أَنَّ عالماً ممكناً، شأنَ حالة تعاقبية من الأمور، كانَ لَهُ قوامٌ أنطولوجيّ مساوٍ لقوام العالم الحاليّ). لذا، ينبغي لنا أَنْ نحدد، وللمرّة الأخيرة، المعنى الذي نقصد إلى إسناده إلى فكرةِ الإمكانية، حينَ نتكلم على قارىء يتخيّل (يظنُّ أو يأمل) تنميةً ممكنةً لأَحداثٍ معينة.

وفي هذا الصدد، إن اتخذنا، مثالاً لنا، دليلاً زمنياً لسكك الحديد (أو بالأحرى، فلنتخذْ لنا اللوائح الترسيميّة التي كنا خططناها ي بدء هذا الفصل): وجدنا أنه إذا شئتُ أَنْ أمضِيَ مِنْ ميلانو إلى **سيانّ**، يتوجب عليّ، بالضرورة، أن أمضي من ميلانو إلى فلورنسا، في البدء. وفيما بعد يكون بوسعي أَنْ أختار بين إمكانيَّتين، فلورنسا ـ تشيوزي ـ سيانّ أو فلورانسا ـ **أمپولي ـ سيانّ**. لن نناقش، ههنا، الإمكانية الأكثر اقتصاداً بتعابير الزمن، والمال وتواتر التوافقات (حتّى لو كانَ مرتأى أن هذه العناصِرَ قَدْ تضيفُ متغيّراتٍ مفيدةً إلى اللعب التوقُّعي)[1]. بيد أَنَّ ما يتحصَّل لدينا من كل هذا، وبعبارات حكائية، بالإضافة إلى العبارات التي تعود إلى سكك الحديد، لمّا كانَ راكبٌ لدى محطة فلورانسا، هوَ أن فاصلة احتمالٍ تنفتح أمامه: أياً من الطريقين قد يختار؟ فأن يقول المرءُ إنَّ للراكب اختيارَيْن (وأن يقال، كذلك، إن مَنْ يقومُ بتوقّعات حولَ الراكب يكونُ لَهُ الخيارُ بين مجريَيْن تعاقبيَّين من الأحداث يتبدَّيَان ممكنَيْن بصورة متساوية، الواحد بإزاء الآخر [Coeteris paribus]) فهذا لا يعني الاستفهام عن القوام الأنطولوجي الذي يميز هذين المجريَيْن نسبةً لما قد

Sienne

Empoli-Sienne

يُثبت منه لاحقاً، وهذا لا يعني البتة تحويل هذَيْن المجريَيْن المتعاقبَيْن إلى محض حالتين نفسيَّتين عصبيتَيْن على الإدراك تعتريان مَنْ يتكهَّن. والواقع أَنَّ مجريَيْ الأحداث يكونان ممكنين طالما أن بنية السكك الحديد تفرض وجودهما على هذا النحو. لذا فإن المجريَيْن الآنفين يسعهما أن يُثبتا لأنَّ من شأن الشبكة أَنْ تهبَ ظروفاً معقولة للتحقُّق تَعني الاثنَيْن كلَيْهما.

ذلك أن نَصّاً، يمثِّلُ لي فرداً «س» يقومُ بإطلاقِ النار على فرد آخر «ج»، يتيح لي أَن أصوغَ منه توقّعَيْن، على أساسٍ من الكفاية الموسوعية التي يحيل (النصُّ) إليها (ففي نِظرة التماثُلِ خاصتنا فإن شبكة السكك الحديد هي أدعى أن توافقَ نسقاً من السيناريوات من ملاءمتها نَصاً بعينه): فإما أن يكون الفردُ قد أُصيبَ، أو لا يكون. وعلى الدوام ثمة «تساوٍ إزائي [Coeteris paribus] (فإذ يستبعدُ المرءُ أن يكون الفردُ محكوماً بالإعدام، وأَنْ يكونَ مطلِقُ النار أسرعَ لُستيِّي الرمي في الغرب - ولكنْ حتّى في تلك الحالة، كم من المفاجآت الحكائية الممكنة الجميلة! كم من الأحلام الطوعيّة التي تروح تخطر في بال الضحيّة إبَّانَ لحظاتها الأخيرة!) يظلّ من الممكن، بحكم بنية «الشبكة»، أن تتثبَّت هذه الحالة أم تلك.

وقد يكون من الحُمق بمكانٍ أَنْ يلاحظ المرء أَنَّ التوقُّع غيرَ الشافي إنما يكونُ أضعفَ، أُنطولوجياً، من التوقّع الذي بانَ شافياً. إلاّ أَنَّ المسارَيْن الآنفين، من حيث كونهما توقّعين، ومن حيث اعتبارهما موقفَيْن قضويَّيْن، يظلاّن كلاهما محضَ حدث ذهنيّ حيالَ المادّية المكثفة التي تكون عليها حالة المنتصر.

إذاً، ينبغي لنا أَنْ نكتفي بالتساؤل عما إذا كانَ يُعقل، على ضوء الكفاية الموسوعيّة التي يرجعُ إليها النصُّ الحكائي وعلى ضوءِ الحركاتِ التي يستخدمها النص، أن يرتئيَ القارىء فاصلة احتمال. وبهذه العبارات، يسعنا، على أحسن وجهٍ، أن ندعوَ «عالماً ممكناً» ما قد يرتسمه التوقُّعُ المعبَّرُ عنه.

وهَبْ أَنَّ سرداً يكون موازناً لدليل شطرنج مخصوصٍ باللاّعبين الذين يرغبون في بلوغ هذا الإتقان، فإن المؤلف يعمَدُ، في زمنٍ معطى،

إلى تمثيل حالة رقعة الشطرنج «س١» على الصفحة اليسرى وقد بَلَغ الصراعُ (بين اللاعبين) مرحلة حاسمة في لعبة شهيرة كانت تجري بين إيڤانوف وسميث، حيث تغلّب الأوّلُ على الثاني بضربتين متتاليتين. ويروح المؤلِّف يمثِّلُ، لدى الصفحة اليمنى، الحالة «س٢» (حيث ٢ يكون تالياً لـ ١) التي تلت الضربة الصادرة عن سميث. والحالُ، يقولُ لنا المؤلِّف، أنَّه قبلَ أَن نقلبَ الصفحة ونجدَ تمثيل الحالة س٣ التي أعقبت ضربة إيڤانوف حاوِلوا أَنْ تخمّنوا ضربة إيڤانوف. فيأخذ القارىء ورقةً (أو بطاقةً مطويةً في الكرّاس) ويرسم، وفقَ توقعاتِه، ما قد يظنُّهُ الحالة الفضلى متمثِّلة بـ س٤، أي تلك الحالة التي يأمل إيڤانوف من خلال تحقيقها، وضع سميث في موقع حَرِج.

على هذا، ما الذي قد يفعله القارىء؟ إذْ لديه شكلُ رقعة الشطرنج، وقواعِد الشطرنج وسلسلة برمَّتها من الضربات التقليديَّة التي كانت دُوِّنَتْ في موسوعة لاعب الشطرنج، وسيناريوات متبادلة حقَّة، معتبرة تقليدياً على أنَّها الأكثر فائدة، والآنَق، والأكثر اقتصاداً. على أنَّ هذا المجموع (شكل رقعة الشطرنج، وقواعد اللعبة، وسيناريو اللعب) يكون معادلاً شبكة السكة الحديد في المثل السابق: فهو يمثِّل مجموعاً من الإمكانيات التي تتيحُها بُنية موسوعةِ الشطرنج. على هذه القاعدة يتهيّأ القارىء لاقتراحِ حلِّه.

وفي هذا السبيل يجري القارىء حركة مضاعفة: من جهة، يعتبر أن كل الإمكانياتِ التي كان أَقِرَّ بها، موضوعياً، على أَنَّها «مقبولة» (إذْ لَنْ يأخذ في الاعتبار الضربات التي تضع ملكَهُ في موقع المأكولِ على الفور: وتلك ضربات ينظر إليها على أنها «ممنوعة»)؛ ومن جهة أُخرى، يتمثّل ما يظنه خيرَ الضربات، آخذاً في الاعتبار نفسيةَ إيڤانوف والتوقُّعاتِ التي قد يجبر على إجرائها حولَ نفسية سميث (على سبيل المثال، فإن بمقدور القارىء أن يفترض أنّ إيڤانوف قد يخاطر بنفسه إذ يقوم بمناورة في الشطرنج جريئة لأنه يتوقع أَنّ سميث قد يقع في الفخ الذي كان نصبَهُ له).

حينئذٍ يسجِّلُ القارىء على بطاقته ما يظنّه حالة س٤ المصدَّقة من

قبَل الجزء الذي يمثّلُهُ المؤلف على أنه خيرُ الأجزاء. ثم يقلبُ الصفحة ويقابل حَلَّهُ مع الحَلِّ المطروح في الكتيِّب. إنها واحدة من اثنتين: إما أنّه حزر، أو لم يحزّرْ. وإنْ كان لم يحزّرْ، فما الذي قد يفعله؟ لسوفَ يرمي (بغيظ) بطاقتَهُ لكونِها تشكّل التمثيلَ الممكنَ لحالةٍ من الأمور التي لم يقوَ مجرى المباراة (المعتبرة فضلى المباريات وحدها) على إثباتها.

إلاّ أنَّ الحالة التعاقبية التي كان توقّعها يمكن أَنْ تكونَ مقبولةً من وجهة نظر لعبة الشطرنج؛ فلما كانت الحالة الآنفة ممكنة تماماً وكانَتْ حَسَنة الإمكانِ كذلك، فقد جعلَتِ القارىء يتمثّلها بالفعل. غير أَنَّ الأمر بخلافِ ما لبث المؤلف يقترحه. ولنلحظ أنَّ (I) هذا النمطَ من التمرين يسعه أَنْ يمتدَّ وقتاً أطوَلَ لكل ضربةٍ من مباراة طويلة للغاية، وأنّ (II) القارىء، قد يسعه أن يرسم عدة حالاتٍ ممكنة، لكل ضربة، لا حالة واحدة فحسب؛ وفي آخر المطاف (III) قد يتسنى للمؤلف أَنْ يلهوَ إذ يروح يتمثّل كل الحالاتِ الممكنة التي يزمع إيڤانوف تحقيقها، مع كلِّ إجاباتِ سميث الممكنة، وهكذا دواليك، مفتتحاً لدى كل ضربة، سلسلة من واصلات متعددة، إلى ما لا نهاية. ولئن كان هذا الإجراءُ قليلَ الاختصار (أو الاقتصاد)، فإنه قابل للتحقّق.

بطبيعة الحال، ينبغي للقارىء أن يكون قرّر التعاونَ مع المؤلِّف، وبالتالي فقد يتوجّب عليه الإقرار بأَنَّ المباراة ما بين إيڤانوف وسميث هي الوحيدة التي تحقَّقت فعلياً، وأنها خيرُ ما تَمَّ إنفاذُهُ على الاطلاق. وإنْ لم يتعاون القارىء، وسعه أَنْ يستخدمَ الدليلَ حَتّى، باعتبارهِ مثيراً للمخيِّلة ودافعاً لها إلى تصوّر مبارياتها المخصوصة؛ وبالطريقة عينها، يسع المؤلف أن يوقف مجرى روايته البوليسية في وسطها، لكي يكتب روايتَهُ المأثورة فيها، دون أن يهتم لمعرفة ما إذا كان مجرى الأحداث الذي كان تخيَّلَهُ يتلاءَمُ مع ما يصدِّق عليه المؤلف.

إذاً، يمكنُ القارىء أنْ تكون لديه إمكاناتٌ موافَقٌ عليها من موسوعة (شبكة) الشطرنج. وعليه فقد يمكن تمثيل ضربات ممكنة، التي وإنْ لم تكن ممكنة إلاَّ نسبةً للمباراةِ «الجيِّدة»، فإنها لا تقلُّ عنها (المباراة) قابلية للتمثيل، بصورة ملموسة. وهكذا تجد العالم الممكن،

الذي يتصوَّرهُ القارىء، مؤسساً إمَّا على شروطٍ موضوعية لها صلة بالشبكة، أو على توقعاتِه الذاتية المخصوصةِ فيما يتعلّق بمسلك الآخر (بمعنى آخر، فإن القارىء ينظُرُ ذاتياً في الطريقة التي قد يتصرّف بها إيڤانوف ذاتياً حيالَ الإمكانات المعطاة موضوعياً، من قبل الشبكة).

وبغضِّ النظر عن الاختلافِ في التعقيد الكامن ما بين شبكة من خطوطِ الشطرنج وشبكة سكة الحديد، فإن المقارنة بين الظاهرتين الآنفتين لـمما يتلاءم مع مقارنة حكاية معتبرة على أنها سردُ رحلةٍ من مدينة فلورنسا إلى إمپولي، أو مع مقارنة سرد لمباراة بين إيڤانوف وسميث. وفيما خَصَّ المقارنة بالشطرنج، فإن نصاً سردياً يمكن أَنْ يشبه دليلاً للأطفال، مثلما يشبه دليلاً للاعبين محترفين. وفي الحالة الأولى، قد تُقترح مواقف في مباريات تكونُ مبنية بنياناً كافياً (وفقاً لموسوعة الشطرنج)، في سبيل أن يأنس الولد من نفسِه القدرة على التقدُّم بتكهُّناتٍ مكلَّلةٍ بالنجاح؛ وفي الحالة الثانية، تُقَدَّم مواقف في مباريات حيث يلجأُ المنتصر إلى ضربة غير مسبوق إليها تماماً وما كان أيّ سيناريو قد سجّلها، ضربةٌ تذهَبُ أثراً خالداً لجدَّتها وطرافتها، بحيث يلذُّ للقارىء أَنْ يُناقِضَ في ما كان توقَّع. ففي خاتمة حكاية، يُسرُّ الولد أَنْ يعلم أَنَّ الأبطال عاشوا سعداءَ، تماماً مثلما كانَ توقّع؛ وفي مقابلة ذلك فإن القارىء، في ختام رواية «الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين» لأغاثا كريستي، يُسعده أن يعلم أنه كانَ مخطئاً تماماً في ما كان توقَّع وأَنَّ المؤلِّف كانَ مفاجئاً في حبكه بخبثٍ ظاهر. إذاً، لكل حكاية لعبتها واللذة التي تقرر إجزاءَها.

٧ـ ٣ـ النزهات الاستدلالية:

مع ذلك فإنه من الأساسيّ للتعاضد، إذ نختارُ التماثُلَ مع شبكة السكة الحديد أو مع وصفِ مباراةِ الشطرنج، أَنْ يكونَ النص ممكن الإحالة إلى الموسوعة بصورة متواصلة. وفي سبيل أَنْ يخاطر القارىء بتكهُّناتٍ يكون لها القدر الأدنى من الاحتمالية التي توافق مجرى الحكاية، فإنه يعمد إلى الخروج من النص. ولئن يقوم باستدلالات، فإنه يمضي باحثاً في موضع آخر عن إحدى المقدّماتِ المنطقية المحتملة لقياسِه الاضماريّ

المخصوص. وفي عباراتٍ أخرى، إذا كانت الحكاية تقول لَهُ«س قامَ بهذا العمل»، جعل القارىء يجازف بهذا الطرح: «طالما أنَّه كلَّما قام س بعمل موصوف، خَلُصَ، على جري العادة، إلى نتيجة ن»، فقد أمكنه الاستخلاص أنَّ «أيّ عمل للشخص س، سوف تكون لَهُ نتيجة ن».

في النص (١٤)، حين يرفَعُ راوول يدَهُ، فإنَّ القارىءَ يُستدعى إلى الإدراك بحكم إحالته إلى الموسوعة، أن راوولَ إنما يرفَعُ يدَهُ ليضربَ. غير أَنَّ القارىء، لدى هذه المرحلة، يكون قد توقع أن يضرب راوول مرغريت. والحالُ أن الحركة الأخيرة ليسَتْ من الطبيعة السيميائية نفسها التي للحركة الأولى. ولئن كانت الحركة الأولى تُفعِّل البُنَى السرديّة، فإنها تعجز عن توليد التوقّع، بل الأمان؛ في حين أنّ الحركة الثانية، بدَوْرها، إذ تعاضِدُ، بضربات تجريبية، من أَجل أن تُفعِّل الحكاية بصورة مسبقة، فإنها تكون تعُزى إلى توتُّر الرهانِ، و (توتّر) القياس الاحتمالي على السواء.

وحَتَّى يتقدَّم القارىء بفرضيته، ينبغي لَهُ أن يلجأ إلى سيناريواتٍ مشتركة أو متَنَاصَّة: «على جري العادة.... كلّما كان... ولما كان ذلك يحدث على ما يردُ في مسارد أخرى...، بناءً على خبرتي...، كما يعلمُنا علم النفس...». والواقع أَنَّ تنشيط سيناريو معيّن (ولا سيّما إذا كانَ متناصّاً) يعني اللجوء إلى هيئة لازمة (Topos)[٢]. وعليه فإن هذه المنافذَ خارجَ النص (حَتَى تعودَ إليه غنيةً بالغُنْم التناصي) ندعوها النزهات الاستدلالية. وإذا ما بدت الاستعارة رشيقة، نشاء أَنْ نبرز الحركة الحرّة والرشيقة التي لاينِي القارىء يخضع بها لاستبداد النص ـ وفتنته ـ وهو في سبيله إلى إيجاد المخارج الممكنة من المخزون السالف وصفه. بيد أَنَّ نزهته تكون، من حيث المبدأ، مسوقَةً ومحدَّدة من قِبَل النص (كما لو أَنَّ النص، إذ تصل الحكاية إلى فاصلة فلورانسا، يروح يوحي، من خلالِ الخطاب، بأن مسافرنا لا يريد أَنْ يستقلَّ وسيلة نقل؛ إذاً، لا يتبقّى منَ السيناريوات المختلفة الجديرة بالاعتبار، سوى سيناريو واحد ممكن، وعليه يستوجب دخول القارىء ثانيةً إلى النص، متقدِّماً بفرضية أَنَّ المسافر سوف يختار طريق إمپولي). على أَنَّ التقييد الأخيرَ ليس من شأنه

أَنْ يقلِّص حرية القارىء النموذجي، إنَّما يشيرُ فحسب إلى الضغط الذي يحاولُ النَصّ ممارسته على توقُّعات القارىء.

للوهلة الأولى، تبدو النزهة الاستدلالية حيلةً لنصوصٍ مؤدَّاة حول مواضيع رَثّة. ولنتخذ الوسترن مثالاً لنا: يكون الشريف مرتفقاً بطاولة قاعة الاستقبال، فيظهر الشرير من خلفه. ومما لا شَكّ فيه، أننا نعمد إلى نزهة استدلالية إذ نروحُ نتوقَّعُ أَنْ يلحظه الشريفُ في المرآة الموضوعة خلف قناني المشروباتِ الروحية، وأَنْ يستدير ناحيته بفظاظة نازعاً مسدَّسَهُ الكولت من قِرابه، وأَنْ يقتلَهُ؛ إلاّ أَنَّ السيناريو «المقدَّم» نفسه (مؤدًّى، هذه المرة، تأديةً عكسيةً من قِبَلِ مؤلِّف ماكر)، في فيلم على طراز «مل بروكس»، قد يُظهر الشريف عرضَةً لرصاصِ الشرير الذي يصيب منه مقتلاً فور استدارته (على أَنْ يكون دور المشاهِد النموذجي مؤدى من قبَل فاعِلٍ يدركُ كُلَّ ادخاراتِه الموسوعية الممكنة). ولكنّ النزهاتِ الاستدلالية ليسَتْ جميعها على هذا القدر من الآلية. فالرواية المعاصرة، المنسوجة من غير المقولِ ومن مسافاتٍ فارغة، توكلُ توقُّع القارىء إلى نزهات أكثر جرأةً. إلى أَنْ يقبل، على حَدّ ما قد نرى (٤ـ ٧)، توقّعاتٍ عديدةً، تناوبية بصورة متبادلة، وتكون، رغم ذلك، رابحةً جميعها.

ولئن كانت الرواية ذات ماء الورد تجعلنا نقوم بنزهات خارجَ النَص من أجل أَنْ تُدخل إلى النص، ثانيةً، ما يعدكَ به ويهبك إياه، فإنَّ أنواعاً حكائية أخرى تفعَلُ العكسَ تماماً. في حين أَن قصة «مأساة باريسية حقاً» تنصرِفُ على كُلِّ هذه الإمكانيات.

والحالُ أَن قصّة «أسرار باريس»، لمؤلفها «سو» (إيكو، ١٩٧٦) تهبنا مثلاً عن لَعب سهل للغاية. إذ يكون القارىء مدعواً فيها، على الدوام، إلى الافتراض أَنَّ زهرة ـ مريم (Fleur-de-Marie)، المومس البتولية التي كان أنقذها الأمير رودولف في سجادة ـ فرنسية باريسية، لم تكن سوى الفتاة التي أضاعَ والتي طالما سعى في إثرها بيأس. وهذا ما كانَتْ عليه الحال، في الواقع. إلاّ أَنَّ المؤلف «سو»، إذ أكرهَهُ رواجُ روايته على إضافة حلقات، فإنه عجزَ عن كَبْح نفاد صبر قارئه النموذجي، حتّى إذا بَلَغ منتصفَ روايته ألقى سلاحَهُ مستسلماً (لمجرى الرواية

المتوقَّع سلفاً): وقد يكون قالَ في سرِّه، طالما أنّ قارئي باتَ ملمّاً بكل شيء، فهذا يعفيني منْ حثِّهِ ومنْ طرح التوقّعات عليه إعفاءً تاماً؛ وعليه فإنَّ الكَشْفَ (عن الحَلّ) لَنْ يكونَ إلاّ في الخاتمة، ولكن لنقبَلْهُ على أنّه سَقْطَ في صورة مفاجئة (أَقلَّه بالنسبة لنا، وليس بالنسبة لرودولف الذي لا يزال يجهَلُ كُلَّ شيء). وفي هذا الصدد، رأيتَ قارىء «سو» لا يقوى على التصرُّف بخلافِ ذلك، حَتّى لو كانَ أُمِّياً: ذلك أنه يكون في تصرُّفه، منذ الملهاةِ اليونانية وحتَّى عصره، الكثير من السيناريوات التناصّية المتماثلة. ولئن كان لقصة «أسرار باريس» حكاية جيِّدة، فإنّ لها «موضوعاً» بالغ السوء: فلما كانَتْ قصّة هذا التقديم مقلَّصَةً إلى حدودها الدنيا، فقد أمكنها أَنْ تعمَلَ؛ وإذ تكون مُذَابَةً في استطالات بنية خطابية عصيّة على الإدراك، فهي لا تني تجبر المؤلِّف على تلبُّس القارىء، أي على التثبُّت من التوقّعاتِ، مفسدةً بذلك أثراً نهائياً لطالما كان موضع تسوية.

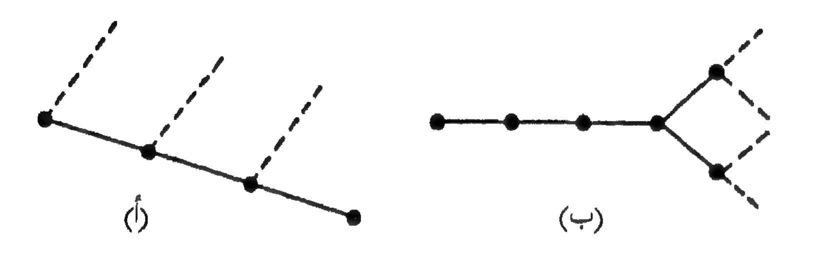
٧ـ ٤ـ حكايات مفتوحة وحكايات مُغلقة:

لا يكون لكلّ الخياراتِ التوقُّعية التي يجريها القارىء قيمة الاحتمال نفسها. فإذا كانَتْ قيمة الاحتمال الأوّلي (والنظري) ١/٢ فإن الخطابَ يتولّى تبديل العلاقة. وإذا بدا أنَّ السيناريوات التناصّية الجديرة بالاعتبار تعمل على تقليصِ الامكانيات، فقد يسع المؤلف، على الدوام، أن ينتقي السيناريو الأقلّ احتمالاً. وبالطبع، فإن الخبث الاستدلالي واتّساع المدى الموسوعيّ لدى القارىء يحسن بهما أن يتدخَّلا في هذا الشأن. على أنّ بعضَ الحكايا قد يتسنّى لها، كذلك، أن تنتقي قارئينْ نموذجيَّين، أحدهما «أمكر» من الآخر؛ أو يمكنها أن ترتئيَ قارئاً تروح مهارته تتعاظم لدى القراءة الثانية (شأنَ ما يفعله كتاب «مأساة باريسية حقاً»). وبالمقابل، فإنّ كتاباً قد يجد، دوماً، قُرّاءً غير نموذجيينّ، يمارسونَ أكثر التصرُّفاتِ المتوقعة تنوعاً ـ وقد يكون ثمة قرّاء، لقصّة «سو»، ممَّنْ، إذا ما قَبل المؤلِّف بأن يجعل زهرة ـ **مريم** ابنةً لرودولف، يهوّوْن من أعلى السحابِ. وأخيراً، يمكن أنْ يروي المؤلف وفقَ منهج قابلٍ للتوقع، أو وفق منهج يقصد المفاجأة.

fleur-de-Marie

إلاّ أن هذا الأمر لا يشكل التعارضَ الذي ينالُ من اهتمامنا: فالتعارض الآنف ظاهِرُ الحدسيَّة، وعلى هذا الأساسِ يسعنا أَنْ ننشىء، كذلك، نمذجيّات أَدقّ فأدق. فما يهمنا، بالأحرى، هو تعارض آخر، قائم بين الحكاياتِ المفتوحة والحكاياتِ المنغلقة. وليكُنْ معلوماً، أننا نسِمُ بالمثالية، ههنا، نموذجيين نظريين. إذ من الجليّ أن أية حكاية لن تكون منفتحة تماماً، ولا منغلقة تماماً، وأنه قد يتسنّى لنا أو يتوجّب علينا أَنْ نقيم نوعاً من التتابع المتدرّج حيث يمكن تعيين الحكايا المختلفة، كلٍ في الموقع الذي يعود لها ـ أقله من حيث أنواعها.

إنّ الرسم البيانيّ (أ) إذ يمثّل نموذجاً من حكاية منغلقة، فإن الرسم البياني (ب) يمثّل بدوره، وبشكل تقريبي، حكاية منفتحة:



في حالة الرسم البياني (أ) نكونُ في موقف مماثل للموقف الذي يلجأ إليه القارىء إذ يستعين بدليل الشطرنج الذي سبق أن تحدثنا عنه في ٧ـ ٢. لدى كُلّ فاصلة احتمالٍ، يسع القارىء أن يجازفَ بطرح فرضيات مختلفة، ولا يستبعد ههنا أن ترشدَهُ البُنَى الحكائية، بصورة خبيثة، إلى الفرضيات الجديرة بالتنحية: ولكنَّ الواضحَ في الأمر أنه لن يكون ثمة إلاّ فرضية جيدة واحدة، فحسب. فالحكاية، بقدر ما تتحقّق وتنتظم على امتدادِ محورها الزمني، تتثبَّتُ من التوقّعات، وتستبعد منها ما لا يتلاءم مع حالة الأمور التي شاءت التحدث عنها؛ وفي خاتمة الأمر، قد تخطُّ الحكاية نوعاً من الخَطّ الكونيّ المتواصل حيث (في حدودِ العالم الذي بناهُ السرد) ما حَصَل هو الحاصِل، وما لم يحصَلْ لَنْ تكون لَهُ أهمية (أما القارىء المتغافِل فما لَهُ سوى أَنْ يعضَّ الأصابع ندماً وجهلاً، إذ يروح يقرأ ويعيد قراءة أجزاء النص قراءة خاطفة وسريعة، ويقول: «ومع ذلك، كان ينبغي لي أنْ أفهمه!» على نحو ما قد يقولُهُ امرؤ

لدى إغلاقِه الكتابَ ثانية، وقَدْ ظنّ نفسه مخدوعاً، الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرون).

إن هذا النمط من الحكاية منغلقٌ، ذلك أنه لا يتيح، في آخر المطاف، أيَّ خَيار ويروح يقصي دوار الخياراتِ الممكنة. فعالم (الحكاية) على هذا النحو، هو ما هُوَ[٣].

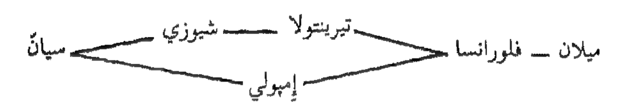
وبالعكس من ذلك، فإن الرسم البياني (ب) يظهر لنا كيف يمكن حكاية مفتوحة أَنْ تعمل. والحال أَنَّ من شأنِ هذا الرسم البيانيّ، في تخطيطيته، أن يظهر لنا انفتاحاً في الحكاية، لدى حالتها النهائية، على أَنّ رسماً بيانياً أكثر دقةً وتفصيلاً (أقل تشجيراً، وأكثر تفريعاً) بمقدوره أَنْ يظهر لنا حكاياتٍ تتوالد الانفتاحات فيها لدى كُلِّ خطوة (يذهَبُ بنا التفكير ثانية إلى فينغانز وايك). ولكن لنظَلَّ قانعين بالنموذج الأدنى. إنَّ حكاية من هذا النوع من شأنها أن تفتح لنا، في آخر المطاف، إمكانيات توقّعية مختلفة، تكون كل منها قادرةً على جعل القصة بأسرها متّسقة (وفي توافق مع بعض السيناريوات التناصّية)؛ أَو لا تكون إحداها جديرةً بإعادة قصّة إلى سابق اتّساقها. أما فيما يتعلّق بالنص، فإنه لا يعرِّض نفسَهُ للشبهة، إذ لا يرسِلُ تأكيداتٍ حولَ حالة الحكاية النهائية: إنما يرتئي قارئاً نموذجياً، يكون على قدرٍ كبير منَ التعاضد، بحيث يُؤتى لَهُ أن يصطنع لنفسِهِ حكاياته، وحده.

ليس من الضرورة بمكانٍ أن يتفكر المرءُ في حكايات «عديمة النبر» إلى حدٍّ بعيد (رغم أنها قائمة، في الرواية الجديدة وبلوغاً إلى بورخيس أو كورتاثار، ومروراً بالقصصِ التي ترويها أفلام أنطونيوني). ويكفي التفكير في خاتمة قصة «غوردون بيم» لألان پو.

وأياً كانت طبيعة الحكاية (مفتوحة أو منغلقة)، فإن ما يبدو لنا عصياً على التبدُّل، هو طبيعة النشاط التوقعي وضرورة النزهاتِ الاستدلالية. فما يتبدَّل حقاً، (وهو ليس بالشأن القليل) هو كثافَةُ التعاضد وحيويته، ليس إلاّ[٤].

هوامش

* يمكن أنْ تتمثّل بنية المسارات من ميلان إلى سيان على الشكل التالي:



(١) إن مفهوم الإمكانية، بالمعنى الذي نستخدمه، ليس غامضاً البتة. إنما جعلنا إثباتنا لذلك كتاب [«Nuovo Orario Grippauds Tutto italia» erstate-1978]. ففي الصفحة ٣ تجد الإمكانيتين ممثلتين على بطاقاتٍ. مع ذلك، فقد يستبقى على إمكانية فلورانسا ـ إمبولي ـ سيانّ في الإطار ٢٦، حيث يؤكّد أنه من الممكن اتباع هذا المسار دون اللجوء إلى وسائل نقل. وبالمقابل فإن الخيار الآخر يكتسب قدراً أكبر من المبادرة من قبَل القارىء، الذي يفترض به، إذ يمر منَ الإطار ١١ إلى الإطار ٢٦، أنْ يدرس كُلَّ وسائِل النقل الممكنة. وبالإجمال، فإن الخيار الثاني يستلزم منه ثلاث ساعات ونصف الساعة بإزاء ساعتين (وأقل من ذلك حتى) بالنسبة للخيار الأوّل. لذا، فلو كان متغيّرُ الوقت هو الحاسِمُ في المسألة، فإن توقُّع أن يقوم المرء بأول خيار يعرض لَهُ، يكونُ رابحاً، من وجهة الاحتمال. بطبيعة الحال، فإن ذلك يكون رهناً بالمتغيّرات التي تُعطى، في نصٍ، من خلال وصفِ الفردِ العميل. فلنقُلْ أَنَّ فيلياس فوغ كان يمكن أن يختار السبيلَ الأقصَر، في حين أَنَّ ساندرارز وبوتور كان يمكن لهما أن يختارا طريق تيرونتولا.

(٢) أنظر كذلك كريستيفا، ١٩٦٠ و١٩٧٠. أنظر، إلى ذلك، مفهوم الأرموزة «اللاحقة بالمتمّم» (code proaïrétique) لدى بارت، عام ١٩٧٠.

(٣) والحال أنه توجد إمكانية ثالثة: طَلَب للتعاون مزيَّف. فالنص يوفّر قرائن جديرة بأن تضلِّل القارىء، دافعة إياه إلى طريق التوقعات التي لا يقبل النص بإثباتها أبداً. مع ذلك، فقد ترى النص يعود إلى إثبات التوقعات، بعد أن يكون نقضها. وهذا الوضع كفيل بأن يسوقنا إلى النموذج (ب) من الحكاية المفتوحة؛ إلا إذا كان النص يحولُ، بصورة علنية، دون أن ينجز القارىء اختياراته بحريّة، وإلاّ إذا كان يشير إلى أَنَّ أيّ اختيار لن يكون ممكناً. تلكَ هي حالة قصة «مأساة باريسية حقاً».

(٤) أنظر في «العمل المفتوح» كيف أَنّ كثافة التعاضد المكتسب يمكن أن تصير عنصرَ تقويم جماليّ للعمل.



٨ ـ بُنى العَوَالـم

٨ـ ١ـ أيكون ممكناً الحديث عن عوالم ممكنة؟

رأينا في ما سبق كيف أَنَّ مفهوماً للعالم الممكن هو ضروري لكي يصحّ الكلام على توقّعات القارىء. لنعُدْ إلى النص (١٤) مرة أخرى: حين يرفَعُ راوول يدَهُ، يُحملَ القارىء على إطلاقِ توقُّع حول أن راوول قد يضربُ أم لا. والحال أن القارىء يضطلع، في هذه الحال، بموقف قَضَويّ: إذ يرتئي أو يظن س (= «راوول سوف يضرب مرغريت»). إلا أَنَّ الحكاية في حالتها المتعاقبة، وعلى ما ينبئنا النص به، سوفَ تنقض هذا التوقع: راوول لا يضرب مرغريت. أما توقع القارىء (حوْلَ «رَمي الآخر») فيظل بمثابة مسوّدة لقصة أخرى كان يمكن أن تحدث (غير أنها لم تحدث من الوجهة الحكائية).

من الأهمية بمكانٍ أن يشير المرء، ثانيةً، إلى الاختلاف ما بين التوضيح الدلالي والتوقع الحكائي: أَنْ تتحقّق، بإزاء الأعجومة [إنسان]، خاصّيةُ أن يكون الكائن بشرياً أو أن تكون للمرء ذراعان معناهُ أَنْ يضطلع بعالم التاريخ باعتباره عالماً «واقعياً» (وبالتالي، باعتباره عالماً حيث قوانين عالم اختبارنا وموسوعتنا التي تكونُ مرعية الإجراء، إلى أَنْ يثبت المؤلف عكس ذلك). وفي مقابلة ذلك، فإن توقُّع ما قد يحدثُ في الحكاية يعني التقدم بفرضيات حولَ ما هو «ممكن» (أنظر ٧ـ ٢، حولَ الطريقة التي يدركُ فيها المرء تصور الممكن).

الآن، يسعنا أن نتساءَل عما إذا كانَ مشروعاً أن نستعير، في إطار

سيمياء خاصة بالنصوصِ الحكائية، تصوُّرَ «العالم الممكن» من المنطق الجِهوي(*) كما أُقر في مصادره، وذلك من أجل أن نتجنّب سلسلةً من المسائل المرتبطة بالقصدية بأنْ نعالجها في إطار المصداقية. وعليه، فإنّ علمَ دلالة منطقياً خاصاً بالعوالم الممكنة ينبغي لَهُ ألا يحدِّد اختلافات المدلولِ الملموسةَ بين عبارتين، ولا أَن يعيِّن الأرموزة الضروريّة لتأويل كلام معطى: «ذلك أن النظرية الدلالية تعالجُ فضاءَ الهويّاتِ والعوالم الممكنة باعتبارها مجموعات مجرَّدة وغير متميّزة، وخالية من أية بنية، وحتّى لو كان المَدَى القائم بين ردحات الزمن جماعاً منتظماً أقلّه، فقد يكون منَ المألوف والمناسب أَنْ تُفرض على العلاقات ذاتِ النظام أقل قدر ممكن من الضوابط». (توماسون، ١٩٧٤: ٥٠).

بيد أَنَّ ما نحاوِلُ القيام به في هذا الكتاب هو عكس ذلك تماماً: إذ لا نزالُ نهتم بالتوافقاتِ الملموسة حولَ التبيينات الدلالية كما حولَ التوقعات؛ وبالتالي فإن عالماً ممكناً، من الوجهة السيميائية النصّية، ليس جماعاً مليئاً أو عالماً مؤثَّثاً، على حَدّ التعبير الرائج في ما كتب بهذا الصدد. وهكذا، يتوجب علينا ألا نتحدث عن نماذج مجرَّدة لعوالم ممكنة لا تحتوي على قوائم من أفراد (أنظر. هينتيكّا، ١٩٧٣، ١) إنما تنطوي على عوالم «حاملة» يستوجب علينا أَن نتعرَّف إلى الأفراد المتواجدين فيها، والخصائص التي تتميّز بها.

إلّا أَنَّ قراراً من هذا النوع من شأنه أَنْ يكون عرضةً لشتّى الانتقادات، كتلك التي تقدَّم ڤولّي (١٩٧٨) ببعضها. أما انتقادات ڤولّي فتهدف إلى تحقيق ثلاث غايات: ١) إبراز المغالاة التي تبلغها الأوساطُ المنطقية في استخدامها استعارة «العالم الممكن»؛ ٢) التصوُّر المادي والأنطولوجي (عن العالم الممكن) الذي بات يُتَداولُ في النظريّات الجهوية ذات التوجُّه الماورائي؛ ٣) وأخيراً، استخدام فئة العالم الممكن في التحليلات النصّية. ونحن، ولئن كُنَّا نوافقه الرأي في الانتقادَيْن الأولين، فإننا نردّ لَهُ الانتقادَ الثالث.

يبيّن ڤولّي أَنّ تصوُّرَ العالم الممكن كان قد استخدم في عددٍ، لا بأس به، منَ السياقاتِ الفلسفية، من حيث كونها استعارة ناشئة، مع غيرها

القصد بالمعنى المنطقي يرادف المفهوم ويقابل المصداق.

(*) الجهة (modalite) هي إحدى المقولات الأربع في المنطق، وهي لا تتعلق بمضمون الأحكام، بل بقوتها ودرجتها من حيث التصديق، أي من حيث هي: ممكنة أو ممتنعة موجودة أو لا موجودة ضرورية أو حادثة.

من الاستعارات، من الخيال العلميّ المستقبلي (لئن كان هذا صحيحاً، فإن الصحيح كذلك هو أن العلمَ المتخيّل كانَ قَبَس هذا التصوّر من لايبنز وأمثالِه). والحال أنَّ هذا التصوُّر، حينَ يفيد في معالجة الكيانات القصدية بتعابير مصداقية، يكون مشروعاً، غير أن استخدام الاستعارة ليس جوهرياً للنظرية. إلى ذلك، فإن العديد من التعريفاتِ المعطاةَ بعباراتٍ من المنطق الجهوي يمكن أَنْ تظلَّ في حيرة من أمرها: القول أَن قضية س هي ضرورية حين تكون حقيقية في كل العوالم الممكنة، والقول من ثم أن عالَمَيْن هما ممكنان بصورة متبادلة حين تبدو فيهما القضايا الضرورية نفسها مشروعةً، ليس هذان القولان سوى **مصادرة على المطلوب** (Petitio prinncipii) الذي يصدران عنه. وهذا مما يصحّ كذلك في التعريف بالقضايا الممكنة (التي ينبغي أن تكون حقيقية أقلّه في عالمٍ واحد).

على أن بعضَ النظريات، التي تبدي ميولاً ميتافيزيقيّةً خطيرةً، انتقلت فيما بعد من تصوُّر «شكلي»، إلى تصور «مادّي».

«من وجهة نظر شكلية، فإن عبارة [عالم ممكن] هي اسم لبْنية من نموذج معيَّن، وهي مجال للتأويل على طراز تارسكي، الذي يمكن أن تسوّغه على المستوى الحدسيّ، استعارة العالم أو الوضع المضادّ الفعل، غير أنه يكون مصنوعاً بطريقة مختلفة جداً وهو متميّز بصورة خاصة بمميزات من نموذج مختلفٍ جداً عن تلك التي تُنسَب حَدْسياً، وبأقدارٍ متفاوتة، إلى كيان ملتبس بعض الشيء على أنه «عالم» (على سبيل المثال فإن عالماً ممكناً شكلياً لا ينوجدُ، أو بالأحرى يقوم على الواقع الذي تكون عليه الأشكال الهندسية أو الأرقام المتناهية...). والحال أَنَّ التصوُّر المادي، في مقابلة ذلك، هو شيء ليس راهناً، غير أنه موجود[1]، وتصفه الشكلانية بصورة تتفاوت إجماليةً. ويبدو أن هذا التصوُّرَ المادي يذهَبُ إلى افتراض أن الواقع ليس خياراً ممكناً بين خياراتٍ أخرى كثيرة، بل هو خيار ممكن إلى جانب خياراتٍ أخرى كثيرة، مع الاعتبار باختلافٍ وحيد (مع كونه فائق الوصف) هو أَنَّهُ هُنا».

إننا، إذ نوافق ڤولّي على هذا النقد، نشير إلى أننا حاولنا في الفصل السابق (٧ـ ٢) أن نحدِّد المعنى البنيوي الذي ينطوي عليه تصوُّر

الإمكانية: إنه لمن الجليّ، حتى من الوجهة الحدسية، أَنَّ ثمة اختلافاً بين الإمكانية التي توفّرها لي شبكة سكك الحديد من أجل أن أمضي من فلورانسا إلى سيانّ عبرَ مدينة إمپولي، وبين إمكانية ألا يكون ڤولّي قد وُلِد. والحالُ أن الإمكانية الأخيرة مخالفة للواقع، ويتضح لنا بالمقابل أن الواقعة (العصية على الوصف) هي أَنَّ ڤولّي كانَ قد وُلِد. غير أَن إمكانية المضيّ من فلورانسا إلى سيانّ مروراً بإمپولي ليسَتْ مخالفة للواقع في المعنى نفسه: فالكونُ (في حال قبولنا بأن تكون للكلمة معنى) مصنوعٌ على النحوِ الذي يكون فيه ڤولي مولوداً، أو يكون فيه ڤولّي غيرَ مولود. وبعكس ذلك، فإنَّ شبكة سكة الحديد مصنوعَةٌ على النحو الذي يكون فيه ممكناً، على الدوام، إتمام اختيار تعاقبيّ بين إمپولي وتيرونتولا.

Possibile ipsum factum

هل يسعنا أَنْ نشرح قول «ڤيكو» بإيحائنا أن «**الـممكن هو الواقع ذاته**»، أي أنه يجب الإقرار بوجود ممكناتٍ كونية وممكنات بنيوية، تكون مدوَّنة في نسق بنْيَةُ الثقافة، على ما هيَ شبكاتُ سكك الحديد، ورُقَعُ الشطرنج والروايات؟

غير أَنّ ڤولّي لا تراه يقف عند هذا الحدّ. وبعد أَن يكون انتقد، بحق، التصوُّر المادّي، يضيف قائلاً: «ولكنَّ المفهومَ، يتبدّى كذلك، في أساسِ بعضِ استخداماتِ تصور العالم الممكن غير المعرَّضة للشبهة في الظاهر، شأنَ الاستخداماتِ ذات الصلة بالمواقفِ القضوية أو بالتحليلاتِ الأدبية».

ولنتكلم بوضوح. قد يتسنى لنا أَنْ نذهَبَ عميقاً في نقدِنا تصوّراً ما، على النحوِ الذي تستخدمُهُ به السيمياء النصية[٢] مشدِّدةً على الاختلافِ (الحاسم) بين **مجاميعِ** فارغة من عوالم، كتلك التي يستخدمُها المنطِقُ الجِهوي، وبين العوالم «الفردية» المؤثَّثة. وقد يكفي القول إن العوالم هذه ليسَتْ نفسها في حالِ المقارنة الآنفة. والحق يقال: إن هذه العوالم تشكّل مقولتين تعملان في إطارَيْن نظريَّين مختلفَين. وفي الصفحات التالية سوف نستعيرُ من المنطق الجِهوي ايحاءاتٍ عديدةً، إنَّما لغاية أَنْ نبني مقولة «عالم ممكن مليء» مضبوطةً في سبيل أَن تفيد منها سيميائية مخصوصَة بالنصّ الحكائي، وحين نكون أَدَّيْنا قسطَنا وأقررنا بـمُستعَاراتِنا، نصيرُ أدعى إلى

جمع «مجموع»

الاكتفاء بالتأكيد على أن الأمر لا يعدو كونه مقولة لا تجمعها بالأخرى سوى علاقة مجانسة. أمَّا إذا كانَ المنطِقُ الجِهوي يعتبر هذه المقولة استعارة، فقد يصيرُ لزاماً على سيميائية النص أَنْ ترى فيها تمثيلاً بنيوياً للتفعيلات الدلالية الملموسة. ولسوف نرى كيف يتم ذلك. فعلى سبيل المثال، لئن كان التصوّر السيميائي - النصّي لا يسمح بإجراءِ حساباتٍ فإنه يسمح بالمقارنة بين البُنَى وتلفُّظ بعض قواعد التحويل، وهذا ما قد يفيضُ عنِ اللزوم ههنا. أما أن نكون جازفنا في بحثنا عن المجانسة (إذ كان يمكن لنا أن نتحدث عن «عوالم حكائية» أو عن «قصص تعاقبية»)، فهذا يعني، بعد جردةِ الحساب، أننا نتفكّر في أن نظريةً حولَ العوالم الممكنة النّصّية، مع كل ما تنطوي عليه من أجل إعادة تعريف المفاهيم من حيث كونها خاصّيات ضرورية وذاتية، ومن حيث تعاقبيتها وبلوغيّتها، يمكن (النظرية) أن توفِّر، كذلك، بعضَ الايحاءات لأولئك الذين يشتغلون في ميادين كنّا استعرنا منها هذه المقولات.

Accessibilité

ولما كان ڤولّي أبعد من أَنْ يُلفي نفسه على هذه الجبهة (نقد الظروف المنهجية لتأثيث العوالم تأثيثاً قسرياً)، فقد شاء التهكُّم على الغائيات التي كان يجدر بها أَنْ توجّه الذين مضوا يتحدثون عن عوالم ممكنة نصّية. فهو ينتقد خلافاً للأصول تطبيقَ هذا التصور على عوالم حكائية متسائلاً: فماذا يعني القول إن العالم حيث أحيا هو عالم ممكن؟ ويوردُ لذلك كلاماً لـ «كوين» الذي يمضي مسائلاً نفسه بتهكُّم: أيكون رجُلٌ أصلع ممكنٌ لدى شقّ الباب، نفسهُ ذلكَ الرجل البدينَ الممكن لدى شقّ الباب نفسِه، وكم من الرجالِ الممكنين يسعهم أن يقفوا لدى فتحة بابٍ؟ والحال أَنَّ هذه خدمة سيئة تُؤَدّى لفيلسوفٍ كانَ أخطأ في عدم اعتقاده بالمنطقِ الجِهوي، غير إنَّ لَهُ محاسنَ أخرى كثيرة. فمن قالَ أَنَّ أولئك الذين يتحدثون عن عوالم نصِّية إنما يهتمون بعددِ السادةِ الذين يقفون لدى شَق الباب؟ والأحرى أنهم يسعون إلى إدراكِ الاختلافِ البنيوي القائِم بين قصة حيث يعمى أوديپ ويشنق جوكاست نفسه وبين قصة حيث يُعمى جوكاست ويشنق أوديپ نفسه. أو يجهدون في إدراكِ الفارق بين قصة حيث نشبت حرب طروادة وبين قصة حيث لم تنشَبْ حرب طروادة. وما يعني أَنْ يروي المرء في نَصٍ أن دون كيشوت ينطلقُ

في هجومِه على العمالقة وأنَّ سانشويانثا يلحق بهِ، كرَهاً، ويمضي مهاجماً طواحين الهواء؟ وأغاثا كريستي، أية قصة تستشفُّها وقد يعمد القارىء إلى بنائها من أجل أن يحلَّ الانقلاباتِ المفاجئة في رواية «الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرون»، وهي تدرك تماماً أنَّها قصة قد تكون مختلفة عن تلك التي قد تسوقها إلى خاتمتها، وهي تتَّكل، مع ذلك، على هذا التنوّع مثلما يتكل لاعبُ الشطرنج على الضربة الضائعة التي قد يلعبها الخصم (إن كان ممكناً)، في معرضِ ردِّهِ، بعد أن يكون اجتُذب بمهارة إلى فَخّ مناورة؟

ذلك هو التمثيل البنيوي الذي يُجرى عن هذه الإمكانياتِ والذي يهمّ السيميائية النصّية، وليس التساؤل القلق الذي يخاطبُ ڤولّي به نفسه (وإن كان ذلك نظرياً) إذ يتساءلُ عما إذا كان يوجد في كل العوالم التي يرجو، ويتخيَّلُ أو يحلم، أم تراهُ يقوم في العالم الذي يثبتُ وجودَهُ فيه فحسب. «أنا موجود ـ قالَ ـ، أما إيما بوڤاري فلا (لئن كان لأيما بوڤاري واقعها الثقافي، الموجود، والراهن، فإنّ ذلك لا يصنَعُ منها شيئاً قائماً هنا). «تباً إذاً! فنحن الذين جعلنا نقومُ، طوال سنوات، بدوراتنا على كل الأعياد الغابيَّة في فرنسا وفي الناڤارّ في سعي منا إلى لقائها...!» وإذ يُوضَعُ جانباً كُلُّ مزاح، يتبدّى أنَّ طبيعة العملياتِ المصداقية التي يعمد القارىء إلى إتمامها في حدودِ هذه الوجوداتِ الثقافية، هيَ ما نحاوِلُ أيضاحَهُ ههنا، بالضبط. إنَّ عالماً ثقافياً، إذ يكونُ موثّثاً، فإنه لا يكون جوهرياً، على الدرجة نفسها. وأن يقول المرء أنه بوسعه وصف هذا العالم المليء بعباراتٍ من الأفراد والصفات، لا يعني في ذلك أنه ينسبُ إليه جوهريّةً ما. فليس هذا العالم قائماً هنا، بمثل وجودِ الآلة الكاتبة التي أباشر طبع هذه السطور بها. بيد أنه (العالم المليء) قائم هنا من حيث كونه مدلولَ كلمة: فمن خلال تعبيرات عديدة، يسعني أنْ أهبها بنيتّها المقطعية (Componentielle). (بعد أن نكون وضعنا جانباً واقعة أنه، في ذهن الناس، حين يُدرك مدلولُ كلمة فإنَّه من المحتّم أن يحدث شيء ما، حكاية غريبة من تشابكية عصبية وتفرّعية عصبية لا قبل لنا على تفحصهما، ههنا، بيد أنهما لَنْ يكونا ظاهرَيْ الاختلافِ عن شبكة السكة الحديد). وإذا كانَ متاحاً تمثيل نسيج **التعبيرات** (Interprétants) التي يتشكل مدلولُ [القطّ] منه، فلمَ لا

يكون مسموحاً تمثيل نسيج التعبيرات الذي يتكوَّن العالم منه حيث ينشط القِطُّ المحتذي سوقاء؟

نعم، ولكن لنعالج الأمر. إنه عالِم القِطّ المحتذي سوقاء بالضبط ما يزعجُ ڤولّي، أو لنكُنْ أكثر تعييناً ـ رغم أَن هذا قد يؤول بنا إلى النتيجة نفسها ـ إنه عالم «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة». والحال أَنَّ ڤولّي يعمد إلى فضح الميولِ إلى تمثُّل عالم الحكاية وعوالم المواقف القضويَّة لذاتِ القلنسوة الحمراء الصغيرة أو للأم ـ الكبرى، إذ يقول إنه (عالم الحكاية) فاسِد بسبَب من ثباته الفوتوغرافي ومن **طبيعانية** ظاهرة ماثلة فيه. Naturalisme إننا نوافقه الرأي بشأن التثبيت الفوتوغرافي: فمن أجل أن نحلِّل فيلماً نحيله إلى مقاطع فوتوغرافية متكتلة فيما بينها. ولئن نضيِّع تواصلية الفيلم فإننا نجدُ لَهُ تركيبَةُ (النحويّ). إذاً، إنه لمن الأكيد أَنَّ المشروع الذي جعلنا ننكبُّ عليه قد يكون عرضة لكل المخاطر لتي يتعرَّضُ لها مَنْ يعمَلُ على مكبِّرة لصُوَر (من نوع موڤيولا). أَما الاتهام (الذي يرمي به ڤولي السيمياء النصية) بالطبيعانية، فيعني أنّ التحدُّث عن عوالم نصِّية يعادِلُ الإصغاءَ إلى الحكائية، إصغاءَ مَنْ يكونُ واقعياً ستالينياً، إذْ يروح السرد يمثِّل لَه الواقِعَ تمثيلاً فوتوغرافياً.

غير أَنَّ المسألة لا تكمن ههنا، أي في معرفة ما إذا كانت الرواية، تمثِّلُ الواقع، بالمعنى الواقعي الساذج وكيف تمثله. ذلك أن هذا شأن المسائِل الجمالية. في حين أَنَّ مسائلنا تعود بتواضع، إلى الشأن الدلالي البحت. فما يهمُّنا، هو أَنَّ كُلَّ مَنْ يَقْرأُ ـ في بدء رواية ـ عبارة [جان مضى إلى باريس]، يُحمل، حتَّى ولو كانَ معجباً بتولكيان أو بأورسولا لوغوين، على تفعيل (احتمالات التأويل الآتية) بوصفِهِ محتوى **اللفظ**، Enoncé فيخلص إلى أنه يوجَدُ «في مكان ما» فردٌ يُدعى جان، مضى إلى مدينة تدعى باريس، مدينة كانَ سَمِعَ الناس يلهجون بها خارجَ هذا النص لأنها مذكورة في كتاب الجغرافيا على أنها عاصمة فرنسا، في هذا العالم. ويمكن، كذلك، أَنْ يكون زارَ باريس شخصياً. ولكن، لو كانت الرواية تستكمل جريانها بعد ذكر الجملة التالية [ولما بلغ باريس، مضى جان يسكن في غرفة من الفندق القائم في قمة برج إيفل]، فقد نصير مستعدِّين

لأن نحكم بأنَّ قارءنا، لو كانت لَهُ موسوعة متأثِّثة بعضَ الشيء، لكان قرّر أنه لدى قمة برج إيفل، في هذا العالم، ليس من فنادق. ولكنه، رغم ذلك، لن يعمد إلى التشكّي من أنَّ الرواية لا «تمثّل» الواقع تمثيلاً مضبوطاً: إنّما قد يختارُ مسلكاً تأويلياً آخر ببساطة ويقرّرُ أنَّ الرواية لاتني تحدثه عن كَوْنٍ بيِّن الغرابة حيث توجد باريس، على نحو ما تنوجدُ في عالمنا (الواقعي)، ولكن حيث بُنيَ برج إيفل بصورة مختلفة. وعليه، فإنه يعدُّ نفسَهُ، عرضياً، لقبول فكرة ـ ولا أقلّ من فكرة ـ أنَّ في باريس لا يوجد مترو، ولا نهر السين، إنما بحيرة ونَسَقٌ منَ الطرقِ المعلَّقة من رسم الفنان «موبيوس». وهذا يعني أنَّه سوف يقوم بتوقّعاتٍ توافق التعيينات التي يكون النص قد أعطاه إياها فيما خَصَّ نموذج العالم الذي يقتضي أن يتوقعه. أما بالنسبة لمسألة «الكماليَّة» التي ينبغي أن تكون لهذه العوالم النصية (والتي لا يسعها أن تكون)، فسوف نفرد لها الكلام في الفصل ٨ـ ٩[٣].

وفي خلاصة الأمر نقول إنه: (I) يبدو من الصعوبة بمكان أَنْ يباشر المرء في تأسيس ظروفِ التوقع على حالاتٍ من الحكاية دون أَنْ يبني تصُّوراً سيميائياً ـ نصّياً حولَ العالم الممكن؛ (II) على أنَّ هذا التصور، كما نقول لاحقاً، ينبغي أَنْ يُتَّخذ بمثابة أداة سيميائية ويقتضي منا أَنْ ننسبَ إليه الأخطاءَ التي يمكن أن يمثّلها، لا الأخطاء التي تروح تمثّلها تصوُّراتٌ متجانسة أخرى؛ (III) وإذا كان صحيحاً أَنَّ تصوُّر العالم الممكن قد بَلَغَ المنطقَ الجهوي من خلال الأدب، فلمَ لا تصحّ إعادته إليه؟؛ (IV) إنَّ ما ألجأنا، بصورة لازمة، إلى تصوّر العوالم الممكنة كانَ محاولتُنا أن نمثِّل بنية قصة شأن قصة «مأساة باريسية حقاً».

إلى ذلك، فنحن ندين «لألفونس ألّيه» بشعار غاية في الجمال (كان لَهُ، دونَ أدنى شك، برنامج صناعته)، شعار نبلّغه إلى المناطقة الذين قد يُبدون قلقهم من استخدامنا مفهوماً يخصّهم: «المنطقُ يقودُ إلى كل شيء، شرط الخروج منه». Poétique

٨ـ ٢ـ تعريفات أوّلية:

إننا نعرّف العالم الممكن بأنه حالة من الأمور يعبّر عنها مجموع

من القضايا، حيث تكون كلُّ قضية، إمّا م، أو لا ـ م. وعلى هذا، فإن عالماً مشكَّلاً من مجموع أفراد موفوري الخاصيات وبما أن بعض هذه الخاصيات أو المحمولات قد يكون أفعالاً، فإن عالماً ممكناً قد يُرى بوصفه سياقاً من الأحداث. وبما أن السياق هذا لا يوجد فعلاً، بل هو ممكن بالضبط، فإنه ينبغي أن يتعلق بمواقف قضوية تنمّ عن امرىء، لا ينِي يثبته (السياق)، ويعتقد به، ويحلم به، ويرغب فيه، ويرتئيه... إلخ.

والحال أن هذه التعريفات كانت صِيغَتْ، في غالبية الأدب، حول منطق العوالم الممكنة. بيد أن البعض، في المقابل، يقارن عالماً ممكناً «برواية كاملة» أي بمجموع من القضايا التي لا يمكن أن تغتني إلّا على حساب تماسكه. ثم إن عالماً ممكناً هو ما تصفه هذه الرواية الكاملة (هنتيكا، ١٩٦٧ و ١٩٦٩ ب). وبحسب پلانتينغا (١٩٧٤: ٤٦) ـ الذي تقلقنا ميوله الكيانية البشرية (الأنطولوجية) فإن لكل عالم ممكن «كتابه الخاص به: إذاً، لكل عالم ممكن «و»، يكون الكتاب حول «و» هو مجموع القضايا م، بحيث يكون ع عضواً في م إن كانت «و» متضمنة في إ. وعليه فإن «كل مجموع أقصى من القضايا إنما هو الكتاب عن عالم ما».

وبطبيعة الحال، فإن القول إن عالماً ممكناً يوازي نصاً (أو كتاباً) لا يعني القول إن كل نص يحكي عن عالم ممكن. فإن كنت أكتب كتاباً موثقاً تاريخياً حول اكتشاف أميركا، فإني أرجع إلى ما نطلق عليه تعريف العالم «الواقعي». وإذا كنت أصف قسماً منه (سلامنكا، السفن، سان سلفادور، وجزر الانتيل...) فإني أفترض أو اعتبر أنه جدير بالافتراض كل ما أعرفه عن العالم الواقعي (على سبيل المثال أن إيرلندا تقع غرب انكلترا، وأن شجر اللوز يزهر في الربيع وأن مجموع الزوايا الداخلية لمثلث يساوي مئة وثمانين درجة).

وبالمقابل، ما الذي قد يحدث حين أخطّ تخوم عالم متخيل شأن عالم الحكاية ـ المثل؟ فأنا، إذ أروي قصة «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» أعمد إلى تأثيث عالمي الحكائي بعددٍ محدودٍ من الأفراد

(الفتاة الصغيرة، الأم، الجدّة، الذئب، الصيّاد، الكوخان، الغابة، البندقية، السلّة) وقد أوتوا عدداً محدوداً من الخاصّيات. على أن بعضاً من تعيينات الخاصّياتِ المعطاة للأفرادِ يتبع القواعد نفسها التي يسير عليها عالمُ خبرتي (على سبيل المثال، فإن غابة الحكاية ـ المثل حافلة بالأشجار)، في حين أن بعضاً منَ التعييناتِ الأخرى لا تعود إلاَّ إلى هذا العالم (الغرائبي): على سبيل المثال، في هذه الحكاية ـ المثل، تكون للذئاب خاصية التكلم، وللجدَّات والفتيات الصغيرات خاصية أَنْ يبقَيْنَ حَيَّاتٍ بعد أَنْ تبتلعهنَّ الذئاب.

وفي داخل هذا العالم الحكائي، تتخذ الشخصيات مواقف قضويّة: فذات القلنسوة الحمراء الصغيرة تظنّ، على سبيل المثال، أَنَّ الفرد المتمدّد في السرير هو جدّتُها، (في حين أن قارىء الحكاية يكون قد سبقَ الفتاة الصغيرة إلى نقضِ ظنّها الآنف). والحالُ أَنَّ ظَنَّ الفتاة الصغيرة هو أحد هذه البناءات **الضميرية**، غير أن ذلك لا يحولُ دون انتمائِه (الظنّ) إلى حالاتِ الحكاية كافة. وهكذا تقترحُ علينا الحكايَةُ حالتين منَ الأمور، الحالة الأولى حيث يوجد الذئب في السرير، والحالة الثانية التي تمثلُ فيها الجدّة في السرير. أما نحن، فندركُ للتوّ (في حين أَن الفتاة الصغيرة تظلّ جاهلةً هذا الأمر حتَّى ختام القصة) أن إحدى هاتين الحالتين باتتْ ممثّلة على أنها صحيحة، والأخرى على أنها مزيَّفة. أما المسألة الجديرة بالمعالجة فتكمن في إدراك أي العلائق قائمة، من منظور بنية العالم والبلوغيّة المتبادلة، بين حالتي الأمور هاتين.

Doxastique نسبة إلى أفعال الضمير والحال.

٨ـ ٣ـ العوالم الممكنة باعتبارها أبنيةً ثقافية:

إنَّ عالماً ممكناً هو بناء ثقافي. وبعباراتٍ واقعية مستخدمة بصورة بالغة في حدسيتها، فإن عالم الحكاية الذي تنطوي عليه القصة ـ المثل «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة»، بالإضافة إلى **عالم** الفتاة الصغيرة **الضميريّ**، إنَّما هما «مصنوعان» من قبل «پِرُّو». ولما كان الأمر متعلقاً بأَبنية ثقافية، فقد توجب أن نكون أكثر دقّةً في تعريفنا بمكوناتها (الأبنية): ولما كان الأفرادُ مبنيّين من خلال إضافاتِ خاصِّيات، فقد اقتضى ألا نعتبر بمثابة البدائيّ سوى الخاصيات. وكانَ هِنتيكّا (١٩٧٣)

Monde doxastique

قد أظهر كيف أَنه يمكن لنا بناء عوالم ممكنة شتَّى، وذلك من خلالِ تراكبات مختلفة تخضع لها رزمة الخاصِّيات ذاتها.. فإذا ما أُعطينا الخاصِّيات التالية:

دائريّ　　　أحمر　　　غير دائري　　　غير أحمر

فإن بمقدورها أَنْ تكون متراكبةً بصورةٍ تجعلها تشكِّل أربعة إفرادٍ مختلفين على النحوِ التالي:

	أحمر	دائري
ي$_{١}$	+	+
ي$_{٢}$	+	−
ي$_{٣}$	−	+
ي$_{٤}$	−	−

بحيث يتسنى لنا أن نتخيَّلُ «و$_{١}$» حيث يوجد ي$_{١}$ وي$_{٢}$ وليس ي$_{٣}$ وي$_{٤}$، كما قد نتخيل و$_{٢}$ حيث يوجد ي$_{٣}$ وي$_{٤}$ وحدهما.

إنه لمن الجليّ، نظراً لما نحن عليه، أَنَّ الأفراد يختزلون بوصفهم تراكيب من الخاصيات. وفي هذا الصدد يتكلم «ريشر» (١٩٧٣: ٣٣١) على عالم ممكن باعتبارهِ «**أفهوماً فارغاً دونَ موضوع**» أو بمثابة «مقاربة الممكنات شأنّ مقاربة الأبنية المعللة» ويقترح قالباً (قد نلجأ إليه لاحقاً في سياق بحثنا) يعيننا على تركيب رزم من الخاصيات الجوهرية مع رزم من الخاصيات العرضية في سبيل تعيين مختلفِ الأفرادِ. إذاً، لا تعدو «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» كونها، في إطار القصة التي تروح تبنيها، إندماجةً مكانية ـ زمانيةً لسلسلةٍ من الصفات البدنية والنفسانية (المعبر عنها دلالياً «بالخاصيات»)، ومن ضمنها كذلك خاصِّيات أَنْ تكون (الإندماجة) في علاقة مع غيرها من اندماجاتِ الخاصيات، وأن تؤدِّي بعضَ الأعمال وتكابد بعضاً منها[٤].

Ens rationis

مع ذلك، فإنكَ لا ترى النص يعدِّدُ كلَّ خاصيات هذه الفتاة الصغيرة الممكنة: وإذ يقول لنا إنها فتاة صغيرة، فإنه يعهد إلى كفاءاتنا في التبيين الدلالي بواجب الإدراك بأنها كائن بشري ومن الجنس الأنثوي،

وأنّ لها ساقَيْن، إلخ. إذاً، من شأن النص أَنْ يرشدنا، إلاّ في حالةِ تعيينات معاكسة، شطر الموسوعة التي تنظم العالم «الواقعي» وتعرِّف به. وكلّما اقتضى منه الأمر أَنْ يجريَ تصحيحاتٍ، في حالة الذئب على سبيل المثال، عَمَد (النص) إلى إعلامنا بأنَّ هذا الأخير إنما هو «ناطق». وعلى هذا، فإن عالماً حكائياً يستعير - إلاّ في حالة تعييناتٍ معاكسة - خاصّياتٍ من العالم «الواقعي»، وحتّى يؤدي ذلك دونَ تبديد للطاقة، يضع في التداول أفراداً كانَ قد أُقِرّ بهم على أنهم كذلك، دون أَنْ يعود إلى بنائهم خاصّيةً خاصّيةً. إذاً، يروح يزوِّدُنا النص بأفرادٍ من خلالِ أسماء شائعة أو أسماء علم.

وهذا يعود لأسباب عملية عديدة. أوّلها، أَنَّ أيّ عالم حكائي لا يسعه أن يكونَ مستقلاً استقلالاً ناجزاً عن العالم الواقعي، لأنه لا يكون بمقدورهِ أن يعيِّن حالة من الأمور «قصوى» و «متماسكة»، وذلك بأن يستصرح من لا شيء كاملِ أثاثِ الأفرادِ والخاصّيات. إنَّ عالماً ممكناً من شأنه أن يتراكبَ، بوفرة، مع العالم «الواقعي» القائم في موسوعة القارىء. على أن هذا التراكبَ ضروري لأسباب عملية تُعزى إلى الاقتصاد، بل إنه ضروري لأسباب نظرية أكثر جذريَّة، أيضاً.

والواقع أنه ليس مستحيلاً إثبات عالم تعاقبي كامل فحسب، بل إنه من المستحيل أن نصفَ العالم «الواقعي» على أنه كامل، أيضاً. وحتّى من وجهة نظر شكلية، فإنه من العسير إخراج وصف شامل لحالة من الأمور قصوى وكاملة (وبحق، فإننا نطرح مجموعاً من العوالم الفارغة، بصورة عرضية). ولكن، من وجهة نظر سيميائية، بصورة أخص، فإن العملية تبدو مستحيلة إذ يستحيل أن يوصف «الكون الدلالي الشامل» وصفاً تاماً طالما أنه يشكل نسقاً من العلائق المتداخلة وهي لا تزال عرضةً لتحوُّل دائم ومتناقضٍ في نفسه بشكلٍ أساسي (الأطروحة Trattato، ٢- ١٢ و ٢- ١٣). ولما كان النسق الدلالي الشامل محض فرضية ناظمة، فقد بات يشقُّ علينا أن نصفَ العالم «الواقعي» من حيث اعتباره الأقصى والأكمل.

بالأحرى، فإن عالماً حكائياً هو ما يستعير أفرادَهُ وخاصياتهم من

العالم «الواقعي» ذي المرجعية. ذلك هو السبب الذي يدعونا إلى الاستمرار في الكلام على أفرادٍ وخاصياتٍ، حَتَّى لو اقتضى الأمر أن تظهر الخاصّيات وحدها بمثابة أوّليات. ذلك أن أفراد العوالم الحكائية يمثُلون لنا باعتبارهم قائمين مسبقاً وكلّ نقاش حول الظروفِ الإبيستمولوجية التي أدَّت إلى بنائهم إنما تُعزى إلى نماذج أخرى منَ الأبحاث تُعنى ببنيانِ عالم اختبارنا. وليس من قبيل الصدفة أن هنتيكّا (١٩٦٩أ) كان عمد إلى ربط مسألة العوالم الممكنة بالمسائل الكنطية حولَ إمكانية بلوغ التعريف الشيءَ (المعرَّف به) في ذاته.

٨- ٤- بنيان عالم المرجع:

في إطار مقاربة العوالم الممكنة من وجهة بنائيّة، ينبغي لعالم المرجع «الواقعي» نفسه أنْ يُنظر إليه على أنَّه بنيان ثقافي، ليس إلاّ. فنحن، إذ نكونُ إزاءَ حكاية «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» المثل، ونطلقُ صفة «المنافية للواقع» على خاصّية بقاء الأفراد أحياءً بعد أن يكون الذئب قد التهمهم أفراداً، فلأننا نلاحظ، وإنْ حَدْسياً، بأن هذه الخاصية إنما تناقِضُ المبدأ الثاني في المجالِ الدينامي ـ الحراري. غير أن مبدأ الدينامية ـ الحرارية الثاني هذا يتبدَّى، بحقٍّ، مُعطًى من معطياتِ موسوعتنا. وقد يكفي إبدال الموسوعة حَتَّى يكون معطى مختلف جديراً بالاعتبار. فالقارىء القديم حين تراه يقرأ أن يونان ابتلعَهُ الحوتُ وظَلَّ ثلاثة أيام في جوفِه ثم خرج سالماً منه، لَنْ يحكم على ما قرأ باعتباره مخالفاً لموسوعته. ولئن كانت الأسباب التي تحدو بنا إلى اعتبار موسوعتنا (المعاصرة) أفضل من موسوعة القارىء القديم ذاك، أسباباً خارجةً عن السيمياء (فعلى سبيل المثال حين نظنّ أننا باعتمادنا موسوعتنا، ننجح في تمديد معدَّل الحياة و/أو بناء مفاعلات نووية)، فإنه منَ الأكيد أنَّ قصة «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» حالما يقرؤها القارىء القديم يعدُّها محتملة الصدق، باعتبارها موافقة لقوانين العالم «الواقعي»(٥) على ما بلغه إدراكه.

لا تنحو هذه الملاحظاتُ إلى جعل العالم «الواقعي» عبثاً، بصورة مثالية، إذْ تؤكد أَنَّ الواقع إن هو إلاّ بنيانُ ثقافي (حتى لو لم يكن شكٌّ

في أنَّ أوصافنا التي نطاوِلُ بها الواقع هي كذلك): إنَّما تكمن غايتنا في تثبيت الشروطِ التي تتيح لنا التكلم على عالم «واقعي» في إطار من نظرية نصِّية. والواقع أنه، إذا كانت مختلف العوالم الممكنة النصِّية تتراكَبُ، كما أشرنا، مع العالم «الواقعي»، وإن كانت العوالم النصية أبنيةً ثقافية، فكيف يسعنا بعدئذٍ أن نقارنَ بنياناً ثقافياً بشيء متجانسٍ، فنجعلها قابلة للتحوّل بصورة متبادلة؟ وبالطبع يتمّ لنا ذلك بأن نحيل الكيانات موضوع المقارنة والتحويل، إلى كيانات متجانسة. على هذا تتبدى الضرورة المنهجية لمعالجة العالم «الواقعي» باعتباره بنياناً، وحتّى لتبيان أنه كلَّما عمدنا إلى مقارنة سياقة ممكنة من الأحداثِ بالأشياء كما هيَ، فإننا نكون نتمثَّلُ الأشياء كما هيَ، تحتَ شكل بنيان ثقافي، محدودٍ، ومؤقت ومناسب. (Ad hoc).

إنَّ عالماً ممكناً، على ما أشرنا (٨- ٢)، يشكِّل جزءاً لا يتجزّأ من نسق مفهومي يعود إلى أحدهم ويكونُ رهناً بترسيماته المفهومية. وبحسب هِنتيكّاً (١٩٦٩أ)، فإن العوالم الممكنة تنقسم إلى اثنين: أولاها التي تتوافق مع مواقفنا القَضويَّة والأخيرة التي لا تكون كذلك. ففي هذا المعنى، يكون التزامنا حيالَ عالم ممكنٍ التزاماً «إيديولوجياً»، على حد ما يقول هنتيكا. ويتبدَّى لنا أنه ينبغي أَنْ نعني «بالإيديولوجي»، في هذا الشأن، «شيئاً متعلقاً بالموسوعة». وفي هذا الصدد يشرح هنتيكا قائلاً: إذا كان «أ» يعتقد أَنَّ «ج»، فهذا يعني أَنَّ «ج» هي الحالة التي يجدر بها أَنْ تنضوي في كل العوالم الممكنة المتساوقة مع معتقدات «أ». كما يمكن أن تكون معتقدات «أ» آراءً عاديّةً جداً تُعنَى بمجرى من الأحداث متفاوتٍ في خصوصيته، بيد أنها (المعتقدات) تشكِّل جزءاً لا يتجزّأ من نسق (أوسع) تجتمع فيه كُلُّ المعتقدات التي تشكل موسوعة أ (فإذا كان «أ» يظن أَنَّ ثمة كلباً هو شرير، فلأنه يظنُّ أن القضية التي تعتبر بموجبها الكلاب حيواناتٍ يمكن أن تعضّ الإنسان).

وإذا ما ظَنَّ «أ» أَنَّ يونان يمكن أَنْ يبتلعه الحوت دون أن يتعرَّضَ لسلسلة من العواقب الوخيمة في صحته، فلأنّ موسوعتَه تقبل هذه الواقعة على أنّها قابلة للتصديق وممكنة (وإذا مضى «أ» يظن أن بمقدور خصمه

أَنْ ينتزع منه برجَهُ بواسطة فارس، فلأَنّ بنية الشطرنج وقواعده تجعل هذا الضربَ ممكناً، من الناحية البنيوية).

ولو كانَ امروء من القرون الوسطى سمَعَ الكلامَ الآنف لكان قالَ إن أيّ حادث مما عهده باختبارهِ ما كانَ ليناقضَ الموسوعة المتعلقة بعادات الحيتان. وبالتالي ما كان ليشكّ بوجود الأحصنة القارنة. بل أكثر من ذلك، إذ يمكن لكفايته الموسوعية أَنْ تطبع حيويته الرائية، في هيئة ترسيمات ذهنية وتوقعات، فإذا حَدَّقَ في الغابة ذات الشجر المتشابك الشجر وكانَتْ آونة النهار ملائمة لرؤيته، تيسَّر لَهُ أَن «يعاينَ» حصاناً قارناً، حَتَّى لو ظنَّنا أن ما قامَ به لم يعْدُ كونه تثبتاً لإحدى ترسيماته المفهومية على هذا النموذج من الحقلِ المثير الذي قد يتيح لنا، نحن، أَنْ نرى محضَ غزال.

إذاً، يكون العالم المرجعيّ المخصوص بـ «أ» بنياناً موسوعياً. وعلى ما أشار إليه هنتيكا (١٩٦٩أ) فإنه لا شيء قائماً في ذاته مما يمكن أَنْ يوصف أو تُعيَّن هويته خارجَ أُطرٍ من بنية مفهومية.

ولكن ما الذي يحدث حين نُعفي أنفسنا من فعل الحذر المنهجي هذا؟ إذ ذاك نرى إلى عوالم أخرى ممكنة كما لو أننا ننظر إليها انطلاقاً من عالم «مميَّز موفِّر الأفرادِ والخاصِّياتِ المعطاة سالفاً، وما ندعوهُ الهوية عبر العوالم (transworld identity) تصير إمكانيةً لإدراك عوالم أخرى انطلاقاً من عالمنا[٦]. على أن رفضَ وجهة النظر هذه لا يعني التنكُّر أَنَّ لنا، في الوقائع، اختباراً مباشراً لحالة واحدة من الأمور، وهي الحالة التي نكون انتهينا إليها. وهذا يعني بالضبط، أنه إذا شئنا التحدث عن حالاتٍ من الأمور متعاقبة (أو عن عوالم ثقافية)، اقتضى أَنْ تكون لنا الشجاعة المنهجية بتقليصِ العالم المرجعي وجعله على قياسها فحسب. وأقلّه، طالما أننا لا نزالُ نتداوَلُ نظرية العوالم الممكنة (الحكائية أو غير الحكائية). وإذا كان لنا أَنْ نحيا، محضَ الحياة، فلنحْيَ إذاً في عالمنا دون أَن نجعل الشكوك الميتافيزيقية تتولاَّنا. نعم، ولكنَّ الأمر ههنا لا شأنَ لَهُ بفعل «الحياة»: إذ أَقول «أنا، أحيا» (فهذا يعني: أنا الذي أكتب، أقصد أن أكون حياً في العالم الذي تعرفتُ إليه وحدَهُ)، ولكنني، في اللحظة التي أصوغ فيها نظرية عن العوالم الحكائية الممكنة، أقرِّر (بناءً

على العالم من حيث تلكَ الاختبار المادّي) تقليص هذا العالم إلى بنيان سيميائي في سبيل مقارنته بعوالم حكائية أخرى. وذلك أشبه بالحالة التي أكون فيها أشربُ المياهَ (الصافية، العذبة، النديّة، الملوّثة، الحارّة أو الغازيّة)، فإني أشربُ فحسب؛ إلاّ أنني، حالما أقصد إلى مقارنتها بمركبات كيميائية أخرى، أعمد إلى قصرها على صيغة بُنية.

وحين لا نوافق على وجهة النظر هذه، يحدثُ ما تكون توقعته، بحق، الانتقادات (السابق ذكرها) التي وُجّهت إلى نظرية العوالم الممكنة: على سبيل المثال، فإنَّ الصفةَ التي يملكها عالم تعاقبي في أن يكون متصوَّراً، بالتدليس، تصيرُ مقتصرةً على قدرتي الكفيلة بإدراكها. فلنتناوَلْ مثالاً لنا «هوغ» و «كريسويل» المشارَ إليهما في الملحوظة ٦: انطلاقاً من عالمي، يسعني أَن أتصوَّر عالماً دونَ هاتف، في حين أنه لا يسعني أن أتصور عالماً مجهزاً بهاتف، انطلاقاً من عالمٍ خالٍ من هاتف. الاعتراض، ههنا، قد يكون جلياً: إذ كيف أمكن «موتشي» و «غراهام بلّ» أن يتصرفا؟ لمن الأكيد أنه كلَّما تداول الحديث حالاتٍ من الأمور ممكنةً، سوَّلَتْ للمتحدِّث نفسه أَنْ يؤوّل الحالاتِ هذه تأويلاً نفسانياً: ومؤدّى هذا التأويل أن نحسب أننا في عالم و. وأنَّ صيغة «**في - هذه - الأرض - حيث نوجد**» تعمل عملها فتحملنا على إيكال نوع منَ الوضع المرجعي لـ «**هنا**» و«**الآن**». ثم إنه منَ المستغرب أن يرى المرء كيف أَن معنى كلمة (Lebenswelt) الوجود - في - الأرض، في الحدود القصوى التي بلغتها صياغتها المنطقية، هو ما يحمل أتباعِ «راسًل»، غصباً عنهم، على أَنْ يكونوا من أتباع هوسًرل[٧]. وفي سبيل أَنْ يَدْرَأَ المرء هذا الخطر عنه، يكفيه بالضبط أَنْ يعتبر العالم المرجعي بمثابة بنيان ثقافي - وأن يبنيه على هذا الأساس، مع كل التضحيات الضرورية التي يستدعيها.

inn-der-welt-sein

Hic et nunc

بالتأكيد، يبدو من الصعب، حدسياً، أَنْ يرى المرء، من وجهة نظر محايدة، إلى عالمَين مرجعيَّين $و_١$ - $و_٢$ كما لو كانا مستقلّيْن عن عالم مرجعنا الخاص بنا، بل أَنْ يعتبر هذا الأخير كذلك، بمثابة عالم و. غير مختلف بنيوياً (ليس أغنَى ولا أَمْيَز) عن العالَمين الأوَّلين. على أَنَّ الفلسفة المعاصرة، من مونتاني ولوك وبلوغاً إلى الموسوعيِّين، أحسنت صنيعاً إذ

جهدَتْ في مقارنة تقاليد«نا» بتقاليد الشعوب المتوحشة، متجنّبةً بذلك السقوطَ في أحكام أخلاقية مسبقة حولَ العرقية. فضلاً عن ذلك، فلطالما قيلَ في ميدان فلسفة اللغة (انظر، على سبيل المثال ستالناكر، ١٩٧٦) إنّ كلمة «حاضر» أو «راهن» (من حيث كونهما راجعَيْن إلى عالمنا) ليستا إلاّ كلمتين فهرسيتين - بل تعنيان واصلتين شأن الضمائر الشخصية أو أسماء المكان من مثل [هنا] أم أسماء الزمان من مثل [الآن]. إنّ عبارة مثل [العالم الراهن ذو المرجع] من شأنها أن تعيّنَ أيّ عالم حيث قد يحكم ساكنٌ على العوالم الأخرى ويقوّمها (عوالم تعاقبية وممكنة فحسب). وخلاصة القول، إن «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» التي قد تعتبر عالماً ممكناً حيث الذئاب لا تتكلّم، يصيرُ لها العالم «الآني» عالمها، حيث الذئاب تكون قادرةً على النطق.

لذا، سوفَ نعتبر الكلمات من مثل «**بلوغية**» أو «**تصورية**» (إمكانية أَن يكون الشيء متصوراً) بمثابة محض استعارتين تُرجعان إلى مسألة قابلية التحوّل المتبادل فيما بين بُنَى العوالم.

accessibilité

Conceptibilité

٨- ٥- مسألة الخاصيات الضرورية:

أَنْ يُبْنَى عالم، فهذا يعني أن تُنسب خاصّيات معطاة إلى فرد معطى. أيجدر بنا القول أَنَّ بعضاً من هذه الخاصّيات قد منح الامتياز على الخاصّيات الأخرى - فلنقل الخاصيات الضرورية - وبالتالي يصيرُ أقدر على المقاومة من الأخرى، إزاءَ مسارات التخدير؟ وما الذي يعنيه منطقُ العوالم الممكنة إذ يعمد إلى التعريف بالحقائق الضرورية التي تكونُ جديرةً بالاعتبار في أي عالم؟

ههنا نَمسُّ مسألة معروفَةً في عالم الدلالة الفلسفي وهي مسألة عُرفت باسم «**علاقة الاستلزام**». ولنرَ أي حَلّ يمكن إعطاؤه إلى هذه المسألة من وجهة نظر سيميائية التعاضد النصية.

entailment

في قصة «مأساة باريسية حقاً»، ولدى الفصل الثاني منها، يمضي راوول ومرغريت بعد عراكٍ بينهما في المسرح، إلى منزلهما تقلُّهما (القطش) أي **حادّة الطَرَف** (Coupé). فما قد يفعله القارىء إذ يلتقي بصره هذه الأعجومة؟ والحال أنه يتبيَّن للقارىء، بعد إجرائه عملية استبيان

تعبير عامي لبناني، يطلق للتدليل على السيارة المقصودة هنا أي حادة الطَرَف (coupé)

دلالية أوّلية، أَنّ «**حادة الطَرَفْ**» هي سيَارَة ([هذه هي حادة الطَّرَفْ] تعني استلزاماً «تلك هي سيارة») وأنها، بالإضافة إلى ذلك، مركبَة للنقل. مع ذلك، فإن القواميس[8] تقول إن حادة الطرف (coupé) هي «سيارة قصيرة مغلقة، ذات دواليب أربعة، ومقعد داخلي يتسع لشخصين ومقعد خارجي قائِم في أمامها مخصّص بالسائق». على أن الكلمة نفسها، في القواميس الانكليزية تختلط أحياناً بكلمة (brougham) وهي تعني سيَّارة للنقل قديمة، حتّى وإن كانت الموسوعات الأكمل توضح أن سياراتِ هذا النوع (broughams) يمكن أن يكون لها دولابان أو أربعة، وأنّ لها، في أي حال، مقعداً «في الخلف» للسائق.

والحق أَنّ ثمة سبباً يحدو بالعديد من القواميس إلى اصطناع هذا الغموض (في التحديد): ذلك أَنَّ المركبتين الآنفتين هما «سيارتان بورجوازيتان»، مختلفتان عن السيارات الأكثر شعبية من مثل الباص (omnibus) الذي يتسع لستة عشر راكباً (وبطبيعة الحال، فإنَّ هذه المعطيات قد أُخذَتْ من الموسوعة مرعيَّة الإجراء في العصر الذي كُتِبَ فيه مسرد «أَلّيه»، وإلاّ يكون علينا أن ننظر إلى حالة قارىء ذي أرموزة محدودةٍ للغاية، والذي يظنّ أَنَّ الحادة الجانب هي نموذَجٌ من السيارات).

وعليه ينبغي لنا الإقرار بأنّ خاصّيات حادة الطرف لا تصيرُ ضرورية تقريباً (أو عرضيّةً) إلاّ بالنسبة للمدار الحكائي، مما يعني أَنَّ الضرورة والجوهرية تتعلقان بمقارنة سياقية. فحين نقارنُ سيارة بروغام بسيارة حادَّة الجانب، يصيرُ موقع السائق تشخيصياً، في حين أَنَّ واقعَ كون الاثنتين مغلقتَيْن يظَلُّ في خلفية المسألة (فيما تعلّق بالخاصيات التشخيصية، أنظر. نيدا، ١٩٧٥). ذلك أَنَّ خاصية تشخيصية هي التي تسمح بتعيين أَصنافِ الأفراد تعييناً خالياً من الالتباس، الذي يُرجع إليهم في سياق عالم مُتَناصّي معطى (أنظر، كذلك پوتنام، ١٩٧٠).

في الفصل قيد المعالجة، سوف يكونُ المدار الغالب التالي: بطلانا هما يتجادلان؛ وثمة **مدار فرعي** (sous-topic): عادا إلى منزلهما. إلا أن ما يظل مضمراً أو مقتضياً (وما يلبث مادة للاستدلال، وذلك بواسطة سيناريوات مشتركة مختلفة)، باعتبار أَنّ راوول ومرغريت، لمّا كانا ثنائياً بورجوازياً

ومن منبتٍ حسنٍ، توجب عليهما أن يَحلاً مشكلتهما في معزل عن الناس. إذاً، كانا بحاجة إلى سيارة بورجوازية مغلقة. أما موقع السائق فيها فلا يهمّ. وفي حين لا تقوم عربةٌ خيل ذات غطاء متحرّك ومنفخض بعامة بمقامهما في هذه الحالة، فإنّ سيارة بروغام لتؤدّي غايتهما منها. والحال أنّ ترجمة إنكليزية للنص نفسه[٩]، كانَتْ فيه كلمة «حادة الجانب» قد ترجَمتْ بكلمة (hansom car) أو السيارة «الأنيقة ذات السقف» - وهي تنطوي على الخاصّيات نفسها التي لدى البروغام.

ومع ذلك يبدو أنّ ثمة اختلافاً بين: أن تكون سيارة (ذات خاصية مقتضاة من خلال [حادة الجانب]) وبَيْن أن يكون لها أربعة دواليب:

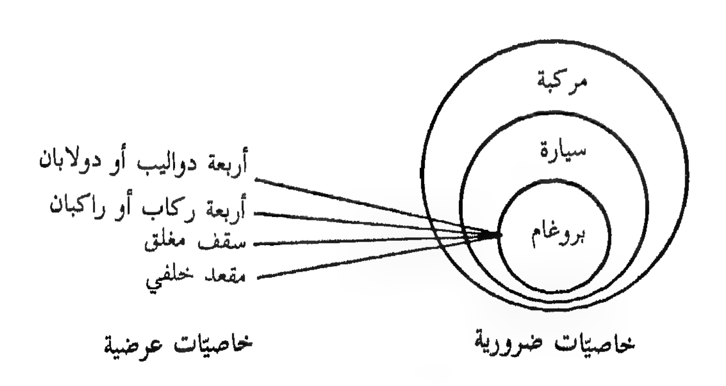
(٢٨) تلكَ هي حادة الجانب وليست عربة

هذه الجملة لا سند لها دلالياً، في حين أن جملة:

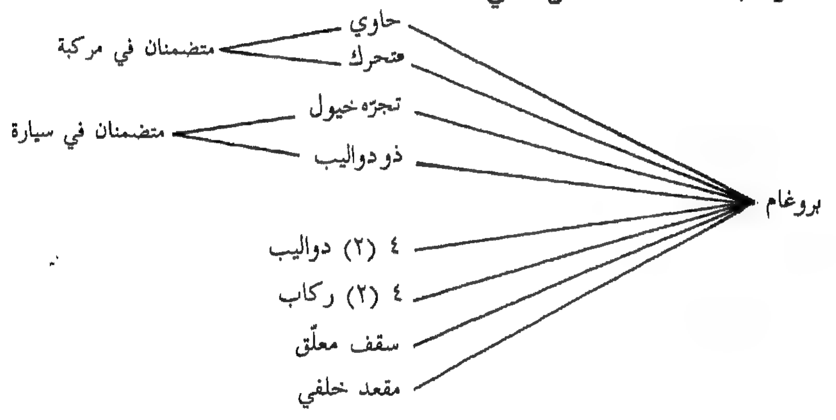
(٢٩) تلكَ هي حادة الطرف ولكن ليس لها أربعة دواليب

هي مقبولة (دلالياً) بالطبع.

إذاً، يقوم شيءٌ من الاختلاف بين الخاصّيات الضرورية، من الوجهة المنطقيّة، وبين الخاصّيات العرضية أو الفاعلية. ومنذ أن اعتُمدتْ بعض مسلّمات المدلول (انظر. كارناپ، ١٩٥٢) وقُبِلَتْ، فقد باتَتْ كلمة بروغام تعني بالضرورة سيارةً (وعربةً)، بيد أنّ واقعة أنْ يكون لها دولابان أو أربعة فهذه إن هي إلا عرضية[١٠].



مع ذلك، فإن الاختلافَ الحاصل بين الخاصيات الضرورية والخاصيات العرضية يلبث رهناً بنوع من «تأثير ناجم عن وجهة نظر». ولنطرح السؤال التالي: لماذا لا يعمد أي قاموس وأية موسوعة، إذ يعرّفان بالبروغام، إلى ذكر طاقته على التنقّل، والكلام على قابليته لأَنْ تجرّه الخيول، وأَنْ يكون من خشب أم من معدن؟ إن الإجابة عن السؤالِ جليّةٌ: لأنّ هذه الخاصّيات منطوية في الخاصّية، المبيّنة، بأن تكون هذه الآلة سيارة. ولو لم تكن ظاهرة التضمين موجودة (كلمة تنطوي على كلمة أخرى، وهذه الكلمة تتضمّن إشارة إلى أخرى)، لكانَ تمثيل البروغام، تمثيلاً «دقيقاً» استوجب أن يتخذ الشكلَ التالي:



وللحقّ، كان ينبغي لهذا التمثيل أن يكون أكثر دقّة بعد، لأنَّ خاصّيات «حاوي»، و «متحرّك» و «خيل»، يقتضي أَن تكون مؤوّلة بدورها، وهكذا دواليك، حتّى المنتهى. لحسن الحظّ، فإنّ لنا بتصرفنا نوعاً من الاختزالِ **الماوراء لساني**، ولما كانَ هاجسنا الاقتصاد في المكان والزمان، عزمنا على تجنُّب توضيح هذه الخاصّيات في موسوعة، مما كانت الموسوعة قد سجلتها تحتَ موادّ ذات طابع **استبدالي** (مثل «سيارة»)، حتّى يتسنّى لها أَنْ تنطبق على حادّات الجوانب والبروغامات، انطباقها على المركباتِ المكشوفة، وعلى **البرلينيات**، وعلى **اللاندوات**، وعلى العرباتِ ذاتِ العجلتين، وعلى عرباتِ الخيل التي يجرها جوادان، وعلى عربات الخيل للسفر البعيد. ولما كان ثمة تسييمية لا محدودة، وبما أَنَّ كل علامة هي جديرة بالتأويل من خلالِ علاماتٍ أخرى، وبما أَنَّ كلَّ عبارة هيَ إثبات أوّليّ وأن كل إثبات هو حجّة أوّلية، كانَ ينبغي أن نحسنَ

Métalinguistique

hyperonymique

وهي السيارات الكبيرة المقفلة ذات أربعة مقاعد مصنوعة في برلين.

Landau

وهي عربات ذات أربعة دواليب، مصنوعة في لاندو، بألمانيا.

الخروج من هذه جميعاً بطريقة أو بأخرى: إذاً، فقد باتَ علينا أَنْ ننشىء قواعد تضمير اقتصادية.

وعليه فإنَّ إجراءات التضمير تفيد في اختصار قائمة لامتناهية، بالقوَّة، من الخاصّيات **الحائَّة على الفعل**. ففي تمثيلٍ دلالي غاية «في الدقة» والتفصيل، لن يكون ثمة اختلاف بين الخاصياتِ الضرورية والخاصيات الحائَّة على الفعل أو العرضية.

Factuelles، وهـي صـفـة تعـود إلـى الشـيء أو إلى الدافع إلى الفعل، عبر كلام مخصوص.

ولعلَّ هذه الخاصيات، شأن المثليْن مسلَّمتَيْ المدلول، اللذين كانَ أوردهما كارناپ، حيث قيل أنَّ أعزباً إن هو إلا ذَكَر راشد وغير متزوِّج أو إنَّ الغربان إنما هي سوداء اللون، هيَ مادَّة للتضمير على النحوِ نفسه.

قد يصح، من وجهة نظر كارناپ، أن يكون ثمة اختلاف بين لِ ـ حقيقة وحقائق توليفية، وأن يُرى إلى ل ـ تَضمير على أنه «مُوَضَّحٌ من أَجل التضمير المنطقي أو علاقة **الاستلزام**» (كارناپ، ١٩٤٧: ١١)؛ بحيث يُعرَّف التضمير أو علاقة الاستلزام باعتباره حالة من الحقيقة التحليلية. هكذا، ينبغي لنا القول إنّ حادة الطرفِ وبروغام من الوجهة التحليلية عربتين وسيلتَيْ نقل، في حين أنهما لا يعدوان كونهما، من الوجهة الحائة على الفعل، حافلتين بورجوازيتَيْ الطابع. وبحسبنا، فإن كوين كان أروع من أجاب عن هذه النقطة في مقالته «**عقيدتان تخصان التجريبية**» (١٩٥١) حين توسَّع في نقدهِ التصوُّر الكارناپيّ، ذلك أَنْ تكون حادة الطرف سيارةً لهو شأن تجريبيّ (إلى كونه رهناً بمصطلحاتنا الدلالية) على مقدار التجريبية نفسها التي تغشى التصوُّر التاريخي الذي كانَ طبعه جمهور بورجوازي.

entailment

Two dogmes of empiricism

وفي هذا الصدد يلحظ «كوين» أنه، إذا أُريد اعتبار الحقيقة التحليلية حقيقةً منطقية، على نحوٍ:

(٣٠) أي رجل غير متزوِّج ليس متزوجاً،

فإنَّ أحداً لن يسعه أَنْ يشكِّك بحقيقة تحصيل الحاصل العصية على النقاش هذه. بيد أنَّ القول الأخيرَ مختلف عن القولِ التالي:

(٣١) أَيُّ أَعزب ليس متزوجاً

أو، في حالتنا، «إن أَيَّ **حادُّ الطرفِ** ليس مجرداً من خاصّية أن

يكون سيارة». والواقع، أننا لا نملك، ههنا، إلاّ التَسجيل المعجمي لاستخدام دلالي شائع. وفي سبيل أَنْ تُجعل هذه القضية صحيحة أو خاطئة، فما يُحسَبُ لَهُ هو نَسق العلم العامُّ الذي من شأنه، باعتباره مجموعاً متماسكاً، أَنْ يقرر أي القضايا التي ينبغي أَنْ تشكّل مركز القضيّة الآنفة (وتضطلع بها، بالتالي، باعتبارها مفروغاً منها من الوجهة التحليلية) وأي القضايا التي ينبغي أَنْ تشكّل محيطها، القابل للنقاش، والمراجعة، ويكون موضوعاً لاستيعادات انتقالية: «العلم في مجمله يشبه حقلَ قوة حيث النقاطُ القصوى تشكّل اختباره». «أن يكون أم لا في شارع إلم (Elm Street) منزل من آجرّ فهذا مما يبدو لنا أشبه «بواقعة جائزة»، ذلك أنها تبدو لنا غير قمينة بإفْسادِ مركز النسقِ. ولكن، إن نظرنا إلى ما يهم شمولية النسق، وجدنا أنه لا اختلاف بين مبدإ فيزيائي وبين واقعة أن يكون في شارع إلم منزل منْ آجرّ: الواقع أننا نحن (العلم) مَنْ يقرِّر في شأنِ القضايا، التي يتوجب علينا أن نوكل إليها دور الحقيقة التي يستلزم الاعتراضُ عليها إعادةَ تنظيم الحقل الشامل، وإعادة تنظيم القضايا التي لَنْ نوكل إليها هذا الدور[١١].

«ثقافَة آبائنا إن هي إلاّ نسيج لَفظات. وإذ تكون بين أيدينا، تتحوّل وتتبدّلُ وذلك بأن تتعاقب عليها إعاداتِ نظر جديدة وإضافات تكونُ كيفيّةً واختيارية تقريباً، وتكون محدثَةً، تقريباً، منْ جرّاء إثارة أعضائنا الحسّية إثارةً متواصلة. إنها ثقافة رمادية، سوداء بالوقائع وبيضاء بالأعراف. إلا أنني لم أجد أيّ سبب جوهريّ يحدو بي إلى الاستخلاص أَنْ فيها خيوطاً سوداءَ بالكامل، وأُخرى بيضاء بالكامل». (كواين، ١٩٦٣).

Implicitation

وعليه فإن قوانين **التضمير** الدلالي تكون عناصر في نسقٍ شاملٍ من النمط التالي: «أما فيما خَصَّ الأساس المعرفيّ (أو الإبيستيمولوجي)، فإن الأشياء المادية والآلهة لتختلف فيما بينها في الدرجة فقط وليس في طبيعتها، ذلك أن نموذَجيْ الهويَّاتِ الآنفين إنما يدخلانِ إلى تصوّرنا من حيث كونهما مسلمتيْن ثقافيتين ليس إلاّ». حتّى إذا نظرنا إلى كُلِّ قضية تأليفية وجدنا أنها قد تحوزُ الحق على أن تصير قضيّة تحليلية «إن نحن أجرَيْنا تقويماتٍ تعسّفية بالقدر الكافي، على أي جزء من النسق».

إنه لمن العجب أن يكون «كواين» نفسه، مَنْ يجدر بنا أَنْ نستدعيه لنجدتنا في سبيل أن نتوصل إلى تعريف بالخاصّياتِ قابلٍ للتطبيق في إطار نظرية نصّية حولَ العوالم الممكنة - إذ يصدر هذا المفهوم عن المنطقِ الجهوي الذي كان لطالما جادلَ في شَأنِ مناقضته. وربما لم يكُنْ يملكُ شيئاً مما يُعارض به تصوّر العالم الممكن هذا. وأياً يكن الأمر، فإنه بمقدورنا أن نستخلص أَنَّ الاختلافَ بين التأليفي والتحليليّ إنما يتعلّق بتعيينِ مركز نسقٍ ثقافي شامل ومتجانِس وجوارِهِ (أياً يكن شكله!). إذاً، يسعنا قبول التعريف الذي أداه شيزولم (١٩٦٧:٦) والذي يرى إلى الخاصِّية أنها «تصيرُ ضرورية ضمن أيِّ وصف».

لننظُرْ ثانيةً في الخاصّيات الهامة (ولكن أي الخاصيات هي التي يكون علينا أن نهملها حتى نجعل مثلنا قابلاً للاستخدام؟) المنسوبة إلى نماذج السيارات الثلاثة المشار إليها سابقاً، وفقاً لمعايير تحليلية أساسية (حيث + تعني وجود الخاصِّية، وّ تعني غيابها و. [صفر] يعني = أَنَّ وضعها غير محدد).

تم التشديد على الحرف (واو الذي يمثل علامة لتمييزه عن واو العطف

	حاوية	متحركة	ذات خيل	ذات دواليب	سقف مغلق	راكبان	أربعة دواليب	مقعد خلفي
بروغام......	+	+	+	+	+	٠	٠	−
عربة مسقوفة....	+	+	+	+	+	+	−	−
حادّة الطرف.....	+	+	+	+	+	+	+	+
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨

تكونُ الخاصّيات من ١ إلى ٦ هامّةً في سياق قصة «مأساة باريسية حقاً»، في حين أنّ الخاصيتَيْن ٧ و٨ لا تكونان على هذه الحال وتسعهما أن تكونا مخدَّرتين (سواءٌ من قِبَل المؤلّف أو من قبل القارىء). ولنفترض الآن، أن يكون مدير متحف السيّارات مَنْ يطلب سيارة حادّة الطرف. آنئذٍ، تصير الخاصيات من ٣ إلى ٨ وحدها التي تحوزُ الأهمية، لأنّه يريدُ شيئاً يُماز عن عربة الجَرّ والبروغام، سواءً بسواء. وفي ما تبقّى، فإنّه مما لا طائل فيه أن تكون حادّة الطرف المخصوصة بالمعرض متحرّكةً أيضاً، وأن يسعها احتواء أشخاص (إلى حدٍّ ما، فإن بمقدور

بمعنى أَنْ تجعل دلالاتهما في موضع الخفوتِ، وعدمِ البروز، أي الخَدَر.

نموذج من كرتون أَنْ يحسن أداءَ هذا الدور جيداً). ذلك أَنّ لكلٍّ خاصياته الضرورية.

مع ذلك فإن كلمة «ضروري» (أو ضرورية) يمكن أن تبدو غامضة (وعلى أي حال فإننا سوف نستخدمها في المقطع ٨ـ ١٥ لغاياتٍ أخرى). إذاً، فلنقل أنه في سبيل أَنْ نصفَ خاصّيات فردٍ في عالم نَصّي، ينصَبّ اهتمامنا على جعل خاصياتٍ دونَ أخرى ذوات امتياز، وهي (الخاصيات) التي تظهر على أنَّها جوهرية بالنسبة لأهداف المدار[١٢].

٨ـ ٦ـ كيفية تعيين الخاصّيات الجوهرية:

Essentialité

إنَّ **الجوهرية** التي تكون عليها خاصّية إنما هي موضوعية ـ مدارية. فالمدار النّصّي هو الذي ينشىء البنية الصغرى الذي يقوم عليها العالمُ موضوع التداول. ولا يمكن لهذه البنية، على الإطلاق، أن تكونَ شاملة وكاملة، بل الأحرى أنها تمثّل رسماً جانبياً (عن العالم قيد التداول) أَو رثايةً عنه. إن الرسم الجانبيّ هو ما يتبدّى مفيداً لتأويل قطعة نصّية معطاة.

إذا مضت حماتي تتساءَلَ:

(٣٢) ما الذي كان ليحدُث لو لم يكُنْ صهري قد تزوّج ابنتي؟

Contrefactuel

فإن الأجابة عن ذلك تكون أنه، لما كنتُ أوصَفُ في عالمها المرجعي [**ي.**] (وكنت معيّناً فيه، بالتالي) باعتباري صهرَها فحسب (وهي صفة لا يسع الفرد أن يحوز عليها إن هو اعتُبر بناءً على عالمه **الحاثّ على الفعل ي١**)، فقد تفكرَتْ بغرابة، في فردَيْن مختلفَين، على أَنْ يكون ثانيهما غامضاً بما فيه الكفاية، وجهدَتْ عبثاً في جعلهما متطابقَيْن. وإذا جرى عكس ذلك، إذ يمضي أحدهما (حماتي إن شئتم) يتساءَلُ:

(٣٣) ما الذي قد يحدث لو لم يكُنْ مؤلف هذا الكتاب متزوجاً؟

فإن الأجابة عن ذلك تكون مختلفة. وعليه فإن الفردَ المعتبر في العالمين **ي**. و**ي١** يكون في الحالين مميزاً بخاصّية كتابته هذا الكتاب. إذاً، فلو لم يكن متزوجاً قَطّ، لكان من المحتمل ألا ينطوي الكتاب على المَثَل الذي نتكلم بصدده، ولكن الأمور، أقلّه في الحدود التي يثبتُ فيها الحاثُّ على الفعل مُنَاصاً أساسياً خاصاً به، لَنْ يصيبها تبدُّل عميم (إلاّ إذا

كنّا اشترطنا تحديداتٍ أدق من مثل: «مؤلفُ هذا الكتاب الذي يبدو لنا عاجزاً عن الكتابة خارج دفء العائلة..»). ويسعنا القول إننا نكون إزاء الفرد نفسِه في كلا العالمين، باستثناء بعض التنويعاتِ الحاصلة من خاصّيات عرضية.

بيد أن المثلَيْن الآنفين يلبثان محض ألعوبتين لسانيتين إن لم يعينانا على تعميق المسألة التي تشغلنا: كيف تتبيَّن جوهرية الخاصّيات المعنية بالدراسة ويستدلّ على عَرَضيّتها، وكيف تُبنى العوالم المرجعية فيها ومن خلالها.

وكانَ ريشر (١٩٧٣) في سياق عرضِه للكيفية التي يتم بها التعريف بعالم ممكن، باعتباره بنياناً ثقافياً، اقترح المثالَ التعييني التالي:

(I) عائلة مكوَّنة من أفراد حاليين س$_{١}$.. س$_{ن}$؛ (II) عائلة مكوَّنة من خاصيات ج، د، هـ....، منسوبة إلى أفراد؛ (III) «تخصيص بالجوهرية» يطاول كُلَّ خاصية ملازمة الأفراد، والتي يسعنا من خلالها أن نبين إن كانَت خاصّيةٌ جوهرية له (للفرد) أم لغيره؛ (IV) علاقاتٌ فيما بين الخاصيات (على سبيل المثال علاقات تضمير).

ولما كان عالم معطى و$_{١}$ يسكنه فردان س$_{١}$ وس$_{٢}$، وثلاث خاصيات ج، د، هـ، فإن علامة الإيجاب + تكون تدلّ على أن الفرد موضع التساؤل لَهُ خاصية قيد التساؤل كذلك، وأن علامة السلب - تعني أن ليس لَهُ خاصية، في حين أنَّ الأقواس القائمة تشير إلى الخاصّيات الجوهرية:

و$_{١}$	ج	د	هـ
س$_{١}$	(+)	(+)	(-)
س$_{٢}$	+	+	(-)

ولنتخيَّل الآن عالماً و$_{٢}$ حيث قد يكون أفراد تالون ولهم الخاصيات التالية:

و$_{٢}$	ج	د	هـ
م$_{١}$	(+)	(+)	+
م$_{٢}$	+	-	(-)
م$_{٣}$	(+)	(-)	(+)

Variante virtuelle

وعليه يكون الفردُ في العالم و٢ «**المتغيِّرَ المحتمل**» في الفردِ النموذجي الأصيل القائم في العالم و١، إن كانا يتميزانِ في الخاصيات العرضية فحسب. إذاً يكون م١ في و٢ متغيِّراً لـ س١ في و١، ويكون م٢، في و٢ متغيِّراً لـ س٢ في و١.

إنَّ فرداً إن هو إلاّ فائض نسبة إلى فردٍ من عالم ممكن آخر، إن كان يختلف عنه بالخاصياتِ الجوهرية كذلك. إذاً يكون الفرد م٣ في و٢ فائضاً بالنسبة للأفرادِ في العالم و١.

Variance

وحين يكون للنموذج البدئي في عالم و١ متغيِّرٌ كامن واحد في عالم و٢، يصيرُ **التغايُر** المحتمل نفسه مطابقاً مع ما ندعوه «بالهوية عبر العوالم» (Transwold identity). وبطبيعة الحال فإننا لا نتحدث، ههنا، عن حالاتِ الهويَّة القصوى (الخاصّيات الجوهرية نفسها والخاصيات العَرَضية نفسها).

وإذ أعمد إلى صياغة الحاثّ ـ على ـ الفعل (٣٢)، أعتبر أنّ حماتي إذ تقارنُ عالماً ممكناً و١ بعالم مرجعيّ و. فإنها تبنيهما على النحوِ التالي:

و.	د	ل
س١	(+)	+

و١	د	ل
م١	−	+

حيث د هي الخاصية الجوهرية في أن يكون متزوجاً بابنتها و«ل»، وهي خاصية عرضية ما (على سبيل المثال، خاصية أن يكون مؤلفَ هذا الكتاب). ولما كانّ في عالمها الحاث ـ على ـ الفعل و١ يبينُ فرد ممن ليس لَهُ الخاصية الجوهرية د، فقد استوجب القول إن الفردَيْن ليسا مماثلَيْن.

وبالمقابل فإنّ من يصوغ الجملة الحاثة ـ على ـ الفعل (٣٣) يكونُ يقارن بين عالمين مبنيَّين على هذا النحو:

و.	د	ل
س١	+	(+)

و١	د	ل
م١	−	(+)

ويتَّضح من هذا أنّ م١ هو المتغيِّر المحتمل لـ س١.

إلاَّ أَن الأمور ليسَتْ بسيطة على ما قد يظنه البعض. ففي حالة صيغة الحاثّ ـ على ـ الفعل (٣٢)، حيث يكون فاعِل التلفظ يفكر في صهر«هِ» [تفكّر في صهر«ها»] من شأنها أن تدخل تعقيداً لاحقاً سواء في بنيان العالم المرجعي و. وفي العالم و١. والواقع أننا، إذ نعرِّف بالفرد من خلالِ الإقرارِ بعلاقة لَهُ مع فاعل التلفّظ («أي مَنْ كان تميَّز بعلاقة ما مع فاعل التلفُّظ»)، فإننا نؤكد كذلك أنَّ حماتي هي من بين أفراد العالم المرجعي (والعالم الحاثّ ـ على ـ الفعل) وأننا نتحصَّل عن الفرد قيد التساؤل وصفاً علائقياً. وكما سوف نرى في ٨ـ ١٥، فإننا نعمد إلى إدخالِ علاقات هـ ـ ضرورية. إلا أننا نكتفي الآنَ بإظهار كيف أَنّ العالم المرجعي إنما يتعلَّق بمدار نَصِّي: ففي الحاثّ ـ على ـ الفعل (٣٢) كان المدار «الحالة المدنية التي يكون عليها صهر السيّدة فلانة» في حين أن المدار في (٣٣) كان «الحالة المدنية التي يكون عليها مؤلف الكتاب الفلاني».

ومن شأن هذا الحَلّ الذي نقترحه، ههنا، أن يتيح لنا دحض الاعتراض الذي كان تقدَّم به ڤولّي (١٩٧٨) حولَ الصلة بين عالم ممكن وبين عالم «واقعي»، حيث أن الأوَّل يتراكَبُ مع العالم الواقعي الآنفِ تراكباً محتوماً (بسبب استحالة صياغته باعتباره كاملاً). والحال أنّ ڤولي كان أَبدى رأيه في أننا إذ نحيل إلى العالم «الواقعي» نصيرُ مجبرين على اعتبار كلّ القضايا، المعبّر عنها بتعابير من الموسوعة، جديرة بأن يُعتدّ بها: على سبيل المثال، إن الأرض مستديرة، وإن الرقم ١٧ هو رقم أوّل، وأنّ هاواي هيَ في المحيط الهادىء، إلخ... إلى ما لا نهاية لَهُ على وجه الاحتمال. على أَنَّ الحَلَّ الذي نقترحه هو كفيل بأن يجنِّبَ حماتي عملاً ضخماً، نشكّ في أَنّ ڤولي نفسه يتجنّبه، إذ يسائِلُ نفسَه صباحاً عما قد يصيبه لو أنه ارتدى قميصاً صنع لاكوست بدلاً من قميص من صنعِ لوم أو من ماركة فروت. وعلى هذا يكون المدار النصي قد أثبت ما هي الخاصيات التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار: أما الخاصيات الأخرى، ولئن كانَتْ لم تُنفَ بعد، فقد جعلها المؤلف مخدّرة فباتت بين يدي القارىء قابلة للتخدير. وفي الجملة الحاثة ـ على ـ الفعل (٣٣)، أن تكون لي ساقان أم لا، لأمر حريٌّ به الاّ يلائم

المدار النصّي (حتى وإن كنا لا نتوقع أن تعمد تكملةُ النص إلى إنكاره)؛ فما هو ملائم، هو ما قد يعني، استلزاماً، [كتاباً] أو [مؤلّفاً]. وعليه فإن بناء العالم المرجعي بدلاً من اتخاذ عالمنا كما هُوَ، يكون خيرَ معين للسيمياء النصّية، إلى كونهِ خيرَ مؤيّد لسجايا كلّ شخصٍ ذي بنية سويّة، ممّن إذا واجه قضية لن يمضي إلى التساؤل عن كُل نتائجها المنطقية الممكنة ولا عن تقدير عددها فيها(١٣).

Entailment

٨- ٧- هويّة

إنّ مسألةَ الهويّةِ الحقّة عبر العوالم هي أَنْ يحدَّدَ شيء على أنه ثابت عبر حالاتٍ من الأشياء متعاقبة. وإذا ما أمعنّا النظر في الأمر، ساقنا ذلك إلى المسألة الكانطية المتعلقة بدوام الموضوع. بيد أَنَّ بونومي (١٩٧٥: ٣٣) يورد في ملاحظاته بهذا الشأن أن فكرةَ **الموضوع** ينبغي أَنْ تكون مرتبطة بدوامه عبر موضَعاتٍ عديدة. وهكذا وجد أن تصوُّر الهويَّة عبر العوالم ينبغي أَنْ يُحلَّلَ بدءاً مِنَ التصوُّر الهوسّرلي حول «**القياسِ بالنظر**»، أي ما معناهُ مختلف الرسوم الجانبية التي أعيّنها لموضوع اختباري.

objet

Abschattung

والحال أن صياغة هذا الرسم الجانبيّ إنْ هيَ إلاَّ حصرُ مدار نصّي.

كانَ شيزولم (١٩٦٧) قد اقترح، في هذا الصدد، عالماً و. يقطنُهُ آدم (الذي عمَّر تسعَ مئةٍ وثلاثينَ سنةً على حد ما قالت التوراة) ونوح (الذي عاشَ بدوره، تسع مئة وخمسين سنة). ثم شرعَ في تعيين العوالم المتعاقبة حيث جعل آدم يحيا، بصورة تدريجية، عاماً أكثر من نوحٍ، في حين جَعَل نوحاً يحيا عاماً أَقَلَّ فأقل إلى أَنْ يبلغ به عالماً ممكناً حيث آدم كانَ عاشَ تسعَ مئة وخمسين سنةً (٩٥٠) ونوحٌ تسع مئة وثلاثين سنة (٩٣٠)، وحيثُ باتَ آدم يدعى نوح ونوحُ يُدعى آدم. ولئن أدركَ شيزولم هذا المستوى، فإنَّه لم يَكُنْ ليطرَحَ الإجابة الوحيدة التي تبدو لنا معقولةً من أجل التعريف بهوية صديقَيْنا كليهما؛ ذلك أنه لم يكُنْ قرَّر البَتَّ مسبقاً، بشأنِ الخاصّياتِ التي مضى يهتَمُّ لها نَصّياً. والإجابة، شأنها دوماً، تكونُ رهناً بالسؤال. فإذا كانَ اختبار شيزولم يتعلق بهويَّة «الإنسانِ

الأوّل»، فإن أيّ تبديل في الاسم أو في العمر لن يكون كفيلاً بأن يمسَّ بهويَّة الشخصية قيدِ المعالجة. وبالطبع فإنّ كُلَّ شيء يكون رهناً بأن تطرح أم لا مسلمة تعليق الوصف التالي «من كان عُرف جوهرياً على أنه الرجل الأول»، باسم [آدم].

Désignateurs rigides

وبالإجمال، لا يسعنا بهذا المثل، أنْ نلعب على «**المُعيِّنات الجامدة**» التي تكونها الأسماءُ العَلَم بحسب كريپكه (١٩٧١أ).

لذا ينبغي التثبّت من أيّ وصف محدد (في إطار نَصّ معطى) تنسبُ إلى آدم الخاصيات الجوهرية. وفي هذا الصدد نظنُّ، أنْ يكون الإنسانُ الأوّل، بالنسبة لتيلار دوشاردان أو داروين، يُدعى آدم أو نوح وأن يكونَ بلغ من العمر تسع مئة أو ألف عام، أمراً غايةً في العرضية. إذ كانَ الأهم، لهما، أنْ يُحكى عن «س» محدّدٍ باعتباره «الرجل الأوّل الذي كان ظهر في الأرض».

وحين يقول هينتيكّا (١٩٦٩ب): «إن رأيتُ رجلاً دون أن أكون واثقاً من أنَّه جون أو هنري أو أيّ كان، فسوف يكون هذا الرجل بأي حال نفسَه في أيّ عالم ممكن، طالما أنه الرجل الذي أعاينه في هذه اللحظة بالذات»، يكونُ يثير، بكلمات حاملة بداهاتٍ حسّيةً، مسألة الموضوع النصّي، أي ذاك الذي أجري الكلام عليه في هذه اللحظة. ولما كانَ سؤالي التالي المعطى «مَنْ هو الرجل الذي أراهُ في هذه اللحظة؟»، فقد ترتّب عن ذلك أنّ الخاصية الجوهرية الوحيدة التي يحوزها هذا الفردُ هو أنْ يكون مَنْ أراهُ: والحال أنَّ حاجاتي المادّيَة والتجريبية هي التي أثبتَتْ لي ما هو جدير بالاعتبار من الوجهة النصّية.

Accessibilité

٨- ٨- بلوغيّة:

فلنحاول الآن أن نثبت الطريقة التي يجدر بنا أنْ نعتمدها في كلامنا على البلوغيّة بين العوالم. وبحسب الأدب السائد، فإنَّ البلوغية هي علاقة اثنَيْنية وبـعِ وّج، حيث يكون العالم وّج قادراً على بلوغ العالم وّب. وإن شئنا إهمالَ التأويلات النفسانية (من النموذج: فردٌ في العالم وّب يمكن أن «يتصور» العالم وّج) اقتضى لنا أنْ نقصر القول على أن وّج هو عالم قابل للوصولِ إلى وّب، إنْ كان ممكناً، انطلاقاً من بُنية وّب،

Dyadique

تم التشديد على حرف و (اسم أحد العوالم) حتى لا يحصل التباس بينه وبين واو العطف في النص.

ومن خلال استعمال العلاقات بين الأفرادِ والخاصّيات، توليد بنية العالم وج.

وعلى هذا النحو تحصَّلَتْ لدينا أنواع من إمكانيات العلاقة متباينة:

(I)وب ع وج وليس وج ع وب: ههنا العلاقة تكون إثنينية ولكنها لا تكون **تناظرية**. Symétrique

(II)وب وج و وج ع وب: هي علاقة اثنينة وتناظرية في آن.

(III)وب ع وج، وج ع ود، وب ع ود: هذه العلاقة اثنينية ومتعدِّية

(IV) تصير العلاقة التالية تناظرية، أيضاً.

ولما كان أُعطي عالمان أو أكثر، فإن العلاقات المعتبرة أعلاه يسعها أَن تتبدَّل بانسجامٍ مع الشروط التالية:

أ) أن يكون عدد الأفراد والخاصيات نفسه في كل العوالم المعتبرة؛

ب) أن يزداد عدد الأفراد في عالم واحد أقله؛

ج) أن يتضاءل عدد الأفراد في عالم واحد أقله؛

د) أن تتبدَّل الخاصَّيات؛

هـ) (إمكانيات أخرى ناشئة من اندماج شروط سابقة).

ولما كنا نتكلم على عوالم حكائية، بإمكاننا أن نحاول إقامة نمذجة عن مختلفِ الأنواع الأدبية على هذه الأسس (أنظر، الاقتراح الأول، پاڤل ١٩٧٥). على أننا لَن نتناول، من وجهة نظرنا الحالية، سوى بعض الحالات.

ولنعاين، في البدء، حالةً (فيما يتجاوز كُلَّ اختلاف بين الخاصيات الجوهرية والأخرى العَرَضية) يكون فيها عالمان مع عدد الأفرادِ والخاصيات نفسه:

و١	ج	د	هـ
س١	+	+	−
س٢	+	−	+

و٢	ج	د	هـ
م١	+	−	−
م٢	−	+	+

لمن الجليّ أنه بمقدورنا، مع بعضِ التلاعبات، التصرّف بالنحوِ

الذي يصيرُ الأفراد معه مماثلين بنيوياً للأفرادِ في العالم و١ والعكس بالعكس. إذاً، لسوف تكونُ العلاقة الإثنينية والتناظرية موضع حديثنا.

ولننظر الآن إلى الحالة حيث و١ ينطوي على خاصِّيات أقلّ مما في العالم و٢. ولنتخيَّلْ عقب المَثَلِ الذي كان هينتيكا أعطاه في الفصل ٨ـ ٣، أن تكون الخاصِّياتُ الموجودة في العالم و١ تتَّسم بالاستدارة وبالاحمرار في آنٍ، في حين أن الأفرادَ في العالم و٢، إلى كونهم مستديرين وحُمْراً، يمكنهم أن يكونوا دوَّارين على محورهم:

و١	مستدير	أحمر
س١	+	−
س٢	+	+

و٢	مستدير	أحمر	دوَّار
م١	+	−	+
م٢	+	+	−

وفي هذا الصدد نرى أنه في العالم و٢، ليس من الصعوبة بمكان توليد أفرادِ العالم و١: إذ يكفي أن ننسب إلى كلّ منهم (الأفراد) خاصية «ألا يكون» دوَّاراً:

و٢ (+ و١)	مستدير	أحمر	دوَّار
م٣	+	−	−
م٤	+	+	−

وإنْ نجري تحويلاً من هذا النوع، ندرك أنّ م٤ هي مماثلة من الوجهة البنيانية لـ م٢، في حين يتبدّى م٣ بمثابة فرد جديد (لم يكن قائماً بعد في العالم و٢، إنما كان ممكناً تصوره).

مع ذلك فإنه يستحيل إجراء العكس، أي توليد أفراد العالم و٢ بدءاً من العالم و١، طالما أنَّ العالم الأول، في موازاة الثاني، يملكُ قالباً (أو بنيةً للعالم) أفقر منَ الثاني، حيث لا يمكن أن يُقوِّم، لا وجود خاصِّية أن يكون الفرد دواراً، ولا عدم وجودها. لذا فإن العلاقة بين العالمَيْن ليستْ تناظرية. والواقع أنه يتسنى لي أن «أتصور» (أي أن أنتج بسبب علل تُعزى إلى طواعيّة البنية) الأوَّل، وليس العكس ليصح، على الإطلاق.

وإذا ما تفكَّرنا جيداً في الموضوع ألفينا أنفسنا إزاء وضع كان حدَّده «أبُوتّ» في كتابه **الأرض المسطحة**: وهو كائن حي، يحيا في

flatland

عالـم ثلاثيّ الأبعاد، ويزور عالـماً ثنائيّ الأبعاد وينجح في إدراكِه ووصفِه، في حين أنّ الكائناتِ في العالـم الثنائيّ الأبعاد لا تنجح في إدراكِ وجودِ الزائر (الذي يملك، على سبيل المثال، خاصّية أن يجتاز عالـمهم من أعلى إلى أسفل، بينما لا ينون يعلّلون إلا بعبارات ذات صُوَر مسطحة). إنّ كرةً ثلاثية الأبعاد وهيَ تجتاز عالـماً ثنائيّ الأبعاد تتمثّل على أنها سلسلة من الدوائر المتوالية، مما اتخذ شكلاً متغيراً؛ أما الكائنات الثنائية البُعد فلا تنجح في أدراك كيف أنّ زائراً يقوى على تبديل شكلِه بصورة متواصلة.

ولننتقِلْ إلى حالة ثالثة، حيث نضيف إلى مَثَل العالـمَيْن السالف، عالـماً ثالثاً و٣ حيث التمايز فيما بين الخاصيات الجوهرية والعرضية معتَدٌّ به. والحالُ أنّ خاصّية أن يكون دَوّاراً إنما هي خاصية جوهرية لكلّ من أفرادِ **هذا العالـم** (وهذا الوضع مماثل لأوضاع الأفرادِ في نظامنا الشمسي).

العالم المشار إليه بـ و٣

و١	مستدير	أحمر
س١	+	−
س٢	+	+

و٢	مستدير	أحمر	دوّار
م١	+	+	+
م٢	+	+	−

و٣	مستدير	أحمر	دوّار
ل١	+	−	(+)
ل٢	+	+	(+)

وفي سبيل أن يجتاز و٣ إلى العالـم و٢ نرى إمكان أن تعتمد حلول مختلفة. فإذا اعتبرنا أنّ م١ يملك خاصية الدوران بصورة عرضية، فإن ذلك مما يجعله (شأن م٢، على أي حال) فائضاً، بالنسبة للنماذج الأصلية التي يتشكل منها العالـم و٣ وإن نحن قررنا أن نبني، انطلاقاً من العالـم و٣، فرداً م١ الذي نقرُّ لَهُ «بخاصية جوهرية» وهي أن يكون دوّاراً، لتحصَّلَ لنا فرد م١ بمثابة متغيّر محتمل لـ ل٢. ولـما كانَ من اليسير المرور من العالـم و٢ إلى و١، كما بيّنّا ذلك، فقد حصلنا على علاقة اثنينية ومتعدّية، إلا أنها ليست تناظرية.

وبالمقابل فإنه يكفي، للمرور من العالم و٣ إلى و١، أن يُبنى عالم حيث لكل فرد الخاصّية الجوهرية في ألا يكون دوّاراً. وإن نحنُ رجعنا إلى ما قلناه في ٨- ٧، يتحصّل لنا أن الأفراد الذين كنّا عيّناهم على هذا النحو يصيرون فائضين بإزاء الأفرادِ في العالم و٣، كلٌّ على التوالي.

ولما كانَ نمط العلاقة، في المنطق الجهوي، يتبدّل وفقَ النسق المستخدم (ت، س٤، س٥، البروبيريّ)، فقد أمكن التساؤل حولَ الروابط بين المواقف الممثّلة أعلاه ومختلف الأنساق الجهوية؛ وعلى هذا فإنَّ القارىء ذا الإطلاع الجيّد قد يتسنى لَهُ إدراك بعض نقاط التماثل بين روابط قوالب العوالم هذه وبين «**ألعاب القاعة**» التي جعل يستخدمها كل من «هيوز» «وكريسويل» (١٩٦٨) في سبيل أنْ يبيّنا مختلف أنماط العلاقة. إلاّ أنه ليس لازماً، ههنا، بأن يجد المرء تماثلاً شكلياً، أياً كان الثمن، بَيْنَ نظامَيْ البحث المختلفَين. فما يهمنا، هو أَنْ تصاغَ قوالب بنيوية قابلة لأن تمثّل هيئة العوالم النصّية وأَنْ تُنشأ قواعِد تنظم التحويل فيما بينها (العوالم).

Parlour games

٨- ٩- بلوغيّة وحقائق ضرورية:

إننا، إذ حوّلنا الخاصيات الضرورية المزعومةَ إلى خاصّيات جوهرية (معتبرة كذلك من قبل المدار)، فقد أنجزنا اختصاراً للمسألة مفيداً. ولكن ذلك لا يمنع أَنْ يلبث تساؤل قيد التداول: ما العمل بهذه الحقائق التي قيل عنها إنها «ضرورية منطقياً»، على سبيل المثالِ مبدإ الهويّة أو «**قياسُ الإمكان أو الاستحسان**»؟.

modus ponens

ونجيب عن ذلك بأنَّ هذه الحقائق ليست لتعتبر بمثابة خاصّيات لأفرادِ من عالم إنّما باعتبارها، عرضياً، شروطاً **ما وراء لسانية** في سبيل بنيانِ قوالب العوالم. فأن يقال إن لكُلَّ العازبين، بصورة جوهرية، خاصّيات في أن يكونوا ذكوراً بشريين وراشدين غير متزوّجين يعني إثبات (قلنا ذلك سالفاً) أية هي الخاصيات التي نعرّفها على أنها جوهرية بمقتضى مدار ما؛ ولكن أن يقال، من جهة، إنه من المستحيل أن يكون المرء أعزب ومتزوجاً في آن (تلكَ مسلّمة المدلول) وأَنْ يُثبت في الآن نفسه أَنّ بعض العازبين متزوّجون، لممّا يعتبر كلاماً محالاً، في الأقل. إنَّ بمقدورنا أن نتصوّر قالباً

Métalinguistiques

للعالم حيث يستحيل أن نعتبر، لعلةٍ ما، كون العازبين بشراً صفة جوهرية فيهم (على سبيل المثال في الجملة التالية: «في عالم والت ديزني يكون دونالد داك عازباً). ولكننا حالما نقرّ أن عازباً (حتى ولو لم يكن بشراً) هو غير متزوج، يصير من المستحيل القول: «في عالم والت ديزني يكون دونالد داك أعزب ومتزوجاً».

على أن حقيقة منطقية من الطراز «لنفرض **ب**، لنفرض، **لا - ب**»، هي الشرط في تحقق إمكانية بنية للعالم. فإذا وُجد عالم و، حيث يتسنى للأفراد بصورة متزامنة أن يحوزوا أم لا، خاصية أن يكونوا مستديرين (أي عالم حيث علامة القالب + أو - لا يكون لها أي قيمة ثابتة، وحيث يمكن لإحداها أن تختلط بالأخرى)، فإن هذا العالم لن يقوى على أن يُبنى (وإن شئنا التفصيل، فإن تصوره محال، بمعنى أنه لا يمكن أن يُصاغ بنيوياً). وقد يتبين لنا، ههنا، أن تلك هي حالة المثل (٣٢) الذي تتفكر فيه حماتي في عالم ممكن يكون الفرد فيه متميزاً في كونه صهرها، ويكون متميزاً لعدم كونه كذلك، في الآن نفسه؛ على أن يتم إيضاح هذا التناقض الظاهر في الفصلين ٨ - ١٤ ولواحقهما.

والحال أن الحقائق الضرورية منطقياً ليست عناصر لتأثيث عالم، إنما هي شروط شكلية لبناء قالبه. وقد يجوز الإعتراض على هذا بالقول أنه توجد، في العوالم الحكائية، حالات حيث تنكر الحقائق المنطقية. والحال أن كثيراً من روايات الخيال العلمي تتبدى نموذجية في هذا الشأن: إذ توجد على سبيل المثال، سلاسل عللية مغلقة[١٤]، حيث أ هو سبب ب، وب هو سبب ج، وج هو سبب أ بدوره، وعلى هذا المنوال، يمكن أن توجد شخصيات تمضي في معاكسة الزمن، فلا تكتفي بأن تتلاقى، هي نفسها فحسب، وقد عادت أكثر شباباً من قبل، بل تصير الشخصية الواحدة والدة الشخصية الأخرى أوجدّها. إلى ذلك يسعنا الإقرار أنه في أثناء رحلة (حكائية) كهذه، يكتشف البطل أن الرقم ١٧ ليس رقماً أول، ويلحظ أن كثيراً من «الحقائق الأبدية» الأخرى على ما جرى تسميتها قد أعيد النظر فيها. وبعد، ألا يجدر بنا الكلام على عوالم حيث الحقائق الضرورية منطقياً لم تعد قائمة؟

أما نحن، فنعتقد أنّ الأمر لا يعدو كونه وهماً حكائياً فريداً. فمثل هذه العوالم لا تكون «مبنية»، إنّما هي «مسمّاة» فحسب. وفيما يسعنا القول بصورة تامة، إنه يوجد عالم حيث الرقم ١٧ ليس رقماً أوّل، يسعنا القول كذلك بوجود عالم حيث يحيا **الخضيريون** آكلو ـ الحصى. بيد أنه ينبغي، لبناء هذين العالمين، أنْ تتوافر في الحالة الأولى، القواعِد التي يجري بها انقسام الرقم ١٧، انقساماً ناجحاً، بواسطة رقم يفترض به ألا يكون ذاته، وفي الحالة الثانية، أنْ يوصف الأفراد المدعوّون خضيريون آكلو ـ الحصى بأنْ تنسَب إليهم خاصّيات: على سبيل المثال أن يكونوا عاشوا في القرن السابع عشر، وأن يكونوا ذوي بشرة خضراء، ويقيموا تحت سطح الأرض، ودأبهم أن يأكلوا كلّ الحصى التي يرمي بها الأب «كيرشر» في فوّهاتِ البراكين حتّى يرى إن كانَتْ لتخرج من متقاطراتِ الأرض أو إن كانَتْ لتعلق في مركز **العالم الجوفي**. وفي الحالة الأخيرة، يتضح لنا جيداً أنه قد يُجرى بناء الأفراد، بتركيب خاصّيات، تركيباً فريداً وغير مسبق، كانَتْ مسجّلَةً في قالب و. ذي المرجع. وهذا مما يطاول السؤال الذي طال الجدل بشأنِه في تاريخ الفلسفة ـ أيمكن أن يتصور المرء جبلاً من ذهب؟ ـ أو ذلك السؤال الذي مضى هوراس يعالجه ـ هل يجوز أن يتصور المرء كائناً بشرياً برأسِ حصان؟ لمَ لا؟ ولا سيّما إذا كان الأمر يقضي بتركيب أمور جديدة، سالفة إلى جانب اللاحقة، انطلاقاً من الأمور المعروفة. والحال أنه من الأصعب ـ وينبئنا تاريخ المنطق بذلك ـ أن يُتصور (بمعنى أن تُعطى قواعد بنيان شيء) تربيع للدائرة. والملاحظة نفسها تصح بالنسبة لقابلية انقسام العدد ١٧.

ذوو البشرة الخضراء، على غرار الطيور ذاتِ الريّش الخضراء.

Mundus Subterraneus

ولنتناوَلْ رواية من نوع الخيال العلمي: فيها يثبت المؤلف وجود آلة بمقدورها أنْ تحوّلَ مادة مكعّبٍ إلى طاقة وأنْ تجعله يظهر ثانية في زمنٍ سالفٍ منقضٍ (إذاً، قد يظهر المكعّب على المصطبة ساعة قبل أنْ يكون وُضِعَ عليها)؛ بيد أنّ آلة كهذه مسمّاة فحسب ولا تكون «مبنية»، بمعنى أنَّهُ يُقرُّ إقراراً بوجودها، ويقال إنَّ لها اسماً، ولكن لا يقال كيف تعمل. وعليه، فإن هذه الآلة تلبث «عاملاً استثنائياً» أبداً كما هي حال «الواهب السحري» في الحكايات أو الله في قصص العجائب: إن عاملاً

هو مَنْ تُنسَبُ إليه خاصِّية القدرة على انتهاكِ القوانين الطبيعية (والحقائق الضرورية منطقياً).

مع ذلك، فإنه ينبغي قبول هذه القوانين التي يسع العامل انتهاكها، في سبيل المصادرة على هذه الخاصِّية. وفي هذا الصدد، فإنني إذا شئتُ أن أذكر عاملاً قادراً على تعليق مبدإ هوّيتي (فيتصرَّف على النحو الذي يجعل مني أباً لنفسي)، توجَّب عليَّ أَنْ أبني قوالبَ لعوالم حيث يكون مبدأ الهوية مرعيّ الإجراء ومعتبراً. وإلاّ لن يكون بمقدوري أن أتكلم على ذاتي، وعلى أبي، بذلك الالتباس الممكن والمثير للغرابة بين الهويتين، ولن يكون بوسعي إطلاقاً أَنْ أَنسب إلى ذلك العامل «السحري» تلك الخاصية، لأنَّه قد ينالها ولن ينالها، في آنٍ معاً. ذلك هو السبب الذي يجعلنا نميِّز فيما بين «التسمية» أو «إيرادِ» خاصِّية وبين «بناءِ» خاصية. وبالطبع، فإنني إذ أصادر على عالم حيث يوجد فردوس (الله، واهب، آلة للعودة بالزمن إلى الوراء) يكون قادراً على تعليق الحقائق الضرورية منطقياً، أكون أزوِّد هذا العالم بفرد هو فائض بإزاء العالم المرجعيّ. وفي مقابلة هذا الفردوس، تصيرُ الهويَّة عبر العوالم عرضة لأزمة، ودون البلوغية ما بين العالمَيْن قيدِ المعالجة، وفقَ القواعد المعلنة في الفصل ١١- ٨، طالما أَنه توجَدُ في موسوعة العالم و. خاصية أن يُسمَّى (الفرد) على أنه منتهك القوانين المنطقية.

لقد اعترضَ البعض (ڤولي، ١٩٧٨، الملحوظة ٣٧) على النظرة السالفة بالقول إنّ التمايز ما بين الخاصيات المسمّاة والخاصياتِ المبنيَّة أو الموصوفة بنيوياً لا يقوى على الصمود في وجه الانتقاد، ذلك أَن «كل تاريخ العلم (والأدب) يمثلُ ههنا ليبيِّن أنه يسوؤنا كثيراً، إذ نستخدم نماذجَ واستعاراتٍ قد تصيرُ فيما بعد معيَّناتٍ، أَنْ نتعرَّف (ويعني أن نسمّي ونصف) إلى أشياء وخاصياتٍ جديدة لم تكن موجودة قبلاً، في العوالم الممكنة الإدراكية». وإن كان الاعتراض يعني أنّهُ، بناءً على خاصيات معروفة يمكن لنا أن نوحي بتراكيب من الخاصياتِ ما زالت مجهولة، فإن ذلك يستدعي منا القول ما قلناه (وقالَهُ معنا، كل تاريخ الفلسفة) حولَ جبل الذهب. إنَّ رجلاً عبقرياً مثل ليونارد دي ڤينتشي، إذ يرقب

طيرانَ طيورٍ وينظر إلى فلو ذي قَلاَّب، أمكنه أن يتخيَّلَ تركيبة من خاصِّياتٍ متَّسقة (أَنْ يكون أثقل من الهواء، أن يكون لَهُ جناحان يضرب بهما، وأن يشكل نموذجاً في جهاز عديم الحركة ذي شكل عضوي) فأتاح لَهُ ذلك أن يصفَ طائرة، وأن يفترض عالماً حيثُ يتاح لَهُ أَنْ يكون مبنياً وأن يوجّه مخيّلَةَ مَنْ قد يفكّر في بنائه، فيما بعد. ففي كتاب **«أعاجيب العام ألفين»**، كانَ إميليو سالڤاري قد تخيَّل فِيلَةً معدنية مولجةً في العناية بالمقذورات، إِذْ تقدر على سفطِ الأقذارِ بخراطيمها. وعلى ما أذكره فقد كانت لا تزالُ فكرة السفَّاطة (أو المكنسة الكهربائية) متداولة في تلك الحقبة، إلا أَنَّ ذلك ليس بالأمر الهام: وأياً يكن الأمر، فقد كانت تلك طريقة للإيحاء فحسب، بتركيب عناصر تؤدِّي إلى إنتاج فردٍ جديد؛ ومن ثم فقد كان يكفي أَنْ يختزل الفرد إلى عنصر بشكل أنبوبٍ سافطٍ و «ببطن» أو وعاء، حتى يكون الدور قد أُدِّي. مع ذلك، يجدر بنا أن نلحظ أَنّ سالڤاري لا يقول كيف يتمُّ السفط: إذاً، مضى كالڤاري يبني، جزئياً فحسب، فردَهُ، أما في ما تبقى فقد اكتفى بالمصادرة عليه (أي بتسميته) على أنه عامل بالاستثناء. وإن كان لحمل، فيما بعد، أحدٌ على ترجمة طابع الاستثناء المسمَّى بالطابع العملاني الذي يمكن لَه أَن يُبنى وأن يوصف، فإنَّ ذلك يُعدُّ شأناً آخر.

Le meraviglie del due mila

أمّا إذا كان اعتراض ڤولّي يعني أَنَّ رواية من نوع الخيال العلمي يمكن أن تصفَ آلةً تعيد الزمنَ إلى الوراء، وتسهم بذلك في بناءِ شيء مشابهٍ، فقد يصيرُ من الجائز أَنْ نقولَ بوجودِ التباس حول كلمة [الوصف]. والحال أننا نحيلُ إلى الفصل الثاني منَ الكتاب (المسألة التالية): أَنْ يُصاغَ التعريف بشيء، لأمر يدركه پيرس جيداً، إذ يعني تحديد العمليات الواجب إتمامها من أجل تحقيق شروط إدراك صنفٍ من الأشياء الذي تعود إليه الكلمة المقصودة وتُرجَعُ. إذاً، أن يقال إن آلة لإرجاع المرء، بالزمن، إلى الوراء تتيح لنا أن نزور الماضي، بأن نعكسَ المبدأ الثاني في الديناميكا الحرارية، لا يشكِّل تعريفاً شافياً. وإذا مضى باحث علمي، حالما سمع بهذا الشيء الغريب، يبحَثُ في ظروفِ وصفِ شيء مماثل وبنيانه (عمليات آيلة إلى التعيين)، لن يكون لنا ما نعترض به على هذا الشأن: ثمة أناس كانوا مضوا يبحثون عَنْ حيواناتٍ أحاديَّة

القرن، فما وجدوا سوى كركدنّات. وأن يظن المرء أن تكون للأدب وظائف تنبؤية (إذ يعلن كتاب عن شيء ويسميه، ومن ثم يتحقق هذا الشيء فعلاً) لرأي جدير بالاعتبار: ولكن ذلك يستدعي إعادة تحديد التصور الأرسطي المسمى «الممكن الوقوع»، أيكون أمراً غير ممكن للتصديق أن يؤكد المرء اليوم أنه بوسعنا الذهاب إلى «ألديباران»، أبداً مثلما مضينا بالأمس إلى القمر؟ إن ذلك ليبدو، وفق المعايير العلمية المتداولة، غير ممكن الوقوع (والتصديق) لكونه غير قابل للتحقق في فترة زمنية معقولة. مع ذلك فإن ذهناً غير علمي قد لا يجد مخالفة للرشاد في الظن التالي: «لما كنّا مضينا إلى القمر، وطالما ظننا أنه أمر مستحيل، فلم لا نعتبر الرحلة إلى الديباران ممكنة؟». والكل يدرك أن العلم إنما يأخذ جانب الحذر الشديد في تحقيق صياغة معاييره حول الممكن وقوعه: في حين أن الرأي العام، والتخيُّل اليومي والمخيلة الشعرية، أقل حرصاً في هذا الصدد. ذلك هو السبب الذي يجعل من نص أدبي قادراً على استشراف عالم ممكن حيث قد يتسنى للناس أن تسافر إلى الديباران. بيد أن النص الآنف، حين يزمع أن يعمل بخلاف كلّ البداهات التي قد توفرها معارفنا الفيزيائية، يلزم نفسه الاقتصار على تسمية الأفراد القادرين على تحقيق هذا المشروع (صواريخ، مختزلات زمانية ـ مكانية، محولات إلى طاقة على الموجات زيتّا، عمليات نفسانية ـ بَرّانية) دون أن يبنيها بنياناً. وعليه فإنه من الطبيعي، لمن يحيا في عالم حيث يوجد هؤلاء الأفراد أن يتساءل بذهول، كيف كان تصرُّف الشاعر القديم لوصف الشخوص المذكورين، دون أن يتنبه إلى أنه لم يعد تسميتهم فحسب. وهكذا، فنحن إذ نقرأ روجيه بايكون، ندهش للصرامة التي كان أثبت بها إمكانية نشؤ آلات طائرة، فيحملنا ذلك على اعتباره صاحب ذهن بارع شأن ليوناردو دي ڤنتشي. بيد أن الفرق يكمن ههنا فحسب: لئن كان ليوناردو وصف هذه الآلات وصفاً إجمالياً، فإن بايكون عمد إلى افتراضها ليس إلّا، وبعبقرية أكيدة، حين اكتفى بمحض تسميتها.

Parapsychologiques

وفي الختام، كان أحدهم قد اعتبر أنّ كل استعارة من شأنها أن تُمثل بناء عالم ممكن. بادىء بدء، ينبغي لنا أن نحدد آلية الإستعارة: وفي سبيل أن نظل متقيدين بما كان قيل في الأطروحة

(Trattato) [٣- ٤- ٧]، يجدر بنا التذكير بأن الاستعارة تتحقّق، حالما تصيرُ إحدى الوحدتين الدلاليتين (اللتين تكوّنانها) تعبيراً عن الأخرى، وذلك بفضل إدغامٍ محقّقٍ في خاصّية واحدة على الأقل مما تحوزهُ إحداهما بصورة مشتركة. إذاً، إن كانت الحال كذلك، تكون الاستعارة محاولة «بناء» على قاعدة تركيبة من الخاصيات: إذ أُسمّي كيان س (ذات الخاصيات أ، ب، ج) من خلال إبدالها الكيان ل (ذات الخاصيات ج، د، هـ)، وذلك بإدغام الخاصية ج؛ وعلى هذا النحو اقترح نوعاً من وحدة معجمية غير مسبوقة وقد اكتسبت خاصّيات أ، ب، ج، د، هـ. وبهذا المعنى، يُتسنى للاستعارة الشعرية نفسها أن تصير أداة للمعرفة طالما أنها تمثّل الخطوة الأولى، غير الواضحة بعد، في سبيل بناء قالب للعالم: عالم، على سبيل المثال، حيث تصير امرأةٌ بجعةً، وحيث يُقترح بصورة غامضة، إمكانية (وجود) فردٍ يعود إلى المرأة والبجعة سواءً بسواء. على هذا، يبدو لنا من قبيل التهوُّر الالتزام في تحليل الاستعارة من منظار العوالم الممكنة. ذلك أن استعارة لا يسعها أنْ تنتج أفراداً من عالمٍ تعاقبي: إنما تساهم، ببساطة، في إغناء تعرُّفنا إلى الأفراد الذين ينتمون إلى العالم المرجعي نفسه.

أما فيما خَصَّ القصص في مجال الخيال العلمي حيث أصيرُ أَبَ (والدَ) نفسي وحيث الغَدُ يتماهى بالأمس، فإن غايتها بعامة تكون أنْ تجعلنا نستشعر هذا الضيقَ الناجم عَن التناقض المنطقي فيها، إذ يُتاح لها أنْ تتلاعَب في واقع مفادُه أَن العالم الممكن الذي لاتني تقترحُهُ، وفقَ قواعد بناء العوالم وقائمة الخاصّيات التي تزودنا بها موسوعتنا، لا يمكنُهُ أَن يقوم (وفي واقع الحال، لا يسعنا بناؤه إلاّ أن يكون فاقداً توازنه وملتبساً من الوجهة البنيوية). والأحرى بهذه القصص أَن تطالبنا بإثبات اللذة في ما هو عصيّ على التعريف (بأن تعوّلَ على عادتنا في المماهاة بين الكلمات والأشياء، مما يجعلنا نعتقد غريزياً بأنّ شيئاً مسمّى هو شيء معطى، على النحو ذاته، وبالتالي فإنّه مبنيٌّ بصورة منَ الصُوَر). وهيَ تدعونا إلى أَنْ نتفكّرَ في الإمكانية التي تنطوي عليها موسوعتنا في أن تكون غير كاملة، ومبتورة، ومجردةً من بعضِ الخاصّيات المتوقّعة. وبالإجمال، فهي تشاء أَنْ ينتابنا الشعور بأننا أشبه بسكانِ عالم «أبُوتّ»

ذي البعدين، إذ مضَتْ تجوزهم كُرَةٌ ثلاثيّة الأبعاد. ولئن توحي لنا، هذه القصص، بوجود أبعادٍ أخرى، فإنها لا تمدنا بمعرفة الكيفية التي يتمّ بها تعيينها. لذا فإن فوارقَ تبقى ماثلة بين **الأرض المسطحة** ونظرية النسبية المقيّدة. وهذا ما يتجاوز مأثوراتنا الشخصية.

Flatland

٨- ١٠- عوالم الحكاية:

في الوقت الحاضر، يسعنا أن نترجم عن نتائج المقاطع السالفة، وذلك بتعابير تُصاغ بها نظرية حول الحكاية وتعاضد القارىء المتوقّع.

لطالما قيل إن مختلف الحالاتِ في حكاية قد تشكل عوالم ممكنة عديدةً: ذلك هو اقتراح يجدر ردُّه بحزم إنْ شئنا الاحجام عن الإفادة مما قد يصير، هذه المرة، إستعارةً فاتنةً ربّما، ولكنها فارغة. إنَّ حكاية هي عالم ممكن: فمن شأن قصة «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» أن ترسم سلسلةً من الشخصياتِ ومن الخاصّيات تكون مختلفةً عن مثيلاتها في عالمنا و.. علماً أنَّ ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة، في الحالة الأولى من الحكاية، تمضي في مجادلة أمها؛ وفي حالة ثانية، تدخُلُ إلى الغابة وتلتقي بالذئب. وعليه لمَ القول إن المقطع الزمنيّ حيث تلتقي الفتاة بالذئب هو عالم ممكن بالمقارنة مع العالم حيث تجادلُ أمها؟ أما إذا مضت الفتاة، وهي تتحدّث إلى والدتها، تتخيّل ما سوف تفعله في الغابة، في حال التقائها بالذئب، فإن ذلك يصير، حينئذٍ، وبإزاء العمقِ الذي تكون حددته حالة الحكاية الأولى، عالماً ممكناً، عالمَ معتقداتِ الفتاةِ وتوقعاتها. ولما كان (هذا العالم) كذلك، فقد بات جائزاً أن تثبت الحالة المتوالية، التي تكون عليها الحكاية، العالمَ الممكن أو تبلغه، علماً أن ما يقال في الحكاية إنما هو ما يحدث في أوانه (إننا نعاود الإلماح إلى أن كلمة «آني» هي عبارة شاهدية: يصيرُ عالم الحكاية آنياً حالما نقبل باعتباره نقطة الإرجاع المعتمدة لتقويم مظانّ شخصياتها). بيد أن «ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» التي تتحدَّث مع والدتها وذات القلنسوة الحمراء الصغيرة التي تجادلُ الذئب، إنما هما الفرد نفسه الذي يمرُّ بمختلف مجارٍ من الأحداث، فإن قال امرؤ:

Indexicale

(٣٤) بالأمس كنتُ في ميلانو وأنا اليومَ في روما،

فإنَّ هذا القول يكون من الوضوح بحيث لا يترك أي شَكّ (في ذهن القارىء) في أَن فاعِل التلفُّظ يتكلم على «اليوم» الخاصّ بفردٍ هو الكائن نفسه بالأمس، وأَنه يتكلم على حالتين تعتريان العالم نفسه. أما إن قال العكس:

(٣٥) لو لم أكن مضيتُ إلى ميلانو بالأمس، لما وجدتني اليوم في روما،

يتعيَّن علينا أَنْ نحدِّد «اليومَ»، في عالم المتكلم الواقعي، على أنه حالة من الأمور ممكنَةٌ (لم تتحقَّق بعد)؛ إذاً، قد تكمن المسألة في إثبات ما إذا كانت الـ «أنا» المعنيَّة بالبحث، على ضوء المدار النصِّي، هي الفرد عينه في العالمَيْن أو هي ثنائيّ متمثِّل في: نموذجي ـ متغيِّر أم ثنائي متمثِّلَ في: فرد ـ فائض.

وبفضل هذه الملاحظات، يمكننا أن نتابع دراستنا فنصوغ التعريفات التالية:

(I) في حكاية ما، يكون العالم الممكن ون ذلك العالم الذي أكَّد المؤلف وجوده. وهو لا يمثّل حالةً من الأشياء، إنما يمثل توالية من حالاتٍ تعتري الأمور لأ... لن وقد انتظمتها فاصلات زمنية زأ... زن. إذاً، يكون علينا أَنْ نتمثَّل حكاية باعتبارها تَواليةً [من عوالم ذاتِ حالاتٍ متعاقبة] ون لأ... ون لن من الحالاتِ النصِّية. وإن كان لزمنا أَنْ نعيّن عالماً ون في تمامه، فقد أوجب علينا أن نحدِّده في اللحظة التي كان تحقَّق فيها العالم ون لن، ليس إلاّ. وبعبارات أخرى، ندركُ الحقيقة حين نقول إن «السيدة بوڤاري» هي قصة امرأة زانية من الطبقة البورجوازية ـ الصغرى وقد ماتَتْ؛ إلا أننا نخطىء إذ نقول إن «السيدة بوڤاري» هي قصة تحكي عن حياة امرأة طبيب، كان يسعدها عيشها الهادىء حتّى ولو أمكن حالاتِ الحكاية الأولى أَن تطمئننا إلى هذا اليقين. فلا نعتم أن نكرِّر أَنَّ [ون لو] ليسَتْ عوالم ممكنة: إنما هي حالات مختلفة للعالم الممكن نفسه. وكما سوف نرى، فإن القارىء الذي يروح يقارن حالةً معطاةً من الحكاية بعالم مرجعه أو بعالم توقعاته المخصوصة فهو يضطلع باعتباره أَنَّ هذه الحالة هي عالم ممكن؛ بيد أن ذلك يكون ممكَن الحدوث طالما أنه لا يملكُ بعد العالم الحكائيّ

الممكنَ في كلِّيته، ولما كانَ قد اقتنع بأن حالة الحكاية ينبغي أن تكون مكتملة بصورة أو بأخرى، فقد نشأ لديه الميل للتقدُّم بتوقعاته.

(II) في مجرى النص قُدِّمَتْ لنا بعض عناصر ونج أي عالم مواقف الشخصيات القضويَّة على أنها عناصِرُ في الحكاية. إذاً، يعمد عالم [ونج لط] معطى إلى وصفِ مجرى الأحداثِ الممكنة أبداً كما تخيَّلته (أملَتْ، وأرادَتْ، وأكدتْ...) شخصية ج محددة. على أن حالاتِ الحكاية المتتالية ينبغي أنْ تثبت توقعاتِ الشخصيات هذه أو تدحضها. وفي بعضِ الحكايا، لا تكون مواقف الشخصياتِ القضويَّة مثبتةً من قبل حالاتٍ متتالية إنما من قبل حالاتٍ سابقة للحكاية. على سبيل المثال، حين تصل «ذاتُ القلنسوة الحمراء الصغيرة» إلى مقربة من سرير جدتها، تظنّ أن الشخص القائمَ في السرير هو جدتها (في حين أن الحكاية كانت سبقَتْ إلى القول إن الشخص ذاك هو الذئب). وفي هذه الحالة، يكون للقارىء أنْ يشارك في معرفة مجريات الحكاية كلها وأن يحكم على صدقية عالم [ونج لط] هذه الشخصية، بجرعة كبيرة من الساديَّة.

(III) وفي أثناء قراءة النص (أو في أثناء تحوّلِهِ التدريجي إلى قضايا كبرى جزئيةٍ تعود إلى الحكاية) تروح تتشكّل سلسلة من وه، أي من عوالم ممكنة متخيَّلة (مرهوبة، منتظرة، مرغوبة...) من قبل قارىء تجريبي (ومرتآة من النص على أنها حركات محتملة لدى القارىء النموذجي). ومن المعتبر أنْ تنشأ هذه العوالم وه لدى واصلاتِ الاحتمال الهامة التي تحدثنا عنها في الفصل ٧- ٢. في حين أنَّ حالاتِ الحكاية المتتاليةَ من شأنها أن تثبت توقعاتِ القارىء أو تدحضها. والحال أن عوالم القارىء، بخلاف ما عليه عوالم الشخصيات، لا يعقَل أن تثبتها إلا الحالات التي تتوالى على عقدة حيث تُطْعَمَ توقُّعٌ لتوّه (إنه لمما لا طائل فيه أن يهتم المرء لِقارىءٍ يظن، مع ذات القَلَنسوة الحمراء الصغيرة، أنّ الشخص القائمَ في السرير إنما هو الجدَّة، رغم إدراكهِ السالفِ أن الذئب كان اتخذ موضع الجدّة هذه؛ من وجهة نظرنا، يكون هذا المرء غبياً؛ في حين يبدو لناظري مربٍّ، أو عالم نفس أخصائي بالأطفالِ أو طبيب للأمراض النفسية، حالة مثيرة للاهتمام). وبالطبع، فإن ثمة حالاتٍ حيث

يلمح النصُّ إلى أَنَّ حالةً معطاةً هي قيد التثبُّت، ولكن بين السطور فحسب، حتى إذا جازها القارىء إزداد يقيناً بما كان يجدر بالحكاية أن تشجبه. تلك هي حالة الستراتيجية الحكائية الكامنة في قصة «مأساة باريسية حقاً»، التي سوف نعاينها.

(IV) إلى ذلك فقد يتسنى للقارىء، في غضونِ حركاتِهِ التوقعية، أن يتخيّل (وفي مسرد آلّيه، يكون على القارىء أَنْ يجري تخيله على بعضِ النقاط) العوالم الممكنة التي تنطوي عليها الاعتقادات (توقعات، رغبات...) المُفْضَى بها مِنْ قِبَل شخصيات الحكاية. ولسوف ندعو [ولج] العالمَ الممكن الذي ينسبه القارىء، إذ يقومُ بتوقّعات، إلى شخصية، وندعو ولجج العالم الممكن الذي تتخيله شخصية ناسبةً إيّاه إلى شخصية أخرى («لربما تظنّ أنها تظنّ أَنّ....»). وثمة حكايا حيث يكون القارىء مدعواً إلى صياغة عوالم من النموذج ولججج.....، وهذا ما ندعوه بموقف **التوالي اللامتناهي**[١٥].

Mettre en abîme

٨- ١١- خاصِّيات س ضرورية:

ونحن إن اختصرنا مستهلّ قصة «مأساة باريسية حقاً» إلى قضايا كبرى من الحكاية، أمكننا استخلاص وصف حالة الأمور التالية:

(٣٦) حوالي العام ١٨٩٠، كان في باريس رجل يُدعى راوول. وكان زوجاً لمرغريت.

فالقارىء إذ يلجأ إلى موسوعته المخصوصة، يدرك أن باريس إنما هي فردٌ يعود إلى عالم و. المرجعي، وأن العام ١٨٩٠ إنما هي إحدى حالات العالم نفسه (وبالمقابل فإن تاريخ ٢٠٠١ قد يعيِّن عالماً ممكناً بالنسبة للعالم و.). وإلى أن يُثبَتَ العكس (مصاديق مشمولة)، لسوفَ يضطلع القارىء بملاحظة أنَّه يوجد تماثل في العمق بين ون وو.. ولكن ما الذي قد يحسم في شأن راوول؟

ولحسن الحظّ، سرعان ما يقال إنَّ راوول متزوِّج بمرغريت. وهذا كافٍ لتبيان هويّة راوول داخل الحكاية، وعاصم عن ارتكاب الخطأ في شأنها، وقد يكون ثمة ذكور آخرون بشريّون وبالغون ممن يعيشون في

باريس في تلك الحقبة (وحتّى، يسعهم جميعاً أن تكون لديهم خاصّية أن يُسمّوا راوول)، ولكن ليس إلاّ «هذا» مَنْ لَهُ خاصية أن يكونَ مزوَّجاً بمرغريت «هذه» التي يخبرنا عنها النص. وإن شئنا أنْ نستخدم ترميزاً مخصوصاً بهذا الشأن، رأينا من الواجب أن ننسبَ إلى راوول عاملاً «غير محدَّد» [Iota] لتعيين هويته الفردية:

$$(\exists x)\ [\text{Homme}\ (x).\ \text{Marié}\ (x, z, W_N, s_0 < s_1].$$
$$(\forall y)\ [\text{Homme}\ (y).\ \text{Marié}$$
$$(y, z, W_N, s_0 < s_1).\ (z = \iota x_2)] \supset (y = \iota x_1).$$
$$(\iota x_1 = \text{Raoul}).$$

وهذا يعني أنه يوجد على الأقل فَرد «س» يكون رجلاً، وهو في العالم الذي لا نزالُ نعتبرهُ (قميناً باحتواء شخوص الحكاية)، تزوَّج بفرد آخر «ز» وذلك في حالة سابقة، حين شُرع في القصة، وأنه لكل فردٍ «ي» ممن يشترك بالخاصّيات نفسها، على أن يكون الفرد ز الذي كان ي قَدْ تزوَّجه محدَّدَ الهوية بصورة مسبقة، فإنّ الـ «ي» هذا إن هو إلاّ الـ «س» الذي سبقَ الكلام عليه (والذي يُدعى راوول).

ما الذي يدعو إلى الغرابة في هذه الصياغة؟ وبعدُ، ذلك أنه، في سبيل تحديد هويّة راوول، نكون بحاجة إلى فرد آخر سابق التعريف به، ونعني به مرغريت.

ولكنه، في سبيل تعيين هوية مرغريت، اقتضى لنا أنْ نُجري، شأننا في ذلك شأنَ راوول، صيغة تناظرية حيث قد يتدخل راوول باعتباره مرسى مرغريت:

$$(\exists x)\ [\text{Femme}\ (x).\ \text{Mariée}\ (x, z, W_N, s_0 < s_1)].$$
$$(\forall y)\ [\text{Femme}\ (y).\ \text{Mariée}$$
$$(y, z, W_N, s_0 < s_1).\ (z = \iota x_1)] \supset (y = \iota x_2).$$
$$(\iota x_2 = \text{Marguerite}).$$

وهكذا، لا يعود ممكناً تعيين هوية راوول دون مرغريت ولا تُعيَّن هوية مرغريت دونَ راوول. وقد لا تكون هذه هي الطريقة التي نلبث نعيِّن بها هوية الأفراد «س» في اختبارنا (حتَّى لو ألزمنا ذلك التفكيرَ في هذه الإمكانية)، بيد أنَّها الطريقة الرئيسية التي نلبث نعيِّن بها هويَّات الأفراد «س» في نص حكائي. وأقلَّه، على هذا النحو، نلبث نحدِّد هويّاتِ «الفائضين» بالنسبة للعالم و.. والواقع أننا، فيما يخص باريس، لسنا في حاجة إلى تعيين هويتها المتقاطعة هذه: إذ أنها (مدينة باريس) محدَّدة الهويَّة بوفرة بيِّنة في الموسوعة. إلا أنه لا يسعنا أنْ نتصرف بخلاف ذلك في حالة راوول ومرغريت.

ولنتخيَّل نصاً هذا فحواه:

(٣٧) ذاتَ يوم كان (رجل يدعى) جان. وذات يوم كانَ (رجل يدعى) جان.

من الوجهة الحدسية، قد نقول إن ذلك لَيْسَ بالحكاية المستحسنة، وحتَّى أنَّ ذلك ليس حكاية مطلقاً، لأنَّه لا يحدثُ شيءٌ مما يردُ في هذا القول، ومن ثمَّ فإننا لا نفلح في تقدير عدد الرجالِ الذين يُدعون جان.

ولنفترض، على العكس، أن الحكاية تبدأ على هذا النحو:

(٣٨) ذات مساء في الدار البيضاء كانَ رجلٌ ذو سترة بيضاء جالساً لدى ريكس بار، وفي اللحظة نفسها، وصل رجلٌ إلى المطار ترافقه امرأة شقراء.

وهذا يشير إلى أنَّ الرجل الأول كانَ دُلَّ على هويته من خلال علاقته المخصوصة ببارٍ معين (وكان هذا البار قد أُبرزَتْ هويَّتُه من خلال صلته بالدار البيضاء، وهي فرد محدَّد الهوية مسبقاً في عالم و.). في حين كانَتْ عيَّنَتْ هويَّةَ البار صلتُهُ بالرجل. أما الرجل الثاني، بدوره، إذ قيل إنه وَصَل «في اللحظة نفسها» إلى المطار، فإنه ما كانَ لتُعَيَّن هويتُه نسبةً إلى الأول، إنما نسبةً إلى المطار، وكذلك الأمر فيما خَصَّ المرأة الشقراء (والتي يصح عليها الإجراء نفسه للكشف عن هويتها).

إنه لمن الأهمية بمكان أنْ يتمَّ التفريق بينَ الرجلَيْن وذلك بفضل إجراءين لتعيين الهوية مختلفين: والواقع أن ثمة روايات من مثل الحكايات

المسلسلة التي كانَتْ تؤلَّف في القرن التاسع عشر غالباً ما كانَتْ تلعب على اختلافات مزيَّفة. ولسوف نحيلُ إلى إيكو (١٩٧٦) من أَجل التعريف «**بهيئة لازمة** للمزيَّف المجهول»: في بدء الفصل تقدِّم لنا (القصة) شخصية في غاية الغموضِ ومن ثم يُوحى إلينا (في مفاجأة محوكة بخيط أبيض على العموم) أَنّ الأمر يتعلق بـ «**س**» كانت قد عَيّنَت هويته دلائل وفيرةٌ، وشمٌي في الفصولِ السابقة. والحال أَنَّ العلاقة القائمة بين راوول ومرغريت، شأن العلاقة القائمة بين الرجل والسترة البيضاء والبار (ومن ثم بين هذا الأخير والشخصيتين اللتين تصلان لتوّهما منَ المطار)، إنما هي علاقة إثنينية وتناظرية **س ع ي** حيث **س** لا يسعه أن يكون دونَ **ي** والعكس بالعكس. وفي المقابل فإن العلاقة بين الرجل ذي السترة البيضاء، والبار والدار البيضاء هي علاقة اثنينية ومتعدّية دون أن تكون تناظرية، للأسباب التالية:

Topos

(I) لأَنَّ الرجل تعيّنُ هويتَهُ علاقتُه بالبار؛ (II) والبار تعيّن هويتَهُ علاقتُه بالرجل حيناً، وعلاقتُهُ بالدار البيضاء حيناً آخر؛ (III) وبالتعدية تعيّنُ هويّةَ الرجل علاقتُهُ بالدار البيضاء، (IV) غير أن الدار البيضاء، شأنَ الفرد في العالم و. لا تحدَّد هويّتها، لزوماً، علاقتُها بالفردَيْن الآخرين (وحتى أنّ الموسوعة تحدد هويّتها وسائلُ أخرى وكلّما تعيَّنتْ هويتها بالركونِ إلى علاقتها بالرجل وبالبار فحسب، تقلّص الاعتبار بالتعرّف إلى الدار البيضاء التي نعهدها من خلالِ الموسوعة». وهذا مما يتيح لنا القول إنه: (أ) تكونُ العلاقات بين فائضين في حكايةٍ متناظرةً، في حين (**ب**) أن العلاقات بين المتغيِّرات ونماذجها البدئية في العالم و. لا تكون كذلك. وهذا مرده إلى أَنَّ العلاقات حين تكونُ معقّدة، تكون متعدّية.

في حين أَنَّ العلاقات الإثنينية والتناظرية (والمتعدية عند الاقتضاء)، التي لا تصلح إلاَّ في داخل الحكاية، ندعوها علاقات ل ـ ضرورية أو خاصّياتٍ ضرورية بنيوياً. وهذه العلاقات إنما تكون جوهرية في سبيل أن تكشف عن هويّة الأفرادِ الفائضين في الحكاية.

وبعد أن تكون هوية راوول قد عُيّنَتْ على أنه زوج مرغريت، لن يسعه أبداً أن ينفصل عَنْ جزئه المقابل: ولئن يقدر على الطلاق في عالم

ون لن، فإنه لسوف يحتفظ على الدوام بخاصية أن يكون، في عالـم ون ل١، فيما مضى زوجاً لمرغريت.

٨- ١٢- خاصّيات ل - ضرورية وخاصّيات جوهرية:

إنّ راوول رجُلٌ، ومرغريت امرأة. وهذا القول إن هو إلاّ تأليف خاصّيات جوهرية كان أُقِرَّ بها على مستوى البُنَى الحكائية وقبلَتْ بها الحكاية. والحال أَنَّ الخاصيات ل - الضرورية ليس بمقدورها أَنْ تناقضَ الخاصّيات الجوهرية، بسبب أَنَّ الخاصّيات ل - الضرورية نفسها مترابطة فيما بينها دلالياً. فلأوضح الأمر: إذا كان يسودُ ما بين راوول ومرغريت علاقة ضرورية [رعم]، فإنها تظهَرُ في الحكاية على أنها علاقة ز زواج [رزم]، وهي مرتبطة دلالياً طالـما أنّه، بناءً على عباراتِ الموسوعة، من الـمحالِ الزواج إلاّ بين أشخاص من ذوي جنسين معاكسين. إذاً، لا يسعنا إثبات أن راوول هو متزوج بمرغريت ثمّ تأكيد أنهما ذكران (إلا إذا شئنا، في خاتم الأمر، التصريح بأن هذه العلاقة الضرورية لم تكن سوى علاقة ظاهرة، وأنها لـم تشتمل على خاصية أن يكون هذان متزوجَيْن إنّما على أن «يبدوا» متزوِّجين - لدينا شيء من هذا القبيل في خاتمة كتاب «الفنّ المزيف».

وبحكم أنّ العلاقات الآنفة مترابطة، فقد أمكن العلاقات ل الضرورية أن تخضع لقيود مختلفة الأنماط:

- علاقات تضادّ متدرِّج (س هو أصغر من ي)؛
- علاقات تكاملية (س هو زوجُ ي التي هي زوجته)؛
- علاقات اتجاهيّة (س هو إلى يسار ي)؛
- وعلاقات كثيرة غيرها، بما فيها التعارضات غير الثنائية، والثلاثية، والمتتابعة المتدرِّجة، إلخ.. (أنظر. ليونز، ١٩٧٧، ليش، ١٩٧٤).

وفي هذا الصدد يكفي التفكُّر بالطريقة التي يتم فيها تعيين هوية «ذراع بحيرة كومو» أو «البُوَيْت البالغ الصغر الذي مضى يعلو الساحة الصغيرة في بلدة كبيرة، أمام الكنيسة تماماً، ولدى سفح الجبل».

تصغير بيت

رغم ذلك، ولئن كانت الخاصيات ل - الضرورية لا يسعها أَنْ تناقضَ الخاصيات الجوهرية، فإنه يسعها أَنْ تناقض الخاصيات العرضية،

وفي أي حال فإن نظامَيْ الخاصِّيات الآنفَيْن لن يكون واحدهما تابعاً للآخر. فإذا كان راوول متزوِّجاً لزاماً بمرغريت، فإنه ما كانَ ليركب سيّارة حادة الجانب ليمضي بها من المسرح إلى منزلهِ، إلاَّ بصورة عَرضية. وكان يسعه، إلى ذلك، أن يقفل عائداً مشياً، وهذا مما قد لا يحدث تغييراً يُذكر في الحكاية. وبالمقابل، لو كان الموضوع النصّيُ مختلفاً، وشبيهاً بموضوع «الرسالة المسروقة»، أو «قبعة القَشّ من إيطاليا» أو «العربة رقم ١٣» ـ مما يعني إذا كانت القصة كلها مركْزَةً على شيء سرِّي، الحاد الجانب، جدير بالإيجاد بأي ثمن كان ـ لكان راوول والحاد الجانب هذا مترابطَيْن برباط علاقة ل ـ ضرورية.

إذاً، يكون الفائضون في عالم حكائي مترابطين بعلاقات ل ـ ضرورية أبداً شأنَ سمتَيْن مميَّزتين في نَسَق أصواتي إذ تكونان مرتبطتين فيما بينهما برابط تعارضهما المتبادل. وفي هذا الشأن يسعنا أن نورد الحوار بين ماركو پولو وكوبلاي خان في كتاب «المدن غير المرئية» لمؤلفه إيتالو كالڤينو:

(٣٩) «ماركو پولو يصفُ جسراً، حجراً حجرا.

ـ ولكن أيَّةُ يكون الحجر الذي يسند الجسر؟ ـ

سَأَل كوبلاي خان».

فأجاب ماركو:

ـ ليس الجسر مستنداً إلى هذا الحجر أو ذاك، إنما هو قائِمٌ فوق خطّ القوسِ الذي تشكله الحجارة كلها.

ظَلَّ كوبلاي خان صامتاً، وتفكَّر في أمره. وأضاف:

ـ لم تكلمني عن الحجارة؟ فالقوس وحده ما يهمني.

فأجاب پولو:

ـ لاقوسَ دونَ حجارة»[١٦].

إنّ شخصيتين أو شخصيات عديدة تنتمي إلى حكاية يمكن اعتبارها بمثابة فاعلين يجسِّدونَ مواقف فاعلية معطاة (مساعد، نقيض، مُرسِل، متلقّي) بسبب أنها تقيمُ علاقات ل ـ ضرورية فيما بينها ليس إلاّ.

إلّا أنّ المواقف الآنفة لا تدوم إلاّ باعتبارها علاقات ل ـ ضرورية. وعلى هذا الصعيد ليس «فاجين» نقيضَ كلاريس أو معارضاً لَهُ، وليس لوڤلاس مناقضاً لأوليڤر تويست. فإذا ما تسنَّى لهؤلاء أَنْ يتلاقوا خارجَ حكاياتهم المتوالية، لأمكن لوڤلاس وفاجين أن يتعرَّف واحدهما إلى الآخر شأنَ ثنائي محبَّب ومرح، حَتَّى ليصيرَ الواحد منهما مساعداً للآخر. وهذا مما يحتمل حدوثه.

ولكنَّ الواقع يجعل من الأمر مستبعد الحدوث. إذ لا يكون للوڤلاس شأن، دونَ إغراء كلاريس، وهو لا يولَدُ قَطّ دونها. ولسوف نرى لاحقاً أن لمصيرهِ ثقلاً ما على خطابنا.

وفي خلاصة الأمر، فإن الأفراد الفائضين في عالم ون تُعيَّن هوياتهم من خلالِ خاصِّياتهم ل ـ الضرورية التي تمثِّل علاقاتٍ اثنينية وتناظرية ذات استقلالية مُناصيَّة وثيقة. وقد يجوز لهذه العلاقات أَنْ تتطابق، أو لا، مع الخاصياتِ المنسوبة إلى الأفراد عينهم، باعتبارها (خاصيات) جوهرية، إلا أنها لا يسعها، في أي حال، أَنْ تناقضها. أما الخاصياتُ العرضية فلا تؤخذ بالاعتبار الحق من قبل عالم الحكاية، إنما هي معتبرة لدى مستوى البُنى الخطابية فحسب. مما يحمل على القول إنه حالما تدوم خاصِّيةٌ، إثرَ تحوُّلِ البُنَى الخطابية إلى قضايا حكائية كبرى، فإنها تظهر باعتبارها ضرورية بنيوياً.

٨ـ ١٣ـ علاقات بلوغيّة بين عالم و. و ون

إن المقارنة بين العالم المرجعي والعالم الحكائي يمكن أَنْ تتخذ أشكالاً عديدةً:

(I) يتسنى «للقارىء» أن يقارنَ العالم المرجعيَ بحالاتٍ من الحكاية مختلفة، محاولاً أن يدركَ إذا كان ما يجري يستجيب لمعايير الممكن الوقوع. وفي هذه الحال، يقبل القارىء الحالاتِ قيد المعالجة باعتبارها عوالم ممكنة، جامدةً في انعدام حركتها («أيكون قابلاً للتصديق أن تكون ثمة غابة تسكنها الذئاب الناطقة؟»).

(II) يمكن القارىء أن يقارن عالماً نصياً بعوالم مرجعية مختلفة:

إذ يُتاح له أن يقرأ الأحداث المرويّة في «الملهاة الإلهية» على أنها «ممكنة الوقوع» بالنسبة إلى الموسوعة القروسيطية في حين تكون أسطورية بالنسبة لموسوعتنا. وعلى هذا النحو، نجري عمليات ذات «صدقية» أيضاً (والتي نتحدَّث عنها في الفصل ٩) إذ ننسب صدقيةً إلى بعضِ القضايا أم ننفيها عنها، أي بأن نقرَّ بها مثلما يتمثّلها النّصّ على أنها حقيقية أم مزيَّفة.

(III) وقد يُتاح للقارىء أن يبني عوالم مرجعية مختلفة، أي منوّعَةً عن العالم و.، وذلكَ بحسب النوع الأدبي المعني. وعلى هذا النحو، فإن رواية تاريخية تتطلب أَنْ تُرجَع إلى عالم الموسوعة التاريخية؛ في حين أَنَّ حكاية تتطلب أن تُرجَعَ بالأكثر إلى موسوعة التجربة المشتركة، حَتَّى يتسنى لنا التمتع (أو المعاناة) بمختلف الأمور المنافية لإمكانية الوقوع التي لا تني تطرحها. وهكذا، إذا ما روَتْ حكاية أنه في أثناء ولاية الملك رونسيبالد (لم يكن لَهُ ذِكْرٌ، تاريخياً، بَيْدَ أَنَّ ذلك لا أهمية لَهُ على الاطلاق) تحوَّلت فتاة إلى يقطينة (وهذا لا يمكن حدوثه وفق العالم و. الخاص بالتجربة المشتركة، على أَنَّ هذا التفاوتَ بين و. وون هو ما ينبغي أَنْ يؤخذ في الاعتبار حَتَّى يصح التمتع بالحكاية)، فإذا ما روَتْ لنا هذه الوقائع قبلْنا مجرياتها. وبالمقابل، إذا كان امرؤ يقرأ رواية تاريخية فوقَعَ بصره على ملك يدعى «رونسيبالد دو فرانس»، فإن المقارنة التي يروح يجريها بالعالم و. الخاص بالموسوعة التاريخية، من شأنها أن تحدث فيه شعوراً بالانزعاج مما ينذر بتصويب انتباهِ التعاضدي: فيتنبه إلى أَنَّ الكتابَ قيد القراءة ليس رواية تاريخية إنما هو رواية خيالية. إذاً، فإن الفرضية المصوغة حول النوع الحكائي هي التي تعيِّنُ خيارَ العوالم المرجعية البنائيّ.

ولنرَ الآن ماذا يمكن أن يحدث لقارىء قصة «مأساة باريسية حقاً» بعد أن يكون قرَّر أَنَّ ما هو بصددهِ لا يعدو كونَهُ مسرداً من تقاليد عصرية وبعد أن يكون اختارَ الموسوعة الموضوعة عام ١٨٩٠، بمثابة عالم مرجعي له. لذا، تجدهُ وقد أُلزِمَ الشروع في بناء بنيةٍ ما للعالم و. حيث لا يكون راوول ومرغريت معتبرَيْن. مع ذلك، فهو إذ يقرأ الفصل

الثاني من القصة، يصيرُ مسوقاً إلى الاضطلاع بحقيقة أَنه في العالـم و. يوجد **مسرح الانطباق** والسيد پورتو ـ ريش (اللذان نفترضهما معروفَيْن من قبل القارىء النموذجي الباريسي من تلك الحقبة، كما لو قيلَ في قصة إيطالية معاصرة أنَّ شخصية مضَت إلى الپيكولا سكالا لكي تستمع إلى عمل من أعمال لوتشيانو بيريو).

وهو كناية عن الموضع حيث تقومُ أبنية وأشكال مطابقة لمرجعٍ حقيقي خارج عنها.
Théatre d'application

ولنتفحص الآن العمليات التي قد يلزم القارىء باتمامها في سبيل أن يقارن العالم ون المخصوص بقصَّة «أَليه» بالعالم و. المرجعيّ. فيتحصَّل لدينا من بين الخاصِّيات قيد المعالجة ذ (الكيان ذكراً)، أ (الكيان أنثى)، م (الكيان مسرحياً)، بالإضافة إلى الخاصية ل ـ الضرورية س ز ي (أن يكون المرء مرتبطاً بعلاقة زواجية، وتعيِّن هويته على هذا النحوبالتالي). وتجدر الإشارة إلى أن الخاصية الأخيرة هذه يمكن أَنْ تكون مسجَّلةً، كذلك، في بنية العالـم و. حيث لا يُستبعد أن يوجد س متزوجون بأشخاص ي. وبخلافِ بُنَى العوالـم المتحققة في المقاطع السالفة، فإننا نعمد ههنا إلى إدخالِ خاصِّيات بين أقواس: إنها الخاصيات ل ـ الضرورية. وبالطبع، لا توجَدُ في العالـم و. خاصيات من هذا النموذج. إذاً، حينَ يقتضي لنا أَنْ نحوِّلَ بنية العالم ون إلى بنية العالـم و.، تصيرُ الخاصياتُ المشمولة بين أهلَّة علاقاتٍ جوهرية، صيرورةً محضة: سعي تصيرُ علاقة استبدالية أو تكاملية (أن يكون زوج زوجة والعكس بالعكس).

فإذا كان لدينا عالمان و. وون معطيين (حيث پ = پورتو ـ ريش، م = مسرح، س = راوول و ي = مرغريت):

و.	ذ	أ	م
پ	(+)	(−)	(+)
م	(−)	(−)	(−)

ون	ذ	أ	م	سعي
پ	(+)	(−)	(+)	·
م	(−)	(−)	(−)	·
س	(+)	(−)	(−)	[+]
ي	(−)	(+)	(−)	[+]

يَظهر في العالـم و. فردان سوف يهبان متغيِّرتهما العالـمَ ون (ونظراً إلى الصفة الأساسية التي اكتسبتها البنية، فإنهما يكونان مماثلَيْن تماماً). إلا أنه في العالـم ون يوجد س وي اللذان لا اعتبار لهما في العالـم و.. ذلك أنَّ الأخيرين ليسا إلاّ محض فائضين بالنسبة للعالـم و.. وهكذا، لا يكون مستحيلاً أن تحوّل بنية العالـم و. إلى بُنية العالـم ون، أي (وفقَ الاستعارة النفسية) أَنْ يُتصور، بناءً على العالـم حيثُ نحن، عالـم حيث يوجَدُ راوول ومرغريت أيضاً. أما المسألة الوحيدة، فهي أَنَّ الشخصين المذكورين يحوزان في العالـم ون خاصِّيةً ل ـ ضرورية. ولما كانَتْ هذه الخاصية، في العالـم و. يُحالُ الإقرارُ بها على أنها كذلك، فإنها تصيرُ مترجمةً إلى عباراتِ دالة على خاصِّية جوهرية. وعلى هذا المنوال قد تظهر بنية العالـم حيث يسع المرء أن يسوِّغ العالـم ون انطلاقاً من العالـم و.:

و. (+ ون)	ذ	أ	م	سعي
پ	(+)	(−)	(+)	صفر
م	(−)	(−)	(−)	٠
س	(+)	(−)	(−)	[+]
ي	(−)	(+)	(−)	[+]

لهذا السبب نقول إن العالـم الحكائي قابل للبلوغ إلى عالـم تجربتنا. ولكن ليس بمقدورنا أن نقول العكس. ذلك أن هذه العلاقة بين العوالـم [و. ع ون] لا تكون تناظرية. وبالفعل أنه، حَتَّى يتسنى لنا أن نبني بُنية العالـم ون انطلاقاً من العالـم و.، فقد اقتضى لنا أن ننسب إلى س وإلى ي علاقة ل ـ ضرورية، وهذا مما لا تسمح به بنية العالـم و.. إذ قد تنقص العالـم الآنفَ القواعدُ التي تتيح لَهُ تَعيين هويتين س وي اللذين يعودان إلى العالـم ون في العالـم و.. وبعبارات أخرى، فإن راوول ومرغريت، منظوراً إليهما من العالـم المرجعي، إنما هما فائضان يسعهما أَنْ ينوجدا، كما أنهما يسعهما أَن يُوجدا كُلٌّ في جانبٍ، مثلما وُجدا في السابق، على الأرجح، قبل أن يلتقيا ويتزوّجا؛ غير أَنهما لا يدومان من داخل بنية العالـم ون (أو بالعباراتِ البنائية التي تُعزى إلى قالب العالـم هذا) إلاّ من حيث كونهما مرتبطَيْن بعلاقة ضرورية. ودونَ علاقة الكشف عن

الهوية المتبادلة هذه، لا يكون لهما وجود، كأنَّما لا يكون للوفلاس وجودُ إن لم تكن كلاريس موجودة، (حكائياً). وفي العالم ون، يكون الفردُ الفائضُ بالنسبة إلى العالم و. مجموع الأفراد س الذين يتحقق فيهم شرط أن يكون الواحد منهم في علاقة تناظرية مع فرد آخر «ي». ولما كان لهذا المجموع عضوٌ واحد أحَدٌ، فإنّ تبيان هوية فائض يكون أمراً ممكناً منَ الوجهة الحكائية.

لن نقول ههنا أنه ليس بمقدورنا أن نبني في العالم و. الفردَيْن س وي لأننا لا نملك أقواساً لهما ليس إلاّ؛ أو بالأحرى، هذا ما أردنا قولَهُ تماماً، شرط أن نُدرك جيداً أنه باعتمادنا الأقواس فقد أدخلنا خاصية أن يكون الفرد (المعنيّ بتظهير الهوية) تناظرياً من الوجهة الحكائيَّة وبصورة عصية على الانفصام، وهي خاصية لا شأن كبيراً لها في عالم مرجعي و.، بيد أنها تكونُ بنائيةً في عالم حكائي ون.

وبعباراتٍ أخرى، لما كان عالم حكائيّ معطئ مع فردَيْن برابط ل ـ الضرورية:

ون	ذ	أ	سعي
س	(+)	(−)	[+]
ي	(−)	(+)	[+]

فقد أُلزمنا أن نسجل ذلك، في الواقع، على هذا النحو:

ون	ذ	أ	سعي
سعي	(+)	(−)	[+]
يعس	(−)	(+)	[+]

باعتبار أن الأفراد لا يسعهم أَنْ يُسمَّوا، بجدارة، إلاّ وفقَ القاعدة التالية: «هذا الـ س الذي يكون مرتبطاً ارتباط ل ـ ضرورةً بـ ي» والعكس بالعكس. حتى إذا شئنا أن نرتئي، بناءً على العالم ون، عالماً ما حيثُ هذه العلاقات ل ـ الضرورية تصيرُ منكرةً، تحصَّل لدينا قالبٌ مناقض من النوع التالي:

و.	ذ	أ	سعي
سعي	(+)	(−)	[−]
يعس	(−)	(+)	−]

حيث قَدْ يُشارُ، إشارةً محضة، إلى أن «هذا الـ س الذي يرتبط بعلاقة مع ي والذي لا يقيم علاقة مع ي» (وكذلك الأمر بالنسبة لـ ي).
إنّ هذا لأوضح مثل عن قالب عصيّ على الصياغة لكونه ينتهكُ قوانينَه البنائية المخصوصة.

وإذا ما بدا هذا المفهوم على شيء من الغموض أو إذا ما بدا من الصعوبة تطبيقه خارجَ قالب من عوالم، فقد يكونُ من المفيد، والكافي، أَن نلجأ مَرّة جديدةً إلى مَثَل الشطرنج الذي كنا استخدمناهُ في الفصل السابق.

إنَّ قطعةً من قطع الشطرنج ليس لها، في ذاتها، مدلولاتٌ، إنّما لها تكافؤات تركيبية (إذ يسعها الحراك بطريق معينة على لوحة الشطرنج). ذلك أَنّ لنفسِ القطعة، في بدء اللعب، كلَّ المدلولات الممكنة وليس لها أيّ مدلول (فهي يسعها الدخول في أية علاقة ومع أية قطعة أخرى). إلاَّ أن القطعة هذه، لدى الحالة حـط من الحالاتِ التي تصيرُ إليها المباراة، تكون وحدة لعب دالةً على كُلّ الضرباتِ التي يسعها القيام بها في هذا الوضع المعطى؛ وعليه تبدو القطعة على أنها فردٌ ذو خاصيات دقيقة، وهذه الخاصّيات تكمن في القدرة على القيام ببعضِ الضرباتِ المباشرة (دونَ أخرى) التي من شأنها التمهيد لمجموع منَ الضربات المستقبلية. وبهذا المعنى، تكون القطعة إمّا كياناً تعبيرياً يحمل في ذاته بعض مضامين اللعب، أو شيئاً مماثلاً بنيوياً لشخصية حكاية في اللحظة التي تنفتح فيها واصلة إمكانيةٍ.

ولنفترض أن يكونَ هذا الفرد الملكة البيضاء. فقد يسعنا القول إنّ لها بعض الخاصيات الجوهرية (منها خاصية القدرة على التحرك في كل الاتجاهات، وخاصية عدم القدرة على الحركة شأنَ الفارس أو عدم القدرة على القفز فوق قطعِ أخرى في مسار خطٍ قويم)؛ بيد أنّ لها كذلك في الوضع حـط خاصيات ل ـ ضرورية تتأتّى من كونها، في هذه الحالة من

اللعب، بعلاقةٍ مع غيرها من القطع. إذاً، لسوف تكون ملكةٌ مرتبطة ارتباطاً ل ـ ضرورياً بموقع الفيل الأسود، على سبيل المثال، مما يتيح لها أن تؤدّي بعضَ الضربات ما عدا تلك التي قد تعرضها للخطر بسبب الفيل. أما العكسُ فيصبح وحدَهُ بالنسبة للفيل، بصورة تناظرية. وكل ما يسعنا التفكر فيه، والأمل به، وإسقاطه، وتمنيه حيالَ ضربات الملكة البيضاء ينبغي أن ينطلق من واقع أننا نتحدث عن معف، أي عن ملكة يُعرَّف بها من خلالِ علاقتها بالفيل، فحسب.

في لعبة الشطرنج، بالطبع.

م = ملكة، ع = علاقة، ف = فيل.

وإذا شئنا التفكُّر في ملكة لا تكون مرتبطة بهذا الفيل، لألزمنا ذلك التفكّر في وضع آخر من أوضاع اللعب، وفي مباراة أخرى وبالتالي في ملكة أخرى تعرِّف بها علاقاتٌ أخرى ل ـ ضرورية.

وبالطبع فإنَّ هذا التوازي لن يقيّض لَهُ الصمود إن أجرينا مقارنة الحكاية بكلّية حالاتها بحالة واحدة من المباراة: والواقع أنَّ أخصّ ما يميز مباراة شطرنج (بخلاف حكاية تكون لها حرية أكبر في خياراتها)، هو أن العلاقاتِ ل ـ الضرورية (فيها) بين القطع تتبدَّلُ لدى كل ضربة، تبدلاً جليّاً.

ولنتصوّر الآن الملكة في الحالة حط وقد بذلَتْ قصارى جهدها في أن تفكِّر نفسها على أنها منفكّةٌ عن علاقتها الضرورية بالفيل. إذ ذاك، قد تجد نفسها في الموقف الشديد الغرابة الذي يمثله قالبُ العوالم الأخيرُ: والحالُ أنها قد تُحمل على التفكّر في واحدةٍ نفسها والتي لا تكون نفسها، وقد يوجب عليها ذلك أن تصوغ الحاثّ على الفعل المستحيلَ التالي: «ما الذي قد يحدث إن كانَتْ معف التي أكون عليها الآن ليسَتْ هي معف؟» وهذا يعني «ما الذي قد يحدث إنْ أنا لم أكُنْ أنا؟»، ذلك هو لعب ميتافيزيقي شهير قد ينصرف إليه كل منا أحياناً، ويكاد يكون دوماً ولكن بلا جدوى.

مع ذلك، فأن يقال إنّ المرء عاجز عن تصور عوالم القارىء النمرجعي (أو اللاعب، الذي يكون قادراً على تخيّل حالات مختلفة) أو بنائها من داخل عالم حكائي (أو من داخل حالةٍ من حالاتِ مباراة في الشطرنج) لقول بيّن الحماقة في ذاته، تدينه بداهتُهُ. وهذا مما يعني أنّ

«ذات القلنسوة الحمراء الصغيرة» ليسَتْ قادرة على أن تتصور عالماً حيث جرى لقاء يالطا، وحيث ريغان حَلَّ في خلافة كارتر. رغم ذلك فإنّ الأمر يبدو أَقَلَّ حماقة مما يظهر. إذ يكفي المرء أن يستعيد القوالب التي بنيَتْ لتوِّها حتّى يدركَ العبرة التي يمكن استخلاصها منها.

بادىء الأمر، فهي تقول لنا لماذا يبدو الحاثّ على الفعل (٣٢)، ذاك الذي تمضي حماتي متسائلة عما قد يحدث لو لم يكُنْ صهرها الذي قد تزوّج بابنتها، على هذا القدر من الغرابة. والحالُ أن حماتي إذ كانَتْ تمضي في بناء عالمها المرجعي «باعتباره نَصّاً»، كانت تعمد إلى التعريف بي في العباراتِ ذاتها التي صيغت بها علاقة ل ـ ضرورية معها، وهي لن تكون قادرةً على النظر إلي بغير ذلك. هكذا فإنني، إذ أتفكر، طبيعياً، في عالم ممكن و١، حيث قد أكون صهراً أو لا أكون في آن معاً، فإني قد ألفاها في وضع مماثلِ للوضع الذي يمثّله القالبُ الأخير (والمستحيل). إذاً، يتبدّى هذا الحاثُّ على الفعل غريباً طالما أنّه يُستشفُّ منه اتجاهٌ، صادرٌ من الفاعِل الفرضيّ، إلى بناء عالم تجربته المخصوصة على أنه عالم غير حقيقي، أشدّ شَبَهاً بعوالم المخيّلة، منه بعالمنا اليومي. وهذا ما يحصل للمريض الذي يقال عنه أنه يحيا في عالم مخصوص به وحده؛ إنّه الطفلُ مَنْ يتصور والَدتَهُ في صلة وثيقة للغاية به، بحيث أنها لو غابَتْ، لرآها وقد استحالَتْ إلى عدم طالما أنه لا يزال عاجزاً عن تعيين هويتها قياساً على حضورها.

لا يسعنا التفكّر في عالم حيث يعيّن الأفراد هويّتهم بناءً على ما نتفكرُهُ نحنُ «ضمن وَصفٍ معيّن»، ونزعم من ثمّ تعيين هوية هؤلاء الأفراد أنفسهم في عالم ممكن لا ينطبق فيه الوصفُ السالفُ عليهم.

ونحن إذ نستعيد المثل (الوارد في ٨ـ ١٠) الذي أفاد منه هنتيكًا، نشيرُ إلى أنه لا يسعنا التفكُّر في ما قد يؤول إليه الفرد الذي أعاينه في هذه اللحظة، إنْ لم يكن هو الفرد الذي أعاينه في هذه اللحظة ـ بل الأكثر من هذا، أيكون بوسعنا التفكّر على هذا النحو: أين قد يكون جان (ابن عم لوسي، مدير المصرف المحلّي) الذي أراهُ في هذه اللحظة في مقابلتي، إن لم يكن في مقابلتي؟ قد يكون في موضع ما

أبعد، وهذا جليّ. بيد أن ذلك قد يصحّ طالما أننا أقلعنا عن تعيين هوية علاقةِ ل ـ ضرورية مع الفاعل معلن الحاثّ على الفعل.

وبما أننا نعرف أنَّ التحويلاتِ من عالـم حكائي إلى عالـم واقعيّ تكون مستحيلة، فقد بات بوسعنا أن نفهم بصورة أوضح حقيقة أن ما يجري في مأساة (مسرحية) من مثل «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لبيراندلّلو، حيث «يبدو» أن الشخصيات يسعها أنْ تتصور عالـم مؤلفها، بيد أنها في حقيقة الأمر لا تني تتصور فيه عالماً نصياً آخر يقوم المؤلِّف فيه مقامَ شخصية في المسرحية. وعليه فإن مسرحية «ست شخصيات» هذه لا تعدو كونها نصاً حيث يتعثّر عالم مسرحيّ ون بعالـم **ما وراء مسرحي** ون. Métadramatique

أما وأنَّ النقطة الآنفة قد استوضحَتْ، أمكننا القول إن نقاشنا ينطلقُ من سؤال غريب (أيكون بمقدور شخصية أن تفكِّر في عالـم قُرائها؟)، وذلك ليُستفاد منه في توضيح مسائل أخرى تتعلَّق بعالـم الشخصية من جهة، وبعالـم القارىء من جهة أخرى. على أن هذا السؤال الأوَّلي ما كان مجرداً من قوة تفسيرية.

والـجدير ذكره في هذا الصدد، أنَّ للاختبار الـموصوف، إن هو أُجري بمفردات علم النفس ـ التخييلي ـ فائدتَه، وقد يكون هاماً المضيّ به إلى ختامه. ولنتناوَلْ «الفرسان الثلاثة» مثالاً لنا. ففي هذا العالم ون نـجد أفراداً مـمَّن هم متغيِّرات كامنة لأفراد في العالـم و. القائم في الـموسوعة التاريخية: ريشوليو، لويس الثامن عشر ودارتنيان، في درجة معينة، وإنْ ببعض الحذر. ونجد، من ثمّ، فائضين من مثل آثوس وميلادي (وفي هذا الصدد نُساق لإهمال الهوية الـممكنة التي قد ينكرها فقهاء اللغة الاختصائيون في عالـم دوماس، فيما إذا كان آثوس هذا هو عينُه «كونت لافير»، أم أنه الكونت لافار[١٧]). والحال أن لهذين الفائضين الـخاصية ل ـ الضرورية بأن يكون (كان) الزوجَ والزوجة. فإذا ما كان تعيينُ الهوية المتداخِل هذا لـم يحصل، فهذا يعني أن «الفرسان الثلاثة» كان يمكن أَنْ يكونوا في رواية «أخرى».

ولكن هل يسعنا أن نتخيل فرداً يُدعى آثوس مَنْ (يصدرُ عن عالمه ون) تراه يتفكّر في ما قد يحدث له إن لـم يكن متزوجاً بميلادي حين كانت

لا تزال تدعى «آنّ دو بروي»؟ إن السؤال يتبدى مجرداً من المعنى. إذ لا يمكن آثوس أن يعيِّن هوية آنّ دو بروي، إلاّ أن تكون شبيهة بالتي تزوَّجها في شبابه. فهو لا يسعه أن يتصور عالماً تعاقبياً حيث يوجد متغيّر كامِنٌ عن ذاتِه لا يكون قد تزوَّج آنّ دو بروي، لأنَّه رهنٌ بهذا الزواج، في تعريفه الحكائي. وقد يكون الأمر مختلفاً إن قالَ لنا دوماس إن آثوس يفكّر قائلاً في سره «لكم كان مستحسناً، لو لم أكن تزوجتُ بهذه البائسة» (والحال أن دوماس يجعلنا ندرك أن آثوس لا يفكر إلاّ في هذا، وأنه، زيادة في الطين بلّةً، لا يني يعاقر الخمرة لينسى العالم الواقعي، وليحلم في عالم مختلف). بيد أنَّه لو كان آثوس تصرّف على هذا النحوِ في الرواية، لكانَ عمد إلى صياغة عالمه ون ج بأن يرجع إلى عالم و ن كما لو كانَ عالماً و. واقعياً، حيث لا تصح العلاقات ل ـ الضرورية: إنها حيلة تلجأ إليها الحكايات، على نحو ما تلجأ إلى عاملين مستثنَيين. إننا نقبل أن تقدر شخصية على التفكُّر في حالّات على الفعل إزاءَ عالم الحكاية وذلك يمحضِ الاصطلاحِ الحكائي. إنْ هذا إلاّ شبيه بما يقولُه لنا المؤلف: «إذ أَتظاهر بالاضطلاع بعالمي الحكائي على أنه عالم حقيقيّ، أتخيّل للحال شخصية من هذا العالم تتخيّل عالماً مختلفاً تماماً».

ويسعنا أن نورد ههنا ملاحظة أخرى، ترتدي أهمية بالنسبة لعالم الجمالية وللناقدِ الأدبي. إنه لمن الصحيح أننا نحكم، على جري عادتنا، على عالم حكاية انطلاقاً من عالمنا المرجعي بيد أننا نادراً ما نفعَلُ العكس. ولكن ما الذي نعنيه من التأكيد مع أرسطو (صناعة الشعر، ١٤٥١ب و ١٤٥٢أ) بأن الشِعر هو أكثر فلسفة من التاريخ طالما أنّ الأمور في الشِعر تحدثُ ضرورةً، في حين أنها تجري، في التاريخ، عرضياً؟ وماذا يعني الإقرار، لدى قراءة رواية، بأنّ ما يحدث فيها إنما هو أكثر حقيقةً مما يجري في الحياة الواقعية؟ وماذا يعني القول بأن نابليون الذي جعل پيار بيزوشوف يعتبره هدفاً لَهُ إنما هو أكثر حقيقة ممن ماتَ في جزيرة القديسة هيلانة، وأن طوابع عمل فني هي أكثر «نموذجية» و «كلّية» مِنْ مُمَثّلاتها الواقعية البدئية والمحتملة؟ يبدو لنا أن مأساة آثوس، الذي لن يسعه على الاطلاق أن يبطلَ لقاءه مع ميلادي في أي عالم ممكن كان، إنما هي شاهِدٌ على حقيقة الفن وعظمته، فيما يجاوز كل استعارة، وذلك بقوة قوالب العوالم البنيوية (التي

قد تحوزها، بأن تجعلنا نستشفّ ما تعنيه «الضرورة الشعرية»[١٨].

وفي الختام: نقول إنّ عالم الحكاية ون هو قابل للبلوغ إلى العالم و٠ المرجعي، إلا أن العلاقة ليست تناظرية.

٨ـ ١٤ـ علاقات بلوغية بين ونج و ون

إن المقارنة بين و٠ وون (حتى لو تمّت في إحدى حالاتهما الانتقالية) هي مقارنة **تعاصرية** على الدوام. وبالمقابل فإن عالماً ونج يمكن أن يكون مقارناً بحالة سابقة وبحالة لاحقة من العالم ون، سواءً بسواء (وكنا أشرنا إلى ذلك في الفقرة ٨ـ ١٣). وعليه فإن بمقدور شخصية أن تتقدّم بتوقعات وتصوغ عوالم معرفيّةً وظنّية سواءً على مستوى البُنَى الخطابية أم على مستوى البُنَى الحكائية. وكما تبيّن لنا، فإنّ العوالم التي تعيّنها الشخصية على مستوى البُنَى الخطابية يسعها أَن تتعلق بالخاصيات العَرَضية التي كانت الحكاية أهملتها. ففي الفصل ٢ من قصة «مأساة باريسية حقاً»، أَنْ يضرب راوول مرغريت أم لا (والحال أن القارىء ـ والشخصيات كذلك ـ يتقدَّم باقتراحاتٍ في هذا الصدد) فهذا أمر حريٌّ بأهداف الحكاية أن تهمله. على ما نلحظهُ في ما يأتي فإن الفصل ٢ يوفّر نوعاً من نموذج مختصر عن الحكاية، بيد أنه يمكن أن يُحذف دون أن تتبدّل الحكاية في شيء؛ وفي المقابل، إنه لمن الأساسيّ بالنسبة «للفاعل»، الذي تؤيده البُنى الخطابية، أن يُحمَلَ القارىء على إجراءِ نموذج معيّن منَ التوقعاتِ حول مسار الحكاية.

Synchronique

وفي هذا الصدد يمكن للشخصيات، لدى مستوى البُنَى الخطابية، أن تتخيَّل أموراً كثيرة أو تريدها (حتى وإن نقضتها الأحداثُ المتوالية أو لم تنقضها)؛ إذ يضع النص موضع التداول هذه المواقف القضويّة حتّى يتسنى لَهُ تعيينَ نفسيات الشخصيات المذكورة. فالشخصيات إذ تظنّ أن ذلك الشخص سوف يأتي، ولا يأتي، تقرّ بخطأ توقعها، وتسقطه من حسبانها. ولنرَ ما الذي يحدث في الفصل الثاني من قصة «مأساة باريسية حقاً». إذ يمضي راوول ومرغريت إلى المسرح، فتظن مرغريت أن راوول ينظر إلى الآنسة مورينو نظرة رغبة (فمَنْ هو ل ـ ضرورة زوجُها ومَنْ يُعتبر ذكراً جوهرياً، ويرغَبُ عرضياً في امرأة أُخرى). ويجدر بنا التنويه إلى أن

النّصّ لا يهتم قَطّ بإثباتِ ما إذا كان راوول يرغب حقاً في الآنسة مورينو. فما يهتم لَهُ من الوجهة النفسانية، هو أن يدرك أن لمرغريت خاصّية التفكير في هذا الأمر (وبالتالي في أن تكون غَيْرَى، على غرار ما قد يتحقّق على مستوى قضايا الحكايا الكبرى). وفي عالم مرغريت الظنّي، هذا الراوول الذي يرغب في الآنسة مورينو عرضياً إنما هو متغيّر كامن لراوول الحكائي الذي لا يرغب فيها، على ما نفترض. إذاً، لا وجود لأية مسألة تعيين للهوية عبر العوالم. إذ أن تعيين الهوية يمثُل قابلاً للتحقق.

إلا أنه ثمة حالات حيث تكون مواقف الشخصيات القضويَّة تخصُّ العلاقات ل ـ الضرورية التي تنطوي عليها الحكاية. فحين يظنّ أوديپ أنه لا تعلُّقَ لَهُ بموت لايوس، يكون ذلك ظناً ذا ميزتين:

(I) تتعلق بالخاصياتِ التي لا غنى عنها لتنمية الحكاية،

و(II) هي تتعلَّق بالروابط ل ـ الضرورية (إذ لا يعدو أوديپ كونَهُ قاتِلاً أباه ومتزوجاً أمَّه دون علم). وعليه، فقد استوجب أن يكون واضحاً أَنَّ الكيانَ ل ـ الضروري والكيان المحض الذي لا غنًى عنه لتنمية الحكاية، إنَّما هما الشيء عينه.

في لحظة معطاة من قصّة سوفوكل، ظن أوديپ أَنَّ أربعة أفراد يشتركونَ في أحداثها: أوديپ (هـ) الذي قتل ذات يومٍ ماراً مجهولاً (پ)، يُدعى لايوس (ل) وقاتلٌ مجهول (ق) كان قتله. وعليه يظن أوديپ، إذ ينطلقُ من عالم ونج مظانِّهِ المخصوصة، أن بعضَ الخاصيات ل ـ الضرورية جديرة بالاعتبار، ويعني بها:

- هـ ق پ: العلاقة التي تجعل من أوديپ القاتِل ومن المارّ الضحية؛

- ق ق ل: العلاقة التي تجعل من مجهول القاتِل ومن لايوس الضحية.

ولكن خاتمة الحكاية، على ما يطرحها علينا سوفوكل، هي أقل تعقيداً بكثير (أقل تعقيداً من الوجهة البنيوية وأكثر تعقيداً من الوجهة النفسانية، وهذه العلاقة المعكوسَةُ بالضبط هي التي تكتسب دلالةً بالنسبة لنا). ففي الحكاية لا توجد إلا شخصيتان، وهما أوديپ ولايوس، ذلك أن القاتل المجهول والمارّ المجهول لا يلبثان أن يتماهيا بأوديپ وبلايوس على التوالي. بحيث أَنَّ الخاصّيات ل . الضرورية المتداولة

تتقلّص من اثنتين إلى واحدة . هـ $ق_{ل}$: الخاصية التي تجعل من أوديپ القاتل ومن لايوس الضحية.

ولنرَ ما يتحصَّل من ذلك بعبارات تصفُ بُنَى العوالم. وفي سبيل أنْ نجعل البُنَى أكثر طواعيةً والأفرادَ أكثر قابلية لتعرُّفهم، نضيفُ إلى رزمة الخاصّيات قيد التداول خاصية أن يكون المرء حياً (ح)، إذ أنّ القاتِلَ المفترض عينه يكون معتبراً على أنه حَيّ، في العالم الممكن الذي تنطوي عليه توقعات أوديپ. وعليه تتخذ بُنى العوالم $و_{ن}$ و$و_{نج}$ الشكل التالي:

$و_{نج}$	$هق_{پ}$	$ق_{ل}$	ح
أو	[+]		(+)
ل		[+]	(−)
پ	[+]		(−)
ق		[+]	(+)

$و_{ن}$	$هق_{ل}$	ح
هـ	[+]	(+)
ل	[+]	(−)

يلحظُ المرءُ بيُسر أن هذين العالمين عصيٌّ الواحدُ منهما على بلوغ الآخر طالما أن بنيتيهما ليستَا متماثلتَيْ الشكل، ليس لأنّ لإحداهما أفراداً أكثر من الأخرى، بل لأنَّ الأفراد قد عُيِّنَت هوياتهم في العالمَيْن من خلال خاصيات ل ـ ضرورية مختلفة. وتجدر الملاحظة، في هذا الصدد، أنَّ بنيتَيْ العالمَيْن كان يمكنهما أَنْ تكونا معقَّدتَيْن بإدخالهما العلاقات التي تجعل من أوديپ الإبنَ ومن لايوس الأب (لكنه قد يكون، في عالم مظانّ أوديپ، ثمة أفراد أكثر وعلاقات مختلفة أيضاً). والعلاقات التي تجعل من أوديپ الابن ومن جوكاست الأمّ؛ وفي آخر الأمر، العلاقات التي تجعَلُ من جوكاست الزوجة ومن أوديپ الزوج (وقد لازمتها خلافات بين عالم مظان أوديپ وعالم الحكاية). وبالتالي فإن كُلَّ ذلك قد يصيرُ (شأنَ ما يصيرهُ لدى سوفوكل، في الواقع) أكثر مأساويةً. بيد أَنَّ التمثيلَ المختزلَ الذي كنا أجريناهُ يغدو كافياً. والحال أَنَّ خاتمة الحكاية تقترح بنية عالم مختلفة تماماً عن تلك التي اعتقد بها أوديپ. لا يسع أوديپ أن يعيد تنظيم عالمه ويحوّلَهُ إلى عالم الحكاية. إذاً كان أوديپ يظنُّ ب ويكتشف من ثم أنَّ ج، متحققاً، على هذا

النحو، من أنه في العالم الواقعي لا يمكن أن يتحصل المرء على ب و ج في الآن عينه وأن ب = لا ـ ج. ولما كان ينبغي لأوديب أن «يتخلص» من عالم اعتقاداته، فإن أمراً واحداً يجدر بأن يأخذه في الاعتبار: إذ العالم الذي يتوجب عليه مبادلته بعالم اعتقاداته يجده أقل استساغة له من سالفه، علماً أنه كان أرسى صحته العقلية على العالم السابق. والحال أنّ ثمة سببين جديران بالاعتبار حتى يصير المرء مجنوناً، أو حتى يعمى. والواقع أن هذه الحكاية عن العوالم المتنافرة، إنما هي حكاية هذا «العمى» المسبق؛ إذ كيف يمكن أن يكون المرء أعمى إلى درجة يعجز فيها عن إدراك كم أن عالم اعتقاداته المخصوصة كان عصياً على بلوغ عالم الواقع؟ إلى ذلك، فإذا كانت العوالم على مستوى الحكاية عصياً واحدها على بلوغ الآخر، لدى مستوى البنى الخطابية، فقد أمكن أوديب أن يجد آثاراً عديدة تكفل له بناء عالم ظني أكثر تواصلاً مع عالم خاتمة الحكاية. ـ وهذا ما أثار غيظه ويأسه. ولو كان أوديب نجح، لكان العالمان ون ج و ون قابلين الواحد منهما على بلوغ الآخر، على نحو ما تكون عليه العوالم الظنية التي يسعى أي شرطي سرّي درب إلى بنائها حتى يتسنى له أن يحيط بعالم الحكاية وبعالم نوايا المجرم، سواءً بسواء. ولكن مسرحية «أوديب ملكاً» إنما هي حكاية استقصاء مخفقة.

نقول في ختام هذا المقطع: في ما خص العلاقات ل ـ الضرورية حين يكون العالم [ون ج هـم] مشاكلاً في بنيته لحالة الحكاية [ون ج ن] التي يكون من شأنها أن تثبته (حيث يتحصل لدينا على السواء، م >ن، و ن>م). حينئذ يصير العالم ون ج هـم مثبتاً من خلال الحكاية، ويغدو العالمان مبلوغين، واحدهما إلى الآخر. وإذْ لا يحصل ذلك، يكون عالم الشخصية الظني غير مثبت، وبالتالي يصير العالمان متنافرين واحدهما عن الآخر ـ مع كل العواقب التي يمكن أن تتأتى من حيث أثر الحكاية النفساني والجمالي.

٨ ـ ١٥ علاقات بلوغية بين ور و ون:

إن العوالم التي تعينها توقعات القارىء تكون خاضعة لقواعد البلوغية نفسها:

(I) إن عالم توقعات القارىء يمكن أن يقارن بحالة الحكاية التي من شأنها أن تثبته (في هيئة تالية للتوقع دوماً، دون أية هيئة أخرى، كما أسلفنا القول).

(II) يمكن للقارىء كذلك أن يتقدم بتوقعات دنيا وجزئية في أثناء تأوينه البنى الخطابية، أما الظاهرة فتتبع مساراً مشابهاً لذاك الذي يعني عوالم الشخصية الممكنة؛

(III) وحين تصير العوالم الممكنة التي كان القارىء عيّنها تُعنى بالخاصيّات ل - الضرورية يغدو عالمه (القارىء) في متناول عالم الحكاية، والعكس بالعكس؛ وذلك في حالة وحيدة إذا مضى التشاكل يتثبت فيما بين العالمين. وإلّا توجب عليه أن «يتخلص» من توقعه وأن يقبل حالة الأشياء التي كانت الحكاية حددتها.

ويكفي التفكر في قارىء نموذجي قد يمضي في المسارات الذهنية عينها التي تروح تعتري أوديب، والذي قد يقوم بتوقعات حول عقدة الأحداث هذه: أما الايحاء النهائي فقد يحمل القارىء على الاستغراق في الوضع البنيوي عينه الذي يكون عليه أوديب.

غير أنّه، قلنا إن نصاً يستشرف تصرفات القارىء النموذجي الممكنة ويحسبها، وان تأويله الممكن يقوم جزءاً من مسار تكوين النص. إذاً، كيف يسعنا إثبات أن تكون توّقعات القارىء مردودة ولكن ينبغي للمرء أن يحاذر بالغ الحذر، من خلط «إواليات النص في مجموعه» «بإواليات الحكاية». ففي قصة «مأساة باريسية حقاً» سوف نعاين كيف أن النص يدعو القارىء دعوة ملموسة، على المستوى الخطابي إلى الاستعداد للقيام بتوقعات مزيفة، وكيف أنه، على مستوى الحكاية، يعمد إلى انكارها له. بيد أن حالة «مأساة» تكون أشد تعقيداً مما سلف وصفه، ذلك أن الحكاية تروح تتبنى توقعات القارىء الخاطئة، وبصورة تدعو إلى الالتباس، في اللحظة عينها التي تنقضها فيها. وبالمقابل فإن كل ما قلناه يصح على وضع النصوص الأكثر عادية» رواية بوليسية على سبيل المثال حيث البنى الخطابية تحمل القارىء على الخطأ (بأن تقدم لَهُ شخصية

غامضة ومتخفِّظة) لكي تدفعه إلى التقدم باقتراحات عفوية؛ وعليه فإن حالة الحكاية الختامية قَدْ تتدخَّل من ثم لكي تجبر القارىء على «التخلص» من توقعه. وهكذا تقوم جدالية بين خداع وحقيقة ذات مستويين نصِّيَيْن مختلفَيْن.

«يدرك» النصُّ أَنَّ قارِئَهُ النموذجي قد يخطىء في توقعه (ويعينه في صياغة هذه التوقعات المغلوطة)، غير أن النص، في مجموعِهِ، ليس عالماً ممكناً: إنما هو حصَّةٌ منَ العالم الواقعي، وهو إلى ذلك، آلة لإنتاج عوالم ممكنة، من مثل الحكاية، وعالم شخصياتِ الحكاية وعوالم توقعاتِ القارىء.

بالطبع، يسعنا القول إنّ المؤلف إذ يكتب نصاً فإنه يصوغ فرضية حولَ تصرّف قارئه النموذجي، وطالما أنَّ هذه الفرضية تلبث عالماً يتوقّعه القارىء ويأمل بوجوده. برغم ذلك، لا تكون هذه الفرضية متعلقة بالنص، إنما بحالة المؤلف النفسانية. ولئن كانَتْ نوايا مَنْ يكتب يمكنُ أَنْ تعمَّم، في هيئة أوصاف مندغمة في استراتيجية نَصِّية، فإننا حالما نشرع في وصفِ توقعاتِ القارىء الممكنة، فيما يتجاوز النص، نصير في وضع نتعاطى فيه مع العوالم الممكنة التي حققها القارىء، وإنْ على هيئة فرضية نقدية. وبعبارات أخرى، وفي عودة منا إلى استعارتنا المتعلقة بسكة الحديد التي أوردناها في الفصل ٧ـ ٢: فإن واقع أَنّ يتمكن المرء من الذهاب من فلورانسا إلى سِيانّ عبر خطٍ أو آخر، لا يشكِّل وصفا للعوالم الممكنة؛ إنما هو وصف بنية راهنة، مما يتيح صياغة قراراتٍ، وآراء، وتوقّعات، وفرضيات في ما يتعلّق بالخطّ الذي ينبغي سلوكه، أو الخطّ الذي كان يمكن لآخرين أن يسلكوه أو كانوا اعتمدوه. العالم الممكنُ إن هو إلاَّ «**كيانٌ عقلي**»، في حين أَنَّ نسيج شبكة السكك الحديد هو «**كيان ماديّ**»، مع كل عقده المحقَّقة فعلياً.

Ens rationis

Ens materiale

إنّ بمقدورنا الكلام على النص، ما يسعنا قولَهُ عن كُلِّ فِعل «**داخلٍ في القول**» يقصد إلى إثارة مفعولٍ **لاحقٍ بالقول**. فأَنْ يثبتَ المرء القول [اليوم، تمطِرُ] لشأن أن يستخلص منه أن القائل يشاء القول إن المتكلّم

Illocutoire

Perlocutoire

يرسِلُ أمْراً بأن يواريَه في الإثبات، وأنه يزمع جعل المستمع يتمثَّلُ فعلاً ممكنَ الحصول (عدم الخروج). غير أن العبارة في ذاتها لا تنطوي على عوالم ممكنة، حتى وإن جازَ أن ينظر إليها على أنها آلية جديرة بأن تستحثّ الصياغة.

هوامش

(١) يورد ڤولّي آراء لپلانتيغا، بيد أنه بوسعنا أن نورد بدورنا بعضَ الإثباتات على لسان «ليويس» في ما تخصّ مفهوم «الحالات على الفعل»: «أصرّ على التنبيه إلى أنني لا أعيِّن في أي حالٍ العوالم الممكنة نسبة لهويّاتٍ لسانية محترمة: إنما اضطلع بها على أنها هويّات محترمة بلا منازعة. وحين أظهر موقفاً واقعياً حيال العوالم الممكنة، أكون أعني ذلك بالحرف. فالعوالم الممكنة هي ما هي عليه، وليستْ أمراً آخر وإن سألني امرؤ عما تكون، لا يسعني أنْ أقدم لَهُ نموذج الإجابة الذي يتوقعه مني بصورة محتملة، أي لا يسعني أن اقترح عليه اختزال العوالم الممكنة إلى أي شيء آخر. وليس بمقدوري سوى أن ألزمه بقبولٍ أنه يعرفُ من أيّ نوع هو عالمنا الراهن، وعليه يسعني أن أشرح لَهُ أن العوالم الأخرى هي أكثر من الأشياء الموصوفة بهذا النوع، والتي وإن كانت تختلف في نموذجها، فإنها تتوافقٍ في مجرياتها فيها. وعالمنا الراهن إن هو إلا عالم بين عوالم أخرى عديدة... وها أنك شرعت تؤمنُ بعالمنا الراهن. أما أنا، فأطلبُ منكَ أن تعتقد بأكثر من الأشياء من هذا النوع، لا أن تؤمن في أمور من نوعٍ مختلفٍ ما». (١٩٧٣: ٨٥- ٨٧).

(٢) أبحاث ڤاندايك، پيتوفي، پاڤل، من الفريق الروماني الذي يديره لوسيا ڤاينا (أنظر ڤ.س ١٧، ١٩٧٧)، وأبحاث شميدت (١٩٧: ١٦٥- ١٧٣) وإهوي (١٩٧٣: ٣٣٩ والتاليات) التي تناقش في مفهوم «العالم الممكن المتخيّل» (fictionnal possible world) إنما تشهد على شيوع هذا التصوّر في إطار من سيمياء نصية.

(٣) ينبغي الإقرار بأن ڤولّي، إذ مضى يسوق نقده، كان يفكّر في بعض استخدامات المفهوم أكثر منَ الأخرى وأنه كان يمكن أن يكون مستعداً للقبولِ ببعض الاستخدامات المخففة أو الأقل استعاريّة فأقل للعبارة [عالم ممكن]. إلا أنه تبيّن لنا، من خلال سياق نصّه، أنه ليس بمقدورنا أنْ نستنتج تمايزاتٍ مماثلة؛ إذاً، في مقابلة نَقد نوعي تكون الإجابة العامة هي المسوّغة. وتلك إجابة ينبغي لنا أن نؤديها، لأنّ مقالة ڤولّي تطرح، بالضبط، مسألةً قائمة ومستوجبة النقاش، بغية أنْ تُعيِّن، بأفضل تدقيق ممكن، شروط «تطعيم» مسلكي تتمثّل فيه مخاطر عديدة.

(٤) إنّ رؤية أكثر تدوُّراً لتبدو ممكنةً كذلك. أما نحن فنكتفي بالاضطلاع بتصوّر المُلكية من حيث كونها بدائيةً، وذلك ليس لأنّ الأدَب يستخدمه بصورة رائجة فيطبقه على العوالم الممكنة، إنما لكونه يترجم عن تصور السمة الدلالية، أو السميمة، أو الوحدة الثقافية المعتبرة بمثابة تعبير.

(٥) انظر تصوُّر العالم «الراهن» على أنه جهاز دلاليّ وقد جُعل نِسبياً على قياس مرجع،

هو مستخدمه الفريد، وهذا التصور كان قدّم لَهُ فولّي، ١٩٧٣؛ أنظر كذلك لدى ڤاندايك (١٩٧٦ث: ٣١و التاليات) تصوُّر ن ـ العوالم (العوالم الممكنة للمتكلم/ المستمع).

(٦) أنظر على سبيل المثال هيوز وكريسويل (١٩٦٨: ٧٨): «يسعنا أن نتصور عالماً دون هاتف... ولكن لو لم يكن ثمة هاتف، لكان من الممكن ألا يدرك امرؤ، في عالم كهذا، ما هو الهاتف، ولما أمكن أحداً أن يتصور عالماً (شبيهاً بعالمنا) تكون فيه آلاتُ هاتف؛ أي أن عالماً دونَ هاتف قد يكون يسيرَ البلوغ إلى عالمنا، بيد أن عالمنا لن يكون يسير البلوغ لَهُ». لئن كان المثل الآنف مقترحاً لغايات تعليمية، فإن هذا النهج التعليميّ عينه ينطوي على **نزعة نفسانوية** في معالجة المسألة.

Psychologisation

(٧) ومن ثم، هناكَ بالطبع المناطقة الذين قرأوا هوسرل قراءة متمعنّةً والذين يسعون إلى انتحال فكره بصورة نقدية ومنتجة. أنظر على سبيل المثال هنتيكًا، ١٩٧٨، حيث أُقرَّ بصراحة أنه في سبيل المجادلة في شأن **القصدية** ينبغي معالجة مسألة **القصديّة**.

Intentionalité

(٨) وقد رجعت في ذلك إلى: الموسوعة الأميركية، القاموس الكبير للقرن الثامن عشر (لاروس، ١٨٦٩)، والموسوعة البريطانية (١٨٧٦)، ومعجم أكسفورد الانكليزي، وقاموس وبستر (١٩١٠)، و (Nuovissimo Melzi) ١٩٠٥؛ حيث كلمة بروغام = Coupé).

(٩) إن الأمر يتعلق بالترجمة التي كان أعدَّها فرد جايمسون للدار الأميركية عن محاولتنا حول «مأساة باريسية حقاً».

(١٠) مع ذلك، يوافق هذا التمايز ذاك الحاصل بين خاصية سيغما والخاصّية P_1 التي كان توسّع في شأنها فريق U في «البلاغة العامة». لذا فإن النقد الذي يلي ينطوي أيضاً على هذا التمايز، الذي يتبدّى مفيداً للمؤثراتِ الوصفية في العمليات البلاغية التي أُعِدَّ لها، خصيصاً.

(١١) يحضرنا الجدالُ الذي أثارَهُ كوهن (بُنية الثورات العلمية، في ترجمتها الفرنسية التي أعدها ل .مِير، طبعة جديدة، باريس، فلاماريون، ١٩٨٢): كل علماء الفيزياء يهتمون للميكانيك، «إلا أنهم لا يتعلمون جميعهم تطبيقاتِ قوانينه عينها، لذا ليسوا جميعهم متأثرين في الطريقة عينها بالتبدّلاتِ الطارئة في التطبيق العملي للميكانيكِ الكمي»؛ وعليه فإن تبدلاً واحداً غير منعكس سوى على تطبيق واحد من تطبيقات النظرية لا يسعه أن يكون ثورياً (بمعنى أن يجبرنا على إعادة النظر بكلّ النسق النظري) سوى لفريق من الفيزيائيين فحسب.

(١٢) هل توجد خاصيات لا يمكنها أبداً، وبأي ثمن، أنْ تُقتصر على كونها في صَفّ الخاصيات العرضية؟ حتّى في متحف الملاحة، يستوجب على شراعية أن تحتفظ، أقلّه في حالة الكمون، على خاصية أن تطفو (على سطح الماء). ولكن ذلك قائم لسبب وحيد، هو أننا نعتبر، على جري عادتنا، الشراعيات بمثابة أدواتٍ للملاحة البحرية. أما بالنسبة

للقبطان «نيمو» فإن شراعية تظلّ شراعيةً، حتى ولو استحالت محضَ حطام ، لا تعود تُتعرّف فيها الخاصياتُ التقليدية التي ينماز بها شيء طافٍ ومبحر. أما في نظر الآمر داشو، فلم يكن للكائنات البشرية من خاصّيات سوى واحدة، وهي أن يكونوا قادرين على إنتاج الصابون. وعليه فقد كان لنا الحق في الحكم على الخيار الخلقي الذي كان دفعه إلى تخدير كُل خاصّيات الكائن البشري الأخرى؛ ولكن إن أمكن لنا أن نرفض الإيديولوجيا التي تحكم خُلُقِيّتَهُ، بتنا عاجزين عن إنكار شيء في نظرته الدلالية: وفي الإحالة إلى موضوعِه وسيناريواته، فإن الآمر داشو ما وَنِيَ يتصرّف بطريقة شرعية دلالياً. أما المسألة فتكمن في تدمير سيناريواته وطردها من موسوعتنا.

(١٣) كان المنطق المعرفيّ (الإبيستمتيّ) قد ناقش هذه المسألة. هل يسعنا القول إنه لو كانّ هـ لكان و، يتضمّن أنه إن كان أ يعرف هـ، إذاً فإنه يدرك و؟ أو إذا كان هـ إذاً يكون و، وإذا ما كان «أ» يظن هـ، فإن أ يظنّ و كذلك؟ إذاً، هل يمكننا القول إنه إذا كان أحد يظن أو يعرف شيئاً، فإنه يكون بالتالي إما يعرف أو يظنّ كل نتائجه المنطقية، تحصيلاً للحاصل؟ نجيب عن ذلك مؤكّدين إن الحالات المزاجيّة المتعلقة بالجهل لا تؤثّر في هذا المبدأ (الذي هو مبدأ «**علامة العلامات**» وقد تحدثنا عنه في الفصل ٢ـ ٤). غير أن الإجابة رهن بما يعنيه فعل «الفهم» من حيث المعرفة أو الظن. ثمة اختلافٌ بين ما هو مفترض مسبقاً (من الوجهة الدلالية) مِنْ قِبَل الموسوعة، وما هو مفترض مسبقاً من الوجهة التداولية في مسار تأويل نصّ ما. وأن يتساءَلَ المرء عما إذا كانَ فرد مُعين هو رجل، فهذا يعني كذلك أن يعرف إذا كانَتْ لَهُ رئتان، وأن يعرف كذلك، بقوة الاقتضاءات المتتالية، أن شيئاً لا يسعه أَنْ يُخلقَ ولا شيءَ ضائعاً إنّما هي مسألة تتعلق بدرجة عمقِ اللفظ التكميميّ، أي «بالتعقيد الأقصى الذي يميّزُ هيئة الأفراد المعتبرين فيه كل حين، ومقارنين بعددِ الأفراد المعنيّين». (هنتيكّا، ١٩٧٠: ١٧٠).

nota notae

كل ذلك يبدو لنا أنّ هنتيكاً قد أثبته، في المقالة ذات العنوان «درجات القصديّة وأبعادها» التي نُشِرت في ٢٠/١٩ v/s: «إن النقّادَ الذين يشككون في واقعية الدلالية التي تنطوي عليها العوالم الممكنة إنّما غالباً ما يهملون واقع أنَّ أحد الاتجاهات الأكثر أهمية لدراسة الطبيعة والمجتمع، ونعني به نظرية **الاحتمالية**، مصوغٌ، على جاري العادة، بعبارات شبيهة بالعبارات التي صيغ بها علم دلالة العوالم الممكنة». مع ذلك يلاحظ هنتيكّا أنَّ نماذج منظّري الاحتمالية هي بلا شك أكثر «تواضعاً» من العوالم الممكنة، خاصة ليبنتز: إنها «عوالم صغيرة»، أي إنها نموذج ذو مجرى تعاقبي مما يتسنّى لتجربة أَنْ تأخذه بعين الاعتبار بصورة معقولة. ولكنه ـ إذْ يبدي حيرتَهُ إزاءَ استخدام استعارة لايبنتز ـ يتفكّرُ في أنه ينبغي العمل على «عوالم صغيرة» فحسب.

Probabilité

(١٤) نعني [بالمغلق] في دلالة مختلفة تماماً عن تلك التي نستخدمها لتبيان التعارض ما

بين الحكايات المنفتحة والحكايات المغلقة. ونعني به تلك الصفة القائمة على الدلالة التي كان اقترحها لَهُ رايشنباخ (إدارة الزمن، جامعة كاليفورنيا للإعلام، ١٩٥٦، ص ص: ٣٦- ٤٠): وفي هذا المعنى، تتيح سلسلةٌ سببية مغلقة المجالَ أمام مسيراتٍ لا تتناهى و(في ما خَصَّ المفاعيل النصّية) مخارج «مفتوحة» بالأحرى. ولكن الواضح أن هذه الدلالة تُنسَبُ إلى فئات مختلفة، وأنَّ تواترَيْن للوحدة المعجمية [مغلق] يمثّلان حالة من المجانسة.

(١٥) قد يكون من الممتع أن يصوغ المرء الإثباتَ التالي، الذي صار موضوع إعلان: «أعرفُ أنكَ تُصدِّق أنَّكَ تفهم ما تظن أني أقوله، ولكني لست أكيداً من أنك تدرك تماماً أن ما سمعته ليس هو ما أعنيه».

(١٦) «المدن غير المرئية، باريس، سوي، ١٩٧٤، ص ١٠٠. أشكر تيريزا دو لوريتِس («Semiosis unlimited», PTL 2, 1977) لأنها اقترحَتْ هذا النص بمثابة «مَثَلٍ» ختامي لمقالة لي في كتابي «أطروحة في السيمياء العامة»

Trattato di semiotica generale.

(١٧) أنظر. شارل ساماران، في المقدِّمة إلى أ. دوما، في كتاب «الفرسان الثلاثة»، باريس، غارنييه، ١٩٦٨.

(١٨) ما القولُ إذاً في شأنِ التحريفاتِ الساحرة الأدبيّة، حيث تدومُ صورَةُ العمل الأصلي الصلبَةُ، وحيث الكثير مِنَ الخاصيات ل ـ الضرورية تصيرُ ممسوخة؟ في هذه الحالة، كيف يمكن لنا أَنْ نقيم مماهاة: بين فردٍ يعود إلى عالم ون ممسوخ سخريةً وبين فردٍ، مجانس لَهُ، من عالم و. الساحِر؟ ولنتخيَّل ملهاةً موسيقيةً مستوحاة من «الفرسان الثلاثة»، حيث يكون ريشوليو راقصَ تانغو، وحيث يتزوَّج دارتنيان ميلادي بسرور عارم (وهي، أي ميلادي، ما كانت لتتعرَّف إلى آثوس أبداً) بعد أن تكون باعَثْ إلى محارب شريطَيْ حذاءِ الملكة «آنّ» ملكة النمسا. فما الذي قد يتيح لنا أن نتعرَّف، في هذه الملهاة الموسيقية، إلى الشخصيات على أنَّها تعود إلى نتاج دُوما، بعد أَنْ تكون أعدادٌ من خاصياتها ل ـ الضرورية والجوهرية قد انمسخت؟ الإجابة الأولى هي أَنَّ مساخِر أدبيَّةً من هذا النوع لا تُرجَعُ إلى شخصيات رواية، إنما تتمّ إحالتها إلى شخصيات أسطوريَّة، ممَّا جازَ من الرواية الأصلية إلى جدول موسوعي معمّم. كثيرون هم الذين لم يقرأوا سرڤانتيس ولكنهم يدركون، مع ذلك، وجود شخصية من الموسوعة تدعى «دون كيشوت»، والتي تملكُ خاصية أن يكون المرء ناحلاً، ومجنوناً وأسبانياً. والحال أَنَّ هذه النماذج النوعيَّة هيَ ما يجعَلُ لعبَ التحريف الساحِرَ ممكناً.

مع ذلك، فقد يُتاح للتحريف الساحِر أن يعيِّن طبائع شخصية الرواية تعييناً مضبوطاً حقاً: ولنقُلْ، في حالتنا هذه، أنَّ التحريف الساحر كان قرَّر أَنَّ العِبْرَة الحقّة (الحكاية

الحقّة) من «الفرسان الثلاثة» هي: «كيف ينتصر المرء بفضل مقالب، وكيف يتمتّع في الحياة». وفي هذه الحالة، إذ يقصر المؤلّفُ أفرادَ الرواية على الخاصيات الضرورية دون غيرها والتي تنتسبُ إلى هذه الحكاية، يصيرُ يوحي (التحريف الساحر) بالدلالة التالية: «أنتم، إنكم لا تتعرفون إلى الشخصيات، وبالأحرى فإنكم لا تقرّون بوجودها إلا من حيث كونها مجانساتٍ، أما أنا فأقول لكم إن تقرأوا هذا الكتاب جيّداً، لا تجدوا الشخصيات على غير ما هي في الرواية». وما يحدث لا يعدو كونه اختزالاً للخاصيات التي يجدر إبرازها على ضوء وصفٍ معيَّن.

٩ ـ البُنَى الفاعلية والإيديولوجية

٩ـ ١ـ بُنَى فاعلية:

لـمّا كانَ القارىء **فعّل** البُنَى الـحكائية وجعل يتقدّم بتوقّعات حولَ حالاتِ الـحكاية (وذلك بتعيينه العوالم الممكنة)، أمكنه أن يصوغ (قبلَ، وأثناءَ، وبعد) سلسلةً من القضايا الكبرى الأكثر تجريداً من القضايا الكبرى الحكائية. وبات في وسعه إذ ذاك أَنْ يجرّدَ الفاعلين من فرديتهم وأَن يختزلهم إلى تعارضات **فاعلية** (فاعل ـ شيء، مساعد ـ معارِض، مُرسِل ـ متلقٍّ)، مقرِّراً أنه، في حالاتٍ معينة، يعمد فاعلون عديدون إلى أداء دور فعلانيّ وحيد.

Actualiser

Actantielles

أما التعريف بالموقع النظري الذي قد تحوزه العقدة التعاضدية هذه، فقد باتَ على جانب من الصعوبة بسبب أَنَّ القارىء، من جهة، كان ينبغي لَهُ أَنْ يتصوّر مسبقاً فرضيات حولَ **الفاعلين** لكي يتمكّن من التعرُّف إلى بعض البُنَى الحكائية، ومن جهة أخرى، كان ينبغي لَهُ أن يعيِّنَ، بصورة مسبقة، عوالم ممكنةً، مع أفرادِها، وذلك في سبيل إبراز الفاعلين المعنيين (في الحكاية الموصوفة[*]).

Actants

(*) ملاحظة المترجم وإضافته للإيضاح.

لنأخذ نصاً مثالاً لنا، من مثل سيلڤي لمؤلفه جيرار دو نرڤال. ثلاث نساء يظهرن في القصة، سيلڤي، وأوريليا وأَدريينّ: كلّ منهنّ تنخرط مع الأخرى في لعبة تعارض متبدّل على الدوام، وتتخذ أدواراً فعلانيةً مختلفة، بحيث تصبح كل واحدة منهن بدورها الحضور الواقعيّ، من حيث كونها معارضةً للذكرى، بحسب حالة الحكاية والفرع الزمني (المضارع،

الماضي القريب، الماضي البعيد) الذي يكون موضع كلامِ الراوي. وهكذا اقتضى على القارىء أن يتقدم بفرضية حولَ دور الشخصية في هذه الحصة من الحكاية، حتّى يتسنى لَهُ أن يصوغ قضايا حكائية كُبرى. ومن جهة أخرى وجب عليه أَنْ يقرَّ بحالاتِ الحكاية في تتابعها المنطقي حَتّى يبرهن عما إذا كانت حصَّة حكائية معينة تمثِّل حدثاً يجري، حدثاً جرى، واستُعيد، وكان يُعتقد حصوله في الماضي ثم نقضَهُ الواقع المتعاقب. وهكذا دواليك. وبالطبع، فإنَّ المرء (القارىء) لا يسعه أن يعيِّن هوية العوالم الممكنة دونَ تأوينه البُنَى الخطابية؛ ولكنه قد يتوجب عليه صياغة فرضيات بما يتعلق بالعالم وبالهيكل الفعلاني وبالأدوار التي تتخذها الشخصيات، وذلك في سبيل جلاءِ الغموض الذي قد يعتري بعض التشابكات في صيغ أزمنة الأفعال.

تلكَ هي بعض الأسباب التي تجعل من التمثيل النظري لمستويات التعاضدِ العميقة ذات التوالي الخَطّي، تمثيلاً غير جائز الحدوث. فالنص، في هذه الحالة، تعبره (على حَدّ ما ذكرنا في الفصل ٤ـ ٢) إحالات، وقفزاتٌ إلى الأمام، واستباقات وعوداتٌ إلى الوراء.

ولئن كانَتْ موضوعاتية البُنَى الفعلانية أينعتْ على يدي غريماس وأدَّتْ أهم العطاءات بعنايته التي لا منازعة فيها، فقد كانَ لها سوابق حتى خارج دراسة الحكائية. وفي هذا الصدد ترانا نفكر في مقولتي العميل والعميل ـ المضاد لدى يورك (١٩٦٩)، وفي الأدوار الظرفية التي دعا إليها پايك (١٩٦٤) وبالأخَصّ في فرضية الحالاتِ لداعيتها فِيلّمور (١٩٧٠)، دون أَنْ ننسى قضايا التحليل الدلالي لدى بيرويش (١٩٧١). إنّ مقولة العامِل لَتندمج في قلب تمثيل ميسوميّ، وذلك في شكل موسوعة. وبالتالي، فإذا ما اقترح الميسوم عناصر لصياغة فرضيات فعلانية لدى مستويات حكائية أكثر تعقيداً، وجدت الفرضيات الفعلانية المصوغة فيما يتجاوَز مستوى الحكاية تعيَّنُ بدورها، منذ خطواتِ التعاضد النصّي الأولى، القراراتِ حولَ **التفعيلات** الدلالية. Actualisations

ونحن إذ نقرأ رواية «ثلاثة وتسعين» لمؤلفها ڤيكتور هوغو، يجوز لنا أن نتساءل في أية لحظة من الرواية نقرِّرُ، وبناءً على تصريحات

المؤلّف المبينة والمكرّرة أَنَّ ما يُروى إنما هو قصة فاعل كبير، الثورة، أو صوت الشعب وصوت الله، وقد ارتسمت قسماته في تصديه لمعارضة الرجعيّ؟ وهذا يعني أن نطرح التساؤل التالي: متى نبلغ ملء الإدراك في أن «لانتناك» أو سيموردان، غوڤان أو الجمعية التأسيسية، روبسپيير أو «لاڤانديه»، إنما هي التجلّيات السطحية لصراع أعمق يتكلم عليه المؤلف في المقام الأول؟ وبعد أن يكون القارىء قد أدرك هذا الأمر، أتراهُ يشرع في العدول عن تعيين هوية الشخصيات، التاريخية والأخرى «المتخيلة» التي تحفل بها الرواية فيما يتجاوز حدود ما هو قابل للحفظ؟ لمن الجلّي أنه في نتاج من هذا النوع، لا يكون من شأن الفرضية الفعلانية أن تتدخل لكي تحل سلسلة من التجريدات المتتالية، من البنى الخطابية إلى الحكاية، ومن الحكاية إلى البنى الإيديولوجية؛ والواقع أَنَّ الفرضية الموصوفة سرعان ما تنشأ في مجرى القراءة فترشّد الخيارات والتوقعات، وتُعين على تنقية القضايا الكبرى.

يمكن لنا أن نسقط عملاً أو حدثاً من الحسبان، ونعتبر في المقابل أَنَّ الخاتمات الفلسفية الطويلة التي يطلقها المؤلف إنما تندرج في ما هو ملائم للحكاية حقاً؛ ذلك أن بين جمهرة من الوجوه، ومن الحركات، والمغامرات، الأمور الوحيدة التي ينبغي الاعتداد بها، إنما هي الأمور التي تقول لنا ما تقوم به الثورة في سبيل تحقيق غايتها المنشودة، وكيف تؤثر على الأفراد وتحرّك أفعالهم.

لا نقصدنّ بهذا القول الإشارة إلى أنّ محاولة بناء مربّعات وتعارضات، ومحاولة استخراج هيكل عميق للنص، هما شأنان حريّ بنا إطراحهما جانباً. بل، بالعكس، انها الطريقة الوحيدة لتسليط الضوء على ما «يهم» في النص، وعلى ما ينبغي أن يقوم به القارىء المتعاضد. ما أردنا قوله، هو أن بناء الهيكل العميق، السالف وصفه، إنما نتصوره نتيجة ختامية لبحث نقدي، وعليه فإن ذلك البناء لن يكون له أن يتدخل إلّا في مرحلة متقدمة (ومتكررة) من القراءة. غير أن القرار النظري، من وجهة نظرنا الحالية (إذ نحاول أن نلمّ بالعقد النصية حيث أوجب وجود نمط معين من التعاضد) يصير مدعاة يأس. ولئن كنا ندرك، أقله، إذ تنجز إعادة البناء، أن النص

يملك أو ينبغي أن تكون لَهُ بنية فعلانية كهذه، فإنه يصعبُ القول في أية مرحلة من التعاضد يُدعى القارىء النموذجي إلى أن يتعرّف إلى هويتها.

٩ـ ٢ـ بُنى إيديولوجية:

وقد يسوّغ لنا أن نردّد القول السالف في ما خَصّ البُنَى الإيديولوجية، التي كانت احتلت مكانَةً رحبة في الأبحاث النصية المُنجَزَة في السنواتِ العشر الأخيرة[1] فعلى أثر ما كان قيلَ في شأن طبيعة الإيديولوجيات السيميائية في كتاب الأطروحة Trattato (٣ـ ٩)، لسوف يتبيّن لنا، بادىء الأمر أنه، في حين يمضي هيكل فعلانيٌ يمثُلُ ـ على أنّه ذُخْرٌ موسوعي، قبل أن يتحقّق في نصٍ معين ـ باعتبارِهِ نسقاً من التعارضاتِ الفارغة، أنَّ بنية إيديولجية، سواء كانت على مستوى الكفاية الموسوعية أم على صعيد تفعيلها النصّي، تظهر حالما تُجعل **التضمينات الأوّلانية** متداعيةً مع أقطاب فاعلية سبَقَ أن خُطَّتْ في النص. والحال أنَّه، حينَ يكون هيكل فعلانيّ محاطاً بأحكامِ قيَم، وحينَ تكون الأدوار تحمل تعارضاتٍ أولانيّةً من مثل طيّب/ شرير، صحيح/ خطأ (أو حياة/ موت، طبيعة/ ثقافة)، يكونُ النص، حينئذ في حالٍ يستعرض خلالها إيديولوجيته في مصوغ سلكيّ.

Axiologiques: تعني، باللغة السيميائية، نمط الوجودِ التصريفي الذي تكون عليه القيم في معارضة الإيديولوجية التي تتخذ شكل ترتيبها التركيبي والفعلاني.

إننا لنحسنُ الإحاطة بما كانَ أُوحيَ به إيحاءً واهنا في الفصل ٤ـ ٦ـ ٧: فالكفاية الإيديولوجية التي لدى القارىء النموذجيّ تتدخّلُ لكي توجّه خيار الهيكل الفعلاني والتعارضات الإيديولوجية الكبرى. على سبيل المثال، فإن قارئاً ذا كفاية إيديولوجية معيَّنة تقوم على تعارضٍ بدائي، ولكنه فعّال، بين قيم روحية (معتبرة بالتضمين «حسنة») وبين قيَم مادية (معتبرة بالتضمين «شريرة»)، تسوِّل لَهُ كفايته هذه أن **يفعِّل**، في رواية من مثل «الموت في البندقية»، تعارضين كبيرين، دعوة أشباح الجماليةِ في معارضة رغبته الشهوانية (إذاً روح/ مادة)، وذلك بأَنْ يطلق، على مستوى البُنَى الإيديولوجية، سمةً من «الإيجابية» على الأولى، وسمةً من «السلبية» على الثانية. ولئن كانت هذه قراءةً ضحلةً بعضَ الشيء ومشكوكاً فيها قليلاً، فإنّ فيها حسنةَ المثل الذي يُعطى عن الطريقة التي تعيِّنُ بها الكفايَةُ الإيديولوجية تفعيل البُنَى النصية العميقة. وبطبيعة الحال فإنَّ نصاً يسعه أن يستبق كفايةً كهذه لدى قارئه النموذجيّ، فيعمل ـ مستعيناً بكل

Actualiser

المستويات الدنيا ـ على زعزعتها، إلى أن يُحمل القارىء المذكور على تعيين البنى الفعلانية والإيديولوجية الأكثر تعقيداً فيها.

إلى ذلك، نجد حالات من حل الترمّز «شاذ»[٢] (اذ يكون بهذا المعنى أقل توفيقاً أو أكثر). أما حَلّ الترمّز في قصة اسرار باريس» (أنظر ٣ ـ ٣) فتراه نمطياً في هذا الشأن: ذلك أن الميل الإيديولوجي الذي كان عليه القرّاء البروليتاريون جعل يؤدي دور «جهاز الوصل» إلى الأرموزة، فحملهم على تفعيل الخطاب من وجهة نظرهم الثورية، بعد أن كان مصوغاً من وجهة نظر إصلاحية، باعتبار أن الكفاية الإيديولوجية لا تعمل بالضرورة عمل كابح للتأويل، طالما يسعها أن تقوم بدور المثير أيضاً. ثم إنّ الكفاية الموصوفة من شأنها أن تحثّ القارىء، أحياناً، على إيجاد أمور في النص كان المؤلف نفسه غير واع لها، في حين يكون النص ينقلها على نحو معيّن.[٣]

٩ ـ ٣ ـ حدود التأويل العميق وإمكانياته

ما تُراه يحدث حين يتمكن القارىء، إذ يكتشف بُنىً عميقة في النص، من تسليط الضوء على ما لم يقدر المؤلف على قوله أو لم يشأه، والذي يفصح النص عنه، مع ذلك، تمام الإفصاح؟ ههنا نمسّ الحَدَّ البالغ الرّقة الذي لا يني يفصل التعاضد التأويلي عن علم التفسير ـ فضلاً عن ذلك، أو ليس أميز ما في علم التفسير هو الإضطلاع بالكشف عن الحقيقة في النص، تلك الحقيقة التي يبسطها فيه، ويتيح استشفافها، وظهورها؟

بالطبع، هناك أنواع وأنواع من التفسير. إن اشتقاقات إيزيدور دي سڤيل وعدداً من تلك التي أجراها هيدغر، من شأنها أن تجعل الكلمات تقول ما لا قدرة لها على قوله، لو كان للموسوعة وجود اجتماعي موضوعي؛ ثم إنّ قراءات ڤيرجيل القروسطية والتي طالما استخدمت بمثابة نص نبوي ما ونيث، في حينه، تظهر عنفاً حيال الخطاب الڤيرجيلي. وبهذا المعنى، لم يكن النص فيما مضى، موضوعاً للتأويل، إنما كان المفسّرون يتداولونه بحرية تامة، كما لو كان محض ورق لعب.

إلا أن الأمر يختلف إنْ مضى أحدهم يتصفح، بعجالة من أمره، نصاً في سبيل أن يستخرج منه خلاصات حول حوافز المؤلف العميقة أو حتى يجد

فيه آثاراً من إيديولوجيته غير المصرح بها. لقد كان «سو» يدّعي أنه ثوري، وقد ألّف كتاباً إصلاحياً تحفزُهُ إليه نزعته المحافظة. مع ذلك، فقد وجَدَ فيه قراؤه العمال نداءاتٍ للثورة. مَنْ تراه كان محقّاً في سعيه؟ لقد شاء «پو» أن يروي قصة امرىء ذي ذهنٍ نيِّر للغاية ـ دوپين ـ والحال أنَّ عدداً كبيراً من الناس رأى في الثلاثية التي تجعل دوپين في إطارها إخراجاً مسرحياً لحالة اللاوعي. وعليه أيكون منَ المسوَّغ أن يغفل القارىء عن تأكيداتِ المؤلّف البيّنة حولَ العقلانية الواضحة والمضبوطة التي ينماز بها دوپين؟

ولنفرض وجود نَصّ حكائيّ، قد أُلِّفَ في السنوات الأخيرة، وكانَ حائزاً، على مستوى الأفراد، خاصّيات وعلاقات، وحيث تظهر، على مستوى البُنى التركيبية عينها، ظهوراً هاجسياً غوامض فعلانية، وتبادلات عبارات مكرَّرة، **والتفاتات** مباغتة من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب، وباختصار لنفرض وجود نص تقوم فيه صعوبات تستوجب الإقرار بها، كما يستوجب فيه السعي إلى إبراز الفاعلين الذين يضعهم اللفظ في التداول، وإظهار الفاعل ـ المؤلف عينه الذي ينظر إليه على أنه **استراتيجية تلفُّظية**. لن يكون عسيراً على المرء أن ينسب هذا الوصفَ إلى فئة كبيرة من النصوص الاختبارية أو الطليعية. وهذا مما يسمح لنا بالإفتراض أنَّ المؤلف إنّما كانَ محيطاً بكل مظاهر الموسوعة الشائعة هذه، والتي بموجبها تكون ظواهر تعبيريَّة متصلة بمضامين دالة على تفكّك وأزمات هويّة. وعليه فقد وجب أن ننسبَ إلى النص، من بين مضامينه، رؤية **فصامية شكلية** ـ غير موصوفة إلا أنَّها جلية ومتصلة بالنص اتصالاً مباشراً، على أنها أسلوب، وعلى أنها نمط في تنظيم الخطاب. فالمؤلف، من حيث كونه فاعل التلفُّظ تجريبياً وسِعَهُ أنْ يكون على قدرٍ متفاوت من الوعي إذ أعدّه (التلفظ)، بيد أن الرؤية الفصامية تكون أُنجزت، على يديه، نصيّاً. وإليكم وضعاً مشابهاً: يسعني ألا أدرك أنَّ لكلمة ما دلالةً معيَّنة، ولكنني حالما ألفظها، أكون قلتُ ما قلته. إذاً، على الصعيد النفساني، قد يصح أن ندعوَ ذلك زلَّة، وقد يقال إنني تكلمت وأنا في حالة من التبلّد الذهني، وأنني أحمق، وقد ارتكبتُ زلة لسان.

بالمعنى البلاغي القديم للالتفاتة، أي الانتقال المفاجىء من صيغة فعلية إلى أخرى

Enonciative

Schizomorphe

ولكننا، ههنا، نبلغ وضعاً مختلفاً يسعنا أن نمثّل عنه بنَصّ آخر،

صيغَ في عصر لم تكن اكتشافات طبّ الأمراضِ العقلية والتحليل النفساني قد راجَتْ وصارَتْ في متناوَل العامة (أو نص أنتجَهُ مؤلف معاصر ذو موسوعة محدودة للغاية). وقد يتسنّى لهذا النص أن يروي لنا قصة غير ذات قيمة، إلاّ أنّ الانطباعَ الواضحَ الذي يحدثُهُ فينا أنَّ تمثيلاً لموقف فصاميّ أو لعقدة أوديپ تروح ترتسم أسلاكُهُ، من خلالِ استعمال استعارات هاجسية أو تنظيم نحوي خاص. أيسعنا القول إن هذه البنية تشكل جزءاً من مضمون النص الذي كان دعيَ القارىء النموذجي إلى تأوينه؟

إننا نعني بالتأويل (في إطار هذا الكتاب) التفعيل الدلاليّ لكل ما يَوَدّ النص، من حيث كونه استراتيجية، أن يقولَهُ عبر تعاضد قارئه النموذجيّ. إذاً، قد يكون بوسعنا التأكيد أن نصاً يكشفُ، من خلالِ بُنَاه، عن شخصية مؤلِّفه الفصاميّة أو عن عقدة أوديپ هاجسية لديه، ليس نصاً يتطلّب تعاضد قارىء مثاليّ يجهد في أنْ يكشف عن هذه الميولُ اللاواعية لديه. ذلك أنَّ الكشف عن هذه الميول وتعريتها لا يعودان إلى مسارِ التعاضُدِ النصيّ. بل الأحرى أن يكون الأمران صنيعَيْ مرحلة متتالية من المقاربة النصية، حيث يعمد القارىء إلى متابعة النص ونقدهِ، بعد أن يكون فعَّل النص عينه تفعيلاً دلالياً؛ وقد يسوّغ لهذا النقد أن يضع لنفسهِ أهدافاً عديدة: تقويم النجاح «الجماليّ» (أياً يكن التعريف الذي يُعطى لهذا الأثر)، وتقويم العلاقات بين الإيديولوجية، والحلول الأسلوبية التي يطرحها المؤلف والوضع الاقتصادي، والبحثِ عن البُنَى اللاواعية (التي تخرج عن نطاقِ المضمون الذي يؤثره المؤلف). لذا فإنّ استقصاءات نفسانيةً، ومرضية ـ عقلية وتحليلة ـ نفسانية كهذه، ولئن كانت هامة ومثمرة، فإنها قد تعاود «استخدام» النص لغاياتٍ توثيقية، وبالتالي فإنها تقع في مرحلة تالية لتفعيله (النص) الدلالي (حتّى لو أمكن المسارَيْن أن يتحدّدا بصورة تضافرية ومتبادلة). كما لو أنه إزاءَ جملة [أعترفُ بكل شيء] يكون على التعاضد النصّي أَنْ يضع التوضيحات الدلالية موضعَ الإثبات، وأن يحدِّد المدار، وأَنْ يستوضح بالإجمال المسلَّمات والظروف التي حثّت على بَثّ هذا الفِعل اللساني؛ وكما لو أَنَّ استخدام النص، في معرض تشهيده على أَنَّ المتكلمَ، في المقابل، هو مذنب لاقترافِهِ جنحةً

ما، كانَ رهنَ استعمالِه التوثيقي. وهذا يعني، أنه، في مقابلة الجملة التالية [تعالَ إلى هنا، أرجوك] ليس للتعاضد النصّي أَنْ يستدلّ منه أَنّ المتكلم إنّما تحرّكه رغبةٌ جليّة في أن أمضي نحوه. والحال أنه يبدو لنا أن هذا النوع من الاستدلال هو الجزء الجوهريّ من تأوين الرسالة. إلى ذلك فقد يتسنى لنا القول إنه، من وجهة نظر التعاضد النصي، أقرّرُ ببساطة أَنّ فاعِلَ اللفظ يرغَبُ في أَن أمضيَ نحوَهُ، في حين أَنَّه، من وجهة نظر الاستخدام التوثيقي، تكون هذه الرغبة تتفق مع رغبة «فاعِل التلفظ».

لنفرض وجود نَصّ لا يكون مؤلفهُ، بداهةً، على صلة بالمعطياتِ الموسوعية التي تعبّر، وفاقاً لها، سلسلةٌ من العمليات أو العلاقات عن مضامين نفسانية معطاة، وحيث منَ البيِّن أَنَّ الستراتيجية النصية كلها تفضي، بصورة قَدَرية، إلى استثمار مضامين من هذا النوع فيه (النص).

ولربما أمكن أن تكون مسرحية «أوديپ ملكاً» لسوفوكل حالة نموذجية في هذا الصدد، أقلّه على الطريقة التي بها قرأ فرويد الكتابَ. فمن الجليّ أنه بمقدورنا أن نباشر في قراءة هذه (المسرحية) المأساة على أَنَّها ذات إرجاع أكيد إلى موسوعة تسجّل نتائج التأويل الفرويدي. والحال أَنَّ سوفوكل من حيث كونه فاعل التلفظ، وسوفوكل من حيث اعتباره استراتيجية نصّية، لا يسَعْ كلاهما أَنْ يحيل إلى هذه الموسوعة. إلاَّ أن إصرار أوديپ الأعمى على كبتِ الحقيقة، والتي تردُ مع ذلك، في خاطره مراتٍ عديدة، وبصورة عصية على الردّ، إنما يتبدَّى هو المضمونُ الأَوَّلُ في نص سوفوكل. (أنظر القراءة فيما خَصَّ العوالم الممكنة والعلاقات الضرورية بنيوياً التي نهبها إياها في الفصل ٨). والحال أَنَّ النصّ من حيث كونه فعلَ اختراع (أنظر التعريف بهذه الفئة في كتابي «الأطروحة» Trattato، ٣- ٦- ٧ وتوابعها) إذ يُرى إليه من وجهة التأويل هذه، سرعان ما يؤسس لأرموزة جديدة، ويطرح للمرة الأولى علاقةً متبادلة بين عناصر مُعَبِّرةٍ ومعطياتِ مضمونٍ ما، كان النسَقُ الدلالي، إلى حينه، قد حدَّدهُ ونظَّمهُ. وفي هذه الحالة، تشكل القراءَة الفرويدية عملية تعاضد نَصّي مشروعةً، إذ لا تني تؤوِّن ما يحتويه النص وما يضعه المؤلف فيه، من حيث اعتباره استراتيجية تلفُّظ. الآن، وقد بان سوفوكل التجريبيّ، من

حيث اعتباره فاعِلَ التلفّظ، أكثر وعياً لِما كانَ يقوم به نَصّياً أو أقل وعياً، فإنَّ ذلكَ يكون من شأن استخدام النص، بل ومن شأن قراءة تشخيصية تنمُّ عن النشاطِ الذي مضَتْ، نظرية للتعاضد النصي تدل عليه؛ وهذا مما يهتمّ له فرويد، إن شئنا، من حيث كونه طبيب سوفوكل الشخصيّ، وليس يعني فرويد من حيث كونه قارئاً نموذجياً لكتاب «أوديپ ملكاً». وقد يفضي بنا هذا الأمر إلى القول (أو معاودة القول) إنّ قارىء أوديپ النموذجيَّ ليسَ مَنْ جَعَل سوفوكل يتفكّر فيه، إنما هو مَنْ صادر عليه نَصُّ سوفوكل.

وعلى المنوال نفسه، فمن الجليّ أن نَصّ سوفوكل، إذ يفترض قارئه النموذجيّ المخصوص من حيث اعتباره استراتيجية تعاضدية، فإنه «يبني» قارئاً قادراً على إلقاء الضوء على معطياتِ المضمون هذه التي كانَت لا تزالُ مخبوءةً (مفترضاً بالطبع أن سوفوكل لم يكُنْ أوَّلَ مَنْ يدركُ هذه الظواهرَ المعروفة تحت اسم عقدة أوديپ وأنه في موسوعة الثقافة اليونانية لذلكَ العصر لم تكن توجَدُ كفايات منظمة في هذا الشأن، باعتبارها تقليداً تناصياً أسطورياً، عند الاقتضاء). وبعبارات أخرى، فإن قارىء أوديب النموذجيّ مدعُوٌّ لأن يستكمل ـ وأن يستكمل (**بناء الحكاية**) مع بعض التأخر. وبهذا المعنى، فإنَّ بعض النصوص الحكائية، إذ تروي قصة شخصية، تزوِّدُ قارءَها النموذجيّ، في الآن عينه، باستعلاماتٍ دلالية ـ جدالية، علماً أنَّها تروي قصتَهُ (القارىء النموذجي) بالذات، وعليه فمن المسوّغ أن يعتقد المرء أن ذلك هو الحاصِلُ، وإن على نحو متفاوتٍ، في كل نَصّ حكائي، وربّما في كثير من النصوصِ غير الحكائية. [**الحكايَةُ مَرويَّةٌ من قبلِكَ**].

إيضاح المترجم

De te fabula narratur

ولإحاطة أفضل بالاختلاف الذي نسعى إلى تعيينِهِ، لنتنَاوَلْ مثلاً أحد التأويلات التي أدَّتْها ماري بوناپرت عن نتاج إدغار ألآن پو[٤]. فهي جعلَتْ تقرأ **بطريقة تشخيصية** نتاجَ الشاعرِ (الذي سبق أنْ عرَّفَ به لوفْرير على أنَّه منحطّ عالٍ ووصفَهُ «پروست» على أنَّه صرعيٌّ) لكي تستخلصَ منه أنه (الشاعر) كانَ امرءاً عاجزاً (جنسيّاً) بتمام البداهة، وقد تملّكه الانطباعُ الذي كان اعتراهُ منذ طفولته، يومَ رأى والدتَهُ ممدَّدَةً في التابوت ـ وقد أماتها الهزالُ ـ ؛ لربما يكون هذا تعليلاً لميل الشاعر المنحرف، الذي كان تملّكَهُ وهو راشد، ميلٌ إلى النساءِ اللواتي كان يجد فيهنَّ صفاتٍ مرضيةً

Symptomale

وجنازيَّة ذاتِ صلة شبه بوالدتِه الميتة. وهذا مما يفسّر هيامه الشديد بنساء - أولاد مرضى ومغامراته الحافلة بالأموات الأحياء.

والجدير ذكرهُ أنَّ الناقدة كانت استمدت هذه المعطيات من حياة الشاعر ومن نصوصِهِ على السواء؛ ولئن كانَ هذا الإجراء يصلح لتَمامِ القيام باستقصاء نفساني حولَ الشخصية المسمَّاة إدغار ألآن پو، فإنَّه لا يصلح لاستقصاء حول هذا المؤلف النموذجي الذي جعلت تتمثله قارئة هذه النصوص، والذي أصرّت القارئة السالفة على تمثله حتى لو لم يكن في حوزتها أيّ معطى عن سيرة پو. إذاً، يسعنا أنْ نثبت، بهدأة بال تامة، أن ماري بوناپرت راحت «تستخدم» نصوص پو على أنها وثائق، وأعراض، وروائز للكشف عن الأمراض النفسية. ومن المؤسف ألا تكون تمكنت من القيام بذلك، إبَّان حياة پو. ولو فعلت لكان أمكنها أن تساهم في شفائِه من هواجسه. وفي آخر المطاف، فإنَّ الأمور ما برحت تتمّ على هذا النحو، والخطأ ليس خطأ ماري بوناپرت. فيبقى لنا، إذ ذاك، طالما أنَّ پو قد توفّي، محض الرضى (البشري الخالص والمنتج للغاية، علمياً) عن التفكّر في المسائِل المثالية التي تجولُ في خاطر رجل عظيمٍ، وفي الروابط الخفيّة بَيْنَ المرضِ والإبداع.

بيد أنّ ذلك كله لا صلة له البتة، بنظرنا، بسيمياء نَصٍّ، ولا بتحليل قد يُجرى حولَ ما يمكن القارىء أن يجدَهُ لدى پو. على أنَّ ماري بوناپرت تعرف جيداً مجريات السيمياء النصّية، وقد أجادت الكشف عنها بصورة لافتة. ففي الدراسة النقدية نفسها، تمضي إلى تحليل القصيدة ذات العنوان «Ulalume»، ولصفحاتٍ تالية أبعد فتقول ما مؤداه أن: الشاعر، وفقَ هذا التحليل، يشاءُ المضيّ إلى كوكب ڤينوس - عشتروت، إلاَّ أنَّ پسيشِه المرهوبة تحتجزهُ، ولا يكادُ يكمل سبيله حَتَّى يجد قبرَ محبوبته. فتلاحظ ماري بوناپرت أنّ رمزيَّة الشاعر شفَّافة. وهي تجعل منْ ذلك نوعاً من التحليل الفعلاني، في صيغة «**ما قبل الأدب**» (ante litteram): فاعل ميت يمنع پو منَ المضيّ إلى الحبّ السويّ، النفسيّ والجسماني، وقد رَمَز به إلى ڤينوس. حتى إذا شئنا أنْ نحوّل الفاعلين إلى قطبيات فعلانية خالصة تحصّل لدينا فاعل يهدفُ إلى شيء، ومساعدِ ومعارض.

ثم جعلت بونابرت تتفحّص ثلاث قصص، «موريّلا»، «ليجيا»، و «إيليونور»، فوجدَتْ أنَّ لها جميعها الحكاية ذاتها.

إذ وجدَتْ، مع بعض التباينات، في كل منها زوجاً يعشق امرأة غريبةَ الأطوار، وامرأة تموتُ هزالاً، فيقسمُ لها زوجُها أَنْ حداده عليها أبديّ، إلا أنه يحنث بوعدِهِ ويرتبط بامرأة أخرى؛ بيد أن الموتَ سرعانَ ما يظهر ويغلِّفُ المرأة الجديدة بدثار سلطانِه المأتميّ. والحال أنه من اليسير أَن يمرَّ القارىء من هذه الحكاية (وهي سيناريو تناصيّ حقيقي) إلى البُنى الفعلانية؛ وقد تصرفَتْ ماري بونابرت بدافع غريزيّ، إذ قرّرت اعتبار المرأة الثانية في القصة الأخيرة بمثابة الميتة ـ والتي لا تموتُ، مع ذلك، إنَّما تؤدِّي دور غرضِ الحبّ حين يخضع للمحبوب متماهياً بالمرأة الأولى، على هذا النحو. فكان أن أدركت ماري بونابرت وجودَ هاجسٍ في القصص الثلاث، ومضَت تقرُّ بوجودِهِ على اعتباره هاجساً نصياً. بالأَوْلى.

غير أَنَّ المؤلفة، وبعد أَنْ أجرَتْ تحليلاً غاية في الجمال، كان لها أَنْ تخلُصَ إلى أَنَّ حياة إدغار ألآن پو إنما كانَتْ مماثلةً لأبطالِ قصصه، جاعلةً بهذا افتراقاً منهجياً من شأنِه أَنْ يحرف انتباهها عَنْ تأويل النصوصِ إلى استخدامها انطلاقاً من الوجهة السريرية.

ولنمضِ الآن إلى قراءة تضع لنفسها هدفاً يكون أقرب إلى مقاصدنا. إنها القراءة التي يسوقها جاك درِّيدا عن «الرسالة المسروقة» في قصة «ساعي الحقيقة» (إذ يرجع فيها إلى قراءة ماري بونابرت وإلى قراءة شهيرة للغاية كان أجراها لاكان، والتي ينتقدها، كذلك)(٥).

ولما كانَ درِّيدا انطلق من كفايته الإيديولوجية، التي تحدوهُ إلى إيثار خطاب اللاوعي في النص، فقد خَلُص إلى تعيين هويّة فاعلين أكثر عموميةً من الفاعلين الذين يمثِّلونهم. فما يهمُّ لديه، ليست طبيعة الرسالة، بقدر ما كان يهمه نسبتها إلى المرأة التي كانت اختُلسَتْ منها، أو بقدر ما توجَدُ معلقةً بمسمارٍ تحت مركز المدخنة («فوق جسد المرأة الفسيح، بَيْنَ قائمتَيْ المدخنة»)؛ فما يكون جديراً بالاهتمام، على هذه الصورة، لن يكون الفاعِلَ دوپان طالما أَنَّ الأخير يبين عن طابع «مزدوج»، إذ يتماهى على التوالي بكل الشخصيّات. ولا يهمُنا أَنْ نقرِّر ههنا، ما إذا

كان تأويل درِّيدا ينسجم مع أكثرية المضامين الممكنة التي لا يني نَصّ پو يستعرضها. إنَّما الذي يهمّنا، هو ما يودّ درّيدا إلقاءَ الضوءِ عليه، على حدّ ما يقول (وهذا بخلافِ الموقع الذي ينسبه إلى لاكان)، ونعني بها «البُنَى النصّية»: ويُستدلُّ من هذا أن «لاكان» يريد «مساءَلة لا وعي پو» وليس «مقاصد المؤلِّف»، وفي سبيل ذلك، يحاول أن يماهيَهُ «بهذا الموقع أو ذاك من مواقع شخصياته».

وهكذا، يمضي درِّيدا من الحكاية (المنتخبة وفقَ ميوله الإيديولوجية المخصوصةِ التي تفضي به إلى تعيين ما يعتبرُهُ «مدار» كُلِّ المسألة، بحسبه، وهو بمثابة قِصَّة خصاء) فيتوجَّه شطرَ البُنَى الفعلانية، مبيّناً كيف أنها تظهر لدى مستوياتِ النص العميقة. وسواءٌ كانَتْ هذه العملية جيدةً أم سيئة، فهيَ مشروعة، على أي حال.

يبقى أَنْ ندركَ ما إذا كانَ هذا النهج لا ينمُّ عن «التأويل النقدي» أكثر مما ينمُّ عن «التعاضد التأويلي». بيد أَنَّ الحدودَ بين هذَيْن النشاطين هي من الدقّة بحيث ينبغي إقامتها بعباراتٍ تُعزى إلى الكثافة التعاضديّة، والوضوح والجلاء في عرض نتائج تعاضد اكتملَتْ فصوله. والناقد، في هذه الحالة، هو قارىء متعاضِد، جَعَل يروي حركاته التعاضديّة المخصوصَة، بعد أَنْ كان فعَّل النص تأْويناً، ومضى يوضّح الطريقة التي سَاقَه بها المؤلف، باستراتيجيته النصّية، إلى التعاضد الموصوف. أو يروح يقوِّم، كذلك، بعباراتِ النجاح الجماليّ (وأياً كان التعريف النظريّ الذي يطلقه عليه) أنماط الستراتيجية النصّية.

إنَّ أشكالَ النقد لهيَ على تنوُّع بيِّن، على ما نعلم: هناك النقد الفقهي اللغويّ، والجماليّ، والاجتماعيّ، والتحليلي ـ النفساني؛ وهناك النقد الذي يصدر أحكام قيمة، وذلك الذي يبرزُ مسارَ كتابة. وهنالك أنواع نقد أخرى عديدة. أما الذي يسترعي اهتمامنا من كل هذا، فليس الاختلافُ القائم بين التعاضد النصّي والنقد، إنما يعنينا الاختلافُ ما بين النقد الذي يروي ويستثمر كيفيات التعاضد النصّي، وبين النقد الذي «يستخدم» النص لغايات أخرى، على حَدّ ما عاينَّا. ولسوف نقصِرُ جهدنا على النظر في نموذج النقدِ الأوّلِ باعتباره وثيقَ الصلة بالسيروراتِ التي

ينحو هذا الكتاب إلى إبرازها. وهذا النقد، هو ما يعين على تحقيقِ التعاضد، حَتَّى حيث يوشِكُ شططُنا على إفشالِه (التعاضد). وهذا النقد، قد يفرض علينا أن نعرِّف به، منْ وجهة نظرنا الحالية، على أنه مَثَّلُ التعاضد النصيّ «الممتاز». وحَتَّى حين يدفعنا النقد إلى تفريغ نتائج تعاضدنا، وحينَ نعتبر منَ الواجب أن نرفضَ للناقدِ وظيفة القارىء النموذجي، فلنشكرْه، عندئذٍ، لمحاولته.

٩- ٤- بُنى عميقة قصدية وبُنى عميقة مصداقية

Structures profondes intensionnelles
Structures profondes extensionnelles

ثمة سبب آخر كان حملنا، في مجرى هذا الفصل، على إيثار الآليّة البنيويَّة الَّتي تتسم بها التعارضاتُ الإيديولوجية والفعلانية، بمثل ما آثرنا لحظة تبيين هويَّتها والظروف التي تَمَّ فيها (التبيينُ الموصوف). لنستعِد الصورة ٢ (أنظر. ص - ٩٣). إلى اليمين، نجد الحركاتِ التي كان أتمَّها القارىء من خلال «حالة المصداق»: فمَنْ تراهم الأفراد المعنيُّون، وما هي حالاتُ العالم، ومجريات الأحداث؟ ثم أنكونُ إزاءَ سلسلةٍ منَ الإثباتاتِ التي تعني العالم حيث نحيا أو عالماً ممكناً؟ وأياً كانَ هذا العالم، فأيّ توقعات يسعنا أنْ نُجري حولَ ما قد يحدث؟ وإلى يسار الصورةِ، نلمح الحركاتِ التي كان قامَ بها القارىء في «حالة القصد»: ونعني بها الخاصِّيات التي قد ننسبها إلى الأفراد المعنيين، بغضِّ النظر عما إذا كانوا يوجدون في عالم تجربتنا أم لا؟ وما تكون التجريدات التي تمثلها؟ أتكون حسنةً أم سيئة؟ وهل يؤدي أفرادٌ عديدون الدور نفسه؟ إلخ..

بيد أَنَّ هذَيْن النظامَيْن من الحركات أيكونان عصيَّيْن على الاختزال، على هذه الصورة؟ ولو أَنَّ نصاً حكائياً (لو أنّ كُلَّ نص) لم يكُنْ دالاً إلاَّ بمقدار ما كانَتْ القضايا قابلةً للتحقّق من قِبَل عالم اختبارنا (أو تجربتنا) - بمعنى لو أَنَّ كل ما يقولُهُ النص «يحدث» أو «يتمّ حدوثه» في العالم «الواقعي» - لكانَ ثمة القليل منَ الاشتغال التعاضدي لينجز حولَ نَص حكائي (وحولَ أيّ نص). والحال أن كل شيء قد يجري حَلُّه ههنا حيث (في الترسيمة ٢) كنا أشرنا بالأقواس إلى **المصاديق**. وإذا ما اعتبرنا أن النص إنما يتكلم على حالات «واقعية»، أو أنه لا يتكلم على شيء إطلاقاً، باتت كُلّ محاولة للقيام بتوقعات، وبتعيين الفاعلين، عديمة الجدوى.

الصفات التي يكشف عنها من هذه الوجهة

وفي سبيل أن يخرج تأويل النص من هذه المتاهة كان علمُ الدلالة المنطقي قد أطلق تصوُّر «العالم الممكن»، بغية أن يترجم عن المسائِل القصدية بعبارات مصداقية. فأن يقال مثلاً إن خاصَّةً تَصِحّ نسبتها إلى فردٍ في عالم ممكن، وإنَّ قضية تكون صادقة في عالم ممكن، فهذا يعني أن يعاود اقتراح إشكالية «الصدقية» التي كان علم الدلالة البنيويُّ الخاصُّ بغريماس (١٩٧٣: ١٦٥؛ ١٩٧٦: ٨٠) قد وضعها موضع الاعتبار على المستوى القصدي. إذاً، أن يُقال إنَّ نصاً يقدم لنا قضية معطاة على أنها حقيقية في عالم ممكن (عالم ترسمه الحكاية أو ينسبه النص إلى مواقف الشخصيات القضويَّة) يعني أن النَّصَّ يضع «استراتيجيات خطابية» موضع الإنفاذِ لكي يقدم لنا شيئاً على أنه صادق أو كاذب، على أنه شيء صنيع الكذب، أو على أنه صنيع التحفُّظ (سِرّ)، على أنه موضوع إيمان أو على أنه قضية مثبتة، في سبيل أن تجعل المرء يؤمن أو لكي تجعله يجعل. وهكذا، إذا ما تقدم القارىء، على مستوى التوقعات، بمشروع حولَ حالةِ الأحداث الممكنة، فقد وجب أَنْ يقوِّم على المستوى المصداقيّ، إتِّساق هذا المشروع مع تنامي الحكاية المطّرد، أو عدم اتّساقه، وبالمقابل، فإن هذا الأمر قد يحملنا، على المستوى القصدي، على التساؤل حولَ الكيفية التي كتن تصرَّف بها النص حَتَّى يحثّ على هذا الاعتقاد (الذي يلصق به النص، في مرحلة من الحكاية متوالية، قيمةً واحدةً من حقيقة ٫ ١د). [1o d]

وعليه، فإنَّ بنيانَ قوالبَ من عوالم متقارنة فيما بينها وتعيينَ خاصيات للأفراد، لن يكونا أمرَين مختلفين، على ما يبدو، عن نسبة أدوار فعلانية إلى فاعلين، ولا سيّما إذا كانت بعض خاصياتِ الأفراد داخلَ حكايةٍ ضرورية بنيوياً، بمعنى إذا كانت مؤسسةً على التضامنِ المتبادَلِ بين الأفرادِ داخِلَ عالم ما. وعلى العكس من ذلك، فقد ينبغي أن يتساءَلَ المرء عما إذا كانَتْ تعييناتُ قِيَم الحقيقةِ، المصوغَةُ بعبارات مصداقية، تستوجب الاندراج في بُنَى النص الإيديولوجية. ففي الحكاياتِ المنطقية، ثمة بُنَى إيديولوجية.

لكل هذه الأسباب، فإنّ مساراتِ القرار المصداقي المصوغةَ بعبارات بُنَى العوالم، والتي كنّا درسناها في الفصلِ السابق، تبدو متراكبةً،

لاعتبارات عديدة، إلى جانب المساراتِ القصدية التي تحدثنا عنها لتوِّنا في الفصل الجاري ـ والتي لا تقترحُ سوى نسخة تناوبية عن الأولى.

لقد سبق أن استخدمنا فعل «بدَتْ لنا»، وأداة «ربّما»، من قبيل الحرص المنهجي: والواقع أَن النموذج الممثَّل في الترسيمة ٢ سعى إلى إيجاد علاقَة بين الفئات المتأتية عن عوالم بحث مختلفة للغاية. ولقد بدا لنا لازماً أن نستكمل هذه العملية (دون أن نخفي مخاطرها التوفيقية)، ذلك أَنَّ لكُل عوالم البحث هذه موضوعاً مشتركاً، حتّى وإن مضَتْ تعرّف عنه بصورة مختلفة: إنه علم دلالة النصوص وتداوليتها.

هوامش

(١) انظر، على سبيل المثال أبحاثنا حول جيمس بوند، أسرار باريس، سوبرمان، إلخ، في إيكو ١٩٦٥أ، ١٩٦٥ب، ١٩٦٨، ١٩٧٦.

(٢) كنا تحدثنا مراراً عن حل ـ الترمّز الشاذّ (أيكو، ١٩٦٨، ١٩٧٧، وإيكو وفابّري، ١٩٧٨). أنظر كذلك بيان الترسيمة ١ (أنظر، ص ٦٩) من هذا الكتاب. ينبغي ألا ننسب إلى كلمة [شاذ] أي تضمين سلبي: إنما نقصد به حل الترمّز، إذا عجز عن الانسجام مع نوايا الباثّ (أو المرسل)، جَعَل يقلبُ الحلول. إنَّ حل الترمّز هذا وصفُه يكون «شاذاً» نظراً لمفعولِهِ المتوقَّع، غير أنه يسعه أن يشكل طريقة لتقويل الرسالة ما يمكنها أن تقول أو أمور أخرى تكونُ هامّةً ووظيفية بالنسبة لمقترحاتِ المتلقِّي.

(٣) فأن يظنَّ «سو» ذاته ثورياً في حين كانَ إصلاحياً، ذلك أمر لن يُلقى الضوء عليه ههنا. فالبنى الإيديولوجية لا شأنَ لها بمقاصدِ المتلقِّي، بل بما يظهره النص أو يحتويه من حيث الإمكان ـ كما أنَّ هذه البُنَى لا تُعنَى بأسماء ولا شعارات، إنما ببنى سيميائية قابلة للتفعيل. لذا كان يمكن لسو، لدواعٍ خلقيّة ذاتية، أن يدعو «الإيديولوجية الثورية» ما كان آخرون (ماركس وانْلز، على سبيل المثال، قارئاً سو») يدعونها «إيديولوجية إصلاحية»: إن التعارضَ بَيْنَ السماتِ الملصقة من شأنه أنْ يتركَ التعارضاتِ الإيديولوجية (ويلبث يتركها) سليمة، وهي مما يرتسم في قصة «الأسرار»؛ على سبيل المثال التعارض القائم في جملة: «محيط الغضب العشبي/ عمل الخير المستنير برأس المال»، وهو ينطوي على «خطر ليُتجنّب/ حَلّ أنسب». بالطبع، إنه لمن الصعوبة بمكان أن يقرأ المرء «سو» دونَ أن يتنبّه لهذه التعارضات على الهيئة التي كان عَلّقها بها المؤلف. وليس صدفة أنْ نطلب تحليلاً نقدياً مثالاً على التعاضد التأويلي «الممتاز» الذي يفضل النّصّ على المؤلف، أي المؤلف النموذجي ضد المؤلف التجريبي، وذلك لكَيْ نلقي الضوءَ على هذه التعارضاتِ بين المستوى الخطابي والمستوى الإيديولوجي.

(٤) أنظر، ماري بونابرت، تحليل نفس وأنثروبولوجيا، باريس، P.U.F، ١٩٥٢.

(٥) جاك درّيدا، «ساعي الحقيقة» في Poétique العدد ٢١، ١٩٧٥، «أدب وفلسفة مختلطان».

أما نتاج ماري بونابرت الذي رجعنا إليه فهو: إدغار پو، حياته، نتاجه. دراسة تحليلية، باريس، P.U.F، ١٩٣٣.

١٠ ـ تطبيقات: تاجر الأسنان

لقد تمّ اختبار القضايا النظرية المطروحة في الفصول السابقة من خلال تطبيقها على مجتزآتٍ نصّية قصيرة. وفي هذا الفصل وما يتلوه، سوف نحاولُ أن نطبقها على حصص نصية أكبر، ههنا، سوف نعالج مطلع رواية من الأدب المستهلك الشائع؛ وفي الفصل اللاحق، سوف ندرس قصة كاملة، يكمن تمايزها في أنها «صعبة»، ملتبسة، وجديرة بقراءات متعددة.

أما النص الذي قد نشرع في تحليله فهو مُستهلّ رواية (The Tooth Merchant) «تاجر الأسنان» لمؤلفها سيروس أ .سولزبرغر. وقد اخترناهُ لسببين. السبب الأول، هو أنّ النصّ الآنف يتبدّى مثالاً عن حكائية «مسطحة» لا تنطوي على صعوبات تأويلية خاصّة وبالتالي فهي لا تتطلب تدخّلاتٍ تعاضدية من قبل القارىء، وذلك من خلال مظهرها: مع ذلك، فقد يتاح لنا أن نرى إلى أيّ حد يتطلّب هذا النصّ تدخّلاتٍ وكم أنه معقد، وهذه علامة على أنّ مبدأ التعاضد التأويلي إنّما يصحّ في كلّ نموذج من النصوص. والسبب الثاني هو أنّ لنا مثالاً (عَنْ هذه الرواية) مترجماً إلى الإيطالية (وكان الكتاب أصدره بومبياني تحت عنوان **تاجر الأسنان**). ولئن كانت الترجمة **صحيحة**(*)، فإنها «أضافت» شيئاً ما إلى النص الأصلي: إذْ أدخلَتْ، تحت شكل أعجومات في مساحة النصّ الخَطّية ما جَعَلَ النص الانكليزي الأصلي يتركه لتفعيل القارىء. إنّ ذلك لمَسلَكٌ نموذجيّ تتبعه كلُّ الترجمات التي تمثّل، في الواقع، إذ تكون ناجحة، مثالَ تعاضد تأويلي وقد باتَ في حال العلن. لذا سوف نضع الترجمة **الإيطالية** مقابل النص **الانكليزي الأصلي**، لنتمكن من إثبات الفرضياتِ النظرية التي طرحناها حتى الآن[1]*:

il mercante didenti

(*) نعني بها ترجمة الرواية إلى اللغة الإيطالية

(*) سوف نورد الترجمة الفرنسية والعربية، بالإضافة إلى الانكليزية والإيطالية.

(40)

English	Italiano	Français	العربية
1– The foulest brothels in Europe	1– I casini più Luridi d'Europa	1– Les bordels les plus répugnants d'Europe	١ـ المواخيرُ الأشد كرهاً في أوروبا
2– and I know all of them	2– e io li conosco tutti	2– et je les connais tous	٢ـ وأنا أعرفها كلها
3– are on Albanoz street	3– sono in via Albanoz	3– Se trouvent rue Albanoz	٣ـ تقومُ في شارع ألبانوز
4– in the Perah district of Istanbul.	4– nel quartiere di Perah, a Istanbul.	4– dans le quartier de Perah, à Istanbul,	٤ـ في محلة پيراه، في اسطمبول
5– and there I was sleeping	5– e in uno di questi stavo dormendo io	5– et c'est dans l'un deux que j'étais en train de dormir	٥ـ وفي أحدها كنتَ استسلم للنوم
6– one late summer morning in 1952	6– Una mattina di tarda estate del 1952	6– un matin de la fin de l'été 1952	٦ـ ذات صباح، في آخر الصيف من العام ١٩٥٢
7– beside a Turkish whore named Iffet	7– accanto a una puttana a nome Iffet,	7– aux côtés d'une putain nommée Iffet,	٧ـ إلى جانب عاهرة تدعى عِفّت
8– with a cunt as broad as the mercy of...	8– dalla fica grande quanto la misericordia di...	8– au con aussi grand que la miséricorde...,	٨ـ ذات فـرج واسـع وسـع الرحمة...
9– When suddenly there was a scream at the door	9– quanto fummo risvegliati di soprassalto	9– quand nous fûmes réveillés en sursaut.	٩ـ حين أيقظتنا مرتجفين
10– followed by a thump on the stairs	10– da strilli giù in basso, seguiti da uno sclapiccio su per le scale	10– par des cris en bas, suivis d'un piètinement montant l'escalier	١٠ـ صيحات من أسفل، تلاها خبط أقدام صاعدة على الدرج
11– «Aaaaaaiiiiieee, the American Fleet»	11– «Ahiahiahi, la flotta americana!»	11– «Aïe aïe aie, la flotte américaine!»	١١ـ «آي، ياي، ياي، الأسطول الأميركي!»
12– moaned Iffet	12– gemette Iffet	12– gémit Iffet	١٢ـ عفّت تنتحب
13– hauling the flyblown sheet about her head	13– coprendosi la testa col lenzuolo	13– en se couvrant la tête avec le drap.	١٣ـ وقد غطّت رأسها بالغطاء.
14– as the police burst in.	14– Irruppe invece la polizia.	14– Au contraire ce fut la police qui fit irruption	١٤ـ وعلى خلاف ما توقعنا، كانت الشرطة من قام بالمداهمة

وعليه فقد يتسنّى للقارىء أنْ يحلَّ المسائل المتعلقة بظروفِ التلفظ: ثمة س، كان في زمنٍ سابق للقراءة قد بَثَّ النّصّ قيد التساؤل، كتابةً. وهذا الـ س فاعل التلفظ (تجريبياً: سيروس أ .سولز برغر) قد يسعه أن يتماهى بفاعِلِ اللفظ، وأعني به الـ «أنا» الراوي الذي يعلن ظهوره في ٢. بيد أنّ فاعل التلفظ، إذ يضطلع بقواعد النوع، يصيرُ منفصلاً عن فاعِل اللفظ، الذي هو فردٌ من العالم الحكائيّ. بداهةً، إذاً، لا تكتفي الحكاية بأن تعرضَ وقائع خارجية فحسب، بل وقائع «داخلية» كذلك، تتعلّق بالانفعالاتِ النفسانية التي تنتابُ صوتَ الراوي بصورة خاصة.

وبعد أن يكون القارىءُ فعَّل ١ (أي إيضاحات دلالية تسعى إلى إغناء [كازينو] ـ ماخور ـ بكلّ مكوّناتِ الكلمة)، ينتقل إلى ٢، وبمقتضاه يتمّ تفعيل التصريح الذي يقوم به البطل (ثمة س، كان وُصف للتوّ بصورة غير دقيقة على أنه ذلك الذي ما زالَ يعرض القضايا قيد التساؤل، والتي تؤكد معرفته كُلَّ مواخير أوروبا) ومن ثم يروح يطبِّقُ قاعدة **«الترمّز البلاغي العالي»**: بالطبع فإنَّ الأمر لا يعدو كونَهُ مبالغةً (بمعنى الكلمة البلاغي). استدلال أول: بما أَنَّ التعرف إلى كُلِّ المواخير في أوروبا عملية تتطلّب الكثير من الزمن، حَتّى ولو جاز اختزال امبالغة بصورة معقولة، فقد نخلص إلى أنَّ الراوي كان كرّس معظم حياتِه لهذا التمرُّس. بيد أن المبالغة الآنفة كان خفَّف من شأنها التقييد الذي يحدّ عَدَد المواخير المعروفة بتلك الأكثر كراهة أو إثارة للقرف: ولئن كانَ هذا الأمر يُفقر عالمَ الراوي الإپستميّ، فإنه يغني معرفتنا بأذواقِه وعاداته. استدلال آخر: سواءَ كانَ يرتادُ المواخير الأكثر إثارةً للقرف والأكثر شذوذاً، أم كان مكرهاً على اقتصارها على هاتهِ لأسباب اجتماعية؛ فالراوي إذاً، هو رجل من بيئة ذات وضع متدنٍّ، على وجه الاحتمال؛ ولما كانَ جالَ كثيراً في أرجاء أوروبا، فقد بدا لنا جَوّالاً. على أن الاستدلال الأخير لا يبلغ ثراءَهُ، ولا يحوز على عناصر محتملة أخرى إلاّ حين نقرأ ٤، فندرك أَنَّهُ متواجد في اسطمبول، وهو مرفأ بحريّ شهير، إذ تسهم حينئذٍ عناصر محتملة أخرى في إثرائه: لربّما كانَ الرجل بَحّاراً.

hypercodage rhétorique

في غضونِ كل هذه الحركاتِ التعاضدية، كان القارىء رجع إلى

الموسوعة لكي يثبت، من خلال كلمة [أوروبا]، إحالةً إلى عالم و. هو عالم تجربته. مما كان أتاح لَهُ بصورة أفضل أَنْ يَؤَوِّنَ الكلمة [المواخير] وصفة المفاضلة [الأكثر كراهةً]، وقد تَمَّ لَهُ ذلك بلجوئه إلى سيناريوات مشتركة صالحة لهذا الشأن في موسوعته (إذ ليس المشار إليه مقهى مَجَرِّياً مما قد يتوافر في «حرب النجوم»، إنما ينبغي أن يكون المكان مواخير، أشبه بما يجده المرء في جنوى، ومرسيليا أو أثينا).

نسبة إلى المجرّة

ولنلحظ أنَّ القارىء، إذ يبلغ إلى ٦، يصيرُ قادراً، وبفضل التأريخ ١٩٥٢، أن يتخذ قراراتٍ حولَ طبيعة الموسوعة التي يجدر به اللجوء إليها (على سبيل المثال: في تلك الحقبة كان الراوي لا يزالُ قادراً على ارتيادِ مواخير جنوى، بصورة شرعية، باعتبار أنَّها أُغلقَتْ في إيطاليا عام ١٩٥٨). على أن القارىء، لدى بلوغه هذه المرحلة، يلبث متردداً في شأن الخاصية الدلالية التي ينبغي لَهُ أَنْ يوضِّحها في كلمة [ماخور]، والخاصية التي يجدر به أَنْ يخدِّرها. فينتظر، تاركاً جرّار الموسوعة مفتوحاً لديه بهذا المعنى. ولكنه يدركُ أمراً واحداً، بفضل ضغط مُتَاصِّي: فمن كلمة المواخير، سوف يسعه أن يفعِّل الخاصِّية المتضمَّنة في أن تكون أماكن قذرة.

وبعد أن يكون (القارىء) قرأ ٣و ٤، تراه يجري بعضَ العمليات المعقَّدة تعقيداً بيِّناً. أما شكل موسوعة القارىء فيتيح له، على الأرجح، أَنْ يحوزَ تصورات حولَ اسطمبول وليس حولَ شارع إلبانوز وحَيّ پيراه. إذاً، قد يحمله ذلك على تفعيل كل ما يفيد منه للإلمام باسطمبول.

فمن جهة، يتبيّن أنها مدينة تركية، وهي مرفأ بحري، وبوَّابة الشرق (ولسوف يحتفظ في تصرفه ببعض السيناريوات التناصِّية حول هذه المدينة المشرقية، باعتبارها موضعاً للمتاجراتِ الملتبسة؛ أما بالنسبة لقارىء يتهيَّأ لسيناريو سينمائي، فإنَّ سيناريوات بصرية وموسيقية يتم تنشيطها لديه للتو). والحال أن الضغط المُتَاصِّي يشير لَهُ (القارىء) بواجب أن يفعِّل أَبْعادَ إسطمبول، بصورة خاصة؛ والواقع أنه ينبغي لَهُ تحقيق عملية منطقية، تكون بمقتضاها اسطمبول ـ المدينة أكبر من حَيّ، والحَيُّ أكبرَ من شارع. والقارىء (إذ يضع المصاديق بين الأقواس، أي إذ يتساءَلُ عما إذا

كان حَيّ پيراه موجوداً حقاً، وعما إذا كان في اسطمبول شارع يدعى ألبانوز) يروح يبني عالماً حكائياً مجهَّزاً بأفراده الثلاثة هؤلاء الذين وُضِعوا في تراتبية وفق علاقات مكانية معيّنة. تلكَ هي حالة حيث لا يزال يجري تفعيل البُنَى الخطابية وتفعيل بُنَى العوالم كلاهما على المستوى عينه وبصورة متوازية. وعليه فإنَّ القارىء يكون طَرح طرقاً في تبيان الهوية: پيراه هو في علاقة ل ـ ضرورية بألبانوز ستريت [أو شارع ألبانوز] (بصورة تناظرية)، والاثنان يجدهما مترابطيْن بعلاقة ل ـ ضرورية مع اسطمبول (التي، بحكم انتمائها إلى الموسوعة، كان كشف عن هويتها، وما عادَتْ تتطلَّب علاقات ل ـ ضرورية؛ أنظر، الفصل ٨ـ ١٤).

أما الآن فقد حانَ تبيان هوية الراوي دونَ التباس ممكن. وعليه فإن المقطعَيْن ٥ و٦ يتدبَّران الأمر. فالراوي هو ذلك الـ س الذي، في لحظة معينة، كانَ شرع في النوم في مكان سبق تفعيله وبات (فعل النوم) مرتبطاً به (الراوي) في علاقة ل ـ لازمة. وتجدر بنا الإشارة إلى أن المترجم أتمَّ، ههنا، عملية تعيين كانَ النص الأصلي تجنّبها. والواقع أن النص الإيطالي يقول ـ **في أحد هذه (المواخير)** ـ في حين يكتفي النص الانكليزي بكلمة [there] أي هناك: وذلك ربما كانَ شارع ألبانوز، في حَيّ پيراه أو في اسطمبول. ولكنّ للمترجم الحقّ، بطبيعة الحال، لأنه يجري الاستدلال التالي: إذا كان الراوي قد سمّى لي بدقّة عالية، اسمَ المدينة، ولم يكتفِ بذلكَ، بَل ذكر لي اسم الحَيّ والشارع أيضاً، وإذا كان شرع في ذلكَ مركّزاً على الماخور، فإني لا أرى سبباً موجباً، بعد كل هذه التفاصيل، يلزمُهُ أن يقول لي إذا كانَ ينامُ في موضع لم يكن ماخوراً. موافق، فالنص الأصلي يمكن أَنْ يوحي بالتالي: «المواخير الأشد كراهةً في أوروبا إنّما هي في شارع ألبانوز، وفي هذا الشارع بالضبط كنتُ أَشرع في النوم، وليس بالضرورة في أحد هذه المواخير»؛ ولكنَّ قاعدةً **تحادثيةً** يُشرع بها تفترض أَنَّ الراوي ينبغي لَهُ أَلاّ يكون أكثر إبانَةً وأيضاحاً مما يتطلبه الوضع. لهذا السبب يكونُ استدلالُ المترجم صحيحاً أقلّه من الوجهة التداولية والتحادثية، إن لم يكن من الوجهة الدلالية؛ إلى ذلكَ، فإن الاستدلالَ الآنف يتم إثباته في ٧، حيث نعلم أَنَّ البَطَل كان ينامُ إلى جانب مومس. ولو كان الراوي شاء أن يقول، لئن كان (البطل) في

in uno di questi (casini)

conversationnelle

فردوس المواخير، فإنه اختارَ الصرحَ المحترمَ الوحيدَ من شارع ألبانوز، لكانَ خَصَّ ذلكَ القولَ بالنصِّ الكامِلِ.

لسوفَ نتركُ جانباً التدقيقَ في شأن الصباح (الواقع) في آخر الصيف: إذ لن يُشهد لَهُ بروزاً حكائياً إلاَّ في الصفحاتِ التالية التي لن نحللها الآن. ونظيرُهُ في ما خَصَّ السنة ١٩٥٢، التي تصحُّ إلى حينه بمثابة تعيين عام فحسب: «في زماننا الراهن». أما هذا فَلَنْ نجد لَهُ وظيفة إلاّ في الفصولِ اللاحقة: إذ يكتشف القارىء أنّ الرواية تروي قصةً منَ الحرب الباردة.

ومن جهة أخرى، يبدو لنا المترجم معذوراً إذ يهمل تسجيلَ أنَّ المومس تركية الجنسية: فهو يتصرَّف باعتباره قارئاً سويّاً يرى إلى ذلكَ أمراً مطنباً للغاية طالما أنّنا نلفى أنفسنا (من خلال النص) في اسطمبول. يسعنا الاعتقاد أنَّ النص الانكليزي، من الوجهة الخطابية، كان يقصد إلى إضافة تضمين محقِّر، وهذا مما يمكن إثباته من خلال المقطع ٨. أما المقطَعُ الأخير فلن نخضعه للتحليل، لَيسَ حياءً، بل لأنَّه يطلقُ آلياتٍ من الترمّز البلاغي العالي وسيناريوات تناصّية هي أكثر تعقيداً بما لا يقاس. ثمة تماثل، ومبالغة، وإحالة إلى سيناريوات مشتركة حولَ ظروفِ مومساتِ الموانىء الطبية النسائية وإحالة إلى سيناريوات تناصّية حولَ أسلوب المسلمين المجازيّ... باختصار، ثمة الكثير منَ الموادّ. ولنقُلْ إنه قد يلزم القارىء النموذجي بأن يدركَ أن المومسَ هي عجوز ومقيتة غير أنّها مفرطة في إظهار مفاتنها، أقلّه. ومرّةً أخرى، تجد الراوي وقد خرج من هذا كله، عبرَ استدلالات يسيرة، **بدلالة تبعيّة**[2] شأنَ فردٍ ذي ذوق سوقيّ (أو شاذّ شذوذاً ملطّفاً).

hypercodage rhétorique

Connoté = ذا دلالــــة تبعية.

في ٧، نقف على أمر أكثر أهمية: فالراوي باتَ معيَّناً هنا نهائياً بعبارات تعود إلى الحكاية؛ حتّى صار (الراوي) مرتبطاً بسلسلة من العلاقات ل ـ الضرورية، بالمكان في المقام الأوّل، وبعفّتْ في المقام الثاني. أما فيما خَصَّ عِفّتْ، فقد ثم تعيينها دونما التباس على أنها هذه المومس الفريدة التي كانَتْ تضطجع، في صبيحة ذلك اليوم من العام ١٩٥٢، مع هذا الفرد في ذلك الموضع. والحال أننا لا نزالُ نعرف النزر اليسير عن هذا الـ س الذي يروي، غير أننا صرنا، من الآن فصاعداً، لا

نخلطه بأي فرد آخر. فإذا هَمّ هذا الأخير بإعلان الحاثّ ـ على الفعل غير المتوقّع التالي: «ما الذي قد يحدث إن لم أكن اليوم في ماخور قائم في شارع ألبانوز إلى جانب عِفّتْ؟»، فقد اقتضى لنا أن نتكلم على عدم بلوغيّة تامّة بين العالم الحاث ـ على الفعل والعالم المرجعي، لأنّه لن يكون لنا، آنئذٍ، أية خاصّية تتيح لنا الكلام على أيّ شكلٍ من هوية ما.

وفي المقطع ٩ نقف على أمر هام من الوجهة النصّية، في حين تجعلنا التبايناتُ القائمة بين النص الأصلي والترجمة ندرك أننا نقف بإزاء عقدة تعاضديّة هامة.

في بادىء الأمر، يقولُ النص (الانكليزي) الأصلي أنَّ صراخاً مباغتاً سُمِع لدى الباب، بينما يعتبر المترجم أنَّ الراوي وعفّت هَبّا من نومهما مذعورَيْن. إن الاستدلالَ الآنف قابل للشرح: فإذا كان أحدهم يروي تجربة شخصية قائلاً إنه كانَ يشرع في النوم وحصل بعد ذلك صراخٌ، فهذا يعني أنَّه قد سمع هذا الصراخ، ولكن لما كانَ لا يزالُ نائماً، فقد لزم أن يكون أُوقظ قبل إطلاق الصرخة أو أثناءَها بالضبط؛ ومن المحتمل (سيناريو مشترك) أنْ تكون الصرخةُ قد أيقظته (مثلما أيقظَتْ عفّت، طالما أنها راحَتْ تنتحبُ بصوتٍ عالٍ في ١١). حتّى أنَّ المترجم ارتأى أن يدخلَ في البنية الحكائية العميقة سلسلةً منَ الأطوار الزمنية المنتظمة التي لم يكن النص الأصلي يعبّر عنها: بادىء الأمر س يكون نائماً، ثم يطلق أحدهم الصرخة، ومن ثم (إلا أن ذلك يستلزم جزءاً من ثانية) يستيقظ هذا الـ س. وإلاَّ، فلماذا ينبغي أن تكون الصرخة «مباغتة»؟ مباغتة لمن؟ بالطبع لمَنْ كان أوقظ: ذلك أنَّ الصرخة ما كانت لتكون مباغتة، إنما هي التجربة التي كان لَقِيها النائمُ منها. ولو كانَت كلمة [Suddenly] «فجأةً» الحالية تعود إلى الصرخة، لكانَتْ **انقلاباً في الكلام**. Hypallage

ليس هذا منتهى الأمور بعد. فالنص الأصلي يقول بأنه حصل صراخ لدى الباب، وقد أعقبه طرقٌ على الدرج أصم. وقد استدلّ المترجم من ذلك سلسلةً من العملياتِ المنتظمة في الزمانِ والمكان: أُطلق الصراخُ، على حَدّ ترجمته، عند باب المدخل في الطابق الأرضي، ثم سُمِعَ ضجيجُهُ (نقلت هنا بكلمة [Scalpiccio] ـ أو خبط أقدام ـ)

على امتدادِ الأدراج التي تفضي إلى الغرفة حيث كان الاثنان لا يزالان نائمَين. وتجدر الإشارة، ههنا، إلى أنَّ تأويلات ممكنةً أخرى تجوزُ، بحسب النص الأصلي: (I) أُطلق الصراخُ عند باب الطابق الأرضي من قبل دخلاء، شرعوا يضربونَ أحداً كان يقطع عليهم الطريق، فأسقطوه أرضاً وأحدثوا بذلكَ ضجيجاً أَصمَّ لدى درجات السلَّم الأولى؛ (II) أطلقَ الصراخَ، عند الباب، أحدهم من المنزل أمام باب الغرفة، ثم ضرب أحدهم هذا وراحَ يهوي على درجات السلم الأولى، محدثاً عليها ضجيجاً أصمّ؛ (III) أطلق الصراخَ أحدهم من المنزل أمامَ باب الغرفة، ثم ضُربَ هذا الأخير فراح يَهوي على السلَّم. وقد يسعنا أن نمضي بعيداً. إزّاءَ هذا الأمر ما الذي كان ارتآه المترجم؟ لقد لجأ إلى سيناريوات مشتركة، فأدرك على هذا النحو أَنَّ بيتاً للدعارة يكون لَهُ بابٌ مطلٌّ على الشارع، ومن ثم درج يفضي إلى غرف للإثم، قائمة بعامّة لدى الطوابق العليا. وها أَنَّ المترجم (الإيطالي) ينقل [Scream] (وهي تعني بالعربية «صاح»)، إلى الفعل في الإيطالية «strilli». ولئن كان ذلك صحيحاً، فإنه يبدو لنا أَنه أَضاف إلى الفعل المنقول دلالةً تبعيّةً بالأنوثة. إذاً، يكونُ الاستدلالُ المضمَرُ في الترجمة، على هذا النحو: كان الدخلاءُ وجدوا مدبِّرة الماخور أمام الباب، فصرخَتْ، ودَخَل هؤلاء منَ الأسفل، وهاهم الآن يتسلقون الدرجَ الذي يفضي إلى الغرفة (حيث يوجَدُ باب ثانٍ بالتأكيد). وعليه فإن قصة هذَيْن البابَيْن من شأنها أَنْ تنبهنا إلى أن الترجمة (والقراءة)، تعني إقامة بُنًى لعوالم، مع أفرادٍ معنيين بهذه الأخيرة. ههنا، يبدو البابُ القائِم في الأسفل هاماً، في حين أَنَّ البابَ الأعلى يبدو أقلّ منه أهمية (وإن ارتسمَتْ ملامحُهُ في ١٤، فقدْ يُحتمل أَنْ تفتحه الشرطة عنوةً). ولكنَّ الأكيدَ أن البابَ المبيَّنَ في التجلي الخطِّي ليسَ بابَ الغرفة، وهذا تثبته واقعة أَن الصراخَ كان حصَلَ لدى الباب في بادىء الأمر، ومن ثَمّ تبدَّى الضجيج في الدرج. ولكن بشرط أَنْ نقرر بأن الضجيج إنما هوَ من خبط أقدامٍ وليسَ صدم سقوط... بالإجمال، إليكَ مثلاً كيف أَنّ عبارة تبدو، في الظاهر، مسطَّحة وحرفيّةً تحمل القارىء على اتخاذ سلسلة من القرارات التأويلية. والحقُّ إن النّصَّ آلةٌ كسولة توكِل إلى القارىء بالجزء الأكبر من عملها.

على هذا النحو، قد يجد القارىء المقطعَيْن ١١ و١٣ أكثر تعقيداً. لـمَ تنتحب عِفَّت فتلفظ الجملة ١١؟ وعليه فقد يعتبر القارىء لزاماً أن يجري الاستدلالاتِ عينها التي ينسبها النص إلى عفَّت: فمن قالَ بوصولِ عنيف وضاجٍّ فقد عَنَى بذلك وجود الكثير من الناس؛ ومَنْ قالَ بأنَّ كثيرين من الناس غزوا ماخورَ المرفأ، يعني أَنَّ هؤلاءِ بَحَّارة؛ ومن قالَ بَحَّارة في مرفأ متوسِّطي، عنى بهم بَحَّارة من حلف الأطلسيّ (OTAN)؛ ومَنْ قالَ بَحَّارة وصلوا بغتةً، عَنَى بهم بحارة أسطول بحريّ غير وطني؛ وهؤلاء قد يكونون، وفقَ قانون القياس الاحتمالي، أميركيِّين. إلى ذلك، يجد المرءُ في ذلكَ العديدَ من الكنايات (الأسطول البحري الأميركي كناية عن بعض البحارة الذين يشكلون جزءاً منه) إلى بعض المبالغات (كل الأسطول البحري! لا نبالغَنَّ في هذا!). ثم إنه يوجد نظامٌ ثانٍ من الاستدلال: حتّى بالنسبة لامرأةٍ دنيوية محضة صاحبة فرج واسع...، فإنّ البحرية كُلَّها، أو وفداً كبيراً منها لأمر يفوقُ الحَدَّ؛ وفي آخر الأمر، ثمة السيناريوات المشتركة والتناصّية: حين يَهمّ البَحّارة بالنزول إلى الشاطىء، ويندفعون إلى المواخير، كيفما اتّفق... وفي آخر المطاف، فقد يتبدَّى الوضعُ، لذلك القارىء، مثاراً للهزء والضحك، مع كونه تطلَّب تفعيله تعاضداً جبّاراً، من قبله. إلى ذلك، تجد القارىء وقد تنبّه إلى أن النص يركّز أوصافَهُ، بصورة ضمنية على عفّت، فيصورها وهي في كامل بؤسها، مومساً عجوزاً عاينَتْ من الناس أصنافاً وألواناً، وباتت تعرفُ بالخبرة كيف تجري الأمور.

وهذا ما يُدعى في العربية، كناية الكُلّ عن الجزء.

A Dieu vat...

ولكن، أيكون صحيحاً أَنَّ عفَّت راحَتْ تنتحب يأساً؟ ذلك هو تأوُّل المترجم، في حين أَنَّ بعضَ محدثينا من الأميركيين أبدى لنا ملاحظته في أن التأويل يمكن أن يكون مختلفاً: إذ قد يعني فعل [Moaned] الانتحاب ألماً مثلما قد يعني الصراخَ لذّةً، وعليه فإن الـ [آي، آي، آي] قد يكونُ تهليل انتصار بحيث أَنَّ عفَّت في ١٣، ما كانَتْ لتغطّي رأسَها بالغطاءِ لزاماً، على حَدّ ما تنقله الترجمة الإيطالية؛ والحق أن النص الانكليزي يوحي بأنَّ لعفَّت القدرة على تحريك الغطاء أبداً مثلما تلوِّح بحجابٍ أو راية. وللحقّ فإن عفَّت لا تني تفقد، في الصفحات

التالية، كُلَّ وظيفة حكائية لها، وبالتالي فإنّ القرار التأويلي الذي يصيرُ موضع نقاشنا لن يتعدّى بأهميَّته المآلَ الآتي: أيّاً كان مستوى النقاش، فإن ذلك لن يقوى على رفع الالتباس عن العقدة..

بعض الكلمات حولَ الكلمة [hauling] (جاذبةً، بالمعنى الحرفي للكلمة): ثمة دلالات تبعيَّة عصية على الشكّ حولَ كلمات حجاب، وطيران، والزينة الكبرى بالرايات، غير أَنّ ذلك يمكن أن يكون بمثابة استعارة تهكمية؛ فلما انتابَ الخوف عفَّتْ، شاءَتْ أَنْ تغطي رأسَها، أشبه بالنعامة. والغطاءُ، في هذا السياق، كانَ دُلَّ عليه بالانكليزية بكلمة [Flyblown]، فباتَ تحفّ به الهوامّ، ويملؤهُ الذباب، متسخاً، مثيراً للقرف. إزاءَ هاتين العبارتين عمد المترجم، وفي سعيٍ منه إلى أن يظلَّ ثابتَ الأمانة للنظير، الخوف، إلى إسقاطِ هذه التفاصيل.

وهي تعني بالانكليزية «الذبابة ذات البيض»

ولكن المسألة الأشد أهمية هي أن يعرف المرء من أين تأتّى لنا هذا الغطاء: الغطاءُ، the sheet، ذلك هو بالضبط وليس غيره. إنَّ إجابة أيّ قارىء، حتّى أشدهم تجرداً من المعرفة، تكون على حالٍ (منَ البداهة الجمعيَّة) بحيث تسوِّغُ صحّة النص: ذلك أنه من الجليّ أن عفَّت تنام، إذاً فهي تنام في غرفة وفوق سرير، سرير وفراش، مخدَّة وغطاء، وحتى أنّ لها غطاءيْن، إنما واحد لكي يتسنّى للنائم رفعه... بالطبع، تلك هي الحالُ. ولكن حَتّى يتمَّ تفعيل النص عى هذا النحو، اقتضى لنا أَنْ نفترض أَنَّ القارىءَ كانَ أوَّن السيناريو المشتركَ «غرفة النوم». ولنفرض أَنْ تكونَ الفقرة ١٣ مقترحة على آلة ناظمة ذات معجم، وليس على مجموع من السيناريوات متماسِكٍ (ومن بينها سيناريو «ماخور» و «غرفة نوم»). وعليه قد يتسنى للقارىء أَنْ يُؤوِّن واقعَ وجود امرأة قيد النوم ـ بيد أنها بمقدورها أَنْ تنامَ أرضاً أو في كيس للمنامة ـ وأنّ ثمة غطاءً يبيِّن للنّصِّ هويته بصورة غريبة، من خلالِ أداة التعريف، كما لو كانَ استوجب الاقتضاء أن سبَقَ ذكرهُ.

غير أن ذلك لَنْ يتيح الإقرار بالمصدر الذي كان صدر عنه الغطاء. والقارىءُ النموذجي وحدَهُ يدرك أَنّ المواخير منتظمة في غرف فردية، مؤثثة وفقَ ترسيمة جاهزة معينة (أو سيناريو مشترك) وأَن ليسَ به أيّ تردّد

حيال تبيان هويّة هذا الغطاء: فالأخير، بحسبه، يعود إلى صنف الأغطية، التي من شأنها، في كل سيناريو، أَنْ تغطّي سريراً. وهذا هو الغطاء بالذات ما يكون في علاقة ل ـ ضرورية مع عفّت. إذاً، الغطاءُ هو موضوع طالما أنه باتَ قائماً، الآن، في السيناريو.

ونصل إلى الفقرة ١٤. هنا يتبدَّى النص الأصليّ مقتضباً. فبعد أن يكونَ صَوّر النصُّ مسبقاً عالَم عفّت الممكنَ المسكونَ بالبحرية الأميركية، وبعد أن يكون أتاح للقارىء أَنْ يشاركَهُ هذا التوقع، يعمد (النص) إلى وضع حالة قسم الحكاية الأخير هذا، أي العالم (و ن) «كما هو»، موضع المعارضة. فلقد كانت الضوضاءُ كلها صادرةً عن الشرطة. وعليه فقد اقتضى لعفّت وللقارىء أَنْ يغادرا عوالمهما الممكنة: والأفرادُ الذين لبثوا يسكنونها، حكائياً، لا تقوم لوجودهم قائمة. وقد يسعنا القول إن عالم ظنون عفّت يظلُّ قابلاً لبلوغ عالم الحكاية: لئن كان مأهولاً ببحّارة فائضين، فإن الأفرادَ المتبقّين الآخرين (ماخور، درج، إسطمبول) يلبثونَ هم أنفسهم. إذاً، لا يجري القارىء ههنا، مصادمةً بين عوالم ولا يعلي من شأنها في سبيل تنمية الحكاية، بل لا يعدو كونه لعب توقعات يؤديه على مستوى البُنى الخطابية؛ ومَنْ يصوغُ اختصاراً أخيراً للكتاب قد ينسى التباس عفّت الآنفَ، أبداً شأننا في «مأساة باريسية حقاً» إذ ننسى بيُسرٍ أنه في الفصل ٢ ظنَّت مرغريت أن راوولَ مضى ينظر إلى الآنسة مورينو نظرة مِلؤها الرغبة.

والمترجم، على أي حال، يلحظُ الاختلافَ بين العوالم ذات [Invece] ـ أي بالعكس ـ : في شكلٍ يضادُّ مدار عالم عفّت الممكن.

لدى هذا الحدّ، ينتابُ القارىءَ الشعورُ بأنه حيالَ فاصلة من الاحتمالية بالغة الأهمية. فما الذي تريده الشرطة حقاً من جوّابِ البحار السبعة؟ لربما دخلنا، على هذا النحو، إلى صلب الحكاية الحيّ. غير أَنَّ القارىء، كان لا يزالُ إلى حينه يهبُ من ذاته لكي يجعل النّصّ «يتكلم». ذلك أَنَّ نصاً ليسَ بلّوْراً حقاً. وحتّى إذا كان كذلك، فإنّ تعاضد قارئه النموذجيّ يشكّل جزءاً من بنيتهِ الجزيئيّة.

هوامش

(١) النصُّ التالي جرى تفريعه، في الإيطالية كما في الإنكليزية ـ وفي ترجمتيه الفرنسية والعربية ـ إلى «مقاطع». بيد أن التفريع لا يعكس أية فرضية حولَ وحدات النصّ الصغرى المعتبرة، ووقفاتِ القارىء، وعقد فاصلةِ الاحتمالية: إنما يستجيب (التفريع) لمتطلبّات العرض الذي نزمع القيام به، فحسب. إضافة المترجم للإيضاح.

(*) أردف بهذين النصّين ترجمة فرنسية من شأنها أن تنقل حرفياً الترجمة الإيطالية.

(* *) أضفنا لهذه النصوص الثلاثة، الترجمة العربية.

١١ ـ تطبيقات: «مأساة باريسية حقاً»(١)

١١ـ ١ـ كيف يُقرأ ما وراء النصّ:

Méta-texte، أي ذلــــك الذي يتعدّى حدودَ النّصّ الأوّل، لمجرد كونه كلاماً عليه وتأوّلاً له.

لربّما بدَتْ قصة «مأساة باريسية حقاً» لمؤلفها ألفونس ألّيه، والصادرة عام ١٨٩٠ في سلسلة «القِط الأسود»، للقارىء السطحي مجرَّد لعب خبيث، أو تمريناً أدبياً لذرّ الرمادِ في العيون، أم شيئاً هو على الحدّ الوسط ما بينَ نقوش إِشِر وقِصص بورخيس (وفي الحالين، قد تكون ـ على حدّ اعتباره ـ **ما قبل الأدب** بجرأة). ولنَهبْ ألاّ تكون سوى ذلك. فلهذا السبب عينهِ استوجب أنْ يُرَى إلى النص المذكور بعينٍ من الاعتبار على أنه نَصّ حكائي يحوز من الشجاعة ما يجعله يروي قصتَهُ المخصوصة. وفي آخر الأمر، لا تعدو القصة أنْ تروي حكاية بائسة، وتلك من متبّلات التجربة. ولما كان هذا البؤسُ إنما خَطّط لَهُ المؤلفُ نفسُهُ بعناية، فقد باتَت قصة «مأساة باريسية حقاً» لا تمثّل فشلاً، إنما تشكّل نجاحاً لما وراء النص..

antelitteram

والحال أن قصة «مأساة..» كانت قد كُتِبَتْ لتُقرأ مرتَين (أقلّه): فإذا ما اقتضت القراءة الأولى قارئاً بسيطاً، عمدت القراءة الثانية إلى اقتضاء قارىء ناقدٍ يكونُ قادراً على تأويل فشل المبادرة التي قام بها الأوّل. إذاً، إليكَ مثلاً نَصّاً ذا قارىء نموذجي مزدوج.

وفي سبيل أَنْ نشرع في تحليلنا، نفترض في المقام الأول أَنَّ قارِئنا كانَ قَرأ قِصة «مأساة باريسية حقاً» (أنظر الملحق I)، مرة واحدة وفي سرعة قراءة عادية. وعليه فإننا نجري، في الواقع، حسابَ زمن القراءة

الذي قد يستغرقهُ القارىء البسيط إذ يتركُ في الظلّ العديدَ منَ القرائن الهامّة مرصودةً للقارىء الناقد. وعليه، فقد نرى أن نجري قراءة ثانيةً، مسوقَةً على حساب الأولى، وهي تكون تحليلاً نقدياً لقراءة «مأساة» قراءةً بسيطة. بالمقابل، ولما كانت كل قراءة نقدية تمثيلاً وتأويلاً لإجراءاتها التأويلية المخصوصة، فقد جُعل هذا الفصل أيضاً، وبصورة ضمنية، تأويلاً يطاولُ القراءة النقدية الممكنة (الثانية) التي تناولت القصة. لربما كان هذا المطلع ملتبساً، ولكن فليطمئنّ بال القارىء: ذلك أن «المأساة» أعقَدُ مما يتوقّع بكثير.

إن (قصّة) «مأساة باريسية حقاً» هي ما وراء ـ نَصّ يروي ثلاث حكاياتٍ على الأقل، وهي: ما يحدث **لشخوصها المأساويين**، وما يحدث لقارئها البسيط، وما يجري للقصة عينها من حيث كونها نصاً (ولما كانت هذه القصة، في العمق، قصّةَ ما يحدث لقارئها الناقد). إذاً، لن يكون هذا الفَصل تنميةً لقصة ما يحدث خارج قصّة «مأساة..» من حيث كونها نَصاً (فمغامراتُ قرّائها الأمبرّيقيين تنال القليلَ منَ عناية وجهة نظرنا: لمن الجليّ أنَّ نصاً غايةً في الالتباس، على هذا النحو، يكون عرضةً للعديد من الاستخدامات والتضليلات، إلى الكثير مِنَ الامتناعاتِ عن التعاضد)، فإنْ هوَ إلاَّ عرضٌ لقصة المغامراتِ التي تجري لقرّاءِ «المأساة» النموذجيّين.

dramatis personae

١١ـ ٢ـ استراتيجية لما وراء النص:

Stratégie Métatextuelle

حين يبلغُ قارىء «مأساة» الفصل السادس منها (القصة) لا يعودُ مدركاً مآلَهُ فيها. إذ لا يعقل أن يسوّغ (المؤلّف) وجودَ الفصلين ٦ و٧، بعباراتٍ حدسيّة، ما لم يضطلع بواقع أنَّ الفصولَ السابقة مضَتْ تصادرُ على قارىء قادرٍ على طرحِ الفرضياتِ التالية:

(I) في ختام الفصل ٤، قد يفترضُ بالقارىء الساذج الارتيابَ في أنّ راوول ومرغريت قرّرا الذهابَ إلى الحفلة الراقصة متنكّرَيْن، الأول في زَيّ فارسِ الهيكل، والثانية في هيئةِ **جذعيّة** كونغولية، وكُلٌّ راحَ يعمل في غاية أنْ يباغتَ الآخر في حالة تلبُّس بجريمة الزنى.

جذعيّة: زورق يُصنع بتجويف جذع شجرة.

(II) أثناء قراءة الفصل ٥، قد يستوجب على القارىء الساذج

الارتيابَ في أن القناعَيْن اللذَيْن يشتركان في الحفلة التنكرية إنما حاملاهما هما راوول ومرغريت (وقد ينبغي له الارتياب أقلّه في أربعة أشخاص، هامِّين للفعل، يشتركونَ في العيد، وهم مرغريت وراوول وشريكاهما المفترضان).

ومن أجل أن يطرح المرء هاتين الفرضيتَيْن، كان ينبغي لَهُ أَن يطرح مبدأ أَنَّ كِلا الزوجَيْن قرأ الرسالةَ التي كانَ تلقّاها كلٌّ منهما، وإلاّ لما كانَ أدرك كلاهما الهيئة التي تنكّر بها الخصم الذي وجب عليه أن يحل محلّه؛ والحال أَنّ النص لا يقوّي جانبَ هذه الفرضية، بل إنه لا يلبث أَنْ يستبعدها صراحةً: ولكنَّ ذلك لا يقوم بشيء، فالقارىء الساذج يتصرّف وفقَ القاعدة العامة، على النحو الذي تثبته المراقبات التجريبية التي أُجرِيَت على العديد من القرّاء.

والخلاصاتُ تعدُّ منْ هذا القبيل، من مجموعِ المراقباتِ الآنفة: «راوول يتلقّى رسالة يُقال لَهُ فيها أن مرغريت، المتنكرة في زَيّ جذعيّة، سوف تلتقي بعشيقها المتنكّر في زَيّ فارس الهيكل» (والعكس بالعكس). والواقع أنّ هذا النمط من التأويل الساذج، الذي كان أُجريَ على إيقاع القراءة السويّ، هو بالضبط ما كان «أَلّيه» استشّفه حين مضى يُعدُّ فخّه النصّي.

وهذه جميعها، لا تردُ في سبيل أَنْ يتقدَّم المرء بفرضيات حولَ مقاصد الشخص التجريبي صَنيعَة المؤلف، إنّما ارتُئيَتْ لأنّ النص لن يؤول إلى ختامِه مثلما اختتم ما لم يكن تحدث عن نمط القارىء النموذجي هذا.

أما وإن وجب التحدث عن الاستقامة، فقد كانَ النص مستقيماً إلى حد الوسوسة. إذ لا يقول شيئاً البتة من شأنه أن يثير الارتيابَ في أن راوول ومرغريت أزمعا على الذهاب إلى حفلة الرقص التنكرية: وهو حين يعمد إلى تمثيل الجذعية وفارس الهيكل في الحفلة الراقصة لا ينبس ببنت شفة حول ما يمكن أن يُظنَّ أَنَّ المعنيَّيْن هما راوول ومرغريت؛ وفي حاصل الأمر، لا يقول، ولا مرّة واحدة، ما إذا كان لكل منهما عشيقة/ عشيق. وعليه، فإنّ القارىء هو مَنْ يأخذ على عاتقه القيام

باستدلالات خاطئة، إنه القارىء وحدَهُ مَنْ تسوِّل لَهُ نفسه القيام بتلميحات حولَ خُلُقيّة زوجيْنا هذَيْن.

بيد أن النص يفترض، بالضبط، هذا القارىء من النمطِ المشار إليه، على أنه عنصرُه المخصوصُ المكوِّن لَهُ: وإلاَّ لماذا يقولُ في الفصل ٦ أَن فارس الهيكل والجذعيّة، لما اكتشفا أنهما ليسا راوول ولا مرغريت، أطلقا صرخة ذهول؟ والحال أن مَنْ كان ينبغي لَهُ أَنْ يتولاَّه الذهولُ هو القارىء الذي كان تعلَّل بتوقّعات ما كان النص ليرضيه بشأنها... ومع ذلك، فقد سُمح لهذا القارىء، من حيث كونه قارئاً نموذجياً، أَنْ يتعلَّل بهذه التوقعات. إذاً، لقد أخذت قصة «مأساة...» على عاتقها الأخطاءَ الممكنة لأنها كانَتْ خطَّطَت لها بعناية.

ولكنّ خطأ القارىء، إنْ هو أُثير غدراً، فما تراهُ السبب الذي يدفع إلى رفضه باعتبارِهِ استدلالاً مطنباً؟ ولِمَ تراهُ يجعَلُ (الخطأ) شرعياً نوعاً ما، بعد أَن يكون رُدَّ؟

في الواقع، إننا لنجد اتِّساقاً في التناقض الذي تنطوي عليه العبرة، (المضمرة) في قصة «مأساة...»: فألِّيه أراد أن يقول لنا أَنّ لكلِّ نص، وليس نص قصة «مأساة باريسية حقاً» فحسب، مكوِّنتيْن اثنتين، المعلومة التي يوفِّرها المؤلف وتلكَ التي يضيفها القارىء النموذجيّ، علماً أَنّ المعلومَةَ الأخيرة تكون محدَّدةً من قبلَ الأولى وموجَّهَةً منها. وفي سبيل أن يبرهنَ على هذه الفرضية، عمد ألِّيه إلى حَمْلِ القارىء على ملءِ النص بمعلوماتٍ من شأنها أن تنقضَ الحكاية، فأجبره (القارىء) بذلك على التعاون لوضع قصة غير متماسكة. وعليه فإنَّ فشل «مأساة...» من حيث أنها حكاية هو انتصار «مأساة...» من حيث كونها ما ـ وراء ـ نص.

١١ـ ٣ـ استراتيجية خطابية: أفعال لسانية:

من أجل أن يبني المرء قارئاً نموذجياً، ينبغي لَه أن يعدّ بعضَ الحِيَل الدلالية والتداولية. ثم إنَّ القصة لا تني تنسج لتوِّها شبكة دقيقةً من الإشاراتِ **الداخلة في القول** والمفاعيلِ **اللاحقة بالقول**، على امتدادِ مساحتِها الخطابية.

أي حالَ قراءتها وأثناءَها.

Illocutoires

Perlocutoires

تسودُ النَص صيغة المتكلِّم المفرد (الراوي) الذي يشير، في كل حين، إلى واقع أَنَّ شخصاً، غريباً عن الحكاية، يشرعُ في رواية الوقائع التي لا تعتبر بالضرورة أحداثاً حقيقية، وقَدْ فصَلَه عن الرواية هذه مدى من التهكُّم. على أنّ هذه التدخلات المثقلة، التي يروح يجريها فاعل التلفظ تشترط بصورة مواربة (ولكن من غير التباس، وأيّاً كان ضئيلاً سعيُ القارىء إلى التثقّف من موسوعته بمعطياتٍ من الترمّز البلاغي ـ الأسلوبي العالي) عقداً متبادلاً من حَذَرٍ لَبِق: «أنتم لا تصدقون ما أرويه لكم، وأعرف أنكم لا تصدقون ما يُقال ههنا، ولكن لما كان هذا الوضع قائماً، أدعوكم أن تتبعوني بإرادة تعاضدية طيّبة، كما لو كنتُ شرعت في قول الحقيقة لكم». وتلك هي تقنية «التظاهر باعدادِ إثبات» على حَدّ ما عَرَّف به سيرل (١٩٧٥) والتي تنطوي، تحديداً، على وضع المصاديق بين أقواس وضعاً تمهيدياً ومؤقتاً.

وإنفاذاً لهذا الأمر يضع القارىء النموذجي في التداول بطّارية من العباراتِ المرمّزة ترمّزاً بلاغياً أعلى، وذلك لإنجازِ هذا العقدِ الاستيثاقيّ الملتبس:

ـ [في العصر الذي بدأَتْ فيه هذه القصة] هو مؤشر تخييلي أشبه بـ «كان ذات مرّة»؛

ـ [اسم جميل (للتعلقات) الغرامية] إنما تحيل إلى اصطلاحاتٍ أدبية مرمَّزة ترمّزاً أعلى، أعني بها اصطلاحاتٍ من طبيعة رمزية؛

ـ [طبعاً] إنما هي طرفة عين تعني «كما بتُّم تعرفون، وفقاً للكثير من السيناريوات التناصّية»؛

ـ [راوول، قلتُ...] هي عبارة، شأن الكثير من العباراتِ الأخرى، تعاودُ إثباتَ حضور الراوي بغية إزالة انطباع الواقعِ (أو الواقعية)الذي قد يتسنى للقصة أَنْ تحدثَهُ؛

ـ [كان ذلك مدعاةً للظنّ أَنَّ....] يكادُ يكون دعوةً للقارىء أن يتقدَّم بافتراضاتِه المخصوصة، أبداً على غرار ما يتقدَّم المؤلِّف بافتراضاتِه، مساهماً بذلك في القصة؛ إنها بالإجمالِ دعوة لَهُ إلى البحث عن ترسيمات حكائية قائمة تحت البنية الخطابية.

يمكن أن يستمرَّ هذا التعدادُ إلى أجلٍ، إلاّ أنَّه يكفي القارىء أن يعاود قراءة النص حَتّى يسعه تبيان هوية كلِّ حجج التلفّظ هذه.

والنص يُسقِطُ قارئَهُ الساذج وذلك لكونه (القارىء) مفرطاً في قراءة قصص الزنى البورجوازي التي تعود إلى نهاية القرن (١٩) وقد اشبع مخيلته **بكوميديا** (ملهاة) **البولڤار** وبقصص «الحياة الباريسية» المتفرقة. ثم إن النص يكشف ميولَ هذا القارىء إلى الانقلاب الفجائي، ولا يتوانى عن إظهار طبيعة «الزبون» التي تحثّه على الدفع لقاءَ حصوله على سلعٍ طيّبة المذاق: [محض فصلٍ قد يهبُ الزبائنَ]، عبارة ظهرَتْ في عنوانِ الفصلِ الثاني، وهي تذكرُ بالجُمَل الأولى في رواية «توم جونز» لمؤلفها فيلدينغ (مؤلف كانَت تجولُ في خاطرة فكرة محدَّدة تحديداً مضبوطاً: الرواية إن هي إلّا سلعة معدَّة لتكون في السوق):

آثرنا تعريب الكلمة Comedie du boulevard كاملةً باعتبارها دالةً على نوع مسرحيّ باتَ شائعاً في العربية بهذه التسمية المصطلح عليها من الفرنسية.

«ينبغي للمؤلف ألا يعتبر نفسه مثل رجلٍ شريف يستقبل الناسَ في حوزة خاصة أو يؤدّي إحساناً، إنَّما شأنَ إداريّ يتدبَّر محلاً عاماً حيث كل امرىء يلقى الترحاب على قدر ماله...».

وهؤلاء الزبائن هم الأعضاءُ في حفلٍ من المستمعين يدفعونَ لقاءَ حضورهم وإصغائهم، وتراهم مستعدِّين للإعجاب بحكاية مبنية وفقَ وصفاتٍ مضمونة. وعليه فإن الفكرة التي باتت عنوانَ الفصل ١، مع الإيراد المأخوذ من رابليه، تشير إلى كلمة [challan] وهي تعني «الزبون» بصورة دقيقة.

في حين أنَّ عنوان الفصل ٣ [أنتُمْ مَنْ تتظاهرون بالمكر] تراهُ يهزأ بالقارىء المفترض الذي كان تعرَّف إليه على أنه أحد أولئك الذين يتوقعون حكائيّةً مبنيةً وفقَ سيناريوات شائعة. فلأجل هذا القارىء ـ النمطي لا يتردَّدُ النص في إيراد أية عبارة في غير موضعها، وأية صيغة جديرة بالروايات المتسلسلة أو بحواريَّة جارية بين بوّاب وآخر من مثل: [وفَرَّت المسكينة، متخفية وراحَتْ تَعدو كغزالة في الغابات الكبيرة]، أو مثل: [هذه الرسائل الموجزة لم تسقط في آذانِ الأصَمَّيْن]. أما العِبرة المكرَّرة كل مرة فهي: «أتتوقعونَ قِصَّة أحاديَّة النموذج».

مع ذلك، لا يسعنا القول إن النص يمتنع عَنْ إثارة الرِّيَب حولَ استراتيجيته الحقَّة (مخاطباً بذلك قارئَهُ الثاني). ذلك أن عباراتٍ من مثل

[كان مما يدفع إلى الظنّ]، [ذات يوم، رغم ذلك.... ذات مساء، بالأحرى]، [طبعاً]، [كيف يتسنى لنا أن نلحظ ذلك] إنّما هي عبارات مثقلَةٌ بالتهكّم إلى حدّ بعيدٍ بحيث أنها تميطُ اللثامَ عن كذبها في اللحظة عينها التي تشرع فيها بفرضه. على أَنَّ هذه الستراتيجيات مما لا تتضح إلاّ لدى القراءة الثانية.

١١- ٤- من البُنَى الخطابية إلى البُنى الحكائية:

لا يوجد على مستوى الخطاب مشكلة التباس. فالشخوص مسمَّاة وموصوفة بالقدر الكافي، وبمقدور المراجع المشتركة أَنْ ترفع عنها التباسَها بيُسر، والقارىء لا يني يتعرَّف إلى المدارات الخطابية ويشرع في طرح نظائره. إذاً، لدى مستوى الخطاب الآنف، تتدفّق معطيات الموسوعة التي تكون لدى القارىء تدفقاً لطيفاً، فتملأ مساحاتِ النص الفارغةَ، فإذا عالم راوول ومرغريت يتخذ شكلاً شبيهاً بعالم القارىء (المتخيّل كونه) من العام ١٨٩٠ (أو القارىء القادر على «الصَيْد» في هذه الموسوعة).

وحدها العبارات التوجيهية تتبدَّى قادرةً على إدخالٍ بعض التعقيدات إلى الخطاب: فهي ذاتُ غموضٍ يبلغ حَدّ الإبهام. بيد أَنَّ المرء يميل، لدى القراءة الأولى، إلى إسقاطها (ألا ترى التصرُّف الآنف وليد العادة؟). والحال أن القارىء تُجرِّئُه على ذلك استراتيجية التواطؤ التي مضتْ حجَّةُ التلفُّظ في تشغيلها بأقصى طاقتها. حينئذٍ، لا أسهل من أن يقع المرء في موقف «الشفقة» الأرسطيّ، موقفَ المساهمة الانفعالية: «من خلالكَ تُروى الحكاية». فإذا كل شيء في موضعه لكيْ يثير الرعبَ، بعد الشفقة، أي لكي يكون ما ليس متوقّعاً جائز التوقُّع وفي موضعه.

de te fabula narratur

ولكن ليس صحيحاً تماماً أن تكونَ البُنى الخطابية على هذا القدر اليسير منَ الإشكالية. ولئن كانت آليّةُ المراجع المشتركة التركيبيّة نادرةَ الغموضِ، فإنَّ الآلية الدلالية التي تكون عليه **الشاهديات ـ المترافقة** ليست على هذه البساطة المظنونة. فحينَ يظهر، في الفصل ٥، آخر الأمر الجذعيّةُ وفارس الهيكل، يكون القارىء مستعداً للظنّ بأن هذَيْن إنما هما مرغريت وراوول. ثم إنَّ مرافقة ـ الشاهديَّة هذه ترجِّحُها الرسالة في الفصل ٤: حيث كانَ قيل إن راوول قد يذهب إلى الحفلة التنكرية

Co-indexicalités، أي التي ترافِقُ ظاهرة موصوفة في النص، وتدلّ عليها.

الراقصة متنكراً بزي فارس الهيكل وإن في الحفلة الراقصة فارسَ هيكل، إذاً يخلص إلى أن راوول وفارس الهيكل هما شخص واحد (والأمر نفسه ينطبق على مرغريت) من الوجهة المنطقية، حتّى ليتبدّى الاستدلال مغلوطاً بصورة تامة - كما لو مضينا نقول: الهررة هي حيوانات، وكلبي السلوقي هو حيوان، إذن فإن كلبي السلوقي هو هِرّ. بيد أن الافتراض السالف، من الوجهة الحكائية، أكثر من مسوَّغ: سبق أنْ تحدثنا عن مخطّط نموذجي ترتسم بمقتضاه صورة المجهول المزيّف، وهو مخطّط كان شديد الذيوع لدى العامة في النشر المتداول إبّان القرن ١٩ وفيه تعاود الظهور شخصية سبقَتْ تسميتها، في مطلع الفصل على هيئة تجعلها عصية على التعرّف إلى أن يكشف المؤلف عَنْ هويتها الحقيقية. تلك هي حالة فارس الهيكل في الحفلة الراقصة التنكرية، على أتم وجه. فنحن، إذ نتوقّع أن يقال لنا: «لقد حزر قرّاؤنا، فشخصيتنا إنْ هي إلّا راوول»، يفاجئنا ألّيه بمخالفته هذا السيناريو التناصي. وعلى هذا المنوال مضى كاتب هزليّ كبير، يدعى «آشيل كامپانيله»، في المطلع الجليل الذي استهل به كتابه «Se la luna mi porta fortuna»، بما معناه «إذا كان القمر يحمل لي الثروة».

(٤١) «فمن كانَ، في صبيحة السادس عشر من أيلولِ الرماديّةِ هذه. من عام ١٩٠٠، ثم دَلَف بخفّة، معرّضاً نفسَهُ للمخاطِر والهلاك، إلى الغرفة حيث يجري المشهد الذي يفتتح قصتنا، لكانَ باغته إلى أبعد حَدّ وجود هذا الشابّ الهزيل أمامه، مشعث الشعر، مجوَّفَ الخدَّيْن، وقد راح يتنزّهُ بعصبية ذارعاً الغرفة بالطولِ والعرضِ؛ شابٌ ما كان أحد ليتعرف فيه إلى الطبيب فالكوكشيو، في بادىء الأمر لأنه لم يكن الطبيب فالكوكشيو، ومن ثم لأنه لم يكن يشبهه، من قريب أو بعيد، الطبيب فالكوكشيو. ولنلحظ، مروراً، أن دهشة مَنْ كان ليدلفَ بخفة إلى داخل الغرفة التي تكلمنا عليها هي غير مسوَّغة على الإطلاق. فالرجل المذكور كانَ في منزلِهِ وكان لَهُ الحق التامّ في أن يتنزه كما يحلو لهُ، طالما أن تلك كانَتْ رغبته الخالصة».

أما الآن فلنعُدْ إلى «ألّيه»؛ فالقصة، إذ تنظر في نزهة استدلالية مشبعة

بسيناريوات جيدة، تشرع في بناء رابط بين فردين وتعمل على النحو الذي يجعل كُلَّ الضمائر المستخدمة في الفصل ٥ والعائدة إلى فارس الهيكل راجعة بصورة ضمنية إلى راوول أو إلى مرغريت. ولنكن أكثر تبييناً، إذ ليس للمرجع المشترك أسس صرفية، إنَّما له أسس **حكاءويّة**، من خلالِ توسيط عملية مغلوطة، على النهج المصداقي. بيد أنّ للمرجع المشترك هذا أَنْ يثبت كون الفرضيّات، التي يتقدم بها القارىء النموذجي في أثناء تفعيله البنى الخطابية، تؤدّي أدواراً، إلى كونها، تطرح ترسيمات حول تصوّرات مسبقة لبنَى العوالم.

Narratologiques

فضلاً عن ذلك، فإنه من المألوف،في كل نص حكائي، أَنْ تمهِّد البُنى الخطابية السبيل أمام تشكيل قضايا الحكاية الكبرى، وأن تكون منطبعة بها في الآن ذاته. وما هو فريد، في قصة «مأساة باريسية حقاً»، أَنَّ البُنَى الخطابية، لدى الفصل ٦، تترك السبيل مفتوحاً لحكايتين مختلفتين. وعليه فقد يكون ثمة مداران: قصة زنى وقصة سوء فهم، إضافة إلى سيناريواتهما التناصّية العائدة لكل منهما على التوالي؛ وبحسب المدار المنتقى، يكون لنا قصتان ممكنتان:

(I) راوول ومرغريت يتحابّان حباً رقيقاً، غير أنهما شديدا الغيرة، واحدهما على الآخر. كُلٌّ منهما يتلقى رسالة تنبئه كيف يعدّ الشريكُ نفسَهُ للقاءِ شخص غيره، فإذا مرغريت في سبيلها إلى لقاء عشيقٍ وراوول في سبيله إلى لقاء عشيقة. وراح كلٌّ منهما يسعى إلى مباغتة الآخر في حالة تلبس بجرم الخيانة الزوجية، ويكتشفان أَنَّ الرسالتين إنما تنبئان عن الحقيقة.

(II) راوول ومرغريت يتحابان حباً رقيقاً، غير أن غيرة شديدة تتملكهما، الواحد بإزاء الآخر. فيتلقى كلاهما رسالة يُبَلَّغ فيها كيف أنّ كُلّ شريك، من هذين، إنما يعدّ العدّة لملاقاة عشيقته، وعشيقها، على التوالي. ويحاول كلاهما أن يفاجىء شريكه في حالة التلبُّس بالخيانة. فيكتشفان، بالعكس، أن الرسالتين كاذبتان.

أما الخاتمة فلا تثبت أياً من هاتين الفرضيتين الحكائيتين ولا تنفي أياً منهما؛ إنما هي تثبت الاثنتين وتبيّن زيفهما. إنَّ قصة «مأساة..» تخطِّط، على المستوى الخطابيّ، لمكيدة ينبغي أن تؤتي ثمارها على المستوى

الحكائي، والتي تكمن أسبابُها لدى المستوى الأعمق بعد (بُنَى العوالم). فالنَصّ لا يكذب أبداً على المستوى الخطابي، بيد أَنه يحمل على الاستقراء التباساً في ما خَصّ مستوى بُنَى العوالم.

لقد أسلفنا القول إن مداراً خطابياً (والذي منه قد نستدل على الموضوع الحكائيّ) يُستقرأ (بأن يُصاغ منه سؤال) عبرَ سلسلة من كلمات ـ مفاتيح، تكون متواترة تواتراً إحصائياً أو موقّعةً بصورة استراتيجية. والحال، أن كلّ الكلمات ـ المفاتيح في القصة، والتي ترشِدُ الاهتمامَ إلى المدار (I) تكون متواترة إحصائياً، في حين أن الكلمات ـ المفاتيح التي ترشِد الاهتمام شطرَ المدار (II) تكون موقّعة توقيعاً استراتيجياً.

أمّا السؤالُ الأول، في هذا الصدد فهو: «مَنْ هما هذان الدخيلان اللذان يعرِّضانِ وفاء بطلينا للخطر؟» (أو بالأحرى: «هل يوفّق بطلانا، كل بدوره، إلى مفاجأة شريكه مع عشيقه أو عشيقته المجهولَيْن، على التوالي؟»). لَسوف يكتشف القارىء، بعد فواتِ الأوان، أن المدار الحَقّ إنّما كان: «كم هم الأفراد المعنيّون في واقع الأمر؟».

وفي سبيل أَنْ يباشر النَصُّ أداءَهُ بصورة جيدة، أي من أجل أَنَ يحمل المرءَ على تفعيل المدار الأوّل، تراهُ يتعاطى بالكفايات الإيديولوجية المفترض وجودها لدى القارىء الذي لا يسعه أن يتصوَّر الحياة الزوجية إلاّ مشمولةً بعباراتِ من التملك المتبادل. وعليه فإنَّ لهذا القارىء نازعاً حادّاً إلى اعتبار الجنس على أنه ملكية والزواج على أنه مجموع من الفرائض الجنسية، بحيث باتَ يتوقّع من القصة ما كانت تعد به في ما مضى، ودونما حياء، من العنوان: مأساة «باريسية حقاً أو جداً»، حيث نتحصل على شريك، وحيث نتوقَّع لَهُ، بحكم كونه «زبوناً» جيداً، أَنْ يشتغِلَ كأنما آلة جيدة (فالقانون يسري على المرأة سريانَه على الرجل، والمأساة الباريسية حقاً وجيداً إنما هي مأساة ديمقراطية ـ بورجوازية، ولا يعقل أن تكون إقطاعية).

Challan

وبالطبع، فإن النص يضع كُلَّ شيء قيدَ التداول والاشتغالِ في سبيل أَن يشجع هذه النظرة الإيديولوجية. فالزواج، إن شئنا تحليلَ المسألة من وجهة نظر موسوعية، يعني الكثير منَ الأمور: إنه عقد شرعيّ، وتوافق

حولَ شيوع الأموال (بين الزوجين)، وعلاقة قرابية تؤسس لأخرى، وعادة في المؤاكلة والمناومة، وإمكانية في إنجاب الأطفالِ المصدّق عليها من قبل القوانين المرعية الإجراء، وسلسلة كاملة منَ الالتزاماتِ الاجتماعية (ولا سيّما في باريس مطلع القرن العشرين). مع ذلك، فإن خطابَ قصة «مأساة...» لا يبرز من كلّ هذه الخاصيات سوى واحدة: عقد الوفاء الجنسي والمخاطر المتواصلة التي قد يتعرَّض لها. حين أن ظِلَّ الزنى لا ينِي يرين على الخطاب، بلا انقطاع. وقد أُحيطت الأعجومة «زواج» بأعجومات أخرى تعود بدورها إلى ميدان العلاقاتِ الجنسية: فالزواج هو صنيع «مَيْل» (حب/ اقتصاد)، ورااول يروح يقسم قسماً معظّماً بأن مرغريت لن تكون لأحد غيره، والغيرةُ جلية في كل حين. أما الفصل ٢ فهو بمثابة عيد الغيرة الكبير بلا ريب: وقد يجوز القول إن الأمر لا يعدو كونَهُ **تعبيراً ـ أكبر** للأعجومة [غيرة] أبداً مثلما هو سلوك الجنود لدى بيرس هو التعبير المتحصِّل من الأمر المعطى [قَدِّمْ سِلا ـ حَكْ!] وفي هذا الصدد، ما الذي نقولُه عن الفصل ٤ الذي يُعدُّ سلسلةً من المعارف الدلالية حولَ الطريقة التي يتمُّ بها تحقيق الإبلاغ (المغفل) عن زنى ويتم بها إنجاز مسلكٍ مراوغٍ في حالة منَ الرِيَب بوقوع الزنى، سواءً بسواء؟

Macro-interprétant

أما فيما خَصَّ المدار الثاني، أي العنوان، فهو يوحي بالطيش وبمناخ «باريسي»، ولكنه يظهر، في الآن ذاته، مبنيّاً مثل **شبه ـ طباق**، ويوحي بفكرةِ التناقضِ الغالبة: فالمأساة والملهاة الخفيفة ليستا على قدم المساواة الواحدة بإزاء الأخرى. والحالُ أن عنوانَ الفصل الأوَّل يعلن عَنْ تصوُّر سوء التفاهم (الذي قد يحصل بينَ **بطلَيْ القصة**)*. في حين أن الجملة الأخيرة من الفصل عينه تجعلنا ندركُ أَنَّ بطلَيْنا يروحان يغشّان، وأنهما إنّما يخدعُ الزوجُ الآخر أو يخدعان ذاتَيْهما، وأنهما يقومان بأمر في أملِ الحصولِ على عكسه. وفي هذا الصدد لا يني عنوان المقطع ٢ ينسج حولَ مطابقاتِ الأمور المتعارضة: اشتقاقات مزيَّفة، جناسات، **ومشابهات أصواتية** وقوافي توحي بأن كلَّ أمرٍ يمكن أَنْ يصير أمراً آخر، حُبّ وموت، (amour et mort)، عَضّ وندم (mord et remord-). ثم إن القارىء، إن كانَ في غاية التنبّه، بانَتْ لَهُ كلمة [فخ] أيضاً في سياق

oxymoron: شبة ـ طباق، أي اجتماع كلمتين، في علاقة النسبة والمنسوب إليها، متضادتين في المعنى المعجمي، إلا أنهما دالّتان ومفيدتان في المحصلة الدلالية منهما.

(*) إضافة المترجم للإيضاح.

Phonétiques

القَصّ. بيد أنّ (استراتيجية القص) تقتضي من القارىء أن يظل غافلاً عن الأمور السالف وصفها.

ليس للفصل ٣ حكاية في ظاهر الأمر، إلا أنَّ لَه أهمية كبيرة بالنسبة للمدارَيْن المذكورين. وفيه يُدعى القارىء، من خلال سلسلة من نقاطِ الوَقف، إلى تخيّل ما قد يحصل في إلفة المخدع. ثم إنَّ عنوان المقطع من شأنِه أن يذكّر القارىء المثقَّف للغاية (ومن أين لنا به؟) ببيتٍ قالَهُ «دُونّ»:

وهو «جون دون»، رجل دين وفيلسوف وشاعر انكليزي ١٥٧٣ - ١٦٣١

For god's sake hold your tong and let me love»

بما معناه «بالله عليك أوقِفْ ثرثرتَكَ ودَعْني أحبّ».

وفيما خصّ المحاولة التي قد تنزع بالقارىء إلى سكّة مضِلّةٍ، فإن الفصل الفارغَ الآنف إن هو إلاّ دعوة ضمنية للقارىء حتى يملأه، ويقوم باستباقات فيه، ويكتب فصولاً أشباحاً (مغلوطة). أما فيما خَصَّ المدار الثاني، فإن عنوان الفصل يمثّل تحذيراً واضحاً (له) في هذا الشأن: «حاذر لما تقول، لا تتكلّم كثيراً، لا تتدخّل في شؤونِ الراوي خاصّتي».

ولئن كان الفصل ٢ تسودهُ موضوعة عدم الوفاء، فإن الفصل ٤ يضع قيدَ التداول موضوعة التفكّك (وقد خُصَّ بحفلة التنكّر الراقصة)، في حين أنّ العنوانَ يوحي بفكرة التباسٍ وتدخُّل، وذلك بأن يأبى المصادقة على دلالتها الأولى. ثم يليه تحذير آخر: «إيّاك التدخّل في شؤون لا تعنيكَ، دعني أروي قصتي!». أمّا فيما تعلّق بالتفككات، فيسعنا أن نجد العديد منَ القرائن الدالة عليها: فارسٌ للهيكل من آخر القرن التاسع عشر (هيّا! لقد امّحى كل أثرٍ لهؤلاء بموتِ فيليب لوبِلْ!) وقل الأمر عينه، في شأن فكرة التنكّر بزيّ جذعيّة! حين أن كلَّ هذه الإشارات كانت بُتّتْ، بالضبط، في فصلٍ حيث بدا المستوى الخطابيّ بكاملِه يجد محلّه في خطاب حولَ عدم الأمانة...

فيليب الرابع لوبِلْ (Le bel)، ملكُ فرنسا ١٢٦٨-١٣١٤.

ومما لا شك فيه أن القارىء النافذ البصيرة قد يسعه أنْ يلاحظ (ولكن بعد كم من القراءات) أنَّ الغيرة، من الفصل الأول حتى الرابع، كان نَصٌّ يستحثّها على الدوام: أغنية (١)، ملهاة (٢)، رسالة (٤). وعليه فإنَّ أيَّ إلماح ما كانَت لتُثبتَ صدقيتهُ إثباتات مباشرة، ذلك أن كلَّ شيء

هو رهن بما يقوله امرؤ، أو يتفكره، أو يثبته، أو يظنه.

١١- ٥- حكاية في حكاية:

وفي حال لم يشف هذا غليلنا، تراءى لنا الفصل ٢ على أنه النموذَجُ المختزَلُ لمجموع القصة ولاستراتيجيتها العميقة. حتّى أنّ العنوانَ ذاته لا يتوانى عَنْ الإشارة إلى ذلك: «حلقة تعطي الزبائن فكرة عن الكيفية التي يحيا بها بطلانا، دونَ أن نكلّف أنفسنا عناء الاهتمام المباشر بالحدث». ولا أوضح من هذا... إذاً، ما تكون كيفية الحياة هذه؟ إنها حياة الغيرة، بالتأكيد، ولكن من خلال ظنون غامضة، وإبتكار حَلّ للمأساةِ في الملهاةِ المتحصلة من الالتباسِ بين الأدوار.

راوول يلاحق مرغريت، وإذا بمرغريت تعود أدراجها وتطلبُ منه أن يساعدها. وعليه فمَنْ يكون العاملون قيد الفعل، في هذا السياق؟ ثمة **فاعل** للصراع و**موضوع له**، و**مرسلٌ** كان طلبَ المساعدة و**متلقٍّ** لها، و**مساعِدٌ** (في فعل المساعدة) و**معارض** أو **معترض**. بيد أن في الفصل ثلاثة أدوار هي: الضحية، والشرّير والمخلِّص. والحال أنّ هذه الأدوار الثلاثة كانت بدت جلية من خلالِ فاعلَيْن اثنين فحسب. ولئن كان مِنَ اليسير تبيان موقع مرغريت، باعتباره جليَّ التعيين، فإن التساؤل عن موقع راوول حرياً بأن يُطرح. فراوول الذي كان تبدّى في الواقع (الحكائي) الشرّيرَ، رأيناه وقد صارَ المخلِّص في عالم الرغبات (أو الأوامر) المخصوص بمرغريت - ومرغريت هذه ظلّت تعتقد (أو تشاءُ) أن **يكون** راوول منقذها، حتى بات من شأنِ مسلكها القضويّ أن ينشيء نوعاً من الوضع الحاثّ على التجلية: إذ لا تني (مرغريت) تقوم بأمور من خلالِ الكلمات.

Sujet et objet

كينونة الحال والمشيئة.

مرغريت «تعرف» أن ما تريده مُحَالٌ منطقياً (وحكائياً). ولما كانَتْ تريد ذلك، فقد راحَتْ تظنّ أن التناقضَ الآنف إنما هو مقبول. وبالطبع، ليس ذلك الاستدلال هو الوحيد الذي يسع القارىء أن يجريه: فهو بوسعه التقدير أن مرغريت «تظنّ» أنها حالما تريدُ أمراً، فإن هذا الأمر المحال يصير ممكناً للتوّ. أو (يقدِّر القارىء) أنها تشاءُ أن يظن راوول أن المحال هو ممكن، وهكذا دواليك.

وعلى أي حال، فإنّ «الحكاية في الحكاية» من شأنها أن تستبق

متاهَةَ التناقضاتِ القائمة بين العوالم الإبستيمية (أو المعرفية) والظنِّية، وبين العالم الواقعي، الذي منه نُسِجت القصَّة بأسرها، والذي قد يلتصق به القارىء: وهي (أي الحكايَةُ في الحكاية) تضمن للقارىء أن يكون جائزاً اعتبارُ رغباته (أو توقعاته) حقائق. وإذا كانَتْ هذه «الحكاية في الحكاية» قُرِئَتْ بذهنية نقدية، فقد يتسنى للقارىء أن يتجنَّب أخطاءَهُ المتتالية التي يوشك على ارتكابها: ولكن كيف السبيل إلى تشخيصِ موضوعة سوء التفاهم وموضوعة التناقض، بأوضح ما أمكن، في حين أنَّ الموضوعة المبالغ بها، في الفصل عينه، هي موضوعة الزنى؟

ويسعنا، على الأكثر، أن نبتسم للطرائف التي تروح تصدر عَنْ مخِّ العصفور الذي لدى مرغريت، والجدير بأبرع التفككات وأروعها. ومرةً أخرى، يعمد النص إلى تصويب التفكّر نحو كفاية القارىء الإيديولوجية: «أنتَ تعرف أن النساءَ هُنَّ حيوانات صغيرة ويفكرن على هذا النحو، فلا تبالِ بهنّ!». إنه بريق القلق العبقري والسامي هو ما يصيبُ مُخّ مرغريت «الصغير»، فتخلصُ بالجهد إذ تعمد إلى خلط الأوراق خلطاً خلاباً... وهكذا، فإنَّ القارىء لَنْ يتنبه إلى أنَّ ألّيه كانَ يشرع في إبلاغه، مسبقاً، بالطريقة التي قد يعمد «هو» إلى اتباعها في خلط البطاقاتِ النصية.

إلّا أن ذلك كلّه يتبدّى عبثاً: فالله يُعمي مَنْ يشاءَ أَنْ يُضلَّهم. أو أنه يُضلُّ أولئك الذين يشاء أن يُعميهم. وفي هذا إلماح إلى أوديب... ذلك أن النص إن هو إلا إله قاسٍ وثؤور، يعاقبُ كلّ مَنْ لا يصون لسانَهُ، فتحثّه رغبته لتذوق ثمار شجرة الممكن والواجب. هذا أقَلُّ ما يريد ألّيه قوله. وبعد، أو ليس منَ الإجحاف أن تصفُ الموسوعاتُ هذا المؤلِّف (ألّيه) فتعرِّف به على أنه مؤلِّف «قليل الشأن»؟. والحقّ أن الموسوعات إنما تنتقم ممَّن يضعونها موضع تساؤل.

١١ـ ٦ـ نزهاتٌ استدلالية وفصولٌ أطياف:

إن حكاية تنشىء لها توالياً منَ الحوادث أ...م تتيح للقارىء أن يتقدَّم بتوقّعات انطلاقاً من كُلِّ فاصلة احتمالية. وفي سبيل أن يصوغَ القارىء توقعاتِه، يمضي في استكمالِ نزهاتِه الاستدلالية في **عالم التناص ـ الخارجي**، ثم ينتظر أن تثبتَ حالةُ الحكاية المتعاقبَةُ توقعاته أو تَدحضها. Extratextuel

على أنّ الحكايات، في حال كان ثمة تعاقبٌ معطىً أ...م، غالباً ما تُدخِلُ الحالة أ إلى سياقة التوقّعات، وبعد إمهالات خطابية عديدة (مما يمكن إبدالها بتفريعات نصيّة، وبفواصل بين الفصول)، فتشرع في الكلام على حالة م. علماً أن القارىء، إذ يستند إلى نزهاته الاستدلالية يروح «يكتب» بمفرده، بمثابة فصول أطياف، كل ما يتصل بالحوادث ب، ج و د. إن هذا ما يجري بالضبط في الأفلام: رجل وامرأة يتعانقان، وبعد أن يشخِّص المُخرج توالي الأيام من مشهد تنتزع فيه أوراق الروزنامة سراعاً، نعاين طفلاً في مهده. ما الذي تراه جرى في غضون ذلك؟ لما كان النص آلية غايةً في الكسل، فقد تركَ للقارىء عناية استكمالِ جزء من عمله، فخالجه الظن بأن القارىء إنما يقوم بما توجّب عليه فعله. وثمة سبب آخر لذلك: إذ تجد الكثير من النصوص، على المستوى الخطابي، لا توقِّعُ الحوادث في توالية زمنية منتظمة، فهي تسبِّق حدوثها أو تؤخره؛ وما على القارىء إلا أن يملأ الفراغات المخصوصة به، على هذه الصورة.

أو وفقَ ما تبيّنه شاشة السينما: بحركة توالٍ سريعة، تنتزع بها أوراق الروزنامة.

وحينَ يطّلع القارىء، في الفصل ٤، على الرسالتين، يصيرُ مُعَدّاً لأن يكتب فصلَهُ الطيفي الأول. أما موضوعة هذا الفصل فتكون: مشاريع الزوجَيْن، والمحاولاتُ التي يبذلها كل منهما ليذهب إلى العيد، إلخ. وحين يتنبه إلى أَنَّ الفصل ٥ يصفُ العيدَ قيدَ الحدوث، ينعدم لديه التردّد: ذلك أنه كان ملأ الفراغ الذي لم يكن النص ليهتم بملئِه.

والواقع أن القارىء، في سبيل أَنْ يكتبَ فصلَهُ الطيفَ (أي لأجل أَنْ يعيِّنَ عالَمَهُ الممكن الذي يستبق عالمَ الحكاية الواقعيّ) يكون قد توفّر على بعضِ الآثار النصية.

فالرسالة إلى راوول تقول إن مرغريت سوف تمضي إلى الحفلة التنكرية الراقصة بقصد أن تلهو: ولا شك في أنها لو شاءت اللهو، لكانَتْ عزمت أن تلهو مع أحدهم. وإن راحَتْ تلهو مع أحدهم، فهذا يعني أن المرء الموصوف موجود. وهكذا رأيتَ كيفَ أُدخل عاشق مرغريت بمثابة عنصر لتأثيث عالم الفصولِ الأطياف. بالطبع، فإن النص لا يشير صراحة إلى أن مرغريت سوف تلهو مع أحدهم. إنّما يقول ان أحدهم قال إنَّ. بيد أَنَّ القارىء الساذج لا تستوقفه هذه اللطائف. بل يتصرَّف برسالة

مرغريت على غرار تصرفه برسالة راوول. والحال أن قارئاً هذا وصفه تعينُهُ التناصية على تعاطيه المذكور: إذ الأمر يجري على هذا النحوِ المعتاد.

ثم، حينَ يقولُ راوول ومرغريت أنهما سوف يتغيبان، في مساءِ ذلك الخميس المشؤوم، يفعلان ذلك وقد «أحسنا إخفاءَ خططهما». ثم إن فعل [أخفى]، يفترضُ مسبقاً، وفي سبيل التوضيح الدلالي، وجود شيء ما مخبأ. وفي اللحظة التي تعمد فيها الشخصيتان إلى إخفاءِ عزم وإظهار آخر، يكون بيّنا أن العزم الجلي مزيّف: فما يكون العزمُ الحقيقيّ والحالة هذه؟ ههنا كذلك، يأتينا عالم السيناريوات التناصيّة بالعون: منذ بوكّاس وحتى ألّيه، ما عساهُ يخبرنا القصّ عن تصرُّف زوج شكّاك؟ إنه يمضي إلى التجسُّس على الزوج المشكوك به. وعليه، يكونُ التوقُّع التالي محتوماً: كلاهما يمضي إلى الحفلة التنكرية الراقصة متنكراً (أو متنكرةً) بزيّ عشيقٍ (أو عشيقةٍ) الآخر (أو الأخرى)، وقد عاينّا القارىء الذي بات عاجزاً ههنا عن أن يتبصر بوضوح كيف أن أياً من الاثنين فاته أن يدرك كيف يكون متنكراً (أو متنكرةً) عاشق (عاشقة) الآخر (أو الأخرى) المفترض (أو المفترضة)، طالما أنَّ الرسالة تكتفي بوصف الصورة التي قد يكون عليها الزوجُ المخصوص متنكراً، دون غيره. تلكَ هي حالةٌ هامة من المماهاة بين معارف القارىء ومعارف الشخصية الروائية: إذ ينسبُ القارىء إلى الشخصيات كفايةً ليسَتْ إلاَّ لَهُ. وهذا يعني: أنه يتفكَّر في أنَّ ونج لد (عالـمَ) شخصية ينبغي أن يكون مؤثَّثاً مثلَ العالـم ون ل د الذي يكون عليه عالم الحكاية، والذي كان اطَّلع عليه دونَ الشخصية، بحكم كونه قارئاً. ذلك أَنَّ النص كانَ زَوَّد القارىء بمعلومات هيَ من الوفرةِ والكثافة والتقاطع بحيث يمسي منَ العسير على القارىء المبتدىء أنْ يفصل فيما بينها.

وحالما يُثار لدى القارىء ذوقُهُ التعاضدي، تراهُ لا يقتصر على جعل راوول ومرغريت يفكران بأنهما يريدان الذهابَ إلى الحفلة التنكرية الراقصة: إنما «يجعلهما يمضيان» إليها فحسب. وعندما يجد فارسَ هيكل وجذعيَّةً في احتفالِ العيد، لا تخامره الشكوك فيظنهما الشخصيتين اللتين

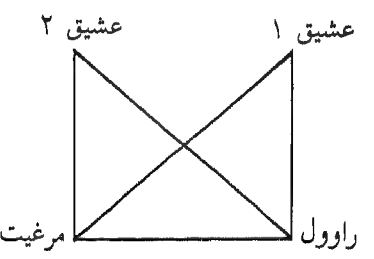
جعلهما «هو» تمضيان إلى الحفلة الراقصة: هكذا تراه يبني نوعاً منَ **الاستدلالاتِ المغلوطة**. وإذ تقولُ رسالة مرغريت أنّ راوول سوف يكون في الحفلة التنكرية الراقصة متنكراً في فارس هيكَل، ينسى القارىء أنّ هذه المعلومة تظلُّ كثيفة مرجعياً، فيضطلع بها على أنها إثبات عن حالة (من حالاتِ) العالم تعني: سوف يمضي راوول إلى الحفلة التنكرية الراقصة متنكراً في زي فارس الهيكل. إذاً، يعمد القارىء إلى تحويل اقتراح جائز (ثمة فارس الهيكل وهو راوول) إلى اقتراح ضروري (لكل فردٍ في أي عالم ممكن، من قالَ فارسَ الهيكل، عَنَى به راوول). وأخيراً، في الفصل ٥ يفيد القارىء بالإثباتِ الخاص الذي كان النَصُّ أمدَّهُ بدواعي التوكيد (ههنا فارس الهيكل) وذلك في سبيل تبيان صلاحية جدال شكلي وقد تحوَّل لديه إلى **«قياسِ الإمكان أو الإستحسان»** إنْ هو فارس الهيكل فهو إذاً راوول؛ ولكنهُ فارس الهيكل؛ إذاً فهو راوول.

Paralogismes

modus ponens

ونحن إن نظرنا إلى الأمر بوصفه استغلالاً من حيث كونه إنجازاً منطقياً تبدّى لنا شديد الركاكة بحق. أما في حال اعتبرناه استغلالاً تعاضدياً، تراءىء لنا مسوَّغاً أقله: فالموسوعة التناصِّية تلحُّ على القارىء بصورة **«الزوج المخدوع الرائع»**. وفي المقابل، ألا يعقل أن يكون بطلانا يترددان إلى المسرحيات اللاهية لمؤلفها «م. دي پورتو ريش» الذي (على حد ما تقول الموسوعة البريطانية) كان حقق، على الدوام، في ملاهيه (أو كوميدياته) تنويعاتٍ مستمرةً على الموضوعة الواحدة، ونعني بها المثلّث الأبدي: الزوج، المرأة، العشيق؟ وهكذا فإن القارىء لا يني يتخيل زاويتَيْن لهما قاعدة مشتركة، على النحو الذي يجعلهما تشكلان رسماً ثانياً ذا قرنَيْن:

وهو عنوان مسرحية ملهاة من ٣ فصول لمؤلفها ف. كرومّلينك (١٩٢٠): الزوج الهائم بامرأته ستيلاً والمصابُ بغيرة شديدة عليها.



إن هذا المثلث المزدوج، إذ يكبح توقُّعات القارىء، يتبدى في الواقع، مقصوراً على الظهور بصورة متوازيين لا يلتقيان أبداً، على حد ما تصادر

عليه المسلمة الخامسة:

فارس الهيكل ـــــــــــــــــــــــــــ الجذعيّة

راوول ـــــــــــــــــــــــــــ مرغريت

ذلك أنَّ قصة «مأساة باريسية حقاً» إنما هي لعبة حَظّ غريبة. حتّى إذا ما بلغ القارىء الفصل ٤، بدا له أن نمط عملها أشبه ما يكون بالروليت، يضع الرهان على الأحمر فإذا باللون الأسود يفوز، على أن مراعاة شأن اللعب إنما يكون من قبيل اللعب ذاته. وما على القارىء سوى أَنْ يتكيف مع قواعد الروليت. وإن هو فعل، اكتشف في الفصل ٦ أنه كانَ وضع رهانَهُ على الأحمر وأَنَّ مدير القمار كان سارع إلى إعلان خمسة حمراء. فإذا القارىء يعترضُ ومدير القمار يردّ، بأسلم طويَّة: «أحمر؟ أحمر؟ ولكن أيّ لعب تظنّ نفسك لاعباً إذاً؟». والحالُ أَنَّ اللعبَيْنِ كلَيْهما أحدهما عصيّ البلوغ إلى الآخر مثلما هو عليه عالم الفصول الأطياف وعالم الحكاية.

ولنعاودْ قراءة قصة «مأساة باريسية حقاً» على ضوء القواعِد الآيلة إلى بناء العوالم الموفورة في الفصل ٨ من هذا الكتاب. حتى إذا ما باشرنا في قراءتها لفت انتباهنا (إنما لفت انتباههنا فحسب، بعد أن كنا استغرقنا في حديثنا عن بُنَى العوالم، فبلغ بنا التعقل حداً انتفت معه الحدسية التي قد يوحي بها القول السالف، لكأنما بلغنا إلى هذا الانتباه تدرُّجاً)، أنّ:

١ـ في الفصل ٥، فردان يظهران في الحفلة التنكرية الراقصة، فارس الهيكل والجذعية، وقد كشفت هويتيهما الخاصيةُ ل ـ الضرورية التي جعلتهما في علاقة تناظرية.

وفي الفصل ٦، يقال لنا إن هذين ليسا راوول ومرغريت. فإذا كان القارىء، قد بنى، عَرَضاً، عالماً ممكناً حيث يكون لراوول خاصية ل ـ الضرورية أن يكون في علاقة تناظرية مع الجذعية، وحيث يكون لمرغريت خاصية ل ـ الضرورية أن تكون في علاقة تناظرية مع فارس الهيكل، فقد أخطأ. فعالمه، وهو لا يبلغ عالم الحكاية على ما كان حُدِّدَ في الفصل ٦. وإذا كان القارىءُ قد مَاهَى راوول بفارس الهيكل ومرغريت بالجذعية، فإن ذلك يكون أدهى وأنكر. حينئذٍ فليعضّ أصابعه ندماً، شأنَ أوديب، إن لم

يشأْ أَنْ يفقأ عينيه بصنّارة (وليس ذلك ضرورياً، بصريح العبارة). لقد سبق وقلنا، فيما خَصَّ هذا اللعب، أَنَّ المصرفَ وحدَه يكون الرابح فيه؛ ففي العالم ون لم يمضِ راوول ولا مرغريت إلى حفلة التنكّر الراقصة قَطّ، وما كانا ليلتقيان بأي شخص فيها. وإن كُنَّا تخيَّلنا أَنَّ فارس الهيكل والجذعية كان كلاهما مميّزاً بخاصّية ل ـ الضرورية بأن يكون في صلة زنى عشقية مع البطل من الجنسِ المقابل، وجدنا في هذه الحالة أيضاً أن العالم وهـ لا يرتبط بأي علاقة من أي جنس كان بالعالم ون.

٢ـ غير أن الحكاية، وبعد أن تكونَ قد عارضَتْ عالمها ون بالعالم وهـ، تُواصل خلطَ الأوراق. وعلى هذا المنوال يُفاجأ فارس الهيكل والجذعيّة في أَنهما لا يعرف الواحد منهما الآخر، فيستمد راوول ومرغريت، في الفصل ٧، عبرةً مما لم يحدث لهما ومما يعجزان عَنْ الاستعلام حوله، وإذا بالحكاية تُدخِلُ في عالمها ون، لدى المحطة الأخيرة، خاصيات ل ـ ضرورية لم تكن صالحةً إلاّ في العوالم وهـ السالفة (والمنقوضة) التي كان القارىء قد صاغها بطريقة مغلوطة.

إذاً: كانَ القارىء أنتج عوالم ممكنة إذ حدّد توقعاتِه المخصوصةَ، واكتشف أَنّ عوالمه إنما هي عصية على بلوغ عالم الحكاية؛ في حين أن الحكاية، بعد أن تكون قد حكمَتْ على هذه العوالم المتعذِّر بلوغها، على نحو معيَّن تعود إلى تبنِّيها. كيف ذلك؟ بالطبع، ليس بإعادة بناء بنية العالم التي تأخذ في حسبانها الخاصّيات المتناقضة، وهي لن يسعها أن تقوم بذلك. ببساطة كلية، فالحكاية، لدى مستوى البُنَى الخطابية، تحثّ القارىء على التفكّر في أن هذه العوالم المتعذِّر بلوغها لربّما جازَ لها أن تقيم صلة تماسّ فيما بينها. فلنقل إنها «تسمّي» الصلةَ، دون أن تصفَ كيفياتها البنيويّة. بيد أن القارىء، إذ تراه مسوقاً بعامل «وجهة النظر»، يروح يتفكر في أنّ الحكاية تعاودُ تملّك عالمها الذائع وصفه السالف. والواقع أن الأمر إن هو ألّا لعب مرايا بين البُنَى الخطابية وبُنَى الحكاية. ولكن ينبغي لنا، من أجل أن نحسنَ فهمَها، أن نسير في إثر عملياتِ التعاضد، خطوةً خطوةً، تلك التي يحثُّ عليها النص لدى مستوى القضايا ـ الكبرى الحكائية.

١١ـ ٧ـ ترسيمة الحكاية والعناوين الأطياف:

في تمثُّل الحكاية الترسيميّ هذا وفصولِهِ الأطياف، لَنْ نأخذ في اعتبارنا إلاَّ الوقائع والمواقفِ القضويَّة الضرورية لتنمية الآلة الحكائيَّة ـ التوقّعية الخاصة بقصة «مأساة..». وبدلاً من أَنْ نبنيَ بُنَى العوالم وفق الكيفيات المعروضة في الفصل ٨، سوفَ نعمد إلى اختزالها في شكل قضايا ـ كبرى حيث:

م هي القضايا التي تصفُ حالاتِ العالم $و_{ن}$؛

هـ هي القضايا التي تصف المختلفات $و_{نج}$؛

و هي القضايا التي تصفُ التوقّعات $و_{و}$؛

ي هي القضايا، المندمجة بصورة سويّةٍ في القضايا و، والتي تصفُ المواقف القضوية على هذا النحو: $و_{ج}$ و$و_{جج}$.

إِنَّ تواليَ القضايا $م_{١}$... $م_{ن}$ و$هـ_{١}$.... $هـ_{ن}$ يمثّل توالياً لحالات الحكايةِ أحاديّاً ومنتظماً؛ وبالعكس فإن القضايا $و_{١}$... $و_{ن}$ والتابعات لها $ي_{١}$... $ي_{ن}$ يسعها أن تمثّل بدورها «الفرضيات التعاقبية» التي يجازف القارىء في إطلاقها، في حينه.

وعليه يمكن لقصة «مأساة باريسية حقاً» أن تكون مركَّبةً مِنَ القضايا ـ الكبرى التالية:

م $_{١}$= ثمة فردان معرَّف بهما من خلالِ الخاصِّية ل ـ الضرورية في أن يكون أحدهما مزوّجاً بالآخر، وأن يحبّ أحدهما الآخر حباً متبادلاً، وأن يكون كل منهما يغار على الآخر غيرةً شديدة؛

م $_{٢}$= في حالة معينة، ثمة س مَنْ يؤكد $هـ_{١}$؛

م $_{٣}$= في حالة معينة، ثمة س مَنْ يثبت $هـ_{٢}$؛

هـ $_{١}$= مرغريت في حالة تالية سوفَ تمضي إلى حفلة التنكُّر الراقصة وسوف تكون مماثلةً للجذعية؛

هـ $_{٢}$= راوول في حالة تالية سوف يمضي إلى حفلة التنكّر الراقصة وسوف يصيرُ مماثلاً لفارس الهيكل.

م $_{٤}$= راوول يؤكد أنه يريد هـ$_{٣}$، وهذا مما يبيّن خطأً؛

م $_{٥}$= مرغريت تؤكد أنها تريد هـ$_{٤}$، وهذا مما يكون خطأً؛

هـ $_{٣}$= راوول سوف يمضي إلى دانكرك؛

هـ $_{٤}$= مرغريت سوف ترحَلُ إلى عمتها أسپازيا؛

م $_{٦}$= ثمة فردان متميّزان بالخاصّية ل ـ الضرورية والتي مؤدّاها أن يلتقيا في نفسِ الحفلة التنكرية الراقصة عينها؛

م $_{٧}$= فارس الهيكل والجذعية يصيحان ذهولاً؛

م $_{٨}$= إذ لا يتعرّف أحدهما إلى الآخر؛

م $_{٩}$= فارس الهيكل ليس راوول؛

م $_{١٠}$= الجذعية ليست مرغريت؛

م $_{١١}$= راوول يستمدُّ عبرةً من القضايا م$_{٦}$..... م$_{١٠}$؛

م $_{١٢}$= مرغريت تستمدُّ عبرةً من القضايا م$_{٦}$.... م$_{١٠}$.

إلأ أنَّ القضايا ـ الكبرى م$_{٧}$... م$_{١٠}$ لن تكتسب معنى ما لم تأخذ على عاتقها الفصولَ المثلثة الأطياف التي كان كتبها القارىء، والتي تختصر في القضايا التالية:

و $_{١}$= ثمة فردان مرتبطان براوول وبمرغريت بعلاقة ل ـ لازمة تقضي في أن يكون أحدهما عشيق (عشيقة) الآخر، على التوالي؛

و $_{٢}$= راوول يصمِّمُ على ي$_{١}$؛

ي $_{١}$= راوول سوف يمضي إلى حفلة التنكُّر الراقصة متنكراً بزي فارس الهيكل (نرى كيف أنَّ ي$_{١}$ الذي صاغه راوول يطابق هـ$_{٢}$)؛

و $_{٣}$= مرغريت تصمِّم على ي$_{٢}$؛

ي $_{٢}$= مرغريت سوف تمضي إلى حفلة التنكّر الراقصة متنكرةً بزيّ جذعيّة (ي $_{٢}$= هـ$_{١}$)؛و $_{٤}$= راوول يدرك مجرى الأحداث الممكن المعبّر عنه في هـ$_{٢}$؛

و $_5$= مرغريت تدركُ مجرى الأحداث الممكن المعبَّر عنه في هـ$_1$؛

و $_6$= ثمة فردان، راوول وعشيقته، مرتبطان بعلاقة ل ـ ضرورية وهي تقضي بلقائهما في حفلة التنكر الراقصة. راوول هو فارس الهيكل غير أنه يظنّ ي$_3$؛

ي $_3$= الجذعية هي مرغريت (مع ذلك تكون هذه القضية كاذبة)؛

و $_7$= ثمة فردان، مرغريت وعشيقها، مرتبطان بعلاقة ل ـ ضرورية وهي تقضي بلقائهما في حفلة التنكر الراقصة. مرغريت هي الجذعية ولكنها تظنّ ي$_4$؛

ي $_4$= راوول هو فارس الهيكل (مع ذلك تكون هذه القضية كاذبة)؛

و $_8$= ثمة فردان، راوول ومرغريت، مرتبطان بعلاقة ل ـ ضرورية تقضي بأن يتلاقيا في حفلة التنكر الراقصة. وهما مماثلان لفارسِ الهيكل والجذعية. راوول يظنّ ي$_5$ ومرغريت تظنّ ي$_7$؛

ي $_5$= مرغريت هي الجذعية وتظنّ ي$_6$؛

ي $_6$= فارس الهيكل هو عشيق مرغريت؛

ي $_7$= فارس الهيكل هو راوول ويظنّ ي$_8$؛

ي $_8$= الجذعية هي عشيقة راوول؛

و $_9$= إذا ما أدرك فارس الهيكل أَنَّ الجذعيَّة ليسَتْ مرغريت وأطلق صرخةَ ذهولٍ، فذلك لأنه كان يظنّ، في حالة سابقة، أنّ الجذعية إنما كانَتْ مرغريت؛

و $_{10}$= إذا ما أدركت الجذعية أن فارس الهيكل ليس راوول وأطلقت صرخة ذهول، ذلك أنها كانت تظنّ، في حالة سالفة، أَنَّ فارس الهيكل إنما كان راوول.

و $_{11}$= و$_9$ إنما هو محال لأَنَّ المماهاة بين مرغريت والجذعية كانت عنصراً في تأثيث العالم و$_{ج}$، في حين أن الاختلاف بينهما المتعذَّرَ اختزاله إنما هو عنصر تأثيث في العالم و$_{ن}$. ولما كان هذان العالمان

عصيَّيْن على البلوغ واحدهما إلى الآخر، فقد باتَ و١٠ اقتراحاً غيرَ جائز؛

و١٢= و١٠ هو أمر محالٌ طالما أنَّ المماهاة بين فارس الهيكل وراوول كانَتْ عنصر تأثيث للعالم ونج في حين أن الاختلافَ بينهما المتعذِّر اختزاله إنما هو عنصر تأثيث للعالم ون. ولما كان هذان العالمان عصِيَّيْن على البلوغ، أحدهما إلى الآخر فقد بات و١٠ غير جائز؛

و١٣= أما الفصولُ الأطيافُ فتقتضي من القارىء أن يعاود كتابتها وذلك بأَنْ يَضطلع بوجود فردَيْن، مختلفَيْن عن راوول ومرغريت، يكونان مرتبطَيْن بعلاقة ل ـ ضرورية تقضي بتلاقيهما في حفلة التنكّر الراقصة، على التوالي متنكرَيْن بزيّ فارس الهيكل وبزيّ الجذعية، وفارسُ الهيكل يلبث يظن ي٣، في حين تمضي الجذعية في الظنّ ي٤.

رموز تطابقُ الأفراد:

ر = راوول؛

م = مرغريت؛

ف = فارس الهيكل؛

ج = جذعية؛

س١= عشيق مرغريت المفترض؛

س٢= عشيقة راوول المفترضة.

عوامل ظنّية ومعرفية (إبستمية)

اعتقاد؛

عَلِمَ، أدرك؛

إرادة؛

تأكيد؛

بُنَى العوالم

ون لد = حالاتُ الحكاية؛

ونج لد = عوالم ممكنة بنَتْها الشخصيات؛

وه لد = عوالم ممكنة بَنَاها القارىء النموذجيّ؛

ومن لو = عوالم ممكنة تخيَّل القارىء النموذجي أن الشخصيات بَنَتْها؛

ومتت لد = عوالم ممكنة تخيَّل قارىءُ نموذجي أَنّ شخصيةً تتخيَّلُ شخصية أخرى قد بَنَتْها (العوالم الممكنة).

خاصِّيات ل ـ ضرورية:

ز = يكشف عن هويته بواسطة علاقةٌ تناظرية هي علاقة زواج؛

ع = أَنْ تبيِّنَ عن هويته علاقة تناظرية هي علاقة هيام عشقي؛

غ = أن تبيِّن عن هويته علاقةُ غيرةٍ تناظريَّةٌ؛

ث = أن تبيِّن عن هويته علاقَةُ تلاقٍ تناظريَّةٌ في مكانٍ معطى.

محمولات أخرى:

المضي إلى حفلةِ التنكر الراقصة؛

الذهابُ إلى دانكرك؛

الذهاب إلى العمة أسپازيا؛

التعبير عن الذهول؛

عدم التعرُّف إلى الآخر.

وعلى ما قد نعاين، من خلال تمثيل الحكاية الترسيمي التالي، فإن القضايا الموفورة ههنا تفترضُ أَنَّ كُلَّ الشروحاتِ الدلالية المؤيِّنة إنما هي معطاةٌ على مستوى البُنَى الخطابية.

وكما أسلفنا القول، فإن الفصل ٢، لا يعود إلى تنمية الحكاية، أبداً مثلما هو الفصل ٣ وبنفس القدر من الجلاء.

الفصل ١

ون ل١

م١: رم٢، رع٢، رغ٢

الفصل ٤

ون ل٢

م٢: ثمة س يؤكد هـ١

م٣: ثمة س يؤكد هـ٢

ونج ل٢

هـ١: في ل٣ م تذهب إلى الحفلة الراقصة مع م = ج

هـ٢: في ل٣ ر يمضي إلى الحفلة الراقصة مع ر = ف

ون ل٣

م٤: ر يؤكد أنه يريد هـ٣

م٥: م تؤكد أنها تريد هـ٤

ونج ل٣

هـ٣: ر يمضي إلى دانكرك

هـ٤: م تمضي إلى العمة أسبازيا

الفصل الأول الطيفُ

ور ل٣

و ١ = رع س٢ و مع س١

و ٢ = ر يريد ي١

و ٣ = م تريد ي٢

و ٤ = ر يعرف هـ٢

و ٥ = م تعرف هـ١

ورج ل٣

ي ١ = هـ٣

ي ٢ = هـ١

الفصل ٥

ون ل٤

م٦: ف ث ج

فصل ثانٍ طيف

ور ل٤

و ٦ ر ث س٢

ف = ر وريظنّ ي٣ (وهو مزيَّف)

و٧ : م ث س١

ج = م و م تظنّ ي٤ (وهو مزيَّف)

و٨ : ر ث م

ف = ر و ر يظنّ ي٥

ج = م و م تظنّ ي٧

ورج ل٤

ي٣: ج = م

ي٤: ف = ر

ي٥: ج = م و م تظنّ ي٦

ي٧: ر = ف و ر يظنّ ي٨

ورجج ل٤

ي٦: ف = س١

ي٨: ج = س٢

الفصل ٦

ون ل٥

م٧: ف يعبّر عن ذهول و ج تعبّر عن ذهول

م٨: ف لا يتعرّف إلى ج و ج لا تتعرف إلى ف

م٩: ليس صحيحاً أنّ ف = ر

م١٠: ليس صحيحاً أن ج = م

الفصل الثالث الطيف

ور ل٥

و٩: إذا كان ف يعرف م١٠ وم٧، إذاً ف يظنّ ي٣ في ل٤

و١٠: إذا كانت ج تعرف م٩ وم٧، إذاً ج تظنّ ي٤ في ل٤

و١١: حيث أنّ القضايا ي تنتمي إلى ورج والقضايا م تنتمي إلى ون، وحيث أنّ ون و ور هما عالمان يتعذر على أحدهما بلوغ الآخر، إذاً و٩ هو مستحيل

و١٢: (التعليل نفسه ينطبق على و١٠).

محاولة لإعادة كتابة الفصل الثاني ذي الطيف

ور ل٤

م١١: ر يعلم هـ٥

م١٢: م تعلم هـ٥

ونج ل٦

هـ٥: كُلّ ما عبّرت عنه قضايا الحكاية م٦... م١٠، وكُلّ ما عبّرت عنه القضايا و١... و٣، التي تمثّل توقعات القارىء، المتوقعة من قِبَل المؤلف.

١١ـ ٨ مأساةُ الفصولِ الأطياف

لقد سعى التمثيل الترسيمي السالفُ إلى إظهار كيف أَنَّ الفصولَ الأطيافَ تندمجُ في نسيج الحكاية، وكيف يبدو أن حالات الحكاية النهائية تتعهَّد القضايا التي كانت الحكاية نفسها قد دحضتها. وإنه لمن الجدير بالاهتمامِ أن يعاود المرء قراءة هذه الفصولِ بكاملها لكي يرى الجهودَ اليائسة التي جعل يبذلها القارىء في سبيل أن يحقِّق تعاضداً آيلاً إلى إنجاز بعض تقدم.

الفصل الطيف الأول. يتخيَّل القارىء فردَيْن لا هوية محددة لهما، وهما مرتبطان على التوالي بعلاقة ل ـ ضرورية مع راوول ومرغريت. ومن ثم، ينسب إلى راوول ومرغريت مشروع الذهاب إلى حفلة التنكر الراقصة. ولا يقرِّر إنْ هما عزما على المضيّ إلى الحفلة المشار إليها، كُلٌّ مع عشيقه (عشيقته) على التوالي، أو لكي يفاجىء كل منهما زوجَهُ في تلك الحفلة. بيد أنّ القارىء الأكثر تعاضداً ذاته تراه يميل إلى التخلي عن هذه النقطة معلقة.

وما أن يمضي البطلان إلى الحفلة الراقصة حتى يفاجىءَ الواحدُ الآخر على نحو متبادل، فيكونُ القارىء مجبراً على الاضطلاع بأمر أَنَّ كليهما باتَ يدركُ مضمونَ رسالة الآخر، وبالتالي فقد يستوجب أن يضطلع بما كانَ قائماً في ون ل٢ كشيفاً من الوجهة المرجعيَّة، على أَنَّه «حاثّ ـ على ـ الفعل». وفي حال قد يمضي البطلان إلى الحفلة الراقصة لكي يلتقي كل منهما عشيقه (أو عشيقته) على التوالي ـ وعليه، فإنه في حالِ قيام مؤامرتين، راوول ـ عشيقة ومرغريت ـ عشيق ـ يجد القارىء نفسَهُ مجبراً على أن يفترض، ضمناً، أن الزوجَيْن كانا تخيُّلا، بلا علم الواحد منهما عن الآخر، زوجَيْ التنكُّر المظنونَيْن ذاتَيْهما.

وعلى ما نعاينُ، فإن القارىء في الحالتَيْن يضطلع بأمر مغلوطٍ، دون أَنْ يدري به. وفي الحالة الأولى يكونُ الغلط منطقياً، أما في الحالة الثانية فيكون تناصِّياً (تطابقات من هذا النوع هي غير محتملة). على أَنَّ الفرضيتين كان جرى تقديمهما تحت ضغط التناصِّية. والحال أنه يسعنا افتراضَ أن القارىء إنَّما يترجَّح بين الفرضيتين الآنفتين دون أَنْ يُؤثِر

إحداهما وينفي الأخرى: الفصل الأول الطَّيفُ هو «مفتوح»، أما النَّصُّ فقد سبق أَنْ أَجرى حسابَ هذا الريب.

وأياً يكن الأمر، فإن راوول ومرغريت جعلا يرتبطان بعلاقة ل ـ ضرورية مع فردَيْن لم يكن النص ليسميهما ولا ليصفهما وما تعرفت الحكاية إليهما. ذلك أن الحكاية إذ تتعرَّف في الفصل ٥، دونَ غيره، إلى فردَيْن تربطهما علاقة ودّ متبادلة، فارس الهيكل والجذعية، فإنها لا تضطلع بأمر أنهما عشيقان، ولا تعرف عنهما شيئاً، وهي لا تضطلع، بصورة مطلقة، بأنّ راوول ومرغريت هما حاضران في الحفلة الراقصة. إذاً، تكون كل الاستدلالات التي ينطوي عليها هذا الفصل الطيف مجرَّدة من أيّ أساس.

الفصل الثاني الطيف: يُحمل القارىء على الظن (أو على الظنّ أنه من الممكن الظنُّ) أنَّ الحالاتِ التالية هيَ ممكنة بصورة تعاقبية:

(I) راوول هو فارس الهيكل ويظنّ، بصورة مغلوطة، أَنّ مرغريت هي الجذعية؛

(II) مرغريت هي الجذعية وتظنّ، ظناً مغلوطاً، أَنَّ راوول إنما هو فارس الهيكل؛

(III) راوول هو فارس الهيكل ويظنّ، ظناً صائباً، أَن مرغريت هي الجذعية، ولكنه يظنّ، إلى ذلك، أن مرغريت تظنّ، ظناً مغلوطاً، أنه عشيقها؛

(IV) مرغريت هي الجذعية وتظنّ، ظناً صادقاً، أَن راوول هو فارس الهيكل إلا أنها تظنّ كذلك أن راوول يظنّ، ظناً خاطئاً، أنها عشيقته.

وعليه، فإذا كانت افتراضاتُ الفصل الأوَّل الطيف حقيقية، فإنَّ كلاًّ منَ افتراضاتِ الفصل الثاني الطيف قد يسعه أَنْ يصمدَ إزاءَ النقد، بغض النظر عن الافتراضاتِ الأخرى. غير أَنَّها، لو نظر إليها المرء نظرة إجمالية، لبدَتْ متناقضة الواحدة بإزاء الأخرى.

والحقّ أن القارىء يبدو أنَّه يهبُ هنتيكّا (١٩٦٧:٤٢) صدقية مبالغاً بها، إذ يقول إن «مجرَّد أن تقوم شخصية في رواية تامة (كاملة) فتردّ على موقف وتتصرَّف بالضبط على أنها عضو من عالم ممكن آخر، من شأنه أن يمثِّل إثباتاً دامغاً للغاية في سبيل تبيان هويتها». أما الشأن

الذي قد لا يتلقنه القارىء من هنتيكًا (١٩٦٢) فهو كُلّ التحفّظات التي ينبغي لَهُ أَنْ يتخذها كلما استدعي الأمر تبيان عدد السياقات الكثيفة التي يحكمها عامِلٌ إبستيميّ.

وفي كل الحالات، فإن القارىء يلجأ إلى استخدام تماهيات مخطئة، إذ يروح يضع في التداول، وفي صورة غير شَرعية، خاصياتٍ ل ـ ضرورية. ويمكن أَنْ نفترض أن القارىء، شأنَهُ في الفصل الأول الطيف، يتقدَّم بفرضيات مختلفة على التوالي، وهو يدرك أَنَّها غير متلائمة فيما بينها، بيد أنه يبقى حافظاً قصته «المفتوحة»، متوقعاً منَ الحكاية تأكيداتٍ في هذا الاتجاه أو ذاك. فلنكُنْ على بيّنة تامّة في هذا الشأن: ذلك أن قارئاً تجريبيا قد يسعه أن يصوغَ أنماطاً أخرى منَ الافتراضات؛ غير أن تلك التي سجلناها إنما هي مقترحات مما جعلت حالاتُ الحكاية المتواليةُ تأخذها في اعتبارها.

الفصل الثالث الطيف. لدى هذه المرحلة، كانت الحكاية قد أوضحت القول بأن فارس الهيكل والجذعيّة ليستا راوول ومرغريت. مع ذلك، فقد أضافَتْ بخبث أنهما دُهِشا لكونهما لم يتعرف الواحد منهما إلى الآخر. إذ يجد القارىء نفسه في حيرة، يعمد، يائساً إلى كتابة فصل طيفٍ ثالث من أجل أَنْ يعقلَ الوضع. فعلى سبيل المثال: إذا كان هذان يجهل واحدهما الآخر وقد دُهشا لأنهما لم يتعارفا، فهذا يعني أنهما، لبثا يظنَّان، قبل أن يرفعا، كلاهما، القناعَ أنهما إزاءَ جثتَيْ راوول ومرغريت الكاذبتين. بيد أنَّ القارىءَ، في اللحظة عينها التي يتقدم فيها بهذه التعليلات، تراهُ ملزماً باعتبار أنَّ هذه المظنّةَ لم تُنسَبْ قَطُّ إلى فارس الهيكل، وإلى الجذعيّة من قِبَل عالم ون الخاصّ بالحكاية، إنَّما نسَبَ هذه المظنّة إلى عالَمِ القارىء [و] ذاته. وعليه، كيف تتصرَّف شخصيتان من الحكاية فتعملان كما لو أَنَّ الحكاية تشجب مظنّةً كانتا تزمعان على تنميتها، ليس في عالم الحكاية «الواقعي»، بل في عالم القارىء الممكن (والعصيّ على البلوغ)؟ وحتى لو لم يقرأ القارىء الفصل ٨ من كتابنا، لكان استشعر، بصورة تتفاوَتُ غموضاً، أَنَّ شيئاً ههنا لا يجري على ما يرام. فيصير، على هذا النحو، مجبراً على أَنْ يصوغ، صَوغاً مبهماً و«وحشياً»، ملاحظةً كان لايبنتز أجاد

في التعبير عنها في الرسالة إلى أرنولد التي كان خطّها لَهُ في الرابع عشر من تموز من العام ١٦٨٦: «إذا كانَ كلُّ شيء في حياةِ امرىءٍ أو في حياة الكونِ بأسرهِ قد تمّ بخلافِ ما تمَّ عليه، فإنَّ ما من حائِل يدفعنا إلى القولِ إنَّ هذا كان شخصاً آخر أَو كوناً آخر مما اختارَهُ الله». وعلى القارىء بالتالي أن يقرّر مَنْ هو الله: أيكون الله ذاته أم قارئه النموذجيّ؟ حتى إذا ضاقت التوقعات في ذات نفسه، وجدته إمّا رامياً الحكاية إلى السلّة، أو رامياً إلى السلة بعوالم توقُّعاتِه المكبوتة في سريرته. ولكن كيف السبيل إلى جعل هذه التوقعات تتساكن؟ ولمَ يدعوه النص إلى القيام بذلك؟

والحالُ أَنَّ الحكاية تأخذ على عاتقها، ههنا، ذهولَ القارىء: ففي الفصل ٦، تكون الحكاية بشخصها معبّرة عن الدهشة، بنيوياً وتداولياً، بسبب أنَّها أدركت أنها نتاجُ تعاضدٍ تداولي بائِسٍ وقد كُلِّلَ بالفشل (أنظر. باربييري، جيوفَنُّولي، وپانيزون، ١٩٧٦).

وفي سبيل أَلاّ يرتضي القارىء بهذه الفكرة، التي هي غاية في ما ورائيتها النصية، يعمد إلى تجريب تعليلات أخرى (ونحن بدورنا نحذِّر قرّاءَنا كذلك قائلين لهم: لن يسعكم أَنْ تبلغوا منتهى النقاش مع أصدقائكم في شأنِ إيجادِ تفسيرات معلّلة أخرى؛ على هذا النحو تلبثون ضحايا النص). يمكن لنا، على سبيل المثال، أن نتخيَّل فارس الهيكل والجذعية أنهما العشيق/ العشيقة لكلا الزوجين على التوالي، وأَنّ كُلاً بدوره يتوقَّع أن يعاين شريكه في الزنى. أما الافتراض هذا فكان يمكن أن يكونَ مصدّقاً لو كانَ أُحيل إلى عالم الاختبار اليومي حيث يمكن أن يحدث كلّ شيء، وحيث الأفرادُ لا يُحصون: على أَنّ الأفرادَ في الحكاية لا يوجدون إلاّ مسمَّين وموصوفين؛ ولما كان عالم الحكاية محدوداً ومختزَلاً فنحن إن شَرَعْنا في إدخالِ أفرادٍ آخرين فيه، بات علينا أَنْ نأخذ في حسباننا حقاً واقع أَن جُزر الهاواي هي في المحيط الهادىء وأن ١٧ هو رقم أوّل... ففي حكاية «مأساة باريسية حقاً»، لا وجودَ لعشيق/ عشيقة، وأن يقرِّر المرء أنهما يتماهيان بفارس الهيكل وبالجذعية يكون كمن يقرِّر أن السيد پورتو - ريش إنما هو عشيق مرغريت.

إلى ذلك فقد نقع، في كل الحالاتِ، في انعدام الاتساق التناصّي

السابق وصفه: فإذا كانَ القناعان كناية عن العشيق/ العشيقة، فإنّ ذلك يعني أَنَّ زوجَينْ كانا قرّرا، بلا علمٍ بما يدبره الواحد للآخر، أَنْ يمضيا إلى الحفلة الراقصة عينها مع زوجَيْ الأقنعة ذاتيهما. وإذا ما شاء النَص أَنْ يحطِّم الطابع الحكائي، لدى هذه النقطة، رأيته ملزماً بقولِ أمرٍ مزيدٍ حتَّى يصلِّبَ إثباته العصيَّ على التصديق. آنئذٍ، يُؤدي نوعٌ مِنَ الاقتضاء الحكائيّ دورَهُ لدى كل قارىء عاقِل، فيصيرُ به مستحيلاً أنْ ينتهك أي نصٍ القاعدة التناصِّية انتهاكاً وقحاً للغاية: وهو (النص) إنْ كان فَعَل ذلك، فللإيحاءِ بأمر آخر (غير الظاهر بالطبع). أما الأمر الآخر، فهو النظريَّة الكامنة في ما وراء النص ـ النصيَّة الَّتي ننسبها، بالضبط، إلى ألّيه.

وكذلك، بسبب أَنَّ كُلَّ محاولة تعليل سرعانَ ما يخلخلها الفصل ٧. فإذا ما بدا أَنَّ راوول ومرغريت يعتبران من كُلّ ما جرى، فهذا يعني أنهما باتا يلمَّان بكلّ ما كانَ رُويَ في الفصلِ السالفِ. بيد أَنَّهما لبثا، إلى ذلك، على صلة بكل ما كان القارىءُ كتبَهُ بمحضِ مبادرتهِ في الفصولِ الأطيافِ، طالما أنه وجب عليهما إدراك المواقف القضوية المنسوبة إلى فارسِ الهيكل والجذعية حتَّى يسعهما أن يفسرا خيبتهما.

ثم إنّ، هناكَ قواعد الترمّز ـ العالي الأسلوبية التي ينبغي لنا أَلاَّ نقلل من شأنهما: فحين يقول النص [لقد أفادت هذه المغامرة راوول ومرغريت بعبرة]، فهو يوحي بأن الكلامَ إنما يدورُ على مغامرتهما وخطأهما. وذلك مما لا يعقل حدوثه.

أما ولو كان المرجوّ ههنا تفسير معلّل، فلمَ يكون عنوان الفصل الأخيرُ إذاً: «حَلٌّ سعيد لكل الناس، باستثناءِ الآخرين»؟ ها إن عدَمَ الاتِّساقِ الدلالي يوطِّدُ ههنا ـ توطيداً حازماً ـ أمر عدم الاتساق الحكائي. إذ لا يتيح أَيُّ تحليل دلالي لجملة [كل الناس] أَنْ يعتبر [آخرين] متروكين خارجها. فإذا العنوان الأخير يتعدّى كونه تحدياً مطلقاً لعاداتنا المفهومية الجيدة، إلى كونه تحدياً للمصداقية الأشد بداهةً. إذاً، إنه اختزالٌ رائع لكل القصة، ومَجازٌ أخير دالٌّ على عدم الصلابة وعدم الاتِّساق.

إلاَّ إذا كانت جملة [كل الناس] تعني كُلَّ الأفرادِ المنتمين إلى العالم و ن، وإذا كانت كلمة [الآخرين] تحيلُ إلى القراء الذين شَقّ عليهم أن ينتموا إلى عالم و. حيث لا تزالُ ساريةً قوانين منطق ذات حجج دامغة. وهذا مما يمكن أن يشكل خلُقية مثالية للقصة: لا تتدخلوا في العالم الخاص الذي تكون عليه أيّ قصة، ذلك أنه كونٌ عبثي حيث يمكن أَنْ تستشعروا بالضيق.

بيد أنّ في المقابل خلقيّة معارضة أيضاً: فقصة «مأساة باريسية حقّاً» إنما شاءَتْ أن تظهر كم أَنَّ الحكايات تتطلَّب تدخُّل قارئها المثاليّ، وكيف أنها لا يسعها أَنْ تحيا دون أن تغتذي من طَيفه. علماً أنها قد توشك على المَوْت، لمبالغتها في التعاضد.

١١- ٩- استخلاص

لنترك الحكاية جانباً الآنَ ولنعُد إلى النص بكلّ تعقيده. إنَّ لتعاسةِ هذه الحكاية خيراً: فهي تذكّر القارىء بوجودِ أنماط من النصوص مختلفة. البعض منها يتطلّب قدراً أقصى من تدخّل القارىء، ودون أن ينحصر ذلك التدخل في الحكاية فحسب: فتكون نصوصاً «مفتوحة». وبالعكس، فقد وجدنا أنماطاً أخرى تتظاهر بطلب تعاضدنا، إلا أنها تواصل التفكّر، بتكتّم، في ما تشاء: وعليه فقد كانت نصوصاً «منغلقة» وزجريّة.

وعلى ما يبدو، فإن قصة «مأساة باريسية حقاً» تتوسّط النوعَيْن المشار إليهما أعلاه: ذلك أنها (قصة مأساة) تغوي قارءها النموذجيّ إذ تتيح لَهُ استشفاف فراديس التعاضد الليبرالية، ثم تعمد إلى معاقبته كلما رأته مفرطاً في التأويل.. وبهذا المعنى، لَنْ تنحو قصةُ «المأساة..» منحى الانفتاح ولا الانغلاق: فبالأحرى أنها تتكلم على الامكانيتين إذْ تعرضهما عرضاً. وفي واقع الأمر، حريٌّ بهذه القصة أنْ تُنمى إلى نادٍ منَ الذوّاقة المرهفين، وقد ترأسّهُ، بحسبنا تريسترام شانداي*: ونعني به نادي النصوصِ التي تدأب على رواية القصص حول كيفية صياغة القصص. وهذه النصوصُ هي أقل مسالمة بكثير مما تُبدي: ذلك أَنَّ موضوع نقدها هو آلة الثقافة، هذهِ التي تتيح بدورها إطلاقَ العقائد وتداولها، والتي تنتج

الإيديولوجيات وتدَغدغ الوعي المزيَّف الذي من شأنه أَنْ يغذِّي الآراءَ المتناقضةَ، دونَ علم أو دراية منه. إنها الآلة التي تنتجُ عوامل **المماثلة** وتضعها في التداول، وهي التي تتيح للخطَابات المُقنعة أَن تستعمل، على سبيل المثال، هيئة الكيف اللازمة وهيئة الكم اللازمة في صورة متزامنة، وذلك دونَ أَنْ تستثير طابع إجرائها المتناقضَ على الإطلاق: وهذا مما تقوم به كل دعاية، على جري عادتها، إذ يكون خطابها العميق على الدوام: «كل الناس تستخدم هذه السلعة. تعالوا جميعاً والتحقوا بفريق النخبة القليل العدد، هذا».

Endoxa، وذلك التعريف الذي لها.

إنَّ نصوصاً من مثل قصة «مأساة باريسية حقاً» لجديرة بأَنْ تحكي لنَا مطوّلاً عَنْ سيرورة **«العمليّة - السيميائية»**، وعن الكيفيات التي تتمّ بها طرائق «جعل الآخر يظنّ» و «جعل الآخر يجعل». ولهذا السبب أثبتْنا، بالاستنادِ إلى قصة «مأساة»، فرضياتِنا النظرية حولَ التعاضد النصّي، حتى إذا تحقَّقنا منْ صلاحيتها، بأن عرَّضناها لموضوع ذي تعقيد منطقي وسيميائي دالٍّ وقيد التداول، باتَ من المتحصَّل تبيان قابليتها للتطبيق على موضوعات أخرى أبسط منه بكثير: على الخُطاب الساعي إلى الإقناع بأشكاله العديدة، تحت كلِّ أشكالِه، وعلى آليات النتاج الإيديولوجي.

Sémiosis

كذلك فإنَّ قصة «مأساة..» تحدثنا عن الطبيعة الجمالية التي ينطوي عليها نَصّ. في ظاهر الأمر، لم تبدِ دراستنا اهتماماً بتمييز القِيَم الجماليّة وتفريقها عن غيرها. على أَنَّ مجرَّد إظهار الكيفية التي يعمل بها نَصٌّ، وتبيانِ الفضل الذي يُعزى إلى بعض الاستراتيجيات التي تجعله يعمل على نحوٍ جيد للغاية (في كلِّ تعثراتِ اشتغالهِ الإرادية)، بحيث يحملنا على النظر في بنيته لدى مستوياتِهِ المختلفة كلها، بدءاً من مستواه المعجمي وانتهاءً بمستوياتِه الأعمق، إذاً لقد جعلنا هذان الأمران نستخلِص، مرة أخرى، أن **الرسالة** الجمالية إنما تحمل في ذاتها صفة الالتباس والانعكاس الذاتي المزدوجةَ؛ كما وأنها تنبئنا بأنَّ العمل على مستوى العبارة من شأنه أن ينتجَ تحريفاتٍ في نظام المضمون فيفرض علينا ذلك أَنْ نعاود النظر في عالم الموسوعة بأسرِهِ الذي يضعه (النص) موضع تساؤل.

Message

ثم إنَّ قصة «مأساة...» هي ما وراء نص، وهي ليست خطاباً نظرياً حولَ النصوص. ولهذا تراها، بدلاً من أَنْ تطلق تأكيداتها من علياءِ مرقاها النقديّ، تباشرُ عرضَ المسارِ، الذي توالَتْ فيه تناقضاتها الخاصة عَرضاً تلقائياً. فتصير بذلك أولى ضحاياها لكي تحثّنا على ألا نغدو ضحايا المواضيع النصية التي تروح تكشف النقابَ عَنْ تلاعباتها، في صورة ضمنية. وعليه قد يسعنا القول إن قصة «مأساة باريسية حقاً» إنما هي عمل مفتوح حقاً لأنها تمثّل «إستعارةً معرفيّة» (أو إپستيمولوجية).

ولكن أترانا لم نمض بعيداً في تأويلاتنا؟ فربما كانت «مأساة...» ما وراء نص فحسب، ينطوي في ذاته على خطابٍ ساكنٍ، ومباشر حولَ مبدإ التعاضد التأويلي في النوع الحكائي. وبحكم كونها كذلك فقد باتت تتحدّى رغبتنا في التعاضُدِ فتمضي إلى معاقبة عدم مراعاتنا لها عقاباً رقيقاً.

وإثباتاً منا لندامتنا، تطلبُ منا أَنْ نستكمل، من حكايتها، قواعد السلوكِ النصي التي توحي بها وتصادر عليها، سواءً بسواء.

ذلكَ هو ما حاولنا القيام به، بكل تواضع. وذاكَ ما ندعوكَ إلى القيام به، أنتَ، أيها القارىء النبيل.

هوامش

(١) كان ألفونس ألّيه (١٨٦٤- ١٩٠٥) أصدر قصته هذه في مجموعته القصصية «القط الأسود»، ٢٦ نيسان ١٨٩٠. وكان أندريه بروتون استمدَّ بعضاً مما في الفصلين ٤- ٧ وذلك في «أنطولوجيا الدعابة السوداء» من إعداده. أما فيما خصّ النص الأصلي فأنظر الملحق I من هذا الكتاب.

ملحق I

الفونس ألّيه
«مأساة باريسية حقاً»

الفصل الأول

حيث يتم تعرُّف سيِّد إلى سيدة كان يمكن أن يكونا
سعيدَيْن، لولا سوءاتُ الفهم الأبديّةُ بينهما

«O qu'il ha bien sceu»
choisir, le challan!»
RABELAIS

في بداية هذه القصة، كانّ راوول ومرغريت (أسم جميل يليق بمغامرات العشق) متزوجَيْن منذ ما يقاربُ الخمسة أشهر.

زواجُ حُبّ، بالطبع.

راوول، ذات مساء بهيّ، وإذ سمع مرغريت تغني الأغنية العاطفية الجميلةَ والأثيرةَ عن العقيد «هنري ديرڤيل»:

«الوابل، أَثيرُ الضفدعَةْ
يضمِّخُ الغابَ وينعشهْ.

... الغابُ، إنَّهُ يشبهُ نيني.

يفوح منه الطيبُ كلَّما تخلَّص من ورطة.

راوول، قلتُ، كان أقسم أنَّ رائعة الجمالِ مرغريت (Diva margarita) لَنْ تصير أبداً إلى رجل غيرِه.

فكانَ زواجهما أسعد كُلِّ الزيجات، لولا طبع الزوجَيْن الشنيع. وبين نعم، وكلا ومن أجلهما، طَقْ! صحن مكسور، صفعة، ركلة في القفا.

لدى هذه الضوضاء، مضى الحبُّ يفرُّ محزوناً، منتظراً، في زاوية منتزهٍ كبير، ساعة المصالحة القريبة على الدوام.

حينئذٍ، قبلاتٌ لا تُعَدّ، مداعبات لا نهاية لها، رقيقة ودَرِبة إلى حَدّ بعيد، وحماساتٌ من حرارة الجحيم.

حتَّى ليظنَّ أن هذين الخنزيرين جعلا يتخاصمان لكي يمنحا نفسيهما فرصة للمصالحة.

الفصل ٢

مشهد بسيط، وهو دون أن تكون له صلة مباشرة بالحدث، سوف يعطي الزّبائن فكرةً عن السلوك الذي يحيا بطلانا بمقتضاه

«Amour en latin faict amor.
or donc provient d'amour la mort
Et, par avant, souley qui mord,
Deuils, plours, pièges, forfaitz, remord..»
(Blason d'amour»

«حُبّ في اللاتينية فِعلُ حُبّ هو.
إذاً مِنَ الحب يصدرُ الموت
ومن قبله، الهمُّ الذي يعضّ،
أيام حداد، بكاءات، أفخاخ، آثام، ندم..»

(من شعارات الحبّ)

مع ذلك، فقد كان الأمر ذاتَ يوم، أخطر منَ المعهود.

بل الأحرى ذات مساء.

كانا قد ذهبا إلى مسرح الانطباق*، حيث كانَتْ تؤدَّى مسرحية «غير الوفيّة» لمؤلفها السيّد دي پورتو ـ ريش، من ضمن مسرحيات أخرى.

ـ حالما تتميّزين غروسكلود كفايةً، تقولين لي، رمى راوول بهيئة العابس.

ـ وأنتَ، حينَ تتميّز الآنسة مورينو ظهراً عن قلب، تحسنُ بأنْ تمرّر لي المنظار الصغير، جعلَتْ مرغريت توبخه.

ولما كانت هذه المحادثة افتُتِحَتْ على هذه النبرة، فإنها ما كانَتْ لتنتهي إلاَّ بأشدِّ التعنيفاتِ المتبادلة مدعاةً للندم.

في الحادِّ الجانب الذي أقلّهما، راقَ لمرغريت أنْ تحكَّ كبرياءَ راوول ضاربةً على وترها كأنما تضربُ عى آلة مندولين عتيقة وهالكة.

ثم إنهما، وما أَنْ دخَلَ المتقاتلان إلى منزلهما حتّى اتَّخذ كل منهما موقعاً في مقابلة الآخر.

اليد مرفوعة، والنظرة شزرة، والشاربان هما أشبه بشاربيْ القطط الموتورة، سارَ راوول شطرَ مرغريت، التي شرعَتْ منذئذٍ تشعر بضيق متنامٍ.

وفرّت المسكينة، خلسةً وسريعةً، أبداً كما تعدو الغزالة في الغابات المترامية.

وهَمَّ راوول بالتقاطها.

حينئذٍ، التمع بريقُ القلقِ الأسمى العبقريُّ في دماغ مرغريت الصغير.

وإذا التفتت بغتة، وارتمت بين ذراعَيْ راوول صائحة:

ـ أرجوك، راوولي الصغير، احمني!

(*) وهو نوع مسرحيّ يعتمد، في ديكوره، تمثيل الواقع المعنيّ في المسرحية بحيث ينطبق عليه إلى الحد الأكثر إمكانية.

الفصل ٣

حيث يتصالح صديقانا على نحو ما أتمنى لكم أن تتصالحوا غالباً،
أنتم الذين تدّعون كونكم محنّكين

«Hold your tongue,

Please!»

[«إرفعوا ثرثرتكم،

رجاءً!»]

....

....

....

....

الفصل ٤

كيف السبيل إلى إدراك أن الناسّ حين يتدخلون بما لا يعنيهم،
يحسنون صنيعاً إن بقوا ساكنين

«إنه لمن المدهش أن يصيرَ العالم لاذعاً منذ

بعض الوقت!»

(من كلماتِ خادمتي في صبيحة

الاثنين الأخير).

ذات صباح، بلغَتْ راوول الكلمة التالية:

«إن شئتَ أن ترى، بالصدفة ولمرة، امرأتك وهيَ منشرحة الحال، ما عليك إلا أن تذهبَ، الخميس إلى الحفلة الراقصة التي يقيمها غير المنسجمين، في الطاحونة الحمراء (Moulin-rouge). سوف تجدها مقنّعة ومتنكرة في زي جذعيّة كونغولية. وسلاماً لمن أحسن السماع!
صديق».

وفي الصباح ذاته، تلقَّت مرغريت الكلمة التالية:

«إن شئتِ، رؤية زوجَكِ منشرحَ الصدر، لمرة وبالصدفة، إذهبي إذاً، الخميسَ، إلى حَفلِ غير المنسجمين الراقص، وذلكَ في الطاحونة الحمراء. سوف تجدينه مقنّعاً ومتنكراً بزي فارس الهيكل من نهاية القرن التاسع عشر. وسلاماً لمن أحسنتِ الاستماع!

صديقة».

لم تقع هاتان الرسالتان في آذان أصمَّيْن.

ومضى الاثنان يخفيان بأروع حيلة، كُلٌّ عن الآخر، مراميهما حتَّى بلغَ اليوم المشؤوم:

ـ أيا صديقتي العزيزة، قال راوول بنبرة ملؤها البراءة، سوف أكون مضطراً إلى مغادرتك حتى الغد. ذلك أنَّ مصالح ذات أهمية عليا تدعوني للمضيّ إلى دنكرك.

ـ ذلك حسن لي، أجابَت مرغريت، والخفر الرقيق يحدوها، فأنا تلقيت لتوي برقية من عمتي أسپازيا، تطلب مني فيها أن أذهب إليها، طالما هي مريضة.

الفصل ٥

حيث نرى شبيبةَ اليوم المجنونة تدور في ممراتِ الرغائب الأشد إيهاماً وزوالاً، بدلَ أن يتفكروا في الأبدية

«Mai vouéli vièure pameus: La vido es tant bello!»

[«أنا أريد أنْ يُغشى علي ضحكاً: فالحياة جميلة للغاية!»]

أجمعَتْ أصداءُ «الشيطان الأعرج» على إعلان أن حفلَ غير المنسجمين الراقصَ كان ارتدى هذه السنةَ طابعاً منَ الأهمية زيادة عنَ المألوف.

كثير منَ الأكتاف وأفخاذ لا بأس بها، دون حسبانِ اللواحق.

وبدا أَنَّ حاضرَيْن، من هذه الجموع، لم يكونا يشاركان في هذا الجنون العام: فارس هيكلٍ من أواخر هذا القرن وجذعية كونغولية، وكلاهما مقنَّع تقنُّعاً بالغ الإحكام.

ولدى دقة الثالثة صباحاً، اقتربَ فارسُ الهيكل منَ الجذعية ودعاها إلى تناوُلِ الحساء معه.

وكلما أجابت الجذعية راحت تسند يدها الصغيرة على ذراع فارس الهيكل الصلبة، وجَعَل الثنائي ينأى عن الجموع.

الفصل ٦

حيث يتشوَّش الوضع

«–I say, don't you think the rajah laughs at us?»

–Perhaps, sir?.

Henry O'Mercier.

«قلت، ألا تظن أن الراجا هزىء بنا؟

ـ ربّما يا سيدي.

هنري أو ميرسييه

ـ دعونا لحظة، قال فارس الهيكل لنادل المطعم، سوف نستعرض قائمة الطعام خاصتنا وندقّ لكم.

إنسحب النادِل وجعل فارس الهيكل يرتج بابَ الغرفة بعناية.

ثمَّ، وبعد أن تخلّص منْ خوذته، انتزع، وبحركة مباغتة قناع الذئب الذي كانت تضعه الجذعية.

عندها أطلق الاثنان صرختيْ ذهولٍ، في آنٍ معاً، إذ لم يتعرَّف الواحد منهما إلى الآخر.

هو، لم يكن راوول.

هي، لم تكن مرغريت.

وتقدَّم كل منهما بالاعتذار إلى الآخر، وسرعانَ ما أقاما صلة معرفة، وذلك في ظِلّ عشاء من حساء، لسوف أسكت عن الكلام المباح، بعد هذا.

الفصل ٧

حَلٌّ سعيد لكل الناس، باستثناء الآخرين

«Buvons le vermouth grenadine
Espoir de nos vieux bataillons».

Georges Auriol

«لنشرب نبيذ الرمّان الأبيضَ
أمل محاربينا القدماء».

جورج أوريول.

وكان لهذه الحادثة المؤسفة أن لقَّنت راوول ومرغريت درساً (لا ينسى).

منذ تلكَ اللحظة، لم يعودا إلى المخاصمة على الاطلاق وعاشا في سعادة تامة.

لم يكن لهما أبناء كثيرون بعد، ولكنّ ذلك قد يحصل.

ملحق II

الفونس الّيه

فرسان الهيكل

وإليكم امرءًا كان شخصاً هاماً، وكانَ شخصاً فَظَّ الطباع، يهوى المُنَازَلة!

رأيتَه عشرين مرة، وقد شَدَّ إليه بفخذيه الحصانَ، يوقف سريَّة خيالة بكاملها، بقوة شكيمته.

كانَ رقيباً في تلك الأثناء. ولئن كان صارماً بعض الشيء في الخدمة، فإنه كان فاتناً في المدينة.

ما كان اسمُهُ؟ اسم ألزاسي يشقُّ عليَّ تذكره، مثل وورتز أو شوارتز... نعم، ينبغي أن يكون هذا، شوارتز. على أي حال، فالاسم لا يفيدنا بشيء في هذا. هوَ من مواليد «نوفبريزاخ»، ليس من نوفبريزاخ بالضبط، إنما من جوارها.

أي رجل هو شوارتز هذا!!

ذات أحد (كنا لا نزالُ نقيم في موقع أوران)، في الصباح، قال لي شوارتز: «ما الذي نزمع عمله اليوم؟». فأجبتُه: «ما تشاؤه أنتَ، يا صديقي شوارتز عجوزي».

حينئذٍ اتفقنا على الذهاب في نزهة إلى البحر.

فاتخذنا لنا سفينة، «شُدّ أيها الصبي، جيداً»!، وها نحن في عرض البحر.

كانَ الطقس جميلاً، قليل من الهواء، ولكن الطقس جميل على أي حال.

ولبثنا ننسَلُّ مثل حمتيْ عقرب، سعيدَيْن بأَن نرى شاطىء أفريقيا يتوارى عن ناظرينا.

المجذافُ يخوضُ بنا ويغوصُ! ثم أيّ فطورٍ هو هذا، بربِّك! أذكُرُ بالأخص قطعة من لحم خنزير مشويَّة جيداً حتَّى الفحشاء.

في غضون ذلك، ما كنا لننتبه إلى أنَّ الهواءَ راح يزدادُ برودة، وأن البحر بدأ يهدر بصورة داعية إلى القلق.

ـ يا للشيطان! قالَ شوارتز، كان ينبغي...

في الواقع، كلا، لم يكن يدعى شوارتز.

إنما كانَ له اسم أطوَلُ من السابق، كما لو كان يقال لَهُ شوارتزباخ.

تمام يا للاسم شوارتزباخ!

إذاً، قال لي شوارتزباخ: «يا صغيري، ينبغي التفكير في العودة». ولكن دعني من العودة. كان الهواءُ يزمجر في العاصفة. وقد رفعَت زوبعةٌ الشراعَ، ومضى مجذافٌ في سبيله منسلاً، تحمله موجة. ها نحن تحت رحمة الموج..

بلغنا عُرضَ البحر بسرعة محزنة وارتجاج رهيب.

ولما كنا مستعدَّيْن لكلّ حدث، نزعنا جزماتنا وسترتينا.

أسدل الليل ستارهُ، والعاصفة الهوجاء جعلَتْ تصعِّد سورتها.

آه! إنها لفكرة جميلة تلك التي خطرَتْ لنا، بأن نمضي إلى تأمُّل لازوردِكَ، أيها البحر الأبيض المتوسط!

ومن ثم، أقبلت حالكة الليل المظلمة. لم يكُنْ الوقت تخطى منتصف الليل، ولم يبعد عنه.

أين كنّا؟

شوارتزباخ أو شوارتزباخر، إذ ها أنا أتذكر الآن، إنه شوارتزباخر: شوارتزباخر، قلتُ، الذي كان مُلمّاً بجغرافيته كما لو كانت خاتماً في إصبعه (سكانُ الألزاس واسعو الاطلاع)، قال لي:

ـ إننا في جزيرة رودس، ايا عجوزي.

ألعلّ الإدارة، بيننا، يفترض بها أَن تضع شاراتٍ دالةً على كُلِّ جزر البحر الأبيض المتوسط، ذلك أَنَّ أحداً سوى الشيطان، لا يسعه أن يتعرَّفَ إلى موقعهُ، حين لا يكون ذلك من جاري عادته؟

كانت الظلمة دكناءَ أشبه بالديجور. مبلَّلَيْن للغاية، رحنا نتسلَّق صخورَ الجُرف.

لا ضوء يلوح في الأفق. كان ذلك مدعاةً للحبور.

ـ سوف نفوِّت علينا استدعاءَ الصباح، قلتُ، فقط لقولِ شيء.

ـ وحتى استدعاء المساء، أجاب شوارتزباخر بنبرة كئيبة.

وسرنا في نباتات من الجَوْلَف هزيلة وبين وزالاتٍ شائكة. ظللنا نمشي دون أنْ ندري إلى أين، لندفىء جسمينا فحسب.

ـ آه! صاح شوارتزباخر، إني ألمح نوراً، ألا تراه، هنالك؟

اتَّبعت وجهة الإصبع التي مَدَّها شوارتزباخر أمامه، وبالفعل فقد كانَ ضوء يلتمع، ولكن في البعيد القصيّ، إنه ضوء هزيل.

لم يكن ذلكَ مجرد ضوء منزل، ولم تكن نيراناً شُبَّتْ في بلدة، كلا، كان ذلك ضوءاً هزيلاً.

وعاودنا سيرنا مسرعَيْن.

وصلنا أخيراً.

على هذه الصخور كانَ يرتفع صرح قلعة ذاتِ هيئة مهيبة، قلعة من حجر عالية، حيث لم يكن المظهر يوحي بالانشراح، طول الوقت.

أحد أبراج هذه القلعة كان يقوم مقام كنيسة صغيرة، والضوء الذي كنا لمحناهُ لم يكن إلاَّ تلك الإضاءة المتسربة من النوافذ الغوطية العالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تناهت إلينا أناشيد، أناشيد خفيضة وذكورية، أناشيد يقشعرُّ لها بَدَنانا.

ـ لندخُلْ، قالَ شوارتزباخر، حازماً أمره.

ـ من أين؟

ـ آه! إليكَ.... وجدنا مخرجاً.

ولئن كان مضى شوارتز باخر يقول: «لنبحث عن مخرج»، فإنه أرادَ القول: «لنبحث عَنْ مدخل». والحال أنه، لما كان الأمران سيَّان، لم أظنَّ من واجبي تنبيهَهُ إلى خطئِه النسبي، الذي ربما لم يكن سوى زلّة لسان أدى البردُ إليها.

كان ثمة الكثير منَ المداخل، إلا أنها كانت موصدةً جميعها، ولا جريسات. كما لو أن الممرّات لم تكُنْ قائمة.

وفي آخر المطاف، ولفرط ما درنا حولَ القلعة، اكتشفنا جداراً صغيراً أمكننا تسلُّقه.

ـ الآن، قالَ شوارتزباخر، لنبحث عن المطبخ.

من المحتمل أنه قد لا يكون مطبخ في المبنى، طالما أَنَّ أية رائحة طَهوٍ لم تبلغ أنفينا وتدغدغْهما.

ومضينا نتنزّه في أروقة لا متناهية ومتشابكة.

أحياناً، يرفرف خفَّاش حتّى يلامس وجهَيْنا بقطيفته الوسخة.

لدى عطفة ممشى، الأناشيد التي كنَّا سمعناها كانت تطرقُ آذاننا، بالغة سمعنا من مسافة قريبة جداً.

كنَّا في قاعة كبيرة أن تكون متصلة بالكنيسة الصغيرة.

ـ بت أدرك ما الأمر، قالَ شوارتزباخر (أو بالأحرى شوارتزباخرمانّ، تذكرتُ الآن)، إنَّنا قائمون وسط قلعة فرسان الهيكل.

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات، حتّى انفتحت بوّابة من حديد على مصراعيها.

وفاضَ علينا النور من كل مكان.

بضعة مئات من الرجال كانوا هنا، رُكَّعاً، مدرَّعين بالحديد، والخُوَذ على الرؤوس، والقامات عالية.

قاموا وجلبَة الحديد الطويلةُ مضَتْ تواكب قيامهم، التفتوا شطرنا فرأونا. آنئذٍ، وبالحركة عينها، أمسكَ الجميع سيوفهم بالأيدي! ومشوا إلينا، والسّنانُ عالية.

لكم وددتُ أن أكون في موضع آخر.

ودون أن تنتابَه أيّ بلبلة، شَمَّر شواتزباخرمانّ عن ساعديه، واتّخذ وضعية الدفاع وصاح بأعلى صوته:

ـ إيه! بحقّ الله! يا سادة فرسان الهيكل، إنْ كان صحيحاً أنكم ربّما كنتم مئةَ ألف... فإن الصحيح كذلك أنَّ اسمي دوران...!

آه! تذكرتُ الآن، إنه يدعى دوران. كان والده خيّاطاً في مدينة أوبرفيلييه. دوران، نعم، إنّ هذا هو اسمه حقاً...

دوران الوغد، هَيّا! أيُّ رجل هو!

ملحوظة

١ـ القط الأسود، تشرين الأول ١٨٩٧.

الإحالة إلى مرجع ومرافقته إياه في سياق معطى.

تضايف Correlation

وهو يعني تقابُلَ حدّين، بحسب المنطق. ومن الوجهة السيميائية، فإنَّ التضايف يعني تقابُلَ حدَّيْن أو خاصَّيتين، بحيث يتوقف تصوّر كل منهما على تصوّر الآخر.

متضايف Corrélat

وهو الحَدُّ الواحد، من اثنين، الواقع في علاقة تضايف.

مُتاصة Co-texte

وأعني به العلامة أو الفعل اللذين يرافقان تأوين النص من قبل القارىء، إذ يكونان على حاشيته اللصيقة به ولدى أطرافه. ويردان من معين القارىء المعرفيّ ليعيناه على تأوّل النص.

حل الترمّز Décodage

وهي العملية التي يتم بموجبها حلّ الأرموزة أو النظام الرمزي التي ينطوي عليها اللفظ المعني.

فعل القصد، الإشاري Deictic

ويعني، بلغة غريماس السيميائية، كُلَّ العناصر اللسانية (ضمائر، حالات، أدوات إشارة، إلخ..) التي يسعها أن تحيل إلى طرفِ التلفّظ ومتعاطيه.

مدلول خارجي Denotatum

وهي كلمة لاتينية الأصل وتعني مدلول الكلمة الخارجيّ، أي المدلول الذي يُقصد به إلى التحقق من «مصداق» الكلمة بصورة شاملة. أو هو المرجوع إليه، بمنظار پيرس، وهو يمثل له كل عنصر من عناصر المجموعة، المعنية بالتصنيف الدلالي لا التداولي.

الدالّ أو الـمعيّن Désignateur

وهي العلامة أو اللفظ الدالاّن على شيء من العالم المرجعيّ.

تعييني Désignatif

وهي صفة تُنْسَبُ إلى الدلالة المنطبقة على شيء مِنَ العالم المرجعيّ فصار بها معيّناً.

تصديق Dici-signe

وهي العلامة «القابلة للحكم»، بمنظار بيرس، أي أنها تقبل الصدق أو الكذب.

قاموس أدنى Dictionnaire minimum

ويعني، بمصطلح إيكو، الطاقة القاموسية الدنيا التي يكون قارىء هزيل الثقافة قد حازَها، فجعَلَ يقارنُ بها، لحظة تأوينه النص، كلماتِ هذا الأخير، بقصدِ الإدراك والتأويل.

علامة عنوانية Didascalie

وهي تعود إلى صنف العلاماتِ التي يصح فيها كونها عناوين لما يندرج تحتها.

فاصلة أو رابط الفصل Disjonction

وهو، بحسب علم المنطق، ما يربط التعليل الشرطي الذي يجريه القارىء (أو المحلّل) في شأنٍ كلامي أو تداولي.

ضميريّ Doxastique

وهي صفة تنتسبُ إلى أفعالِ الضمير وصفاتِه، وذلك ضمن نطاقِ الخطاب، موضوع القراءة أو التأويل.

إثنينية Dyadique

وهي صفة تطلق على جري مألوف التعليل المنطقي، على كون الطبيعة ذات مبدأين، في مقابلة أن يكون للطبيعة مبدأ واحد. وقد يعني بها «إيكو» الواقع (المرجعي) ذا المبدأين.

مرسِل، باثّ Emetteur

وهو الاسم الذي يطلقه علماء التواصل على أحد طرفَيْ العملية التواصلية، ويكونُ مرسِلَ الرسالة إلى متلقٍّ ما.

تجريبي Empirique

وهو النسبة إلى حكم أو قارىء، بحسب أومبرتو إيكو، يُعتمد لقياسِ فرضية، دونَ العودة إلى قانون أو مبدإ بالغ التجريد.

موسوعة في حال الإمكان Encyclopédie potentielle

وهي مجمل الخزين المعرفي الذي يكون القارىء النموذجي (والعادي على السواء) قد حصّله والذي يتصوّره «إيكو» في حال الإمكانِ (لدى القارىء) كلّما حثّته النصوص أو الخطب على تأويلها وشرحها.

عامل المماثلة Endoxa

وهي كلمة لاتينية وتعني عامل المماثلة بين طرفَيْن يجري تعليل صِلاتهما من الوجهة المنطقية.

لَفْظ Enoncé

أي كُلّ كلام، شفهيّ ومكتوب، يصير ملفوظاً، من قِبَل متكلّم أو كاتب، ويكون ذا دلالة معطاة، حتّى قَبْلَ أن يجرى التحليل اللساني عليه.

تلفُّظ Enonciation

وهو يعني، من المنظور السيميائي، الكيفية التي يتمُّ بها إحداث التّشييم، كما قد يعني اللفظ الذي اتخذ لَهُ «القصديّة» بمثابة الوظيفة ـ الإسناد.

استلزام Entailment

وهو أحد أنماط التحليل المنطقي، ويعادِلُ «الوقف» على ما يسميه المناطقة العرب؛ على سبيل المثال، يستلزم فعل الشرب للإنسان، وجود مياه، وهذه تستلزم بدورها أن تكونَ في إناء، وهكذا دواليك. بيد أنَّ هذا التعليل يندرج في باب علم التداول الأعم.

كيانات Entités

مفردها كيان، وهو يعني شيئاً أو موضوعاً منْ موضوعاتِ الفكر ذا صفات غير محدَّدة.

الجوهرية Essentialité

وهي الكلمة المصدر المتحصِّلة من النسبة إلى الجوهر، ويعني بها إيكو الحالة التي تكونُ عليها صفَةٌ أو خاصِّية إذ تنسَبُ إلى شيء أو موضوع، فتدلُّ عليه دلالة جوهرية، فتكشف عَنْ أَخصّ ما ينماز به، في صنفِه ونوعِه وجنسِه. وذلك في مقابل العَرَضيَّة التي تعني حيازة الشخص أو الموضوع على صفة عرضة للتبدُّلِ وفق الظروف.

ما صَدَقَ أو مصداق Extension

وجمعها مصاديق وتعني الكلمة، من وجهة، مجموع الأشياء، سواء كانَتْ واقعية أو مثالية، التي ينطبق عليها عنصر من معرفتنا. في حين أَنَّ الموضوعاتِ السيميائية، وإنْ دُرِسَتْ بصورة مستقلة عن مرجعها الخارجي، فإنها ترى مِنَ المفيد أَنْ تتقصَّى كلَّ مواقعاتِ كلمة ضمن سياقاتها الكثيرة، ما يشكِّل ما صَدَقها أو مصداقها.

ماصَدَقيَّة، مصداقيّ Extensive

نسبةٌ إلى المصداق.

لساني - خارجي Extra-linguistique

صفة تطلق على كلّ ما يقوم خارج التحليل اللساني، ويعود إلى العالم المرجعيّ بإزاء عالم الخطاب.

سيميائي - خارجي Extra-Sémiotique

صفة تنسَبُ إلى كل ما يقوم خارج التحليل السيميائي، أكانَ موضوعاً أو عنصراً (من الخطاب، أو النص)، من العالم المرجعيّ.

حكاية Fabula

وهي النسيج الداخلي الذي يجعل من السرد، أو القصة، أم الرواية، أو المَثَل (أي كل أنماط القَصّ)، قابلةً لأن تحدثَ التشريق (لدى قارئها) في مسار أحداثها المترابط والمطرّد. ومن نافل الكلام، أَنَّ مفهوم الحكاية هو في صلب نظرية أمبرتو إيكو السيميائية، إذ يعتبرها القالب الأساسيّ الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس المصطلحات

إطلاقُ الحَمْل Acception

أو المفهوم، أي الدلالة التي تنسبُ إلى كلمة ذات صفة تنظيرية، وذلك ضمنَ سياق تكون فيه الكلمة عينها عرضةً لتبديل دلالاتها.

موصليّة أو بلوغية Accessibilité

أي أنْ تكون بعضُ الصفاتِ القائمة في عالـمَيْن (مرجعيَّين) كامنَيْن في كلمتَيْن أو لفظَيْن داخلَيْن في علاقة دلالية، قابلةً للتداخُلِ والوصولِ، بعضها إلى بعض.

فاعل Actant

هو مَنْ يؤدي عملاً أو يتلقَّى أثره، بلغة السيمياء. ومن وجهة قواعد الحالات فإن «الفاعِلَ» هو الطرف الذي يقوم ضمن علاقة مبيَّنة (أو مضمرة) في نص حكائي أو تحادثيّ.

دفعاً للالتباس والاضطراب في النص، وتأكيداً على فاعلية الفعل وراهنيته، آثرنا ترجمة المفردات المشتقة من المصدر الفرنسي (acte)، باشتقاقها من المصدر العربي (فِعل)، وعليه نضع فعل مقابل: acte، وفاعل مقابل: actant، وفاعلي مقابل: actantiel، وفعّل (أوّن) مقابل: actualiser، وتفعيل مقابل: actualisable، وفعلي (آني) (راهن) مقابل: actuel.

نشاط تعاضدي Activité coopérative

(أو تعاوني)، أي كُلّ مقاربة يجريها القارىء على النص المقروء، فيكون يعاضد بها النصّ لإدراك دلالاتِ اللفظ فيه.

فعَّل Actualiser

وهي فعل مشتق من المصدر «فِعْل»، ونعني بها أنْ يباشر القارىء، لحظة وقوع نظرِهِ على أجزاءِ النص، في تعيين دلالاتها، فيصيرُ المقروء «مُفَعَّلاً»، على هذا النحو وله فعاليته وآنيته وراهنيته.

قابل للتفعيل Actualisable

أي أن يكون اللفظُ، في النص أو الخطاب، قابلاً لقراءة يجريها عليه القارىء فيستخرج منها ما يعينه على تأويل اللفظ هذا، وإن بصورة أوَّلية.

تفعيل Actualisation

وهي العملية التي يجريها القارىء لإبراز دلالات اللفظ في أثناء القراءة.

اندغام Amalgame

أَي أَنْ تتلاقى صفاتُ موصوفَيْن أو أكثر وتندغم في هيئة واحدة، متعددة الدلالاتِ.

تحليل تقطيعي Analyse compenentielle

وهو التحليل الذي يجريه القارىء أو الباحث على السواء حَوْلَ نَصّ أو لفظ ويكون (التحليل) قائماً على أساس الصفاتِ (الجوهرية والعرضي) المقطَّعة في خاناتٍ.

تكرارية Anaphpriques

أي أن تكون عدة صفات مستهلةً في خطاب، ومكرَّرة بصورة لافتة.

قبل الأدب Ante literam

وهي الحال التي تنطبق على صفة الكلمةِ الموجودة في عقل القارىء النموذجي، قبل اندراجها في عدادِ الأدب. وذلك، معارضةً لنظرة القديس توما وابن سينا، اللذين يعتبران، كلاهما، أَنَّ للإسميّة (Nominalisme) ثلاثة أنماط في الوجود؛ بعد الكثرة (Post rem)، وفي الأعيان (in re) وفي العقل الإلهي قبل الكثرة (Ante rem).

حجة Argument

كلمة تَخْتَصّ بعلم المنطق، حديثه وقديمه على السواء، وتعني الاستدلال على صدق الدعوى.

إثبات، أو تقرير Assertion

وهو الحكم بصدق القضية في الإيجاب والسلب، من الوجهة الفلسفية. أما بحسب نظرة المؤلف «إيكو»، فهو يعني الحكم التقريري الذي يترجم عن وجود (للشيء، أو المرجع) مستقلّ عند الضرورة من جهة مطابقته للوجود.

حقل ـ سياق Champp-contexte

وهو، من المنظور الإيكوي، مجموع الألفاظ (Enoncés) المنظورة والممكنة حيث يقوم اللفظُ موضوع النقاش.

حقل معجماني Champ lexématique

وهو مجموع من الوحدات المعجمية، مما يعتبره المحلّل السيميائي منطوياً تبعاً لفرضية اشتغالِه، على تنظيم بنيوي كامن، يستلزم الكشف عن دلالاتِه العميقة في النص.

أصنوف Calssème

وهو، باللغة السيميائية، مجموع السيمات السياقية، أي تلك المتواترة في الخطاب والضامنة نظيرَةُ.

ترمّز تمهيدي Codage préliminaire

وهو كناية عن عملية تنظيم الرموز الأولى التي يبادر إليها المؤلّف، إبّان صياغة نصّه أو خطابه، والتي يعمد فيها إلى جمْع العناصر الدلالية الرئيسية المكوّنة للنظام الرمزيّ بصورتِهِ التمهيدية.

أرموزة Code

وهو النظام الرمزي الذي يكون عليه جزء الكلام، حين يباشر القارىء، أو المحلّل تفكيك معمياته والكشف عن التباساته. وفي المنظور السيميائي الإيكويّ، تعني الأرموزة مجموع الفئات السيمية، التي يشكل القاموس المعجماني تمظهرها على مستوى العلاماتِ اللسانية.

الأرموزة اللاحقة بالمتمّم Code poaérétique

مرمّز Codifié

أي أنْ يكونَ الكلام أو صورة الشخص الموصوفة واقعَيْن في حالٍ منَ الالتباس، إزاءَ القارىء، بحيث يخلص الأخير إلى أنَّ إدراك كنهيهما إنّما يتطلّب معرفة دلالاتِ نظاميهما الرمزيَّين الكامنَيْن.

التعاطي المتساوي Coeteris paribus

بين طرفين متقابلَيْن، ولا سيّما إذا كانَ في الأمر تعليل منطقي يطاولهما.

الشاهدية ـ المترافقة أو، التشاهد Co-indexicalité

وهي تعني ما يلازم العلامات الشواهديَّة، من حيث قدرتُها على تعيينِ الفاعِل في سياق عام، وذلك للمزيد من تخصيص هذا التعيين.

تضامّ Collocation

وهو يعني التداعي المألوف الذي يكون بين كلمة وأخرى، داخل خطاب واحد ملفوظ.

تصور، قابلية التصور Conceptibilité

أي القابلية التي يكون عليها الكلام في وصفه الأشياء وتصنيفها، تصنيفاً كلامياً ـ ماورائياً بالطبع.

تَصَاحُب Concomitance

أي أَن تصحب الدلالَةُ الكلمةَ مصاحبَةً ثابتَةً في السياق حيث تردُ متواليَةً.

دلالة التزامية، أو تبعية Connotation

أي الدلالة التي تلازم كلمة أو عبارةً، ملازمةً أوَّلية، دون أَنْ يكون الفضل فيها لسياق عرضة للتبدُّل.

بنائية Constructivisme

وهي النزعة الآخذة ببعضِ السيميائيين، أسوةً بالبنائية الجمالية والفنية لدى الأخوين غابو ويڤسنر (Gabo et Persner, 1920)، شطر الإصرار على البناء، في أطروحاتهم. إنها، بعبارات أخرى، المغالاة في ردّ كل ظاهرة إلى بنية تقوم عليها.

مضاد لحدوث الفعل Contrefactuel

وهو يعني، بحسب علم التداول، ما يكونُ مضاداً لجريانِ الفعل، موضوع الكلام أو الخطاب الملفوظ.

اشتراك في المرجع (إرجاع مشترك) Co-référence

أو ما يرافق الإحالة إلى المرجع، بلغة السيميائيين. وتنطوي على مدلول

لايني القارىء النموذجي يستخدمُه لتحليل الخطاب وتأويله.

الهذيَّة
Haecceitas, Ecceitas

اسم مشتق من هذا (باللاتينية)، ويُطبق على مجموع (الصفات، العلامات..) ما يكون به الشيء هذا الشيء بعينه، دونَ غيره.

تفسيري
Herméneutique

وهو يُنسَبُ، عادةً، إلى تفسير الكتب المقدَّسة. ويعني بها (الصفة) إيكو، في كتابه «القارىء في الحكاية»، الصفة التي يكون عليها التأويل، بغض النظر عن مستوياته.

انقلاب في الكلام
Hypallage

وهو يعني أن ينسب المؤلف إلى كلمةٍ ما يصح في كلمة أخرى من نفسِ الجملة.

ترمّز عالٍ
Hypercodage

أي أَن يكون الكلام موضِعُ التأويل على درجة عالية من الانتظام الرمزي والحالة هذه تستدعي منَ القارىء (المحلّل) المزيدَ من الجهد لإدراكِ عناصر الأرموزة (أو الكودة) السابق وصفها، وتأويلها.

أيقونات متعالية
Hypoicônes

أي تلك العلامات، بحسب إيكو، التي تعبّر عن المرجع تعبيراً مفرطاً في دلالته عليه (المرجع، أو الشيء).

لِهَاج
Idiolecte

وهو يُطلق على ما يشكّل أسلوبَ شخص واحد في التكلُّم، حتَّى ليكون مثابة لَهْجٍ مخصوصٍ به، دونَ عامة الناس.

فعل داخل في القول
Illocution

وهو مفهوم يعني به، علم التداول، إيرادَ فِعلٍ ذي طبيعة دلالية محسوسة داخِلَ القولِ، الذي يجري لفظه.

غير معلل Immotivé

وهي صفة كان أطلقها «دي سوسّور» على العلامة (اللغوية) إذ اعتبرها ذات طابع اعتباطيّ (أي لا تقوم علاقة لازمة بين دالّها ومدلولها).

اقتضاء أو تضمّن Implication

وهو يعود إلى علم المنطق، ويعني إحدى دلالات اللفظ على جزء من أجزاء المعنى المطابق لَهُ؛ كدلالة الإنسان على الحيوان وحده، أو على الناطق وحده.

تضمير Implicitation

وهو الفعل الذي يكون بموجبه الكلام مستتِر المعنى، أو مضمرَهُ.

شاهد Index

«وهو نوع من العلامات يدلّ على موضوعه بطريقة بعيدة، وذلك بأن يتوسط بينهما شاهد آخر أو أكثر. فالدخان شاهد على النار، وهذه بدورها قد تكون شاهداً على وجود بيت..».

د .عادل فاخوري ـ تيارات في السيمياء ـ

ص: ٥٨- ٥٩

شاهديّ، شاهديَّة Indexicale

وهي النسبةُ إلى الشاهِد، ويمكن أن تكون العلامَةُ أو الإشارة شاهدية، أو غيرهما.

قرائن مرجعية Indices référentiels

أي أدلَّة حسيَّة تشير إلى المرجع، موضوع التداول، على أَنْ ينطوي الكلامُ عليها.

قصد Intension

ويعني به علماء التواصل (أو التواصلية) آلية من اثنتين تتم بها عملية الاتصال بين اثنين (بين نص وقارىء مثلاً) وتعني إدراك الباثّ أو المتلقيّ الرسالةَ إدراكاً نَظَرياً.

قصديّ Intentionnelle

وهي النسبة إلى «قصد»، في معارضتها «للماصَدَق»، والمصدَاقيّ.

معنى متضايف Intentio

أي المعنى الذي كان داخلاً في علاقة تضايُف، بين طرفَيْن واقعَيْن في تعليلٍ متبادل.

تعبير Interprétant

ويعني به إيكو، اقتداءً منه بالنظرية البيرسية، ما يقوم عنواناً نظرياً مجملاً لكلّ فئات المدلولِ التي تنطوي عليها العلامة المفردة. وهي العلامة الدالة، دلالة تداولية على الموضوع الخارجي المعنيّ.

تأويل Interprétation

وهو العملية التي يباشرها القارىء، للتدقيق في المعاني والتوفيق بين ظاهر النص وباطنه.

(المعجم الفلسفي ـ د.جميل صليبا. جزء ١ـ ص٣١٤)

نظير Isotopie

وهو يعني، بمنظور غريماس، أن يكون للخطاب ـ اللفظ حدود (مضافات، وأركان، وصُوَر سيمية...) دنيا وكبرى، توفّر لَهُ تجانُسَهُ. وعليه يكون النظير مدى هذا التجانس والاتساق ومحصلته.

علامة قانونية Legi-signe

وهي العلامة التي تتفرع عن كل من العلامة الشاهدية والوصفية الشاملة، بأن تكون في علاقة ثنائية مع العلامة العينية في كل من هذه.

أعجوم: Lexème

«ويعني مجموعاً من المساراتِ الخطابية الممكنة، التي تؤول النص على الدوام، وبفضل تلاقي سيمات سياقية مختلفة، يُصار إلى تحقق هذه الأعجومات في شُميمات عديدة» A.J. Greimas– dict. raisonné H.4. P. 208

معجماني Lexématique

وهي الصفة التي تطلق على أيّ مسار خطابي ـ يُقصد به التأويل ـ ويكون قائماً على بنية معجميّة جليّة.

قضية كبرى Macro-proposition

وهي تعني، وفاقاً للمنطق التقليدي، أَنْ يطرح المعلِّلُ قضيَّةً تكونُ كبرى، قياساً إلى القضايا الصغرى، قاصداً بها إلى مناقشة المسألة الأساسية في الخطاب، أو النص.

بُنية كبرى Macro-structure

وهي تسمية يطلقها المؤلف على إحدى البُنَى القائمة في الحكاية، وتكون أكبرها، كما يمكن أن تكون هذه التسمية نوعاً من القياسِ البنيوي، أو قالباً منَ القوالب تصدقُ على أجزاءِ الخطاب أو النص وغيرهما.

مدار دلالي كبير Macro-topic

ويعني به إيكو المدار الدلالي الذي ينطوي عليه الخطابُ أو اللفظُ، وتكونُ تنميته إلى الحدّ الأكبر ممكنةً، عَبْرَ القضايا المطروحة فيه، كأن يدرك القارىء أن مدار الحكاية الأكبر إنما هو خطف شخصية وليس خطاباً سياسياً، على سبيل المثال.

تجلٍّ خطّي Manifestation linéaire

«لطالما اعتبر الاتجاهُ التوزيعي (في علم الدلالة) أنّ الخطّية خاصّية أساسيّة من خاصّياتِ اللفظ..» [غريماس، كورتيس - سيميائية... ص ٢١١] وعليه فإن **التجلي الخطّي** إن هو إلاّ الخاصّية التي تصحّ على اللفظ حالما ينشأ مستوى العلامات في ذهن قارئه.

قياس القضية الحملية Measure of predication

وهو قياسُ القضية التي تنطوي على إسْنادٍ، من الوجهة المنطقية، بالطبع.

رسالة Message

وهي بمثابة المضمون الذي تنطوي عليه عملية التواصُلِ الكلامي بين باثّ ومتلقّ.

ما وراء مسرحي Métadramatique

وهي صفة أطلقها المؤلّف على الخطّاب أو النص الذي يتناوَلُ بالمعالجة ظروف الأداء المسرحي، وفاعليه في آن.

تـحويرات صوتية، اشتقاقات Métaplasmes

أي أن تنسج كلمات جديدة من أُخرى قديمة، فيتم تـحويرها على هذا النحو صوتياً ودلالياً.

رخوات لفظية Métataxes

ما وراء ـ نصِّي Méta-textuel

ويعني به المؤلف إيكو ما يتعدَّى النص، من علاماتٍ ورموز وأشياء تعود إلى العالـم المرجعي، وتكون على صلةٍ شارحة بالنص نفسهِ. وغير خفيٍّ أَنَّ هذا المفهوم اتَّخَذَهُ المؤلف من ميدان علم التداول.

مجاز مرسل Métonymie

جهة Modus

موناد، أو محمول أحادي Monade

وهو تعريف منطقي، يعني به المؤلف المحمولَ الأحاديّ، أَي الوحدة الواحدة. «وكان أطلقه بعض أفلاطونيي القرن الثاني عشر على الله من حيث هو واحد وبسيط، واستعمله جيوردانو ـ برونو وهنري مور للدلالة، على العناصر المادية أو الروحية البسيطة، التي يتكون منها العالـم».
(المعجم الفلسفي ـ د .جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبناني ـ ص ٤٥١)

ولربما قَصَد به إيكو وحدة الدلالة الأبسط، وغير المركبة، في الكلامِ واللفظ.

حكائية Narrativité

ويعني بها المؤلف إيكو «الخاصية المعطاة التي من شأنها أن تـميِّز نمطاً مِنَ الخطاب، والتي يسعنا خلالها أن نتميز الخطَابات الحكائية مِنَ الخطابات غير الحكائية..»

[كورتيس ـ غريماس ـ ص ٢٤٦]

عامل Opérateur

ويعني به «إيكو» التعبير أو أحد أشكال اللغة ـ داخل الخُطَاب أو النص

طبعاً ـ الذي يتمّ بفضله تحويل عبارة أو سياق من فئة دلالية معيَّنة إلى أخرى. إذاً، يكون العامل ضامناً التحويلَ الدلاليّ، بصورة أو بأخرى، على المثالِ الذي أعطاه «إيكو» إذ أورد: «لنحلّلْ أحد هذه العوامل، الكلمة بالعكس [Invece]...» ـ ص ٢٣ـ

عامل نَصيّ: Opérateur textuel

وهو العامِل، السابق وصفه، الذي يكون مجال فعلِه محصوراً في النّصّ دون غيره من أشكال الكلام.

تقابل بدئيّ: Opposition générique

«هذه الكلمة تعني مفهوماً عملانياً من شأنه أَنْ يحدِّد وجودَ علاقة، بين فئتين دلاليتين (كبيرتين) دون التمكن من الكشف عن طبيعتها (العلاقة)..»

[كورتيس، غريماس، سيميائي ـ ص ٢٦٢]

على سبيل المثال فإنَّ الكلمة الحالية [ضدّ، أو عكس] في حال توسطَتْ جملتين باتَتْ دالةً على وجود تقابُل دلالي بين الجملتين الآنفتين، على أنه يكونُ **بدئياً**. باعتبار أَنَّ القارىء ـ بحسب إيكو ـ يستكشف العلاقاتِ الدلالية الكبرى في النص، لدى **أولى** مراحلِ التأوين التي يباشرها إزاء النص.

وحدات معجمية مركَّبة Paralexèmes

«يسعنا أَنْ ندعو الوحدات المعجمية المركبة تلك الوحدات على صعيد المضمون والتي تكون أبعادها التركيبية، على صعيد التعبير، أوسَعَ من الوحدات المعجمية (العادية)، إلا أنها من الوجهة الصرفية، تكون قابلةً للاستبدال من داخل صنف من الوحدات المعجميَّة المخصوصة...» [غريماس ـ كورتيس ـ ص ٢٦٧]

من مثل: حاملة الطائرات، مطحنة البُنّ...

استدلال مغلوط Paralogisme

«إذا وقع الغلط في الاستدلال سمّي ذلك الاستدلال استدلالاً زائفاً أو

كاذباً.. والغلط في هذا الاستدلال لا يتضمن التمويه على الخصم...»

[المعجم الفلسفي ـ د .جميل صليبا ـ جزء ٢ ص ١٢٩]

مصادرة على المطلوب Petitio principii

تعبير لاتيني يعود إلى علم المنطق ويعني «مغالطة تجعل المطلوب جزءاً من مقدمات البرهان المراد به إنتاجه... كمن يقول: إن كل إنسان بشر، وكل بشر ضحاك، فكل إنسان ضحاك» [المعجم الفلسفي ـ د .جميل صليبا ـ جزء ٢ـ ص ٣٨٢]

فقهيّة، فقهيّات Philologiques

أي كل ما يُنسب (من دراسات أو مقاربات....) إلى علم فقه اللغة، الذي يُعنى بدراسة اشتقاق المعجم ودلالاته.

مسلّمة Postulat

وهي كلمة تعود إلى علم المنطق وتعني «كل قضية تُسَلَّم منَ الخصم ويبني عليها الكلام لدفعه سواء كانت مسلَّمَةً فيما بينهما، أو بين أهل العلم»

[تعريفات الجرجاني، في المعجم الفلسفي ـ د .جميل صليبا جزء ٢ـ ص ٣٧٢]

علامة كيفية Quali-signe

إنّ «كلّ قوام ماديّ للعلامة هو كيفية: من هذا القبيل الصفات الحسّية كالألوان والأنغام والروائح إلخ...»

[د .عادل فاخوري ـ تيارات في السيمياء ـ ١٩٩٠ـ ص ٥٥]

ومن هذا المنظار، تكون العلامة الكيفية، من حيث اعتبارها وسيلة، على حالٍ خام، تسبقُ استغلالَها في سياقٍ دالٍّ ومرمِّز.

علّة شرعية صعبة Ratio difficilis

العلّة، وفق علم المنطق هي «العلاقة بين السبب والمسبَّب».

[المعجم الفلسفي ـ ص ٦٤٩]

أما العلة الشرعية الصعبة فهي المبدأ الذي يستوجب الاستدلالُ فيه قدراً من الصعوبة، يفوقُ ما يكون عليه مبدأ السبب الكافي، على حَدّ ما وصفه ليبنتز.

مرجعية Reférence

وهي العلاقة التي تكون بين علامة و «مرجعها» (الشيء الواقعيّ من العالم إذ تدلّ عليه).

[غريماس، كورتيس - رموزية - ص ٣١٠]

مرجع Référent

يُقصد بهذا الاسم «كل أشياء العالم «الواقعي» التي تكون كلمات اللغة الطبيعية تعيّنها..»

[غريماس - كورتيس - ص ٣١١]

رجوع (ارتكاس) تسيميّ إلى الوراء Régression infinie sémiosique

ويعني إيكو بهذا المفهوم أَنْ يعاوِدَ القارىء النظر، في صورة استعاديَّة، في دلالاتِ النص أو الخطاب، ساعياً إلى تأويلها تأويلاً سيميائياً أعمق فأعمق، حَتَّى ما لا نهاية لَهُ.

تصوّر Rhema

وهو مفهوم، «يعني به پيرس كُلَّ علامة مفردة أو مركبة لا تصلح أن تكون حُكماً - في تعليل منطقي - بل حداً في الحكم فقط، وهي بالتالي لا تحتمل الصدق ولا الكذب..» [د .عادل فاخوري - تيارات في السيمياء - ص ٦٢]

«من مثل: «أسمر»، والمحمولات المركبة مثل «طويل الشعر»..»

[د .عادل فاخوري.. ص ٦٢]

ماثول Representamen

وهو، لدى المناطقة العرب وپيرس، يعادِلُ «الدالّ» في اللغة السيميائية. والماثول واقع، وفقاً لپيرس نفسه، تركيباً واحداً من تراكيب العلامة الثلاثة: ماثول - موضوع - تعبير

«في حين أنَّ الموضوع هو الأمر الخارجي، أما التعبير (Interprétant) فهو الصورة الذهنية التي تصدر عن المعبِّر..»

[د .عادل فاخوري ـ علم الدلالة عند العرب ـ ص ١٣ـ ١٤]

دور فاعلي Rôle actantiel

أو أَدوار فعلانية، وهي «الحالات الحكائية المتعدِّدة التي يمكن أَنْ يكون فيها الفاعل (Actant) داخِلَ المجرى الحكائي.... وعليه تكون الأدوار الحكائية معتبرة بمثابة فئة (بحسب هلمسلاف)ا هي تشكِّل جذراً تكون عناصرهُ مبيَّنةً من الموقع الذي يمكن أَنْ تتخذه في المجرى الحكائي..»

[غريماس ـ كورتيس ـ المعجم الرموزي ـ ص ٤]

فصامية ـ شكلية Schizomorphe

وتعني أن يكون للعلامة شكلان يدلاّن عليها، في آن معاً.

سميمية Semème

وهي الكلمة، بحسب السيميائية البيرسية وب ـ پوتييه، التي تعني مجموع السيمات التي تنطوي عليهاالعلامةُ الدنيا (Morphème)»

[غريماس ـ كورتيس ـ ص ٣٤٤]

تسييميّ Sémiosique

وهي صفة تطلق على «كلّ علاقة ـ بين الدال والمدلول ـ من شأنها أَنْ تنتج علاماتٍ جديدة». [غريماس ـ كورتيس ـ ص ٣٣٨]

علامة عينية Sin-signe

و «هي إحدى حيثيات الماثول الثلاث: العلامة الكيفية، والعلامة العينية، والعلامة القانونية» ـ وهي تصحّ على الماثول في دلالته التامة على مرجعه، مثلاً: الحجر.

[د .عادل فاخوري ـ علم الدلالة عند العرب ـ ص ١٤]

مدار فرعي Sous-topic

وهو المدار الذي يتفرّع عن المدار الأكبر، الذي يكونُ السياقُ الحكائيُّ قد أنتجَهُ.

منبّه، مثير Stimulus

ويكونُ إمّا «عاملاً طبيعياً يحدث ردود الفعل في كائن حيّ ذي جهاز حِسّي» (المعجم الفلسفي، ص ٤٢٧، جزء ٢)، أو عاملاً مصنوعاً في النسيج الحكائي يحدثُ ردود فعل في قارىء النص، بحسب إيكو، تقتضي استجابات متفاوتة من هذا الأخير (القارىء).

استراتيجية Stratégie

وهي كلمة «مقتبسة من معجم الاحتراب، وتعني، من الوجهة الحكائية، وضع تصاميم وترسيمات حكائية معقدة لمسار الحكاية، والسعي إلى التلاعب بها». [غريماس، كورتيس - ص ٣٥٩]

بُنَى فاعلية Structures actantielles

وهي، بحسب إيكو، البُنَى التي تُستوضَحُ في الخطاب أو النص، والتي تتخذ بمقتضاها الأدوار الحكائية مواقع منتظمة وذات دلالة. وبمعنى آخر، يمكن أنّ تشكّل أدوار الفاعل [Actant،] في النص الحكائي بمجملها بنيَةً أَوْ بُنىً ذات دلالة متفاوتة العمق، وتستوجب التأويل.

جوهر Substance

قال ديكارت: «عندما نتصوّر الجوهر نتصور موجوداً غير محتاج في وجوده إلى شيء آخر غير نفسه..»

[صليبا - المعجم الفلسفي - جزء ١- ص ٤٢٥]

أما إيكو فيعني به عنصراً من عناصر منهجه السيميائي الوصفي، أي ذلكَ القياس النظري الذي يسعه تعيين الخاصّياتِ الجوهرية التي يكون عليها الفاعِلُ في النص والخطاب، وتمييزها من الخاصّياتِ العَرَضيَّة، تَيْسيراً للتأويل.

Sujet

يُستعمل هذا اللفظ على وجوه عدة:

(١) «الذات» بالمعنى المعرفي، وتقابل «الموضوع».

(٢) الموضوع أو الحامل بالمعنى المنطقي، ويقابل المحمول.

(٣) الفاعل أو المُسْنَد إليه بالمعنى النحوي والبلاغي والسردي.

إضافات جملية تركيبية مقيّدة، ضوابط Syncatégorèmatiques

«وهي (الضوابط، أو الإضافات الجملية التركيبية) من الألفاظ التي لا تحيل نفسها على أشياء خارجية والتي تقوم بوظائف نحوية. إن الألفاظ مثل: هو، لِ أو مع ذلك توضع لتحديد موقعها في حقل وظائف نحوية ممكنة..»

[د .حنون مبارك - دروس في السيميائيات - ص ٩٩]

تعاصر Synchronie

وهو مفهوم «كان وضعه «دوسوسور» لوصف مجموع من الوقائع اللسانية التي تشكّل حالة من حالاتِ اللغة..»

[غريماس، كورتيس - ص ٣٧٤]

ومن شأن هذا المفهومِ أنْ يكشف عن ظاهرة التزامن الحاصلة في الأشكال اللسانية الواردة في نصٍ أو خطاب معطى واحد، وتكونُ ذات مدلولات مشتركة أو متصلة من حيث كونها نَسقاً، وتستلزم من المحلّل أو القارىء تظهيرها.

سِسْتام، أو نسق Système

عرَّف «دو سوسُّور» السستام (أو النسق) بأنه المفهوم [الوصفي] الذي يدلُّ على كُلٍّ متناسق [في اللغة، أو في النص] تكون عناصرُهُ متعلقةً بعضها بالبعضِ الآخر..»

[غريماس، كورتيس - ص ٣٨٤]

ثالثية Terceité

أو الثالثية وهي إحدى المقولاتِ الثلاث التي كان ابتدعها بيرس، مقلداً فيها كانط، ومحاولاً بها أنْ يصنّف الأحكام التي يطلقها الإنسان

(المفكر) على ظواهر الوجود والنفسِ والأحداث.

«فمقولة الثالث، على هذا النحو، هيَ حالُ وجود ما يوجد بحد ذاته، من حيث أنه يوقع نسبة بين ثانٍ وثالث» - وتندرج تحت هذه المقولة كل الأشكال والعمليات الذهنية الواعية كالتفكير والمعرفة والتقعيد والاتصال. وعلى رأس هذه الأشكال والعمليات العلامة بالذات، إذ أنها تمثِّل العلاقة الثلاثية على أكمل وجه..»

[د .عادل فاخوري - تيارات في السيمياء، ص ص: ٤٧- ٤٨- ٤٩]

مفردة أو حدّ Terme

خزين Thesaurus

أي ذلك الإطار أو الحاوي الذي تُخزنُ فيه معارفُ الفرد المحلِّل أو القارىء، فيكون عوناً لَهُ في عملية التأويل التي يباشرها على النص.

مدار Topic

وهو المفهوم الذي يعني المجال الدلالي الأكبر الذي تندرج فيه موضوعات الخطاب. والمدار هذا، إذ ينجح القارىء في تعيينه، يتيح تحديد سلسلة الموضوعات الجديرة بالمعالجة أكثر من غيرها، في النص.

تغاير Variance

وهي العملية التي يتمّ وفقَها إنتاج المتغيِّرات وإخراجها من حالِ الكُمون إلى الفعل.

أسماء مكانية، مواقع جغرافية Toponymes

هيئة لازمة Topos, Topoi

ويعني إيكو بهذه الكلمة **الهيئة اللازمة** التي تكون عليها علامة في سياق مؤيّن

متعال، متعالية Transcendantele

وهي صفة اقتبسها إيكو من الفيلسوف كانط، وأراد أن يدلّ بها على ما

يُضَادّ التجريبيّ أو الأمبيريّ، ويكونُ من الصنف الفكريّ اللصيق بالجوهريّ. [المعجم الفلسفي - ص ٢٩٩]

بَيْنَجُمَلية Transphrastique

«وهي صفة تُطلق على اللفظ إذ يتعدّى حدود الجملة الواحدة».

[غريماس، كورتيس - ص ص ٤٠٢- ٤٠٣]

تغاير Variance

وهي العملية التي يتمّ وفقَها إنتاج المتغيّرات وإخراجها من حالِ الكمون إلى الفعل.

متغيّر: Variante

مفهوم يصِفُ به إيكو مقدار التغيّر الدلالي الحاصل في موصوف معيّن وهو عنصر من عناصر سيميائية المؤلف التي يقترحها في الكتاب [القارىء في الحكاية] معتبراً إياها جديدةً بالتقاط كلّ أنواع الخاصّيات التي يكون عليها الشخص [الفاعل] محوَرُ الحكاية.

متغيّر كامن (احتمالي) Variante virtuelle

وهو المتغيّر الذي يكون في حال الإمكان والكمونِ، في هيئة الموصوف.

محتويات الكتاب



القارىء في الحكاية

التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية

إن الدخول إلى عوالـم أمبرتو إيكو، دخول إلى اللامرئي من النص، وبالأحرى اللامتوقع. وبالتالي فهو دائماً إكتشاف جميل يفاجئنا، وحتى حيـن نتوقع ما توقّعه إيكو مرة فإنه سيقدّم لنا توقعاً آخر يفاجئنا، إنه عالـم الاحتمالات التي تضم كل توقعاتنا ولا تقف عند احدها، إنه عالـم يتحرك من موسوعة دنيا (ضعيفة) لدى قارىء إلى موسوعة قصوى (غنية) لدى قارىء آخر، وهنا ندخل في عالـم التوقعات الاستدلالية التي يسميها «نزهات»، في عالـم الاحتمالات. وفي كل ذلك لا يقف شيء مقابل شيء وحتى التوقعات الـمتناقضة لا يلغي واحدها الآخر بل تظهر كاحتمالات ترتبط بفقر أو غنى موسوعة القارىء.

إنه كتاب صعب وسهل، جميل ومتعب، ممتع ومقلق في آن معاً. يتناول هذا الكتاب، آلية التعاضد التأويلي في النصوص التي نحددها حدسياً، بأنها حكائية، لهذا فهو يعالـج ظاهرة الـحكائيّة في النصوص اللفظية باعتبارها موضع تأويل من قارىء معاضد، فيدرس كيف يُصنع النص وكيف تكون كل قراءة له إبانة عن مسار تكويـن بنيته.

فالنص عنده، إن هو إلّا نتاج حيلة نحويّة وتركيبيّة ـ دلاليّة ـ تداوليّة، يشكّل تأوُلها الـمحتمل جزءاً من مشروعها التكويني الـخاص. وأي نص لا يُقرأ بـمعزل عن الاختبار الذي يتولّد لدى القارىء، من مقاربته نصوصاً أخرى (مـماثلة أو مختلفة).


المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان

ص.ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب